المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية

تأليف

حسن قاسم

تصدير

الشيخ علي جمعة

تقديم

مصطفى الفقي

اللجنة العلمية

خالد عزب

محمد الجمل

الجزء الأول

تحقيق

أحمد سالم سالم

مراجعة

محمد أبو العمايم

مكتبة الإسكندرية

٢٠١٧

سلسلة دراسات في الحضارة الإسلامية

رئيس مجلس الإدارة
مصطفى الفقي

المشرف العام
خالد عزب

رئيس التحرير
محمد الجمل

سكرتارية التحرير
حسام عبد الباسط

رضوى زكي

محمود مجلي

الإشراف على المراجعة اللغوية
أحمد محمد شعبان

مدير الإخراج الفني
هاني صابر

الإخراج الفني وتصميم الغلاف
شيرين بيومي

تصميم الخطوط
محمد جمعة

تصوير فوتوغرافي
رامي أبو رية

المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية

الجزء الأول

مقدمة في تاريخ العمارة الإسلامية

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

قاسم، حسن.

المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر و القاهرة المعزية / تأليف حسن قاسم ؛ تصدير علي جمعة ؛ تقديم مصطفى الفقي ؛ اللجنة العلمية خالد عزب، محمد الجمل ؛ مراجعة محمد أبو العمايم. - الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، مركز دراسات الحضارة الإسلامية، ٢٠١٧.

مجلدات ؛ سم. (سلسلة دراسات في الحضارة الإسلامية)

تدمك ٢-٤٣٢-٤٥٢-٩٧٧-٩٧٨

المجلد ١. مقدمة في تاريخ العمارة الإسلامية / تحقيق أحمد سالم سالم-- المجلد ٢. المزارات الإسلامية من القرن الأول حتى منتصف القرن السادس الهجري / تحقيق حسام عبد الباسط -- المجلد ٣. مدارس القاهرة ودور العلم ومزارات القرنين السابع والثامن الهجريين / تحقيق حسام عبد الباسط -- المجلد ٤. المزارات الإسلامية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ومزارات جنوب وشرق القاهرة / تحقيق حسام عبد الباسط، محمود عبد الباسط -- المجلد ٥. المزارات الإسلامية من القرن العاشر إلى أواسط القرن الثاني عشر الهجري وضرائح العظماء والصلحاء / تحقيق شيماء السايح -- المجلد ٦. الخطط الرئيسية لمدينتي القاهرة والفسطاط والمذكرات والنصوص التاريخية / تحقيق أحمد سالم سالم-- المجلد ٧. مشاهد الأشراف والمساجد النسوية والحديثة المستجدة / تحقيق مجدي علوان -- المجلد ٨. الملاحق.

١. العمارة الإسلامية -- مصر. ٢. الحضارة الإسلامية -- مصر. أ. جمعة، علي، ١٩٥٢- ب. الفقي، مصطفى، ١٩٤٤- ج. عزب، خالد، ١٩٦٦- د. الجمل، محمد عبد المنعم. هـ أبو العمايم، محمد. و. مركز دراسات الحضارة الإسلامية. ز. العنوان

ديوي ٧٢٠,٩٦٢ ٢٠١٧٨٤٣٤٩٩

ISBN: 978-977-452-432-2
رقم الإيداع : 2017 /13493

المحتويات

أصول فن العمارة الإسلامية

مخترعات المسلمين في فن العمارة

الفن الإسلامي في عمارة المآذن (تاريخها وتطورها في الإسلام)

الفن الإسلامي في بناء البيوت والغرف والقصور

الفن الإسلامي في بناء القباب

المنابـــر في الإســـلام (تاريخها ونشأتها وتطورها)

نشأة المحراب في المساجد الإسلامية

نشأة المدارس والجامعات الإسلامية الكبرى بالمساجد

فضل بناء المساجد

تصدير الشيخ
علي جمعة

يُعدُّ كتاب «المزارات الإســلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية» - الذي أصدره العلاَّمة حسن قاسم - أوفَى مصدرٍ لتاريخ مســاجد القطر المصري؛ حيث يتناول فيه مزاراتها ومشاهدها وخططها القديمة والحديثة ومعالمها التاريخية والأثرية، بالإضافة إلى تراجم علمائها وملوكها وأمرائها وأنســاب أسرها، نتيجة بحث ومشــاهدات واكتشافات وتحقيقات علمية وقف عليها ورتَّبها ودوَّنها الشريف حســن قاســم في أعوام وســنين طويلة حتى نهاية حقبة الستينيات من القرن العشرين.

مؤلف هذا الكتاب هو الشريف السيد حسن قاسم، المغربي الأصل المصري النشأة. حاصل على إجازة تدريس «دكتوراه» في العلوم العربية من جامعة الزيتونة بتونس، وعمل في بداية مشواره العلميِّ محررًا بجريدة الإسلام (١٩٣٢م)، ثم محررًا بقسم التاريخ بمجلة هدي الإسلام، ثم رئيسًا لتحريرها (١٩٣٤م)، وقدَّم من خلالها ما يزيد عن مائة وأربعين مقالاً تتناول معالم ومزارات القاهرة الإســلامية، وكانت النواة التي بنى عليها كتاب المزارات. كما تولى منصب مدير معهد الدراسات الأثرية الإســلامية بالقاهرة، وأصدر الطبعة الأولى من كتاب «المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية» في عدة أجزاء، انتهت بعام (١٩٤٥م) في نسخ محدودة العدد؛ نتيجة عدم توافر الورق اللازم للطباعة لظروف الحرب العالمية الثانية.

ولــمَّا كان كتاب «المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية» أوفى مصدر لتاريخ مساجد القطر المصري؛ لذلك رأى حسن قاسم حاجة ذلك الإصدار إلى إعادة تأليف نسخة جديدة، زاد فيها وأضاف العديد من المزارات والآثار، وكذا صحَّح العديد من الأخطاء، ورجَّح كثيرًا من الآراء حول تراجم الشخصيات ونسبة بعض الآثار خطأً إليهم، بالإضافة إلى تحديده لمواقع دقيقة لكثيرٍ من الآثار المندرسة التي ذكرها الرحَّالة أو المؤرخون، وكذلك الآثار التي أغفلوها، وذلك في عام (١٩٦٤م)، حيث أضاف اثنتي عشرة ملزمة جديدة لمؤلفه القديم، إلا أن المنية قد عاجلته فلم يُكتب لهذا الكتاب أن يُنشر؛ وظل محفوظًا بخط

يد المؤلف في مكتبة الأسرة حتى استطعتُ الحصول على هذه النسخ القيمة، بعد أن ظل دارسو حضارة الآثار الإسلامية يبحثون عنها طويلاً؛ لما تتضمنه من معلومات قيمة، اختبأت بين طيات هذه المجلدات القيّمة بخط العلاَّمة حسن قاسم.

لقد أعاد حسن قاسم تقسيم الإصدار الجديد من كتاب المزارات الإسلامية والآثار العربية إلى سبعة أجزاء؛ تناول في الجزء الأول مقدمةً عن تاريخ الفن والعمارة الإسلامية، تطرَّق فيها بالشرح والوصف لأهم عناصر العمارة الإسلامية من مآذن وقباب ومحاريب. يليه الجزء الثاني، الذي تناول فيه الآثار الإسـلامية المبكرة؛ مثل جامع عمرو أقدم مساجد مصر الإسلامية، وجامع أحمد بن طولون درة العمارة الإسلامية، وكذلك المساجد الفاطمية في القاهرة وأسوان والصعيد والإسكندرية وسيناء، وقسَّمها بترتيب زمني وفقًا لتولي الخلفاء والوزراء العظام؛ أمثال المستنصر وبدر الجمالي وابنه الأفضل، ثم أُدمِج معها دراسة عن المقياس والقلعة الصلاحية، والقصور والفنادق والرباع والسقايات (الأسبلة)، والحمامات والمدارس ودور العلم.

ثم تناول في الجزء الثالث نشأة المدارس العلمية بالقاهرة ودور العلم بها، وقد أتبعناها بالمزارات والآثار المنتمية للقرنين السابع والثامن الهجريين، بدايةً بآثار الدولة الأيوبية والمملوكية البحرية حتى بداية دولة المماليك الجراكسة.

واشتمل الجزء الرابع على مزارات القرنين التاسع والعاشر الهجريين، وما استجد من مساجد وجوامع خلال عصر دولة المماليك الجراكسة، وأتبعناها بملحق عن آثار ومزارات قرافة المماليك بجنوب وشرق القاهرة.

في حـين خُصّص الجزء الخامس لعرض مزارات الفترة العثمانية، بدايةً من النصف الثاني للقرن العاشر الهجري حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري، وأُتبِع بملحق عن مزارات العظماء والصالحين بمدينة القاهرة.

أما الجزء السادس ففيه عرض شامل لمساجد قديمة ومندثرة بخطط القاهرة القديمة والفسطاط، مع ملحق للمذكرات التاريخية لبعض الآثار المندثرة. في حين جاء الجزء السـابع مشـتملاً على المسـاجد النسـوية الحديثة، والمساجد الحديثة والمسـتجدة التي أقامتها وزارة الأوقاف المصرية خلال القرن العشرين، ومشـاهد الأشراف المسـجلة بأسوان والقاهرة، ومشاهد الأشراف غير المسجلة. وتضمن الجزء الثامن الفهارس والخرائط والمراجع.

وقد عهدتُ إلى الدكتور خالد عزب بالقيام بنشر كتاب المزارات الإسلامية بمكتبة الإسكندرية؛ لما له من خبرة في نشر كتب التراث، ولأهمية مكتبة الإسكندرية في طباعة هذه النوعية من الكتب المتخصصة والنادرة لذلك أتوجه إليه بالشكر، وجزيل الشـكر والتقدير للدكتور مصطفى الفقي مدير مكتبة الإسـكندرية، والدكتور إسماعيل سراج الدين المدير السابق لمكتبة الإسكندرية على ما بذلاه في نشر هذه المجلدات القيمة.

واللهُ وليُّ التوفيق.

الشيخ علي جمعة

تقديم

د. مصطفى الفقي

بين يدَي القارئ موســوعة «المزارات الإســلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية» من تأليف الأستاذ حسن قاســم في ثمانية مجلدات، وتُعَدُّ أول موسوعة شاملة تصدر للآثار الإسلامية في القاهرة. وتخطو مكتبة الإسكندرية بإصدار هذه الموســوعة خطوات جــادة نحو مرحلةٍ جديدة في مشروعها للنشر، تعتمد على نشر تــراثٍ كاد يغيب في غياهب ظلمات اللامعرفة، وتستعيد بها تراثًا يحبه المصريون ويرونه مجسِّدًا لحبهم لآل بيت النبي وأولياء الله الصالحين، تراثًا يعبِّر عن تطور العمارة الإسلامية في مصر عبر مراحله التاريخية.

هكذا تعبِّر هذه الموســوعة عــن مراحل التاريخ الوطني من الفتح الإســلامي إلى عصور الطولونيين والإخشــيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وصولاً إلى عصر أسرة محمد علي وحتى أواخر الســتينيات من القرن الماضي؛ ويتضح ذلك في التسلســل التاريخي لبناء مســاجد القاهرة. وهذا التناول في دراســة أثرية وعمرانية وتاريخية للمساجد والمدارس والمشاهد والزوايا والأضرحة، وما تحتويه من عناصر معمارية؛ كالقباب والمآذن والعقود، وعناصر زخرفية ونقوش كتابية بروائع الخط العربي، مع دراســات تفصيلية للتطور العمراني للمواقع التاريخية والأحياء والشوارع والأسواق وغيرها، منذ الفتح الإســلامي وعبر العصور التاريخيــة المختلفة. وقد حرص المؤلف على ربط طبوغرافيــة مدينة القاهرة وتطورها العمراني بالمنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات وقصور ومنازل، وغيرها من آثار القاهرة الإسلامية.

وتضمنت الموســوعة كذلك عرضًا مفصلاً لتراجم الحكام من سلاطين وأمراء، وشرحًا لمنجزاتهم المعمارية التي ازدانت بها أحياء القاهرة الإسلامية وأرجاء القطر المصري، وضمَّن المؤلفُ - وتبعه المحققون -هذه الموسوعة الشاملة تراجم للعلماء وأنسابهم المختلفة من خلال بحث وتدقيق في المصادر التاريخية وكتب الأعلام والتراجم.

وقــد عهدت المكتبة إلى فريق عمل مــن المحققين المتخصصين من داخل مكتبة الإســكندرية وخارجها من وزارة الآثار، ومن أقســام الآثار الإســلامية بالجامعات المصرية، للقيام بتحقيق هذه الموسوعة وتجهيزها للنشر، واستمر العمل بها عدة سنوات من العمل في تدقيق نص المؤلف المطبوع في الأربعينيات من القرن الماضي، والنص المخطوط الذي تركه المؤلف ولم يُنشر من قبل، وقد تابع المحققون بجدية تدقيق وتحقيق ما ورد بالموســوعة من مواقع تاريخية ومنشآت معمارية وتراجم أشخاص من حكام وأمراء وعلماء، والتعريف بالأشخاص والأماكن والمواقع التاريخية وما طرأ عليها حتى الوقت الحاضر، وتتبُّع ذلك من خلال كتب الخطط والمؤلفات العربية الحديثة والأجنبية التي تناولت تاريخ وحضارة مصر الإســلامية. وقد حرص المحققون على إضافة صور توثيقية للآثار، ســواءٌ قديمة وحديثة، وكذا خرائط توضيحية لتخرج الموسوعة في صورة متكاملة.

من أجل ذلك، تُعد موســوعة المزارات الإســلامية بأجزائهــا المتعددة إضافةً علميةً قيمةً، تضــاف إلى جهود مكتبة الإســكندرية في نشر التراث التاريخي والفني والمعماري في مجال الحضارة الإســلامية؛ وذلك للحفاظ على القيمة الحضارية، وتوثيقًا لها حتى لا تتعرض للهدم والإهمال وســوء الاســتخدام، وليتم الحفاظ عليها وحمايتها وإعادة توظيفها لكونها تشكل مكونًا رئيسيًّا من ذاكرة وحضارة وطننا الغالي، الذي يجب علينا جميعًا أن نتعاون للحفاظ على تراثه والنهوض به.

ويجيء ذلك في ظل توجهات مركز الحضارة الإسلامية بمكتبة الإسكندرية، الذي وُضِعت له خطة طموحة لإبراز روح الحضارة الإســلامية عبر الأزمنة ومن خلال الأمكنة وبالتنقيب في نصوص تراثنا المجهولة، وسيرى القارئ ذلك في كتاب «العمارة الإســلامية في اليونان» وكتاب «الفن الإســلامي في الصين» وكتب التراث العلمي العربي التي يصدرها المركز؛ فهذا مركز أُطلِقت برامجه لتكون مرجعًا للباحثين من كل أنحاء العالم في التراث العربي الإسلامي.

وختامًا، يُسعدني أن أقدِّمَ الشكرَ إلى فضيلة الدكتور علي جمعة؛ مفتي الديار المصرية السابق على إعارته نسخته المخطوطة من موســوعة المزارات الإســلامية، ومساهمته ومؤسسة مصر الخير مع مكتبة الإســكندرية في نشر هذه الموسوعة. وأتوجه بالشــكر أيضًا إلى الســادة المحققين على ما بذلوه من جهد، وإلى قطاع المشروعات والخدمات المركزية بالمكتبة، وإلى مركز دراسات الحضارة الإسلامية؛ على حسن انتقائهم للأعمال التي تُنشر في سلسلة «دراسات في الحضارة الإسلامية».

الأستاذ الدكتور مصطفى الفقي

مدير مكتبة الإسكندرية

تقديم اللجنة العلمية

الأســـتاذ حسن محمد قاسم المغربي الأصل، المصري المولد والنشـــأة (١٣١٨-١٣٩٤هـ/ ١٩٠٠-١٩٧٤م)[١]، وردت ترجمته في معجم النسابين: المؤرخ النسابة مؤلف كتاب «المزارات الإسلامية والآثار العربية» المطبوع في ستة أجزاء، ومدير مجلة هدى الإســـلام، وله مقالات فيها، وفي مجلة الإسلام. وقد كتب الإمام الكوثري إجازة على التحرير الوجيز جاء في الصفحة ٤ منها: «وممن اســـتجازني الأستاذ البارع السيد حسن قاســـم صاحب المؤلفات الممتعة، كان الله له حيثما يكون ورعاه في كلِّ حركة وسكون». وفي الصفحة ٤٦ كتب الإمام الكوثري بخطه: «كتبه المجيز الفقير محمد زاهد الكوثري يوم الخميس ٢ ذي القعدة سنة ١٣٦٣هـ»[٢]. وقد أشار إلى هذه الإجازة العلامة الزركلي في كتابه الأعلام[٣].

وقد رحل والده إلى مصر، وصار من أعلام الطرق الصوفية في القاهرة، وقد توفي في (٣ شعبان ١٣٣٢هـ/ ٢٧ يونية ١٩١٤م)، ودفن في بستان العلماء بقرافة باب النصر[٤]، ويصل نسبه إلى الإمام الحسين بن علي رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا عن طريق أمه السيدة نبيهة بنت السيد علي الكرارجي الحسيني المتوفاة في (١٦ رمضان ١٣٥٣هـ/ ٢٣ ديسمبر ١٩٣٤م)[٥].

---

(١) محمد بن عبد الله الرشيد، **معجم النسابين من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر**، دار الفتح، د.ت، ص١٤٤-١٤٥؛ محمد بن عبد الله الرشيد، **الإمام الكوثري وإسهاماته في علم الرواية والإسناد**، دار الفتح، ٢٠٠٩م، ص ١٥٦.

(٢) محمد الرشيد، **الإمام الكوثري**، ص ١٥٦.

(٣) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٦، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٢٩.

(٤) علي بن أحمد السخاوي الحنفي، **تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات**، قام بتصحيحه ومراجعته والتعليق عليه: محمود ربيع وحسن قاسم، الذخائر (٢٢٥)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ط، ٢٠١٤م، الحاشية ص ٥٦، ٥٩.

(٥) السيد حسين محمد الرفاعي، **نور الأنوار في فضائل وتراجم وتواريخ ومناقب ومزارات آل البيت الأطهار**، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص ٦٧-٦٨.

ومن ناحية أبيه ينحدر من أسرة علمية مشهورة بالمغرب العربي، من أعلامها محمد بن عبد القادر الكوهن (ت ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م)[١]، ومحمد بن قاسم الكوهن الفاسي (ت ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م)[٢]، والحسن بن محمد بن قاسم الكوهن (ت ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)[٣]. وقد ذكر أنَّ عمه الشيخ فتح الله بناني مؤلف كتاب «مولد خير البرية» [المتوفى عام (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م)]، ونعتْه مجلة هدى الإسلام. ولذلك فقد نشأ في بيت علم، وقد أثر ذلك في بناء شخصيته، وجاء إنتاجه متميزًا بالحصافة والرصانة العلمية، وبالإضافة إلى موسوعته التي بين يدي القارئ، فقد أسهم الأستاذ حسن قاسم بإثراء المكتبة العربية بالعديد من الكتابات ما بين تأليف وتحقيق وتعليق، ومنها الآتي:

١- **ذيل تاريخ الجبرتي**، وهو موسوعة لأعلام التاريخ المصري في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديين (تحت الطبع بمكتبة الإسكندرية بالتعاون مع مركز الملك فيصل).

٢- **السيدة زينب وأخبار الزينبات**، وطبعه في ثلاث طبعات، في سنوات ١٩٢٩م، و١٩٣٣م، و١٩٣٤م.

٣- **تاريخ الجندية الإسلامية ونظام العسكرية الحربية والبحرية في مصر والعالم العربي من فجر الإسلام إلى القرن الرابع عشر**، الصادر عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

٤- **أعلام السائلين عمن أقبر بمصر من صحابة سيد المرسلين**، طبع بالقاهرة عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣٠م.

٥- تحقيق كتاب السخاوي، **تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات**. القاهرة: مطبعة العلوم والآداب، (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٧م).

وقد بدأ حسن قاسم حياته العملية محررًا بجريدة الإسلام عام (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، ثم التحق محررًا بقسم التاريخ وسكرتيرًا لمجلة هدى الإسلام عام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، ومراقبًا عامًّا لرابطة هدى الإسلام (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، ثم أصبح مديرًا لمجلة هدى الإسلام عام (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م). وقد أشار في مقدمة كتابه المزارات الإسلامية إلى حصوله على دكتوراه إجازة تدريس في العلوم العربية من جامعة الزيتونة، وأنه مدير معهد الدراسات الأثرية الإسلامية بالقاهرة[٤].

وقد نشر من خلال مجلة هدى الإسلام عشرات المقالات في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، تتناول معالم القاهرة الإسلامية ومزاراتها. وهو يعد من طليعة المؤلفين المسلمين الذين اهتموا بدراسة الآثار الإسلامية والتطور العمراني لأحياء القاهرة الإسلامية منذ نشأتها إلى عصر المؤلف في ستينيات القرن الماضي. ويستكمل بهذا الجهد بتأليفه لموسوعة

---

(١) عبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٢٨٩.

(٢) الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي، **طبقات الشاذلية الكبرى**، وضع حواشيه: مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٢٠٧.

(٣) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ٢/ ٢٢١.

(٤) حسن قاسم، **المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية**، ج١، مطبعة مجلة هدى الإسلام، القاهرة، ١٩٤٠م، ص ١.

المزارات الإســـلامية جهود أوائل المؤرخين الذين اهتموا بمعالم مصر الإسلامية وخططها ومزاراتها وأحيائها وشوارعها، مثل: «مرشـــد الزوار إلى مقابر الأبـــرار» لموفق الدين بن عثمان الشـــافعي (ت ٦١٥هـ/ ١٢١٨م)، و«الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة» لابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)، و«الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة» لابن الزيات (٨١٤هـ/ ١٤١١م)، و«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف للمقريزي (٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، و«تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات» للسخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، و«حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» للسيوطي (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، و«الكوكب الســـيار إلى قبور الأبرار» لعلي بن جوهر الســـكري، و«الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة» لعلي مبارك (١٣١١هـ/ ١٨٩٣م).

وتُعد هذه الكتب المذكورة النواة التي بنى عليها موســـوعته «المزارات الإســـلامية والآثـــار العربية في مصر والقاهرة المعزيـــة» في عدة أجزاء بدأها عام (١٩٤٠م)، وانتهت بعام (١٩٤٥م) في نســـخ محدودة العدد. وصدرت عن مطبعة مجلة هدى الإســـلام كالتالي: الجزء الأول المدخل وهو مقدمة في علم الآثار عام (١٩٤٠م)، والجزء الثاني تم طبعه في عام (١٩٤٠م) وتناول مزارات مصر منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الفاطمي، والجزء الثالث صدر عام (١٩٤٢م) وتناول مزارات العصر الأيوبي وعصر المماليك البحرية؛ أما الجزء الرابع فتم طبعه في عام (١٩٤٢م) وهو تكملة عصر المماليك البحرية وبداية الجراكســـة، وطبع الجزء الخامس في عام (١٩٤٤م) وتناول مزارات عصر المماليك الجراكســـة، وصدر الجزء السادس عام (١٩٤٥م) وتناول مزارات العصر العثماني.

ولأهمية موضوع الكتاب وصدوره في طبعات محدودة، رأى المؤلف حســـن قاسم إعادة تنسيقه والزيادة فيه مرة أخرى، وأضـــاف العديد من المـــزارات والآثار، وصحَّح العديد من الأخطاء، وأعاد تقســـيم الإصدار الجديـــد من كتاب المزارات الإســـلامية والآثار العربية؛ الذي واصل الكتابة فيه حتى أوائل سبعينيات القرن الماضي. وعند الشروع في تحقيق الموسوعة كاملة تم دمج أجزاء الطبعة القديمة من موســـوعة المزارات في خمســـة مجلدات مضافة إليها زيادات وتعليقات المؤلف كما وضع ملحقًا في نهاية الجزء الخامس عن مساجد العظماء الصالحين، أما الجزءان السادس والسابع فقد تركهما المؤلف نسخة خطية لتكتمل موسوعته بهما.

وقد نَعَتَ المؤلف حسن قاسم كتابه هذا بأنه أوفى مصدر لتاريخ مساجد القاهرة والقطر المصري ومزاراتها ومشاهدها وخططهـــا القديمة والحديثة ومعالمها التاريخيـــة والأثرية وتراجم علمائها وملوكها وأمرائها وأنســـاب أسرها، نتيجة بحث ومشـــاهدات واكتشـــافات وتحقيقات علمية، وقف عليها ورتبها ودونها في أعوام وســـنين طويلة. هكذا، ومن خلال هذا الوصف الذي ذيَّل به العنوان ندرك مدى أهمية كتاب المزارات الإسلامية بأجزائه المتعددة.

وخصص المؤلـــف **الجزء الأول** كمقدمة في تاريخ العمارة الإســـلامية، حرص فيه على التمهيد لما ســـيتناوله في عموم الكتاب من دراســـة لآثار القاهرة الإســـلامية؛ وذلك من خلال العودة إلى أصول العمارة والفن الإسلامي، متناولًا مساجد الإســـلام الأولى وطرق بنائها وتوسعتها والنظريات التي تتناولها بالبحث والدراســـة، لا سيما المسجد النبوي. وتطرق لأهم

العناصر المعمارية في الإسـلام، ومن أهمها المآذن التي اسـتفاض في شرحها والحديث عنها وعن اختلاف أشـكالها وتطور أطرزتها في العالم الإسلامي. وتناول القبة الإسلامية ونشأتها وتطور عناصرها وأنماطها، والتأثير والتأثر في أطرزة بنائها. ومن داخل المسـجد تناول المنابر واختلاف خامات صنعها بين الخشب والحجر والرخام، وهيئاتها وزخرفتها في مختلف الأقطار الإسلامية، فضلاً عن المحاريب ونشأتها وتطور أشكالها.

وأما **الجزء الثاني** فيتضمن تخطيط المساجد والمدارس والقباب والمشاهد الأثرية وحواضر مصر الإسلامية من الفسطاط إلى القاهرة ونشأتها عبر القرون، بدايةً من القرن الأول إلى منتصف القرن السادس الهجري. فيتناول بالتفصيل نشأة جامع عمرو بن العاص بالفسـطاط ويعرض أهم المراحل التاريخية التي مر بها أقدم مسجد بإفريقيا، مع تناول للجهود المبذولة في ترميم المسـجد وتجديده عبر العصور، وكيف كان المسجد أقدم جامعة علمية في مصر، ثم يتناول التطور العمراني لعواصم مصر الإسـلامية بدايةً من الفسطاط ومرورًا بحواضر مصر الإسـلامية، والمشروعات الحديثة التي أولتها الدولة اهتمامًا في سـتينيات القرن العشرين لتطوير معالم القاهرة القديمة؛ مع وضع لأسـس تخطيط عمراني لمدينة جديدة تكون مجاورة للمدينة الأثرية. بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الحديث عن جامع أحمد بن طولون أقدم مساجد مصر الباقية على حالتها الأثرية، فصحح ما علق به من روايات آراء المستشرقين الأوائل الباحثين في علم الآثار، مثل كريسويل وهرتسفيلد، وناقش رواياتهم حول الأصول المعمارية والتخطيط للجامع ومئذنته الملوية، ثم عرض بشكل مسهب تاريخ عمارة الجامع والإصلاحات التي تمت فيه وأهم مشاريع تطويره وترميمه، وما قامت به لجنة حفظ الآثار العربية من أعمال حفظ وترميم للمسجد.

ثـم تناول المؤلف عمارة الجامع الأزهر درة عمارة الفاطميين في مصر؛ حيث زاد المؤلف ملزمة جديدة على النسـخة الأصلية من الكتـاب قام فيها بتنقيح بعض ما ورد في الكتاب الأصلي وأضاف إليـه الدور العلمي للجامع، وكيف أنه كان جامعة كـبرى لمختلف العلوم على مر العصور. وأضاف بعدها المؤلف فصلًا كامـلًا عن تطور القاهرة العمراني من عصر الفاطميـين إلى عصر الملك فاروق، تلاها بمذكرة فريدة عن قلعة الجبل. وتناول أيضًـا التخطيط العمراني للدُّور والقصور الأثرية بالقاهرة؛ حيث تناول بالشرح والوصف قصور المماليك والعثمانيين الباقية بالقاهرة حتى وقتنا الحالي مثل دور أيتمش البجاسي، وقوصون، وبشتاك، ويشبك، ومنجك اليوسفي، والأشرف قايتباي، والكريتلية والذهبي والسحيمي، والمقاعد مثل مقعد ماماي وقايتباي، وسراي المسـافرخانه، والسِّناري، ثم تناول الوكالات والخانات والرباع والأسبلة والحمامات؛ ثم عاد لاسـتكمال الحديث عن المنشآت الفاطمية في تقسيم زمني حسب منشـآت الخلفاء الفاطميين والوزراء العظام بدايةً من عصر الحاكم ثم المستنصر وبدر الجمالي والأفضل والفائز والآمر بأحكام الله والصالح طلائع.

تطـرَّق المؤلف في **الجزء الثالث** إلى عمارة المدارس ونشـأتها في العصر الإسـلامي على اختلافها وتنوعها وما بقي منها وما اندثر، وأصولها المعمارية وتخطيطها وأنظمة بنائها في مصر وخارجها من بلدان العالم الإسـلامي. وقد قام المؤلف بإضافة مجموعة كبيرة من المدارس المملوكية في تعديله الأخير في الستينيات من القرن العشرين، فقمنا بإضافتها إلى النص الأصلي،

ثم عرض المؤلف لأهم المزارات الإسـلامية في القرن السابع الهجري من نهاية عصر الدولة الأيوبية ومنشآت الناصر محمد ابن قلاوون وأمرائه، مرورًا بالسلطان حسن، وانتهاءً بزمن الظاهر برقوق وبداية عصر المماليك الجراكسة.

وتناول في **الجزء الرابع** المزارات الإسـلامية من القرن التاسع إلى منتصف القرن العاشر الهجري. فيسهب المؤلف في شرح عمارة المماليك الجراكسـة بداية من عصر الناصر فرج بن برقوق مرورًا بعصر المؤيد شيخ والأشرف برسباي والظاهر جقمق وعصر الأشرف قايتباي وانتهاءً بعصر الغوري، ثم أضاف إلى هذا الجزء من الموسـوعة ملحقًا عن منشـآت القرافة الكبرى الشـمالية والجنوبية ومنشـآت صحراء المماليك على اختلاف عصورها بدايةً من عصر المماليك البحرية وانتهاءً بالعصر العثماني مع إبراز أهم عمائرها الأثرية مثل خانقاه قوصون ومدرسـة الأشرف قايتباي وخانقاه فرج بن برقوق وقبة إينال وقرقماس ومشاهد ومقابر الأئمة والمشايخ والمماليك والباشوات حكام مصر في العصر العثماني. وكان المؤلف قد تركها مخطوطة ولم يتم نشرها. واختار المؤلف أن يقسم هذا الجزء بترتيب مكاني يخالف ما بدأه من تسلسل زمني من أول الكتاب؛ فتناول تقسـيمًا جغرافيًّا اقتضته الضرورة العلمية والمكانية لمجموعة من أبرز منشآت العمارة الإسلامية بصحراء المماليك التي تضم بين جنباتها أروع الأمثلة.

وعرض في **الجزء الخامس** مزارات القرن العـاشر الهجري حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري، وما أقامه الولاة العثمانيون من منشـآت في مصر مثَّلت قمة وروعة الفن العثماني الوافد إلى مصر والممـزوج بأصولها المعمارية التقليدية؛ فأخرجت طرازًا فريدًا من كلِّ هذه المؤثرات؛ والأصول المعمارية مثلت مميزات هذا العصر بدايةً من منشـآت سـنان باشا، والملكة صفية والبرديني والتجديدات التي حدثت بالعديد من المساجد المملوكية وتجديدات عبد الرحمن كتخدا ومنشآت أبي الدهـب، وأضفنا إليها ملحقًا عـن بعض أضرحة العلماء والصالحين المدفونين بجبانة بـاب الوزير وباب النصر، وضعه المؤلف من ضمن مجموع الإضافات التي خطها بيده في تعديلاته على النسخة الأصلية لكتاب المزارات.

أما **الجزء السادس** فللخطط الرئيسية لمدينتي القاهرة والفسطاط، وقد تركه مخطوطًا. وتناول فيه بشكل تفصيلي خطط القاهرة عن طريق مواقع مساجدها. فبينما نجد المقريزي يقسم كتابه «الخطط» ما بين تاريخ وذكر للمواقع مفصلة في أقسام، كلُّ قسـم فيها يشتمل على نوع معين من المنشآت أو الخطط، مثل الجوامع والمساجد والحارات والأسواق والأبواب والقصور والمنازل والحمامات والخانات، نجد المؤلف هنا يتناول خطط القاهرة عن طريق ذكر أهم مسـاجدها مُعَنْوَنَة، ثم يتطرق من خلال موقع هذا المسـجد إلى الخطة والحي كله، فيتناول تطور المكان والتغيرات التي طرأت عليه، ومن ثم المسـجد وتاريخ إنشـائه وتطويره وأوقافه، فضلًا عن منشـئه والقائمين عليه. ومن خلال هذه الطريقة اسـتطاع أن يغطي خطط القاهرة والفسطاط تقريبًا.

وأتى **الجزء السابع** متناولًا فيه مشاهد الأشراف والمساجد النسوية والمساجد الحديثة المستجدة، ومنشآت آل البيت في مصر مثل قباب الأضرحة بأسـوان ومشاهد الأشراف في القاهرة مثل أضرحة آل طباطبا ويحي الشبيه والحصواتي وأم كلثوم والمشـهد الحسيني والإمام الشافعي والسادات الثعالبة وقبة الخلفاء العباسيين ومشهد السيدة زينب والسيدة فاطمة النبوية

والســـيدة سكينة والسيدة نفيســـة وغيرهم من آل البيت؛ ثم تناول المؤلف المساجد النســـوية الحديثة التي قامت بإنشائها الســـيدات من الأسرة العلوية، وغيرهن من ســـيدات المجتمع في تلـــك الفترة، ثم أتبعها بمجموعة من المســـاجد الحديثة المســـتجدة التي قامت وزارة الأوقاف بإنشائها في مطلع القرن العشرين بالمعادي وحلوان ومصر الجديدة والزمالك، وانتهاءً بجامع الزعيم جمال عبد الناصر؛ وبه اختتم المؤلف موسوعته العلمية القيمة.

وجـــاء **الجزء الثامن** إضافة لموســـوعة المؤلف متضمنًا فهارس الكتاب، والخرائط، وســـجلًّا بأســـماء المزارات والآثار الإسلامية من خلال أرقامها المســـجلة بهيئة الآثار والمسار الزمني للمزارات مع ترتيب الأسر الحاكمة التي تناولها المؤلف في موســـوعته، بالإضافة إلى خرائط توضيحية للتطور العمراني للقاهرة الإسلامية، ثم قائمة المراجع والمصادر التي رجع إليها المحققون؛ لأن الكتاب الأصلي لم يتضمن لوحات أو صورًا توضيحية أو خرائط.

وفي إطار سياسة مكتبة الإسكندرية في نشر التراث والثقافة الإسلامية، فقد أسند تحقيق هذا العمل إلى مركز الحضارة الإســـلامية بالمكتبة ليراجع وينقح ويرتب حتى يخرج بأفضل صورة له. ونظرًا لكبر حجم الموســـوعة وتعدد أجزائها، وتنوع موضوعاتها، وتغطيتها فترة زمنية طويلة؛ ورغبة في إصدارها ونشرها وإخراجها إلى النور، حتى يســـتفيد منها الباحثون، فقد عُني بتحقيقها والتعليق عليها مجموعة من الباحثين الأكاديميين المتخصصين في الآثار الإسلامية.

هذا، وقد اســـتوجب الكتاب تحقيقًا دقيقًا لكونه مخطوطًا، كتبه مؤلفه على مدى ســـنوات، فأضاف وحذف وغيَّر فيما يحويه بما يتناســـب مع ما يتوصل إليه من جديد المعلومات، لذا جاءت بعض أجزاء الكتاب متفرقة لا يضمها غلاف، وهو ما كان ســـيؤدي إلى التباس كبير لولا أن تدارك ذلك المؤلف نفسه بوضع فهرس جمع فيه موضوعات كلِّ جزء مُعَنْوَنَة ومرتبة حســـب الترتيب الأبجدي، فحاولنا في التحقيق السير على منهج المؤلف ليخرج الكتاب كما ارتآه، وما يلزم ذلك من توخي الدقة في النقل عن المخطوط، خاصة فيما يخص كتابة أسماء الأماكن والأعلام التي كتبها المؤلف بأشكال مختلفة في بعض الأحيان نظرًا لطول فترة تأليفه وكثرة ما ورد فيه.

أما عن تعليقات الحواشي، فقد رجع المحققون إلى ما يمكن الرجوع إليه خاصة من المصادر والكتب العربية القديمة منها والحديثة لمقارنة المعلومات التاريخية الواردة وإثباتها وتصحيح المغلوط وإكمال الناقص، هذا فضلًا عن تحديث الكثير مـــن المعلومات التي تغيرت بمرور الزمن، لا ســـيما ما يخـــص طبوغرافية المدينة والحال التي آلت إليها مبانيها وشـــوارعها وأحياؤها وبيان ما اندثر منها. أما التراجم فشـــغلت حيزًا لا بأس به من هذه الحواشي؛ إذ كان الكثير من أســـماء الأماكن والأعلام التي أشـــار إليها المؤلف في حاجة لبيان أو تفصيل، وهو ما دفعنا إلى الرجوع لكتب التراجم العربية الشهيرة حتى الحديث منها، هذا غير المعاجم الجغرافية التي تترجم للبلدان والمواقع، وكتب الخطط التي ترصد التطور والتغيير، فضلًا عن الدراســـات العربية الحديثة والأجنبية التي تناولت تاريخ مدينة القاهرة مـــن الناحية التاريخية والعمرانية. وجميع الحواشي والتعليقات من إعداد المحققين، عدا التي أُشير إليها بالمؤلِّف حسن قاسم، أو للمراجع محمد أبو العمايم.

هذا، وقد خلت النسـخ التي تركها المؤلف من الصور واللوحات والخرائط؛ لهذا أضيفت مجموعات كبيرة منها تتناسب مع طبيعة الكتاب وزمن تأليفه؛ فاستعين بمجموعة ألبومات قديمة للآثار الإسلامية خاصة بالملك فاروق تحتفظ بها مكتبة الإسكندرية، وهي لوحات نادرة توثق لكثير من الأماكن والمنشآت المعمارية في القاهرة، بالإضافة إلى ذلك استعين بمجموعة اللوحات والصور التوثيقية النادرة للجنة حفظ الآثار العربية، وأرشيف هيئة الآثار المصرية ووزارة الأوقاف، ومجموعات الصور النادرة الملحقة بالمؤلفات الأجنبية؛ خاصة كتاب وصف مصر، ومؤلفات كيبالد كريسويل، وجاستون فيت، وهوتكير، وقد أُشير إلى كلِّ ذلك في جميع أجزاء الموسوعة.

وختامًا، يتقدم مركز دراسات الحضارة الإسلامية بمكتبة الإسكندرية- الذي أشرف على صدور موسوعة المزارات الإسلامية- بالشكر إلى الشيخ الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية السابق على إهدائه نسخة المؤلف المخطوطة من موسوعة المزارات الإسلامية لمكتبة الإسكندرية، وإلى السادة المحققين على ما بذلوه من جهد وصبر ودقة في تحقيق الموسوعة، وإلى الدكتور محمد أبو العمايم الذي قام بمراجعة أجزاء الموسوعة وإضافة تعليقاته عليها، وإلى وحدة الببليوجرافيا بالمكتبة على مراجعة التعليقات والحواشي، وإلى إدارة النشر بمكتبة الإسكندرية ومديرتها الأستاذة نهى عمر؛ ونخص بالذكر الأستاذة شيرين بيومي التي قامت بتصميم الموسوعة وإخراجها، بإشراف من الأستاذ هاني صابر والأستاذة جيهان أبو النجا، وخالص الشكر والتقدير أيضًا للأستاذ أحمد شعبان كبير المراجعين اللغويين بالمكتبة؛ إذ أشرف على مراجعة الموسوعة بكلِّ دقة وإتقان؛ فكان لملاحظاته وتصويباته الأهمية البالغة في تصويب النص من الناحية اللغوية.

والله ولي التوفيق!

اللجنة العلمية

خالد عزب　　محمد الجمل

مقدمة المؤلف

لا ريب أن جوامع القاهرة ومساجدها أغرب ما جادت به قريحة بني العالم الإسلامي من الأبنية، وأكثرها في أنحاء الشرق عمومًا، كما أنه لا مشاحّة في أن مدينة القاهرة هي أم الجوامع؛ فإنه لا يكاد إنسان يخطو خطوة دون أن يرى جامعًا أو مسجدًا؛ لو جُمعت كلها لكونت مدينة قائمة بذاتها، هكذا يقول الأستاذ ماكس هرتس بك[1] في مقدمة تاريخه لجامع السلطان حسن.

ويقول الأستاذ جاستون فييت[2] مدير دار الآثار العربية في بعض محاضراته في المجمع العلمي المصري: تشغل المدافن الإسلامية لمدينة القاهرة ومصر «القديمة» الجزء القائم بين المساكن وجبل المقطم، وكانت في القرون الأولى من الهجرة

---

(١) ماكس هرتس بك Max Herz Pasha (١٨٥٦-١٩١٩م)، مهندس مجري اهتم بدراسة الآثار الإسلامية، قدم إلى مصر لأول مرة عام (١٨٨٠م)، حيث أقام سنوات قام خلالها بمجهودات كبيرة في دراسة وتوثيق وحفظ التراث المعماري الإسلامي والقبطي في القاهرة، شغل عدة مناصب، أهمها مدير دار الآثار العربية (متحف الفن الإسلامي لاحقًا) عام (١٨٩٢م)، وفي عام (١٩٠١م) أصبح مديرًا للجنة حفظ الآثار العربية، حصل على لقب «بك» عام (١٨٩٥م)، ثم على لقب «باشا» عام (١٩١٢م)، انظر: Istvan Ormos, Max Herz Pasha (1856–1919): *His Life and Career* (Cairo: IFAO, 2009). انظر مؤلفه عن جامع السلطان حسن الذي صدر عن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية عام ١٨٩٩م Max Herz, *La mosquée du sultan Hassan au Caire* (Le Caire: IFAO, 1899).

(٢) جاستون فييت Gaston Wiet (١٨٨٧- ١٩٧١م)، عالم آثار ومؤرخ ومستشرق فرنسي، درس اللغات الشرقية، وتخصص في اللغة التركية، ثم درس العربية والفارسية. أُرسل إلى القاهرة طالبًا يقيم في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية عام (١٩٠٩م)، قام خلالها بالتحضير لتحقيق كتاب خطط المقريزي، الذي على الرغم من عدم إتمامه فإنه سيصبح فيما بعد أبرز أعماله العلمية. قام بتدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية منذ إنشائها عام (١٩١٢م)، أصبح عام (١٩٢٦م) مديرًا لدار الآثار العربية في القاهرة، وظل يشغل هذا المنصب حتى عام (١٩٥١م)، قام خلالها بإصدار الفهرس العام لدار الآثار العربية في عدة أجزاء. له إنتاج علمي غزير بين تأليف في التاريخ والآثار الإسلامية، وتحقيق وترجمة كتب هامة في التاريخ الإسلامي، وخاصة تاريخ مصر الإسلامية، انظر: عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣): ٤٣٣-٤٣٧.

مجاورة للفسطاط من الجهة الشرقية، وكانوا يطلقون عليها اسم القرافة[١] نسبة إلى بني قرافة قبيلة من العرب. وبالرغم من امتداد المدافن الإسلامية فيما بعد إلى شمالي مدينة القاهرة، فقد ظلت القرافة الجنوبية محل الاعتبار والإجلال؛ لما فيها من الأضرحة لأهل بيت رسول الله والأولياء الذين ظلوا على مرّ السنين محل إعجاب الأتقياء من الجماهير.

كتاب المزارات الإسلامية والآثار العربية الذي نقدمه للعالم أجمع اليوم. هو أوفى مصدر للآثار الإسلامية والمزارات وملحقاتها بمدينتي مصر والقاهرة وظواهرهما، وهو ثمرة بحث ومشاهدات واكتشاف وتحقيق دام حوالي أربعة عشر ربيعًا قضيناها بين إعمال قريحة، واستنزاف فكر، وهصر دماغ، وتمضية حياة زاهرة، نحتسب به رضاء الله تعالى، ورتق فتق تصدع، وسد ثلمة دامت أزمانًا متشعبة. «ويدور» بحثي في هذا المجموع على أقسام عدة مجموعة كلها في جزأين كبيرين[٢]، «أحدهما» خاص بالمزارات والمشاهد، والأماكن المقصودة بالزيادة الموسومة بعلامات التقديس والبركة؛ أَصِلُ ماضيها بحاضرها، وأذكرها على سبيل التحقيق الدقيق؛ للاهتداء إليها على هدى وبصيرة، مبتدئًا من القسم الجنوبي لمدينة القاهرة متبعًا له بقسميها الشرقي والبحري.

والجزء الآخر خاص بالآثار الإسلامية؛ تناولت فيه مجموعة الآثار العربية من سنة (٢١ من الهجرة/ ٦٤١م) إلى عصر الدولة العلوية، وأتبعتها بذكر المساجد والجوامع التي أنشئت وأوجدت في العصر الأخير من عهد الخِدِيو عباس الأول[٣] إلى عهد جلالة الملك فاروق[٤]، وفي هذا البحث أذكر مجموعة من المساجد الجامعة التابعة لقسم المساجد بوزارة الأوقاف؛ ليهتدي إليها من يريد، وقد حذوت فيه حذو الجزء الأول من التحقيق والمعاينة. وإليك أهم ما تتناوله أبحاث الكتاب جملة.

خلاصة إجمالية عن أهم الآثار الإسلامية التي في جنوبي القاهرة من باب زويلة «باب المتولي» إلى المشهد النفيسي، ثم إلى القرافة الجنوبية بشقيها، وإذا وصلنا إلى المشهد النفيسي نَصِفُ هذا المشهد وصفًا دقيقًا، ونترجم لصاحبته رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ومن يمت

---

(١) القرافة اسم لموضعين بمصر، القرافة الكبرى وهي في شرق مصر «الفسطاط» بجوار المساكن، وفيها كانت مدافن المسلمين منذ افتتحت مصر واختط العرب مدينة الفسطاط، ولم يكن لهم مقبرة سواها كما ذكر المقريزي، أما القرافة الصغرى فهي بسفح المقطم وبها قبر الإمام الشافعي، وكانتا في أول الأمر خطتين لقبيلة عربية من اليمن هم من المعافر بن يعفر من حمير يقال لهم بنو قرافة. وذكر ياقوت أنها خطة بالفسطاط كانت لبني غُصْن بن سيف بن وائل من المعافر، انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي شهاب الدين أبي عبد الله، **معجم البلدان**، مج.٤ (بيروت: دار صادر، ١٩٧٧): ٣١٧؛ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مج. ٤، ج.١ (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٣): ٨٤٦–٨٥٢؛ عبد الرحمن زكي، **موسوعة القاهرة في ألف عام** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧): ١٩٨–١٩٩.

(٢) اتبعنا في إصدارنا لهذه الموسوعة إخراجًا فنيًّا مغايرًا حيث قُسمت إلى ثمانية أجزاء وفقًا للعصور التاريخية، ابتداءً من الفتح الإسلامي لمصر حتى العصر الحديث.

(٣) عباس حلمي الأول بن أحمد طوسون بن محمد علي باشا الكبير (١٢٢٨–١٢٧٠هـ/ ١٨١٣–١٨٥٤م)، ثالث حكام الأسرة العلوية بمصر (١٢٢٠-١٣٧٢هـ/ ١٨٠٥-١٩٥٣م)، تولى حكم مصر بعد وفاة عمه إبراهيم باشا في ذي الحجة (١٢٦٤هـ/ نوفمبر ١٨٤٨م) حتى وفاته في (١٦ شوال ١٢٧٠هـ/ ١٢ يوليو ١٨٥٤م)، انظر: محمود فهمي المهندس، **البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر**، مج.١ (القاهرة: طبعة بولاق، ١٣١٢هـ): ١٩٧–١٩٨.

(٤) فاروق الأول ابن أحمد فؤاد الأول، آخر حكام مصر من الأسرة العلوية (١٣٥٥-١٣٧١هـ/ ١٩٣٦-١٩٥٢م).

إليها بصلة. ونذكر تاريخ المسجد وتطوراته والآثار الإسلامية الكائنة بتلك المناطق؛ فنذكر منها قبة الخلفاء العباسيين، ومدافن الأمراء التي بإزائها من الجهة البحرية، وقبة الأشرف خليل، وتربة أم الملك الصالح، والمشـــهد المنســـوب إلى السيدة رقية ابنة الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ونترجم لمن دفن بهذا المشهد من الشرفاء والعلماء وغيرهم؛ كالسيد مرتضى وغيره. ونأتي بتحقيق دقيق في المشـــهد المنسوب للسيدة سكينة بنت الإمام الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشارع الخليفة؛ فنستعرض ضروبًا من اختلافات مؤرخي المزارات الإسلامية في هذا المشهد. ونترجم للسيدة سكينة هذه ولابنة أخيها السيدة سكينة بنت علي زين العابدين، وللشريف حيدرة السليماني ومن دفن بهذا المشهد من الشرفاء والعلماء وغيرهم، ونذكر فيه زاوية السادة المالكية الكائنة بشارع السيدة نفيسة بالجهة القبلية الشرقية، ونترجم لمن دفن فيها من العلماء والصلحاء قديمًا وحديثًا. ونذكر مشهد السيدة نفيسة بنت زيد الأبلج، وضريح القاضي عبد الوهاب المالكي البغدادي، ونترجم للقاضي عبد الوهاب ترجمة واسعة، ونذكر محنته مع الفاطميين إلى نهاية أمره. ثم نذكر خلاصة إجمالية أخرى عن أهم وأشهر الآثار الإسلامية من باب زويلة من خط البسطيين والدرب الأحمر إلى باب القرافة ومزارات جبانة «ســـيدي جلال» وهي التي سماها ابن الزيات – الشقة الصغرى – فنذكر منها قبة علي كتخدا البركاوي، وموضع قبر الملك أحمد بن طولون، ومســـجد وقبة بلبان القرافي، ومســـجد البزار المعروف قديمًا بكهف السودان، ونترجم لمن دفن به من العلماء؛ كابن الفقاعي والقرقوبي و المغاوري وغيرهم. ثم نذكر خانقاه السيفي جاني بك الظاهري حاكم جدة وتربة مصطفى باشا النشار «حاكم اليمن» المتوفى سنة (٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م)، وزاوية الإمام زين الدين يوسف العدوي، ونترجم لمن دفن بها من الســـادات القادرية وغيرهم، وقبر الفقيه التتائي المالكي، وقبر ابن عقيل الإمام النحوي المشـــهور، وقبة الأمير عثمان كتخدا قازدغلي، ومقبرة بني كندة وبني الأشعث، وزاوية أبي جعفر الطحاوي، وقبة التكروري، وزاوية المقرئ وكيع شيخ مقرأة الشافعي، ومسجد الشافعي وبقايا المدرسة الصالحية، ومشهد السادة البكرية، وقبة الشافعي وما بها من النصوص التاريخية والشواهد الأثرية ونترجم للإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ترجمة واســـعة ولمن دفن حوله من العلماء، ولتعريف مدافنهم؛ الباقي منها والمندرس، ومشهد السادة الثعالبة؛ ومشاهد آل البيت الأثرية الكائنة بمنطقة قرافة قريش، ومسجد الإمام الليث بن سعد وتاريخه قديمًا وحديثًا، والمدفون به من العلماء ونترجم لجميعهم ولمن دفن بهذه المنطقة من العلماء؛ كأبي الحسن الصدفي وحفيده ابن يونس العالم الرياضي المشـــهور، والفخر الفارسي، وأبي الخير الأقطع، وابن حجر العسقلاني، والقاضي بكار بن قتيبة، وأشراف آل طباطبا، والمفضل بن فضالة، والقاضي اللخمي وغيرهم.

ثم نذكر جامع الأولياء المعروف بجامع القرافة، ومســـجد الفتح ومن دفن به مـــن الصحابة؛ كعقبة بن عامر الجهني، ومـــن عرف بالدفن معه وحوله من الصحابة والعلماء؛ كأبي بصرة الغفاري عبد الله بن جَزْء الزُّبَيْدِيّ ، وعبد الله ابن حذافة الســـهمي، ثم نذكر قبر «أبي علي الروزبـــاري، وذي النون المصري، ورابعة المصرية، وعز الدين بن عبد الســـلام، وتقي الدين ابن دقيق العيد، وأبي العباس الخزرجي».

ونضم إلى هذا البحث تراجـــم الصحابة الذين دفنوا بالوجهين القبلي والبحري، فنذكر منهم من دفن بأســـوان وقرى البلينـــا، وصفط تراب المعروفة فيما مضى بصفط قدور. والإســـكندرية وبلدان أخرى من مـــدن مصر وقراها، ونتكلم فيه

على المدافن المنسوبة إلى بعض الصحابة «زعمًا» فنبين الصحيح منها من المزعوم، ثم نذكر مزارات العلماء بسفح المقطم؛ كابن عطاء الله، وابن الهمام، وابن أبي جمرة، وأبي المواهب التونسي، وأبي القاسم الشاطبي، وأبي السعود ابن أبي العشائر وأبي الفتح الطوسي، والجبرتي، والجيلاني، ويوسف العجمي الكوراني، ويحيى الصنافيري؛ والشيخ أبي الفضل الجيزاوي، والشيخ السمالوطي، وابن الفارض والسيوطي وغيرهم.

ونذكر من الآثار الإسلامية القائمة بتلك المنطقة، تربة القاضي الفاضل المعروفة بتربة الشاطبي؛ ومسجد السادات الوفائية، وتربة يوسف أغا القازدغلي، وتربة ابن أمير جندار وبقايا خانقاه بكتمر الناصري ومسجد شاهين الخلوتي، ومشهد الأسباط المعروف بقبة إخوة يوسف، ومدافن المماليك الناصرية، فنذكر من آثارهم بهذه المنطقة قبة يلبغا وبيدرا وطقشتمر الدمشقي وخوند سمراء الأشرفية وتنكزبغا، وسيف الدين بلبان، ونوروز، وسودون، وسنجر الصوابي. ثم مدرسة مسيح باشا الخازندار وجامع الغوري وبقايا خانقاه قوصون، وزاوية جلال الدين السيوطي؛ وبها نختم هذا القسم.

وتجد مما ذكر من هذه الآثار والمزارات أبحاثًا دقيقة في نهاية التحقيق، كما تجد في تراجم الأعلام استيفاء عامًّا للترجمة؛ فيذكر فيها نسبُ المترجم ومنشؤه وعلمه ومشيخته ومؤلفاته، وغير ذلك. ويتبع ذلك كشكول بصور مشهد الشافعي ومسجده وقبته من الداخل والخارج، وكذلك المشهد النفيسي وغيرها مما تناوله البحث بحيث لم نترك أي منظر لأثر ما إلا أثبتناه؛ حتى بعض مدافن العلماء الشهيرة. ومن صور الأعلام الحديثة صورة لأحمد باشا تيمور، والشيخ أبي الفضل الجيزاوي والشيخ سليم البشري؛ والشيخ محمد السمالوطي، وشيخ المشهد النفيسي الحالي وغيرهم.

ونلفت نظر ولاة الأمور ودعاة الإصلاح في مصر والشرق، إلى القضاء على تلك العادات السيئة التي تتخذها العامة ذريعة لنيل أغراضهم الفاسدة؛ في زيارة هذه المدافن وغيرها، فنعقد فصلاً خاصًّا بهذا البحث في ترجمتنا للمشهد النفيسي وننحي فيه اللائمة على عوامّ المسلمين الذين لا يعرفون من آداب الزيارة الشرعية كبيرة ولا صغيرة؛ فنريهم في هذا الفصل ضروبًا شتى من فعل حضرة النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح في الزيارة؛ إلى غير ذلك من المسائل الهامة، التي أصبحنا في أمسّ الحاجة إليها لإصلاح عامتنا وإيقاظ خاصتنا. ثم نعرض للقارئ وجهة نظرنا في إخراج هذا المؤلف، ثم نشرع نذكر مزارات ومشاهد وآثار القسم الشرقي لمدينة القاهرة خارج باب البرقية، فنذكر منها خانقاه أم أنوك وخانقاه خوند طلبية، وجامع الشرقاوي ونترجم لمن دفن فيه من العلماء وغيرهم، وقبة الأمير نصر الله؛ أمير دار الضرب المصرية، وقبة الأمير فخر الدين جزل الناصري، ونسهب في الكلام على مقبرة البستان ومدافن العلماء بها، فنذكر منهم الشيخ الحفني، والباجوري والخرشي والبكري والكردي وغيرهم ممن لا يحصى عددًا من شيوخ الأزهر وكبار علمائه الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة، ثم الأشراف والصوفية، ثم نذكر مدافن جبانة باب الوزير وما بها من آثار؛ كقبة الوزير نجم الدين محمود وقبة ومسجد تنكزبغا رئيس مجلس الأعيان، وقبة قراقجا الحسني وسودون القصروي، وغيرها إلى أن نصل إلى باب الوداع، ثم نعود إلى الجهة الشمالية من الصحراء، فنذكر زاوية الشيخ الحداد، وقبر الحافظ العراقي، وقبة طاشتمر الساقي المعروف بحمص أخضر، وجامع العفيفي، ونترجم له ولمن دفن معه من العلماء

وغيرهم، ونُعرّف قبر الجبرتي المؤرخ وقبور أسلافه ونترجم له ترجمة وافية، ونذكر زاوية السادة المالكية الصغرى، ونترجم لمن دفن فيها من العلماء؛ كالشيخ خليل، والشيخ عبد الله المنوفي، والشيخ عليش وغيرهم.

ثم نذكر جميع الآثار التي بالصحراء؛ كعمارة قايتباي ومسجده، وتربة منكلي بغا الفخري، وقبة إبراهيم بن غراب، ورباط سيف الدين المظفري، وتربة الملك الأشرف برسباي، وقبة حسن الطمش الرفاعي، وقبة جاني بك الأشرفي، وقبة برسباي البجاسي، ونترجم لمن دفن بها من أمراء الأتراك؛ كقاسم بك وغيره، وقبة ابن عصفور، موقع الدست بالمملكة المصرية، وقبة يونس النوروزي، وقبة أبي سعيد قانصوه، وتربة فرج بن برقوق، ونترجم لمن دفن فيها من العلماء، وتربة السلطان الأشرف إينال، وقبة الأمير أزدمر، وتربة الأمير قرقماس أمير كبير، وقبة الأمير آزرمك الشريفي الناشف، وقبة يشبك الفقيه. وحين نصل إلى هذه المنطقة نذكر مزارات وآثار القسم الشمالي للقاهرة؛ التي في خارج باب النصر، فنذكر منها ضريح وقبة الوزير بدر الجمالي وأولاده ومن دفن معه من الصوفية؛ كالشيخ يونس السعدي الشيباني وغيره، ثم نذكر الرباطات التي بتلك المنطقة؛ كرباط الفخر وغيره، ومقبرة الصوفية، ونترجم لمن دفن فيها من العلماء، ونعرّف بعض القبور الظاهرة فيها والقريبة منها؛ كقبر المؤرخ ابن خلدون وابن زقاعة، والطبوغرافي العظيم التقي المقريزي، وابن هشام النحوي، والسيد بدر الدين الوفائي، والشيخ عوض اليمني، والسيدة زينب الحنفية. ونختم هذا القسم بذكر تربة نجم الدين أيوب أحد أصحاب الشيخ الجعبري، ونترجم لمن دفن في تربته من العلماء والصلحاء وغيرهم، وبهذا القسم نختم الكلام على المزارات وأماكن الزيارة العامة.

ثم نشرع في ذكر الآثار الإسلامية في مصر والقاهرة المعزية من عهد الفتح إلى أن آلت مصر إلى إيالة[1] عثمانية، ثم نتبع ذلك بذكر المنشآت الحديثة التي أنشئت في عهد الدولة العلوية إلى هذا التاريخ، نذكر في كل من هذه الأدوار آثار كل دولة من الدول الإسلامية في مصر، ونترجم لها باستفاضة مع إثبات صورها الفوتوغرافية. وحين نصل إلى آثار الدولة الفاطمية نتكلم باستفاضة عن الأزهر وأطواره، وحين نستعرض الجزء الباقي بالأزهر من أثر الفاطميين نتكلم على نسبهم ومبدأ أمرهم إلى استقرارهم بالمغرب ثم بمصر، ثم تأسيسهم مدينة القاهرة المعزية، على يد القائد جوهر. وإذا ذكرنا مدينة القاهرة نذكر معها خططها وحاراتها ودروبها وشوارعها ومساجدها وجوامعها وحماماتها وأبوابها وسقاياتها، ونصل ماضيها بحاضرها إلى غير ذلك. ثم نعود إلى ذكر الأزهر، الذي هو رابع جامعة إسلامية بنيت في العالم الإسلامي بعد جامعة القرويين بفاس، فنذكر تاريخه من أزهى عصوره إلى اليوم. وفي خلال الترجمة نتعرض لمسألة عويصة وتحقيق دقيق لا يضطلع به إلا باحث مدقق، وقد تورط فيه جمع من المؤرخين الذين كتبوا عن الأزهر، تلك المسألة هي مشيخة الأزهر، التي أخذنا عنها – من خلاصة ما كتبوه – أنها ظلت طيلة حياتها شاغرة من عهد تأسيس الأزهر إلى عهد الخرشي المالكي الذي يعدونه أول شيخ للأزهر في تاريخه. وهذه – لعمر الحق – مغالطة أو هو قصور في البحث، وإلا فأين الشيخ شعبان الفيومي الشافعي الذي ترجم له المحبي في خلاصة الأثر؛ والأرميوني في أعيان القرن الحادي عشر، وذكرا مشيخته على الأزهر؟ وأين الشيخ يحيى الشاوي المالكي الذي ترجم له ابن مقديش في نزهة

---

(١) إيالة كلمة تركية تعني ولاية، وقد دخلت مصر ضمن ولايات الدولة العثمانية بعد سقوط دولة المماليك الثانية بها على يد السلطان العثماني سليم الأول (٩١٨–٩٢٦هـ/ ١٥١٢–١٥٢٠م)، وذلك عام (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م).

الأنظار، والأستاذ الكتاني في فهرس الفهارس، وذكرا مشيخته على الأزهر؟ وأين شيوخ الأزهر الذين ذكرهم الشعراني في طبقاته الوسطى؛ ومنهم الحنفي والمالكي والشافعي، وذكر مشيختهم على الأزهر بفرمانات سلطانية من السلطان الغوري؟ وأين الذين ذكرهم النابلسي في رحلته واجتمع بهم؟ هذا ما سنفصله تفصيلاً، وفوق كل ذي علم عليم. ولا يفوتنا أن نذكر مع كل أثر تناولناه بالبحث والدرس أن نثبت ما عليه من كتابات تاريخية وغيرها، فذكرنا مجموعة هامة من الكتابات العربية التي على مساجد وجوامع وترب ومشاهد وقباب وسِقايات وحمامات مصر والقاهرة جميعها.

وقد يكون في إثبات هذه المجموعة الهامة من الكتابات العربية ظاهرة طيبة قلّ من يتفطن إليها، وهي تطور الألقاب العسكرية والمدنية للملوك والأمراء والعلماء وغيرهم من عهد الفاطميين إلى الأيوبيين إلى المماليك إلى العصر العثماني حتى هذا العصر، كما تجد فيها ضربًا آخر من إثبات بعض حوادث تاريخية لم تطالعنا بها المصادر؛ كالنص المسطور في طراز بواجهة قبة يعقوب شاه المهمندار، ثم إثبات لبعض الوقفيات التي غابت عنا؛ كوقفية جامع وتربة الأشرف برسباي بالقاهرة وقرافة المماليك، ثم مجموعة هامة من الأدب، يتألف منها ديوان كامل، ترى فيه ألوانًا من الشعر تستطيع به الحكم على ذلك العصر الذي قيل فيه ومقياس درجته. كما يمكنك الوقوف على نفسية ملوك مصر السابقين وأخلاقهم وصفاتهم إلى غير ذلك.

ثم صَدَّرنا الكتاب جميعه ببحث كبير عن تاريخ العمارة الإسلامية، ذكرنا فيه جميع أطوارها إلى العصر الحاضر. وفي خلال ذلك نتعرض لآثار الجزيرة العربية، من مدن بغداد والبلاد الشامية وتركيا القديمة والنجف الأشرف، وتونس وطرابلس والجزائر والأندلس وتلمسان والرباط ومكناس ومراكش وفاس والكثير من البلدان الإسلامية التي ازدانت بها بتلك الآثار القيمة. ثم نذكر تاريخ المنابر الإسلامية وتطورها، وتاريخ المحاريب في الإسلام والقباب الإسلامية، والفن الإسلامي في عمارة المآذن، ومرافق المسجد الإسلامي في صدر الإسلام، ونظام الإسلام في بناء الدور والمنازل، والفنادق والسقايات، والربط والزوايا والمدارس إلى موضوعات كثيرة أخرى. ولم نترك أي أثر دون أن نثبت صورته الفوتوغرافية مع صور الأعلام الذين تناولهم بحثنا؛ في سجل خاص قائم بذاته مع الإرشاد عنه في صفحات الكتاب التي تناولت الكلام عليه. كما أننا وضعنا للكتاب فهرسًا عامًّا مبينًا فيه أسماء الأعلام والأماكن إلى غير ذلك، ثم ألحقنا بهذا البحث خاتمة في ذكر بعض المزارات والمشاهد والمساجد الأثرية الموجودة في مدينة الإسكندرية.

فنذكر من مزاراتها الشهيرة وآثارها العربية، جامع بدر الجمالي المعروف بالعطارين. وهو أول جامع بني بالإسكندرية في سنة (٢٣هـ)، وأول ما لفتنا إليه الأنظار من معالم هذه المدينة، ولنا عنه نشرات عديدة بالإسلام وهدى الإسلام، والسياسة والأهرام.

ثم نترجم لأشهر علمائها؛ كسيدي بشر الجوهري، والقروي، والصوّاف، والسلفي، وابن عوف وأولاده وحفدته، والشاطبي، وأبي العباس المرسي، والفاكهاني، والقاضي سند، وابن المنير، والطرطوشي، ومجاهد، والقباري، والجزولي، والوفائي، والمغاوري، وابن الحاجب، ومكين الدين الأسمر، وجابر الأنصاري، وبرتا بن عبد الله الصحابي، والبنوفري، والبوصيري، وعلي البدري، وابن ماخلا، والواسطي، وسيدي نهار المغربي، إلى غير هؤلاء من أصحاب المزارات بهذه المدينة.

وسيجد القارئ أننا لم يفتنا أي أثر عربي في القاهرة، إلا ذكرنا عنه ما استطعنا إليه سبيلاً، استيفاء للغرض المقصود من نشر هذا الكتاب. كما سيجد فيه الحنفية تراجم علمائهم، والمالكية تراجم أئمتهم، والشافعية والحنابلة تراجم المشهورين منهم، مع تراجم الملوك والأمراء والأشراف والعلماء والصوفية وغيرهم؛ مع تعريف قبورهم؛ أمثال جوهر القائد، وبدر الجمالي، والأفضل شاهنشاه؛ وطلائع بن رزيك؛ ويعقوب بن كلس؛ وسهل بن عبد الله البرمكي. وهؤلاء من أشهر وزراء المملكة المصرية؛ ومن الملوك والأمراء عقبة بن عامر، وعمرو بن العاص، ومسلمة ابن مخلد، ومحمد بن أبي بكر، ومعاوية بن حديج، ومالك ابن الأشتر، وكافور الإخشيدي، وأحمد بن طولون، والمعز أيبك، والظاهر جقمق وابنه، والأشرف برسباي، وقايتباي، وطومانباي، والناصر محمد، والمنصور، والأشرف خليل إلى غير هؤلاء، ومن الأدباء والعلماء الرياضيين وأصحاب الكشف والاختراع جماعة؛ أمثال الحسن بن الهيثم، وابن يونس، وابن خلدون وغيرهم. مما لا يسعنا ذكره في هذه الإلمامة. فإلى عشاق هذا الفن، وإلى علماء الآثار العربية في الشرق والغرب. وإلى زائري مدينة القاهرة والباحثين عن قبور عظمائها وعلمائها وملوكها وأمرائها وأشرافها، وإلى من يهمهم الاطلاع على تاريخ صادق وافٍ لمساجد القاهرة وآثارها ومعالمها وخططها وطبوغرافيتها القديمة والحديثة، وإلى غير هؤلاء وغير هؤلاء؛ أقدّم كتابي هذا، وأرجو من الله سبحانه أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله، وأسأله – تعالى – التوفيق. هو حسبي ونعم الوكيل.

حسن قاسم

مدير معهد الدراسات الأثرية الإسلامية

القاهرة المعزية

أصول فن العمارة الإسلامية

المسجد النبوي[1]

أخرج ابن سعد في الطبقات، عن الزهري[2]، قال: «بركت ناقة رسول الله ﷺ عند موضع مسجد رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مربدًا لسهل وسهيل: غلامين يتيمين من الأنصار، وكانا في حجر أبي أمامة أسعد بن زرارة، فدعا رسول الله ﷺ بالغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير، وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك. كان جدارًا مجدرًا مشيدًا ومحيطًا بكل ساحة المسجد ليس عليه سقف، وقبلته إلى بيت المقدس، وكان أسعد ابن زرارة بناه فكان يصلي بأصحابه فيه، ويجمع بهم فيه الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل الذي في الحديقة وبالغرقد الذي فيه أن يقطع، وأمر باللبِن فضرب، وكان في المربد قبور جاهلية، فأمر بها رسول الله ﷺ فنبشت، وأمر بالعظام أن تغيب، وكان في المربد ماء مُسْتَنْجل[3] فسيروه حتى ذهب، وأسسوا المسجد فجعلوا

(١) لم يتبق أثر معماري من أول مسجد جامع أقيم في الإسلام، ولكن صورة هذا المسجد لا تزال ظاهرة واضحة المعالم، فقد كان مصدرًا لاهتمام الكتاب والمؤرخين، فلم يغفلوا شيئًا من تاريخه منذ إنشائه حتى اليوم، وأقدم ما وصلنا كتابٌ عن تاريخ المدينة وتاريخ مسجدها لابن زبالة (ت ١٩٩هـ/ ٨١٤م)، ويليه كتاب يحيى بن جعفر العبيدي (ت ٢٢٧هـ/ ٨٤١م)، وكتاب ابن النجار (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، إلا أن كتاب السمهودي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى»، جاء جامعًا شاملاً لكل ما كتب قبله، فضلاً عن أن السمهودي قد تناول مصادره بالتحقيق وراجعها على معالم المسجد في عصره، انظر: محمد بن الحسن بن زبالة، **أخبار المدينة**، دراسة: صلاح عبد العزيز سلامة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ٨ (المدينة المنورة: مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ)؛ محمد بن محمود بن النجار، **الدرة الثمينة في أخبار المدينة**، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب (مصر: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.)؛ نور الدين علي بن أحمد السمهودي، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، اعتنى به: خالد عبد الغني محفوظ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦)؛ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها: المدخل** (مصر: دار المعارف، ١٩٦١): ١٦٧- ١٩٦.

(٢) انظر: محمد بن سعد بن منيع الزهري، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: علي محمد عمر (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠١): ٢٠٥-٢٠٧؛ وقد أورده النويري في كتابه نقلاً عن ابن سعد، انظر: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: علي محمد هاشم، مج. ١٦ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤): ٢٤٣.

(٣) المُسْتَنْجل: المستنقع، انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٢٠٥.

طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع[١]؛ وفي هذين الجانبين مثل ذلك فهو مربع، ويقال كان أقل من المائة، وجعلوا الأساس قريبًا من ثــلاث أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللبِن، وبنى رســول الله ﷺ وأصحابه، وجعل ينقل معهم الحجارة بنفسه، ويقول:

اللَّهُمَّ لا عَيشَ إلا عَيشُ الآخِرَةْ
فَاغْفِرْ لِلأنْصَارِ والمُهَاجِرَةْ

وجعل يقول:

هَذَا الحِمَال لا حِمَـالَ خَيْبَـرْ
هَـذَا أبَـرُّ رَبَّنَـا وأطْهَـرْ

وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب؛ بابًـا في مؤخره، وبابًا يقال له بــاب الرحمة وهو الباب الذي يدعى بــاب عاتكة، والبــاب الثالــث الذي يدخل منه رســول الله ﷺ، وهو الباب الذي يلي آل عثمان. وجعل طول الجدار بَسْطَةً، وعُمُده الجُذوع، وســقفَه جريدًا، فقيل: ألا تُسَــقفه؟ فقال: عَرِيشٌ كعريش مُوسى خُشَــيْبَاتٌ وثُمَامٌ، الشَّــأن أعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ. وبنى بيوتًا إلى جنبه باللبِن وسقّفها بجذوع النخل والجريد، فلما فرغ من البناء بنى بعائشـــة في البيت الذي بابه شارع إلى المسجد، وجعل سودة بنت زمعة في البيت الآخر الذي يليه إلى الباب الذي يلي آل عثمان».

هذه رواية ابن سعد في بناء المسجد النبوي، وهي رواية يُعتمد عليها كثيرًا.

وفي غير طبقات ابن سعد؛ ولما شرع ﷺ في البناء أخذ رســول الله ﷺ حجرًا فوضعه بيده الكريمــة أولاً، ثم أمر أبا بكر فجاء بحجر فوضعه إلى جنب حجر رسول الله ﷺ، ثم عمركذلك، ثم عثمان كذلك، ثم عليًّا.

وهذا مبــدأ وضع الملوك والعظماء الحجر الأســاسي للمباني العامــة، وفي وفاء الوفاء للســيد الســمهودي[٢]: «وضرب رســول الله ﷺ اللبن للمسجد من بقيع الخبخبة[٣] واتخذ منه الجدار، بناه بالســميط لبنة لبنة، وجعل وســطه رحبة وفتح له ثلاثــة أبواب؛ الباب الأول في مؤخره في جهة القبلة اليوم، والثاني على اليمــين عرف بباب الرحمة وباب عاتكة، والثالث كان يدخل منه رسول الله ﷺ على اليسار، وعرف بباب جبريل في الجهة الشرقية»[٤].

وعن جعفر: اشتد على المسلمين الحر، فقالوا: يا رسول الله لو أمرت بالمســجد فظلل، قال: نعــم، فأمر به فأقيمت ســواريه من جذوع النخل، ثم طرحــت عليها العوارض والخصف والإذخر[٥]، وهو ما ينبت في الســهل والجبل، وله أصل دقيق وقضبان دقاق يطيب ريحه، والذي بمكة أجوده؛ يسقفون به البيوت بين الخشبات، ويسدون به القبور الخلل بين اللبنات.

---

(١) الذراع الهاشمية تساوي ٥٢ سنتيمترًا تقريبًا، انظر: أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**: ١٧١.

(٢) السمهودي، **وفاء الوفا**: ٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) ذكر السمهودي موقعه ناحية بئر أيوب، والتي تقع للخارج من درب البقيع إذا مشى في البقيع لجهة مشهد سيدنا عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصار مشهد سيدنا إبراهيم ابن رسول الله على يمينه، يكون على يساره طريق تمر بطرف الكومة، فإذا سلكها انتهى بعد رأس العطفة التي على يمينه إلى حديقة تعرف قديمًا بأولاد الصيفي، لها بئر تعرف ببئر أيوب قديمًا وحديثًا، انظر: السمهودي، **وفاء الوفا**: ٢٥٧، ٢٥٨.

(٤) أطلق على باب جبريل أيضًا باب عثمان؛ لوقوعه مقابل دار عثمان بن عفان في الجهة الشرقية من المسجد، أما باب الرحمة فكان يسمى باب عاتكة؛ لوقوعه مقابل دار عاتكة بنت عبد الله بن زيد بن حارثة في الجهة الغربية، أما الباب الذي فتح في مؤخرة المسجد فتم سده بعد تحويل القبلة إلى الكعبة، وفتح مكانه باب آخر في الجهة الشمالية، انظر: ابن النجار، **الدرة الثمينة**: ٦٩-٩٤؛ السمهودي، **وفاء الوفا**: ٢٥٩.

(٥) العوارض: قطع الخشب، والخصف: جلة تعمل من الخوص ليحفظ فيها التمر، والإذخر: بكسر الألف، حشيشة تسقف بها البيوت فوق الخشب، ولها رائحة طيبة.



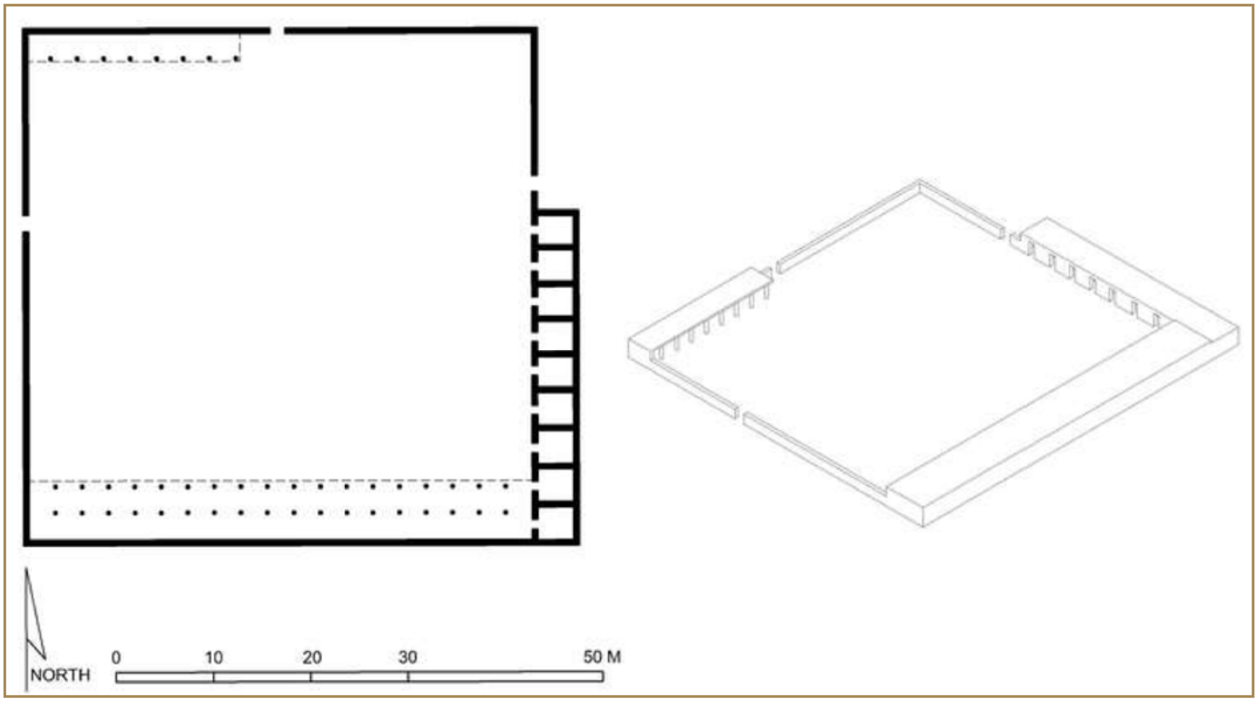
المسجد النبوي في العصر العثماني «عن Privatbesitz»

مساحة المسجد النبوي

وقد ثبــت من روايات متعــددة أن حضرة النبي ﷺ زاد في مســجده زيادتــين، قال الحافظ أبو الحســن رزين ابن معاوية بن عمران العبــدري الأندلسي في كتابه [دار الهجرة]: «بلغت الزيادة الأخيرة مائة ذراع في مثلها»، وهي رواية ابن سعد أيضًا وغيره، ويقول ابن فضل الله في مسالك الأبصــار، عن خارجة بن زياد، قال: «بنى رســول الله ﷺ مسجده ســبعين ذراعًا في ســتين ذراعًا أو أزيد. فلما كان عثمان زاد فيه فجعل طوله مائة وستين ذراعًا وعرضه مائة وخمســين ذراعًا، وجعل أبوابه ستة كما كانت في زمن عمر، وامتدت الزيــادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه؛ ومنها حجرة عائشــة، وهي التي دفن فيها رســول الله ﷺ، وصاحباه، فبنوا على القبر حيطانًا مرتفعة مســتديرة حوله؛ لئلا يظهر في المسجد فيصلى إليه؛ ويؤدي إلى المحذور الذي نهى عنه الرسول ﷺ من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد. ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشريف من جهة الشــمال؛ حيطة لذلك أيضًا، ولذلك قالت عائشة: لولا ذلك أُبرِز قبره، غير أنه خشي أن يُتَّخذ مسجدًا»[١].

وزاد فيــه عمر بن الخطاب مــن الجهة الجنوبية عشر أذرع، ومن الشمالية عشر أذرع، ومن الغربية عشرين ذراعًا. ودخلت في هذه الزيادة دار العباس بن عبد المطلب، وزاد في

(١) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق: كامل سليمان الجبوري (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠): ٢٠٠، ٢٠١.



تخطيط للمسجد النبوي في عهد الرسول «عن Archnet»

أبوابه فصارت ستة بعد أن كانت ثلاثة، وجعل في كل جهة من جهاته الثلاث بابين.[١] وفي خلافة عثمان سنة (٢٩هـ/ ٦٤٩م) زاد فيه من الجهات الأربع[٢]، وجعل أساطينه من الحجارة، وبناه بالحديد المسلح بالرصاص وسقّفه بالساج الهندي، وبنى المقصورة من اللبِن وجعل في حائطها كوة، ورفعها عن مستوى الأرض نحو ذراعين، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة[٣]، وأقام له عمدًا من حجر منقوش.

(١) أصبح المسجد بعد زيادة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من المشرق إلى المغرب مائة وعشرين ذراعًا، وما بين جدار القبلة وجدار مؤخره مائة وثلاثون ذراعًا، انظر: أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**: ١٧٢، ١٧٣.

(٢) لم يثبت زيادة المسجد من جهاته الأربع في عهد عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد قدرت الزيادة من ناحية القبلة بعشرة أذرع، وزاد من الناحية الجنوبية عشرين ذراعًا، وزاد من الغرب حوالي عشر أذرع، ولم يزد من المشرق شيئًا، فأصبح بذلك طول المسجد ١٦٠ ذراعًا وعرضه ١٣٠ ذراعًا، انظر: السمهودي، **وفاء الوفا**، مج. ٢: ٨٤، ٨٥؛ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**: ١٧٣.

(٣) أي الجَصّ، انظر: السمهودي، **وفاء الوفا**، مج. ٢: ٨١.

وصف المسجد النبوي

نستطيع من هذه الروايات أن نصور المسجد النبوي على مشرفه أفضل الصلاة والسلام، بأنه كان مسجدًا جامعًا كامل المرافق تامّ المعدات، وكانت عناصره تتألف من أواوين وصحن وأساطين ورحبة ومحراب ومنبر وظُلَّة ومقصورة وقبة ومرافق أخرى. وبهذا الوصف يمكننا تصويره بأنه كان بناء مربعًا طول ضلعه مائة ذراع في مثلها[٤]، وكان ارتفاع جدرانه سبع أذرع؛ ومادتها اللبِن، وكان صحنه مكشوفًا، وبوسطه ظُلَّة، قد رُفع عليها سقف تحمله أساطين من جذوع النخل، وجعل له ثلاثة أبواب:

(٤) في حين اتفق معظم الرواة على أن الزيادة الأولى جعلت المسجد قريبًا من مائة ذراع وقريبًا من مربع؛ يذكر الدكتور أحمد فكري أن تاريخ الزيادات المتعاقبة تؤكد أن الزيادة الأولى وصلت بالمسجد من شرقه إلى غربه إلى تسعين ذراعًا فقط، انظر: السمهودي، **وفاء الوفا**، مج. ١: ٢٦٢؛ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**: ١٧١، ١٧٥؛ هامش ٣، ٦.

الأول: الباب العمومي، وقد وضع في الجهة القبلية منه؛ وبقي حتى السنة الثانية من الهجرة، وفيها أوصد لمناسبة تحويل القبلة إلى الكعبة، ومن هذا الباب كان يدخل المصلون.

الثاني: باب الرحمة، أو باب عاتكة.

الثالث: باب عثمان، وكان يعرف في زمن حضرة النبي ﷺ بباب جبريل عليه السلام، وهو الباب النبوي الخاص بالدخول للحضرة النبوية، لا يدخل منه سواه.

وفي النهاية القبلية للجانب الشرقي، من خارج المسجد النبوي، أَمَر حضرة النبي ﷺ ببناء دارين بمرافقهما لزوجتيه أُمَّي المؤمنين عائشة وسودة. وقد أضيف إلى هاتين الدارين سبع دور أخرى، فبلغ عددها تسعًا.

وقال المؤرخون: إن سعة كل حجرة من هذه الدور، كانت تقدر بست أذرع في سبع.

وهذه الدور النبوية، وإن لم نكن نعلم عن وصفها شيئًا، قد رآها شاهدُ عيان في سنة (٨٨هـ/ ٧٠٦م) قبل إضافتها إلى الحرم النبوي، في عهد الوليد، ووصفها لنا وصفًا ممتعًا.

أخرج ابن سعد المتوفى سنة (٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) في الطبقات، قال: «أخبرنا محمد بن عمر، حدثنا عبد الله بن يزيد الهذلي، قال: رأيت منازل أزواج رسول الله ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك وزادها في المسجد، كانت بيوتًا باللبِن، ولها حجر من جريد مطرور بالطين، عددت تسعة أبيات بحجرها»[1].

والمتأمل قول الراوي «عددت تسعة أبيات بحجرها»، يرى فيه دحض الرأي القائل بأن بيوت حضرة النبي ﷺ، كانت حجرات قائمة بذاتها؛ وهذه قالة قد رددناها بنصوص صريحة[2].

ولم يلبث المسجد النبوي على مشرفه أفضل الصلاة والسلام حتى زاد فيه عمر في سنة (١٧هـ) من الهجرة، زيادة كبيرة. تناولت أساطينه وجدرانه وبعض أجزاء منه كثيرة.

وفي نهاية القرن الأول الهجري، أرسل الوليد بن عبد الملك[3] في سنة (٨٨هـ/ ٧٠٦م) لعامله عمر بن عبد العزيز[4] يأمره بتجديد المسجد النبوي. فشرع عمر في ذلك، فزاد فيه من جهاته الشرقية والغربية والجنوبية، وأضاف إليه بيوت حضرة النبي ﷺ. وزاد في مآذنه فجعلها أربعًا، وفرش أرضه بالرخام الدقيق الملون؛ وغشّى جدرانه بالفضّة، ووشّى سقفه بسموات منمقة بالذهب؛ وجعل أساطينه من المرمر، وأقام على الحجرة النبوية الشريفة بناء، وأقام على المحراب قبة، وأقام أوبئة على دعامات استعمل في

(١) نص رواية: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ٤٢٩.

(٢) انظر: حسن محمد قاسم، **الجندية الإسلامية ونظام الحكومة النبوية الإداري والسياسي والاجتماعي والتشريعي والحقوق الدولية في الإسلام** (القاهرة: مطبعة هدى الإسلام، ١٩٣٩م).

(٣) أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، سادس الخلفاء الأمويين (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م)، انظر عن سيرته وفترة حكمه: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مج. ٦ (مصر: دار المعارف، د.ت.): ٤٢٣ وما يليها؛ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مراجعة: محمد يوسف الدقاق، مج. ٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣): ٢٤٠ وما يليها؛ سيدة كاشف، **الوليد بن عبد الملك** (القاهرة، ١٩٦٣).

(٤) أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، ولي المدينة في شهر ربيع الأول عام (٨٧هـ/ ٧٠٦م) حتى عزله في شعبان عام (٩٣هـ/ ٧١١م)، ثم أصبح ثامن خلفاء بني أمية (٩٩-١٠١هـ/ ٧١-٧٢٠م) بعد وفاة ابن عمه سليمان بن عبد الملك، انظر: الطبري، **تاريخ الرسل**: ٤٢٧، ٤٨١، ٥٥٠؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**: ٢٤٣، ٢٧٨، ٣١٢.

بنائها الحجارة المسلحة بالحديد والرصاص، وسقّف الروضة الشريفة بخشب الساج وغشاها بسموات منمقة(١).

وتم العمل من هذه العمارة في سنة (٩١هـ/ ٧٠٩م) وما برح المسجد النبوي على ذلك، حتى عمره المهدي العباسي(٢) في سنة (١٦٢هـ/ ٧٧٨م)، فزاد فيه من الجهة الشمالية وجدد المقصورة وسوَّاها بأرض المسجد وجعلها من ساج، وفي سنة (٢٠٢هـ/ ٨١٧م) أمر المأمون بنقش المسجد وتجديد ما كان منه في حاجة إلى الإصلاح والتعمير، وأثبت ذلك في روسم(٣) وضع بأعلى باب المسجد(٤).

وفي سنة (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)، أمر الناصر لدين الله(٥) ببناء قبة في الصحن لحفظ الآثار والمخلفات النبوية، وفي سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) بعد الحريق الذي وقع بالمسجد في سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) أعاد المستعصم(٦) بالاشتراك مع المظفر يوسف بن عمر بن علي ملك اليمن، ونور الدين علي بن المعز أيبك ملك مصر- بناء الحجرة الشريفة وما حولها إلى الحائط القبلي والشرقي وباب جبريل، وتجديد قبة البهو، وأحدث به الملك المظفر منبرًا حمل إليه من اليمن. وفي سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) أمر الملك المعز علي بن المعز أيبك المذكور، بتعمير ما لم يتم تعميره من المسجد، فسيرت الصناع من مصر إلى المدينة، وشرع في إتمام العمارة، واشترك معه.

وفي تلك السنة نفسها مَلَك اليمن المذكور آنفًا، فجدد من باب السلام المعروف سابقًا بباب مروان، ثم وقفت العمارة بسقوط الملك عز الدين بن أيبك.

فلما تولى بعده الملك الظاهر بيبرس الأول، أمر في سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) بإتمام العمارة في المسجد النبوي؛ فبنى من باب السلام إلى باب الرحمة المعروف سابقًا بباب عاتكة، وهي بنت عبد الله بن زيد بن حارثة، وكانت دارها في مقابل هذا الباب.

ثم جدد من باب جبريل إلى باب النساء المعروف سابقًا بباب ريطة بنت أبي العباس السفاح، ثم أمر الملك الظاهر برفع منبر المظفر واستبدل به منبرًا آخر، ويوصف هذا المنبر بأن طوله كان أربع أذرع ومن رأسه إلى عينيه سبع أذرع، وعدد درجاته سبع بالمقعد.

وفي سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) رسم الملك المنصور قلاوون ملك مصر بتجديد القبة النبوية الشريفة، وفي سنة (٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م) أنشأ كافور المظفري شيخ أغوات الحرم النبوي الشريف منارة على باب السلام؛ واستبدل بقناديل المسجد قناديل أخرى أحدث منها.

وفي سنة (٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م) أمر الناصر محمد بن قلاوون ملك مصر بإصلاح سقف رحبة المسجد، وفي سنة (٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م) أمر بتجديد المئذنة الرابعة وإعادة بنائها، وكانت قد سقطت لخلل ظهر بها.

---

(١) كانت زيادة الوليد من المشرق إلى المغرب سِتَّ أساطين، وإلى الشام ١٤ أسطوانة، فأصبح بذلك طول الجامع مائتي ذراع، وعرضه ١٣٠ ذراعًا، انظر: السمهودي، **وفاء الوفا**، مج. ٢: ٩٤، قارن: أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**: ١٧٤- ١٧٨.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي المهدي بالله، ثالث خلفاء الدولة العباسية بالعراق (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م)، انظر فترة خلافته: الطبري، **تاريخ الرسل**، مج. ٨: ١١٠ وما يليها؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مج. ٥: ٢٢٥ وما يليها.

(٣) الرَّوسَم هو اللوحة التذكارية «الخرطوش».

(٤) أصبح طول الجامع بعد زيادة المهدي ٢٤٠ ذراعًا وعرضه ١٣٠ ذراعًا، انظر: السمهودي، **وفاء الوفا**، مج. ٢: ١٠٥-١٠٨.

(٥) أبو العباس الناصر لدين الله أحمد بن الحسن المستضيء بأمر الله، الخليفة الرابع والثلاثون من خلفاء الدولة العباسية بالعراق (٥٧٥-٦٢١هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م)، انظر: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، **تاريخ الخلفاء** (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٣): ٣٥٢.

(٦) أبو عبد المجيد عبد الله بن منصور المستعصم بالله، آخر خلفاء الدولة العباسية بالعراق (٦٣٩-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م)، انظر: السيوطي، **تاريخ الخلفاء**: ٣٦٤.

وفي سنة (٨٣١هـ/ ١٤٢٧م) جدد الأشرف برسباي ملك مصر سقف المسجد النبوي.

وفي سنة (٨٥٣–٨٥٥هـ/ ١٤٤٩–١٤٥١م)، جدد الظاهر أبو سعيد جقمق ملك مصر سقف الروضة الشريفة، وأحدث سِقايات بالمدينة وبطريق الحج المصري والشامي .

وفي سنة (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م) عمر الأشرف قايتباي المسجد عمارة كبيرة شملت جميع أجزائه، ثم أعادها مرة أخرى في سنة (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) بعد الحريق الذي أصاب المسجد، وقد أشار المؤرخ ابن إياس لتاريخ هذه العمارة بقوله: «وفي سنة (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) أرسل السلطان عقب الحريق شمس الدين محمد بن الزمن لعمارة الحرم، وأرسل معه البنائين والمهندسين فهدم القبة الشريفة وأعادها بالمسلح وجدد المنبر والمئذنة، وانتهى العمل في سنة (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م)»[1].

وفي سنة (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) أمر بصنع المقصورة الحالية للروضة النبوية الشريفة، وهي من الحديد الملبس بالصفر وقد قدر ابن إياس، زنتها أربعمائة قنطار؛ قال: وأرسلها السلطان صحبة ركب المحمل المصري، مع مصحف كبير بخط شاهين النوري، ولا يزال بالحرم النبوي الكثير من أجزائه ومفرداته عليها طابع قايتباي، كما يتضح من النصوص التاريخية المنقوشة على أبواب المقصورة المشار إليها آنفًا وغيرها.

وللحرم المدني خمسة أبواب: باب السلام وهو أكبرها وأفخمها، ثم باب الرحمة وهما في الجهة الغربية، والباب المجيدي في الجهة البحرية، ثم باب النساء وباب جبريل وهما في الجهة الشرقية. وكل هذه الأبواب طرازها تركي، ومصاريعها من الخشب، مثبت عليها قطع من النحاس المفرغ، ماعدا مصراعي الباب المجيدي؛ فإنهما مصفحان



باب السلام بالمسجد النبوي أوائل القرن العشرين

بألواح من النحاس المشغول بالزخارف الدقيقة الفائقة حد الإبداع والإتقان. وهي من عهد السلطان قايتباي، وقد تضمنت نصوصًا بالقلم النسخ الجميل المزوق بالتوريق والتشجير، وشملت النصوص أسماء من قاموا بالعمارة بعد الحريق، التي كان المشرف عليها المهندس المصري القدير «شمس الدين محمد ابن الزمن»[2]، الذي يُعزى إليه كثير من الإصلاحات في الأراضي المقدسة.

(١) انظر: ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق باول كاله ومحمد مصطفى، مج. ٣ (إستانبول، ١٩٣٦): ١٨٣.

(٢) الخواجا شمس الدين محمد بن عمر بن محمد بن عمر الزمن القرشي الدمشقي، ثم القاهري الشافعي، عرف في زمانه بالشمس=



أجزاء من العمارة العثمانية بباب الرحمة بالمسجد النبوي

والجامع كله على حالته الراهنة مـــن العهد العثماني، وأول مـــن أجرى فيـــه عمارة من ســـلاطين آل عثمان هو السلطان ســـليم الثاني[١] في سنة (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م). أما القبة الشريفة فهي من عهد السلطان محمود[٢]، الذي أمر بطلائها باللون الأخضر بعد بنائها وتجديدها وذلك في سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م)، ومنذ ذلك الحـــين عرفت بالقبة الخضراء. وكُبرى العمارات التي حدثت في المســـجد النبـــوي في هذا العهد هي عمارة الســـلطان عبد المجيد[٣] فيما بين ســـنة (١٢٦٥ و١٢٧٧هـ/ ١٨٤٨ و١٨٦٠م)، وكانـــوا يهدمـــون جزءًا جزءًا ثم يعيدون بناءه بالحجارة والأعمـــدة الضخمة المصنوعة من الحجر الرمـــلي. وإيوان القبلة هو أفخم جزء في المســـجد، مسقوف كله بالقباب الصغيرة المتجاورة فيها نوافذ، وكتبت على جوانب القباب آيات مـــن القرآن الكريم، وأبيات من البردة بالقلم النسخ الجميل[٤].

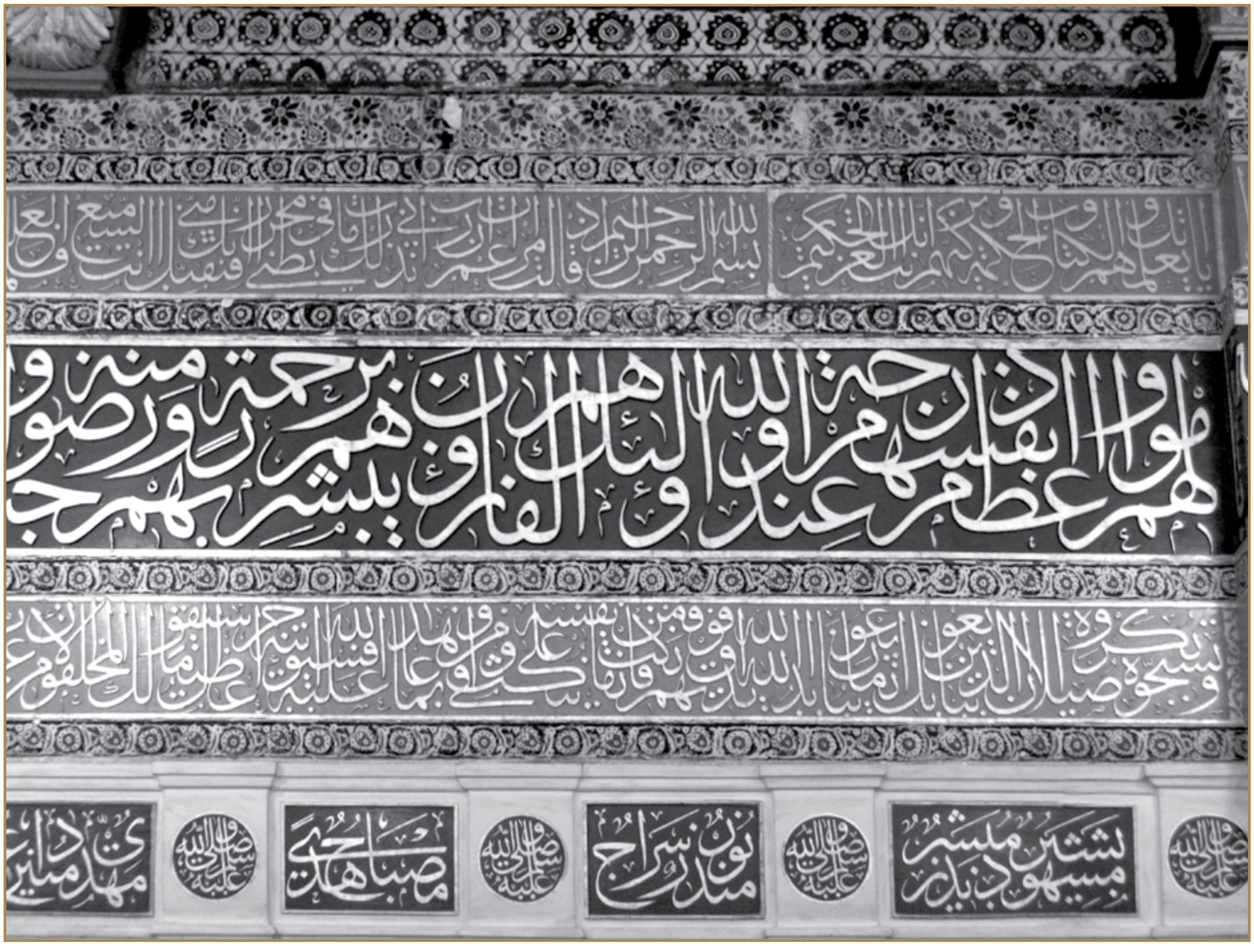
= ابن الزمن، ولد بمدينة دمشق في سنة (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)، دخل مصر أكثر من مرة، وأقام فيها فتراتٍ ترقّى خلالها حتى صار من خيار أعيان التجار، كان على علاقة وطيدة بالأمير الأشرف قايتباي المحمودي قبل أن يكون سلطانًا، ولما أصبح سلطان مصر وبلاد الشام والحجاز (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٥م)، عينه للإشراف على عمائره في بلاد الحرمين عام (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)، وهو نفس العام الذي بدأت فيه إصلاحات قايتباي في المسجد النبوي، توفي بمكة سنة (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م)، انظر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢): ٢٦٠ - ٢٦٢؛ انظر عن عمارة قايتباي بالمجامع: السمهودي، **وفاء الوفا**، مج. ٢: ١٥٨، ١٦٤ - ١٨٥.

(١) لم يكن السلطان سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢هـ/ ١٥٦٦-١٥٧٤م) هو أول من أجرى عمارة للمسجد النبوي من سلاطين آل عثمان،= بل سبقه في ذلك أبوه سليمان الأول القانوني (٩٢٦-٩٧٣هـ/ ١٥٢٠-١٥٦٦م)، الذي قام بإصلاحات واسعة إبان تعمير سور المدينة عام (٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م)، حيث ابتُدِئَ في هذه العمارة عام (٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م)، وقد تناولت باب الرحمة وباب النساء وهدم المئذنة الشمالية الشرقية «السنجارية» وإقامة المئذنة السليمانية مكانها، وإقامة محراب الأحناف أو ما يسمى المحراب السليماني موازيًا لمحراب الشافعية في الطرف الشمالي الشرقي للروضة إلى يمين المنبر الشريف. انظر تفاصيل العمارة السليمانية بالجامع: محمد خضر الرومي، «التحفة اللطيفة في عمارة المسجد النبوي وسور المدينة الشريفة»، في **رسائل في تاريخ المدينة**، تقديم: حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٩٧٢): ٨٥-٩٢.

(٢) السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد الأول بن أحمد الثالث، الثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية (١٢٢٣-١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨-١٨٣٩م)، انظر: محمد فريد المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق: إحسان حقي (بيروت: دار النفائس، ١٩٨١): ٣٩٨.

(٣) السلطان عبد المجيد الأول بن محمود الثاني، الحادي والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية (١٢٥٥-١٢٧٧هـ/ ١٨٣٩-١٨٦١م)، انظر: المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**: ٤٥٥.

(٤) انظر عن تفاصيل العمارة المجيدية التي جرت بين عامي (١٢٦٥-١٢٧٧هـ/ ١٨٤٩-١٨٦١م) في: جعفر بن إسماعيل البرزنجي، **نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين** (مصر: المطبعة الجمالية، ١٩١٤).



النقوش والكتابات العثمانية على جدار القبلة بالمسجد النبوي



نقش السلطان سليمان القانوني على ظهر محرابه بالمسجد النبوي

وفي سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م) رمم المحراب الكبير ومحراب السلطان سليمان، وفي سنة (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) رممت أرضية المسجد، ويجرى بين الحكومتين الآن المصرية والسعودية مفاوضات بشأن إصلاح الحرم النبوي، وقد اعتمدت الحكومة المصرية في ميزانيتها عن عام (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م) مبلغًا من المال لإصلاحه وتجديد ما تداعى منه.

وبالحرم النبوي محراب بالجدار القبلي في مكان محراب عثمان، ومحرابان على يسار الداخل من باب السلام: أولهما الغربي على حدود المسجد القديم ويعرف بالمحراب السليماني، وقد ألصق بظهره لوح عليه اسم السلطان سليمان، وثانيهما على يسار المنبر بالروضة الشريفة، وهو في موضع محراب حضرة



المسجد النبوي ومآذنه الخمس في القرن التاسع عشر

النبي ﷺ أو بمقربة منه، وقد ألصق بظهره لوح عليه اسم السلطان قايتباي. وطراز هذا المحراب مطابق تمام المطابقة للمحراب السليماني. وبالمقصورة الشريفة محرابان؛ أولهما يعرف بمحراب التهجد وهو خلف حجرة فاطمة، والثاني جنوبي محراب التهجد داخل المقصورة.

وللمسجد النبوي خمس منارات؛ ثلاث في الجهة الغربية، واثنتان في الجهة الشرقية، وكبراها مئذنة قايتباي، وهي ذات قاعدة مربعة يعلوها بدن أسطواني[1].

وقد كان بالمدينة مساجد كثيرة في صدر الإسلام. روى أبو داود والدارقطني عن بكر أن مساجد المدينة

(١) هدمت ثلاث مآذن من الخمسة في التوسعة السعودية الأولى التي بدأت عام (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م)، وهي مئذنة باب الرحمة التي بناها قايتباي عام (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)، والمئذنة السليمانية= في الركن الشمالي الشرقي، والمئذنة المجيدية في الجهة الشمالية الغربية. وظلت مئذنتان من الخمس، أولاهما المسماة حاليًّا بالمئذنة الرئيسية وهي المجاورة للقبة الخضراء في الركن الجنوبي الشرقي، والتي عمرها قايتباي ثلاث مرات؛ أعوام (٨٨٦ و٨٨٨ و٨٩٢هـ)، وثانيتهما مئذنة باب السلام في الركن الجنوبي الغربي، وهي من عمارة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام (٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م). ثم بنيت مئذنتان تتناسبان مع العمارة الجديدة في الركن الشرقي والغربي من الجهة الشمالية، فأصبح للجامع أربعُ مآذن في أركانه الأربعة، وفي التوسعة السعودية الثانية التي بدأت عام (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م)، أقيمت ستُ مآذن إضافية فأصبح للجامع عشر مآذن، انظر: محمد إلياس عبد الغني، **تاريخ المسجد النبوي الشريف** (المدينة المنورة، ١٩٩٦): ٦٨، ٨٥.

تسعة سوى مسجد الرسول ﷺ، كلها تقام فيها الشعائر، ويصلى فيها بأذان بلال، وكان في طليعة هذه المساجد مسجد الرسول ﷺ، يجتمعون فيه لصلاة الجمعة في عهد الرسول ﷺ وعهد خلفائه الراشدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ حتى اليوم.

وبهذا نعلم أن تعدد المساجد في البلد الواحد لا خطر فيه، بل هو من إحياء شعائر الله والإكثار من الخير، ولا يمكن لغير أهل المدينة أن يجتمعوا في مسجد آخر مهما بلغ عدد المساجد عندهم غير مسجد رسول الله ﷺ، وكذلك أهل مكة في المسجد الحرام، وأهل القدس في المسجد الأقصى؛ إذ إن لهذه المساجد الثلاثة ميزة أخرى، أفصح عنها حديث: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلا لثلاث». أما في غيرها فالصلاة الجامعة للفرد ليست مقيدة بمسجد خاص، فيصليها في أي مسجد شاء، مع مراعاة الأقرب إلى منطقته؛ حتى لا يلحقه نصب أو تعب.

زخرفة المساجد

هذا وصف إجمالي للمسجد النبوي مشفوعًا بروايات المحدثين المسندة، ومنه نستطيع أن نأخذ أصول فن العمارة الإسلامية، ونجزم أنها ذات فن قائم بنفسه لا يمت إلى أي فن آخر يستمد منه نظامه، كما يذهب إليه فريق من علماء الآثار.

ولم يترك المسلمون بيوت الله ومواطن العبادة؛ حتى صوروها وزخرفوها لغايات نبيلة ظهرت آثارها فيما بعد، منذ القرن الأول الهجري. فقد قام عثمان بن عفان بتزيين المسجد النبوي، على مشرفه أفضل الصلاة والسلام، وزخرفته، وبالغ فيه إلى حد كبير؛ كما رأيت فيما تقدم.

ويصف لنا المؤرخون الإسلاميون عدة مساجد مصورة ومزخرفة منها «جامع دمشق»، الذي وصفه الشيخ شمس الدين المقدسي[(١)]، وكان قد زاره في سنة (٣٧٥هـ)، فقال: «إن حيطانه كانت مبلطة إلى قامتين بالرخام المجزع، ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة المذهبة؛ فيها صور أشجار وأمصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة، وقل من شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الحيطان»[(٢)].

وقال صاحب محاسن الشام فيه أيضًا: «إن الرخام كان في جدران الجامع سبع وزرات، ومن فوقه صفات البلاد وما فيها من العجائب، وإن الكعبة المشرفة وضع صفاتها فوق المحراب، ثم فرق البلاد يمينًا وشمالاً وما بينهما من الأشجار المثمرة والمزهرة».[(٣)] وقد ذكر هذا الجامع الرحالتان «ابن جبير» و«ابن بطوطة» في رحلتيهما بما لا يقل عن ذلك الوصف.

وكذلك «جامع عبد الملك» الذي بناه في القدس[(٤)]، فإن داخله كان مزينًا بالنقوش المختلفة والرسوم البديعة

---

(١) شمس الدين أبو عبد الله المقدسي؛ محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء (٣٣٥-٣٩٠هـ/ ٩٤٦-١٠٠٠م)، ويقال له البشاري، وابن البناء أبرز الجغرافيين المسلمين الذين كتبوا في الجغرافيا الإقليمية. ولد في القدس وعمل بالتجارة فطاف كثيرًا من البلدان، وصنَّف كتابه الشهير «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، انظر: خير الدين الزركلي، **قاموس الأعلام**، مج. ٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢): ٣١٢.

(٢) انظر: المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١): ١٥٧.

(٣) أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري، **نزهة الأنام في محاسن الشام** (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٤١هـ): ٣٢-٤٤.

(٤) هو جامع قبة الصخرة الذي بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بن الحكم (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م)، عام (٧٢هـ/ ٦٩١م) على الصخرة المقدسة بالحرم القدسي الشريف، وهو أقدم أثر قائم في تاريخ العمارة الإسلامية، انظر: كمال الدين سامح، **العمارة في صدر الإسلام** (القاهرة: هيئة الكتاب، ١٩٩١): ١٧- ٢٦؛=



كما سنبينه في هذا الكتاب، وكذلك «الجامع الأعظم» الذي بناه المتــوكل على الله[1]، والذي بقيت منه المنــارة الغربية البناء الموجــودة فيه، وهي المنارة المعروفة باســم «الملوية». فإنك تشــاهد فيه تصاوير ملونة في مواضع الجص الفارغة من النقوش إلى تصاوير أخرى مختلفة الألوان، كصور أناس وغيرها، وكلها ملونة على أبدع مثال.

فالقول الذي يشــاع بأن زخرفة المساجد من الأمور التي نهى عنها الدين وشدد عليها النكير، ويستند القائلون به إلى أحاديث وردت في النهي عن الزخرفة ويعدونه بدعة من أسوأ البدع، ويعللون ذلك بأسباب لا نراها مقبولة بحال مــن الأحوال - قول ينقصه التحقيــق العلمي. وهذا ما قد دعانا للرجوع إلى مســتندهم من هذه الأحاديث فوجدناها منحصرة في الآتي:

أولاً: عن أنس: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمساجد»، رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه

= كريسويل، **الآثار الإسلامية الأولى**، ترجمة: عبد الهادي عبلة (دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٤): ٣٣-٦٦.

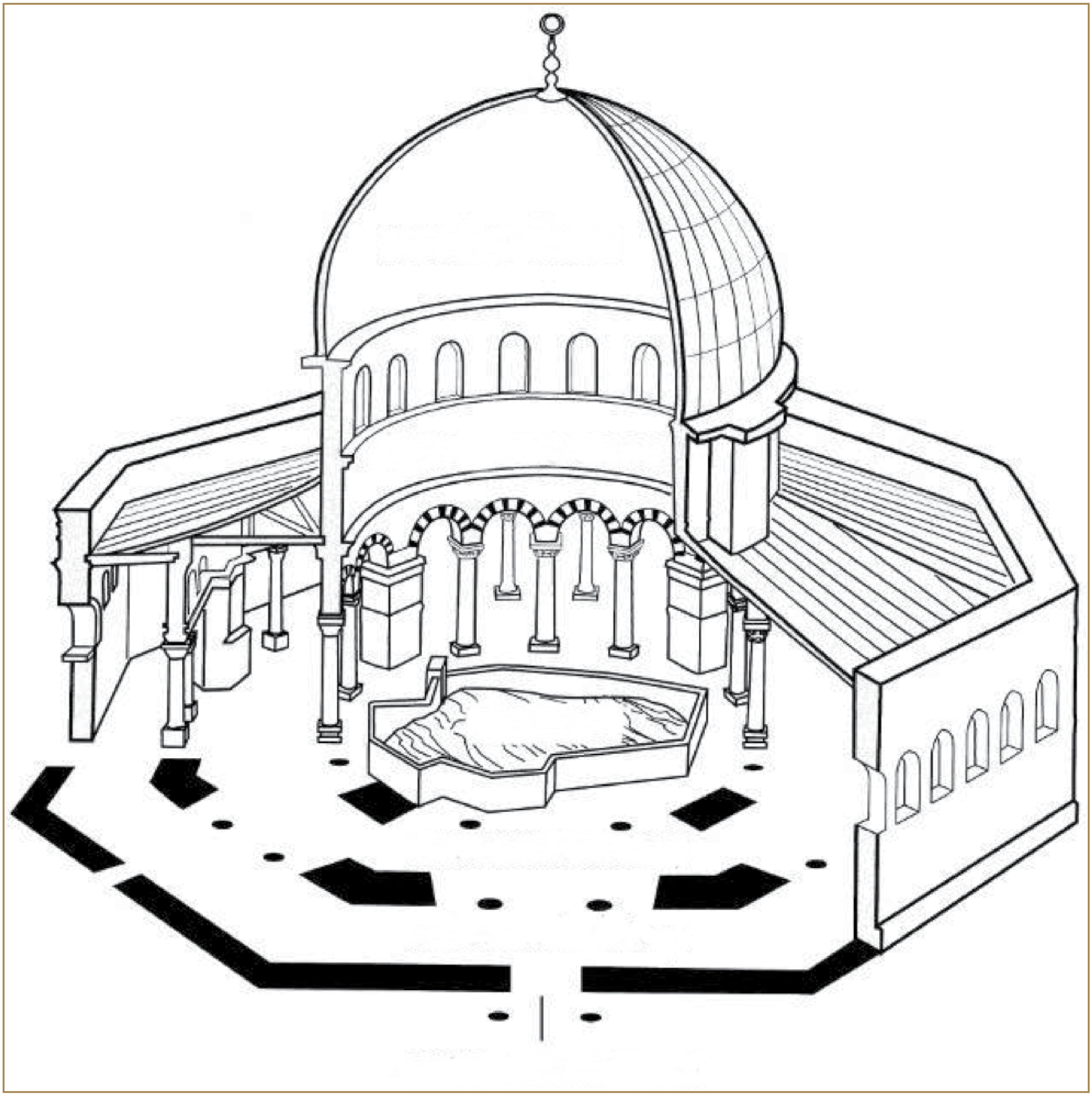
(١) هو المسجد الكبير بسامراء العراق، والذي بناه الخليفة العباسي المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) عام (٢٣٧هـ/ ٨٥٢م)، ويعتبر أكبر المساجد الجامعة في العالم الإسلامي، لم يتبقَّ منه سوى الحوائط الخارجية والمئذنة الملوية التي تشبه الزيجورات البابلية، انظر: سامح، **العمارة في صدر الإسلام**: ١٠٥-١٠٩؛ كريسويل، **الآثار الإسلامية الأولى**: ٣٦١ وما يليها؛ K.A.C. Creswell, *A Short Account of Early Muslim Architecture* (Beirut: Librairie du Liban, 1968): 358-65.



فسيفساء الجامع الأموي الكبير بدمشق



قبة الصخرة من الداخل «عن Oleg Grabar»



تخطيط قبة الصخرة «عن Archnet»

وصححه ابن حبان، وأخرجه ابن خزيمة بلفظ: «يأتي على الناس زمان يتباهون بالمساجد، ثم لا يعمرونها إلا قليلاً».

ثانيًا: عن ابن عباس: «ما أمرت بتشييد المساجد»، أخرجه أبو داود وصححه ابن حبان، وزاد ابن عباس من قوله: «لتزخرفتها كما زخرفت اليهود والنصارى»، وقد علق البخاري هذه الزيادة على قول ابن عباس، لا على قول حضرة النبي ﷺ، والحديث موقوف.

ثالثًا: الحديث لعمر بن الخطاب: «أَكِنَّ الناسَ من المطر، وإياك أن تحمِّر أو تصفِّر فتفتن الناس»، علقه البخاري على قول عمر، وصححه ابن خزيمة من حديثه.

هذا كل مـا ورد من الأحاديث والآثـار عن زخرفة المسـاجد، وأصح ما يعتمد عليه منها حديث أنس؛ الذي يفهم منه أن حضرة النبي ﷺ نبـأ صحابته والناس جميعًا، أن قومًا من أمته يأتي عليهم زمان يتباهون بالمسـاجد «أي بالتنافـس فيهـا» ولا يعمرونها إلا قليـلاً. وهذا الحديث الكريـم - الذي صدع به الذي لا ينطـق عن الهوى - هو وصف كامل لحالة المسـلمين اليوم في بناء المساجد؛ فإنهم يشـيدونها ويتناهون في زخرفتها وتنسيقها، ثم يهجرونها خاوية على عروشها؛ فكأنهم يبنونها لغير ما بنيت له.

أما حديث ابـن عباس، فإن صـح، فيحمل على أن حضرة النبي ﷺ ما أمر بتشييد المساجد، أي بالإكثار منها لحد يشـغله عما نيط به من تبليغ وتعليم وتشريع، ومقام الرسـالة لا يقتضي ذلك بطبيعة الحال. وهذا الحديث فيما يظهر جاء جوابًا لمن سأل النبي ﷺ الاستزادة في بناء المساجد لحد الخروج بها عن حكم المقرر؛ فأجاب به.

وهذا أولى ما يذهب في تأويله، من أي تأويل آخر؛ إذ إن القرآن كلام الله تعالى يأمر بتشـييد المساجد ورفعها، فيقول الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾[1]؛ أي أن تشاد ويتباهى في إشـادتها، ثم ترفع بعد رفعهـا بالبناء رفعًا آخر بذكر الله تعالى وإقامة الشعائر فيها، وهذا ما يفسره حديث أنـس المتقدم. أما قول عمر: «أَكِنَّ النـاسَ من المطر»، فهو قول يرمي إلى إشادة المساجد ورفعها من وجه ظاهر لا غبار عليه، وقوله: «إياك أن تحمِّـر أو تصفِّر» هذه غاية الغايات ونهاية النهايات في معرفة عمر بأصول الهندسة وفن البناء؛ إذ التحمير والتصفير لجدران المسـاجد من العيوب الفنية عند علماء هذا الفن إلا إذا كان طبيعيًّا فيها.

وسترى معي فيما سأعرضه عليك من نماذج المساجد الإسلامية، التي أنشئت من لدن القرن الأول من الهجرة إلى هذا العصر- أنها جميعها كانت تبنى بغير تحمير ولا تصفير؛ لأن ذلك كمـا قلنا عيبٌ فنيٌّ في أصول عمارة المسـاجد، كما سـأقدم لك دليلاً محسوسًا على هذا، وهو ما تفعله لجان حفظ الآثار العربية في العالم الإسـلامي من إزالة التحمير والتصفير، الذي استعمله فريق من الناس في عصور متأخرة في المسـاجد الأثرية التي كانت في وقت ما عارية عن هذه الأصباغ التي لحقت بهذه المساجد.

على أن هنـاك أمرًا حريًّا بالنظـر، وهو تناهي عثمان ابن عفان في زخرفة المسـجد النبوي تناهيًا بلغ الغاية كما بينّا لك آنفًا، حتى إن طائفة من الصحابة قامت تنكر عليه تبذير المال، لا زخرفته للمسجد؛ لأن الإنكار كان مقصودًا به إنفاق المال في وقت كان فيه المسـلمون في أشـد الحاجة إليه، فلما أفهمهم عثمان أن ذلك الصائر خارجٌ عن ميزانية بيت مال المسلمين سكتوا وأذعنوا له.

(١) «سورة النور»، الآية ٣٦.

وقام بعد عثمان صحابي آخر هو عُقبة بن نافع الفهري[١] في سنة خمسين من الهجرة، حينما فتح الله للمسلمين قارة إفريقيا الشمالية؛ وكان هو القائد العامّ لكتائب الجيش الإسلامي الفاتح، قام يبني مسجدًا بالقيروان، وتناهى في زخرفته إلى حد جعله الآن مطاف الزائرين من كل حدب وصوب من أمم مختلفة؛ يقتبسون من زخارفه ما شاءوا؛ ليقيموا بها أبنيتهم، وليتخذوها أصلاً لدراستهم في هذه الناحية، على أن الزخرفة التي عُني بها عُقبة قد تلاشت نوعًا ما، وحلت محلها زخارف أخرى غايتها أواسط القرن الثالث. لكن بعض المشتغلين بعلم الآثار كشف وراء هذه الزخارف الحديثة زخرفة أخرى، تبيّن أنها من آثار عقبة في هذا المسجد[٢].

ثم قام صحابي آخر بعده بثلاث سنوات في مصر ببناء مسجدها الجامع، فزخرف ووسع وشاد ورفع وبنى أكثر من منارة، ونزع ملكية المباني التي كانت حول الجامع؛ ليدخلها في مساحته، فلم يقف له ناكر ولا نكير[٣]، ذلك هو مسلمة ابن مخلد الأنصاري[٤] حاكم مصر العام، في عهد دولة معاوية.

(١) عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري القرشي، أحد أشهر قادة العرب الفاتحين في صدر الإسلام، رغم أنه ولد في حياة النبي ﷺ قبل الهجرة بعام واحد فإنه عُد من التابعين، استشهد في فتح السوس الأقصى بالمغرب عام (٦٣هـ)، انظر: أحمد بن يحي البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع (بيروت: مؤسسة المعارف، د.ت.): ٣١٨ وما يليها؛ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق: شارلز توري (القاهرة، ١٩٩٩): ٣٦٢ وما يليها؛ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، عناية: حسان عبد المنان، مج. ٢ (بيروت: بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٤): ٢٧٠٠.

(٢) لم يتبقَّ من آثار عقبة بجامع القيروان سوى بعض عناصر التخطيط؛ مثل موضع المحراب وتخطيط جدار القبلة، فضلاً عن اختلاف الرأي في الأعمدة، أما الزخارف والعناصر المعمارية الأخرى فترجع إلى إضافات وتجديدات لاحقة، كان أولها عام (٨٠هـ)، ثم زيادة كبيرة نرى آثارها حتى اليوم وعلى رأسها مئذنة الجامع، قام بها بشر بن صفوان عامل الخليفة هشام بن عبد الملك عام (١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، أما أكبر هذه الإصلاحات فقام بها الأغالبة عامَي (٢٢١هـ/ ٨٣٦م) و(٢٦١هـ/ ٨٧٥م)؛ حيث أخذ المسجد صورته النهائية، انظر: أحمد فكري، **المسجد الجامع بالقيروان** (مصر: مطبعة المعارف، ١٩٣٦م): ٦١ وما يليها؛ مساجد القاهرة ومدارسها: ٢٠٣- ٢٠٩.

(٣) المقصود هنا زيادة الوالي مسلمة بن مخلد في جامع عمرو بالفسطاط عام (٥٣هـ/ ٦٧٢م)، انظر: فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**: ٦٨. وعن تاريخ الجامع ومراحل تطوره، انظر: المقريزي، **الخطط المقريزية**، مج. ٤، ج.١: ٨-٥٥؛ محمود أحمد، جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية (القاهرة، ١٩٣٨)؛ حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية** (القاهرة، ١٩٤٦): ٢٣-٣١؛ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**: ٦٧-١٠٠؛ فريد شافعي، **العمارة العربية في مصر الإسلامية** (القاهرة: هيئة الكتاب، ١٩٩٤): ٣٦٣-٣٨٤؛ سعاد ماهر، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون** (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧١): ٥٥-٧٤؛ كريسويل، **الآثار الإسلامية الأولى**: ٣١١ وما يليها؛ K.A.C. Creswell, “The History of the Mosque of Amr at Old Cairo”, *The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland* (October 1890): 759-800; Eustace K. Corbett, “La mosquée de Amru”, *BIFAO* 32 (1932): 121-166; Doris Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture in Cairo: An Introduction* (New York: Leiden, 1989): 47-50.

(٤) مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري، تولى مصر من قبل الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/ ٦٦١-٦٨٠م)، في ٢٠ ربيع الأول عام ٤٧هـ، حتى وفاته في ٢٥ رجب عام ٦٢هـ، انظر: أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، **كتاب الولاة والقضاة**، عناية: رفن كست (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨): ٣٨؛ زامباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، ترجمة: زكي محمد حسن وآخرين (القاهرة: دار الكتب، ٢٠٠٨): ٣٨.

فلو أننا اتخذنا هــذه النصوص الصريحة التي لا تقبل تأويلاً ولا تحويلاً، لعلمنـــا يقينًا أنه لم يكن ثمة نهي عن زخرفة المساجد ولا غيرها.

ثــم إذا أضفنا إلى مـــا ذكر جمهرة مــن علماء الدين الراســخين؛ لا يجــدون في صدورهم حرجًا مــن زخرفة المساجد، ويرون فيها منافع للمصلين والزائرين والعاكفين، بل يرون أن المســاجد إن لم تكن بالغة حــد العناية بها من كل الوجوه والنواحي التي تظهرها بمظهرها الحقيقي بها، عدوا ذلك نقصًا؛ لأنها بيوت الله، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[١]. ولا بــد أن يكون لهذه الإضافة قيمتهـــا من كل وجهة، وقد جاء قول الله تعالى في هذا المقام خاصــة: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[٢]، وقوله جلّ شـــأنه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾[٣] – جاء موضحًا لذلك مبينًا له.

فالآية الأولى والثانية جاءتـــا في غاية الصراحة ببناء المساجد وتعميرها تعميرًا حسنًا والمحافظة عليها من تطرق الخراب إليها بإهمالها وعدم العناية بها، مما هو من عمل لجان حفظ الآثار العربية في العالم الإسلامي اليوم، ثم تكثيرها بدون حــد؛ تذكيرًا بأنعــم الله وإظهارًا للشــعائر وإحياء للقلوب؛ ثم تأمل كيف أمر الله تعالى ببناء المســاجد أولاً وإعدادها صالحة لما بنيت له، ثم طالب ثانيًا بإقامة الصلاة فيها، وهذا ما دعا حضرةَ النبي ﷺ لأن يقول حديثه المتقدم، تنبؤًا بما سوف يئول إليه أمر المساجد في آخر الزمان.

(١) «سورة الجن»، الآية ١٨.
(٢) «سورة التوبة»، الآية ١٨.
(٣) «سورة البقرة»، الآية ١١٤.

وها هو قد دار الزمان دورتــه، وتحققت هذه النبوءة الصادقة وأضحت واضحة كوضح النهار، فها هي المساجد خاوية لا يؤمها إلا عدد من الطبقات الوســطى والفقيرة، بينما تجد المقاهي والملاهي والمتنـزهات والطرقات- عامرة بالناس، وهم في تكاثر وتفاخر؛ قد نســوا أو تناسوا أن لهم ربًّا خلقهم ليعبدوه، وأن لهم دينًا مفروضًا عليهم أن يتبعوه ويؤدوا حقوقــه كاملة غير منقوصة، كل هــذا تركه العالم الإســلامي اليوم ونبذوه ظهريًّا، وهذا معنى حديث حضرة النبي ﷺ.

إذا نحــن قدمنا هــذه الجمهرة، وهم علمــاء الحنفية بإمامهم الأعظم مضافًا إلى ما تقدم، بَطَلَ القول بالنهي عن زخرفة المســاجد، وقد كان الملوك والأمراء والعلماء في كل عصر من العصور الإســلامية، يرون أن المبالغة في زخرفة المساجد وتعليتها ورفعها أمر لازم لازب؛ إظهارًا لدين الله القويم؛ وأي البيوت أحق بالتعلية والزخرفة من بيوت الله؟ ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية تشــدد النكير على تعلية البيوت وإطالتها كما بيناه في كتابنا «نظام الحكومة النبوية» وبالعكــس في بيوت الله؛ فقــد أمرت برفعهــا وإظهارها بالمظهر الحقيقي بها، وإليك خلاصة ما يقوله الإمام القاضي محمد بن الحســن الشــيباني[٤]، صاحب الإمام الأعظم أبي

(٤) أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، ولد بواسط عام (١٣٢هـ/ ٧٤٩م)، أخذ العلم عن مالك بن أنس والإمام أبي حنيفة، وأتم الطريقة على أكبر تلاميذه أبي يوسف. ولاه الخليفة هارون الرشيد قضاء الري فظل بها حتى مات عام (١٨٩هـ/ ٨٠٤م) يومَ موت الكسائي عالم العربية، فقال الرشيد: «دفن بالري الفقه واللغة»، انظر: محمد بن الحسن الشيباني، **الاكتساب في الرزق المستطاب**، تحقيق: محمود عرنوس (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦): ٦-١٥.

حنيفة [المتوفى سنة (١٨٩هـ/ ٨٠٤م)] في كتابه [الاكتساب في الرزق المستطاب ص٧٧]: «لا بأس بأن يتخذ الرجل في بيته سريرًا من ذهب أو فضة، وعليه الفرش من الديباج يتجمل بذلك للناس من غير أن يقعد أو ينام عليه؛ فإن ذلك منقولٌ عن السلف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، روي أن الحسن أو الحسين رضي الله عنهما من تزوج بشاه بانو[١] – على حسب ما اختلف فيه الرواة – زينت بيته بالفرش من الديباج والأواني المتخذة من الذهب والفضة، فدخل عليه مَن بقي من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم –، فقيل: ما هذا في بيتك يا بن رسول الله؟ فقال: هذه امرأة تزوجتها فأتت بمثل هذه الأشياء ولم أستحسن منعها من ذلك. وعن محمد بن الحنفية – رحمه الله – أنه زين داره بمثل هذا؛ فعاتبه في ذلك بعض الصحابة رضي الله عنهم فقال: إنما أتجمل للناس بهذا، ولست أستعمله، وإنما أفعل ذلك لكيلا يشتغل قلب أحد ولا ينظر إليّ بغير جميل. فعرفنا أن هذا إذا اتخذه المرء على هذا القصد لم يكن به بأس، وإن كان الاكتفاء بما دونه أفضل. ويدخل هذا في معنى قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾[٢]. والذي قال «لا يقعد عليه ولا ينام» محمدٌ – رحمه الله – أيضًا.

فأما على قول أبي حنيفة – رحمه الله – فلا بأس بالجلوس والنوم عليه. وإنما المكروه اللبس والملبوس يصير تبعًا له فلا بأس به، قال: ولا بأس بأن ينقش المسجد بالجبس والساج وماء الذهب، قال رضي الله عنه وكان شيخنا الإمام – رحمه الله – يقول تحت اللفظ إشارة إلى أنه لا يثاب على ذلك فإنه قال لا بأس، وهذا اللفظ لدفع الحرج لا لإيجاب الثواب، معناه يكفيه أن ينجو من هذا رأسًا برأس؛ وهو المذهب عند الفقهاء – رحمهم الله –. وأصحاب الظواهر يكرهون ذلك ويؤثمون من فعله، قالوا: لأن فيه مخالفة الرسول ﷺ فيما اختار من الطريقة، فإنه لما قيل له ألا تهد مسجدك ثم تبنيه، قال: «لا عرش كعرش موسى أو قال كعريش موسى». وكان سقف مسجد رسول الله ﷺ من جريد، فكان يكف إذا مطروا حتى كانوا يسجدون في الماء والطين، وعن علي رضي الله عنه أنه مر بمسجد مزين مزخرف، فجعل يقول: لمن هذه البيعة؟ وإنما قال ذلك لكراهته هذا الصنيع في المساجد، ولما بَعَثَ الوليد بن عبد الملك أربعين ألفَ دينارٍ ليزين بها مسجد رسول الله ﷺ، فمر بها على عمر بن عبد العزيز – رحمه الله –، فقال: المساكين أحوج إلى هذا المال من الأساطين. والأصل فيه ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أشراط الساعة أن تزخرف المساجد، وتعلى المنارات وقلوبهم خاوية من الإيمان». ولكنا نقول لا بأس بذلك لما فيه من تكثير الجماعة، وتحريض الناس على الاعتكاف في المسجد، والجلوس فيه لانتظار الصلاة؛ وفي ذلك قربة وطاعة والأعمال بالنيات.

ثم الدليل على أنه لا بأس بذلك ما روي أن أول من بنى مسجد بيت المقدس داود عليه السلام، ثم ابنه سليمان عليه السلام بعده، وزينه حتى نصب على رأس القبة الكبريت الأحمر. وكان أعز شيء وأنفس شيء وجد في ذلك الوقت، فكان يضيء من ميل، وكن الغزالات يغزلن بضوئها بالليالي من مسافة ميل، والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أول من زيَّن المسجد الحرام

(١) اسمها جهان شاه ويعني ملكة العالم، وهي ابنة كسرى يزدجرد آخر ملوك الفرس، كانت من جملة الغنائم بعد فتح المدائن، فأمر عمر بن الخطاب بإعطائها للحسين بن علي رضي الله عنه، فتزوجها وأنجب منها عليًّا زين العابدين، انظر: الشيباني، **الاكتساب في الرزق**: ٨٠، هامش ٢.

(٢) «سورة الأعراف»، الآية ٣٢.

بعد رسـول الله ﷺ وزاد فيه، وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زَيَّن مسجد رسـول الله ﷺ وزاد فيه، وكذلك عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعده بنى المسـجد بماله وزاد فيه وبالغ في تزيينه؛ فدل أن ذلك لا بأس به، وأن تأويل ما روي بخلاف هذا ما أشـار إليه في آخر الحديث «وقلوبهم خاوية من الإيمان»؛ أي يزينون المساجد ولا يداومون على إقامة الصلاة فيها بالجماعة، والمراد التزيين بما ليس بطيب من الأموال أو على قصد الرياء والسـمعة، فعلى ذلك يحمل ليكون جمعًا بين الآثـار. وهذا كله إذا فعل المرء هذا بمال نفسه فيما اكتسبه من حله، فأما إذا فعله بمال المسجد فهو إثم في ذلك. وإنما يفعل بمال المسجد ما يكون فيه إحكام البناء، فأما التزيين فليس من إحكام البناء في شيء؛ حتى قال مشايخنا - رحمهم الله - للمتولي أن يجصص الحائط بمال المسجد ولو فعله كان ضامنًا؛ لأن في التجصيص إحكامَ البنـاء، وفي النقش بعد التجصيص توهين البناء لا إحكامه، فيضمن المتولي ما ينفق على ذلك من مال المسجد.

قال: ألا ترى أن الرجل قد يبني لنفسـه دارًا وينقش سـقفها بماء الذهب فلا يكون آثمًـا في ذلك؛ يريد به أن فيما ينفق على المسـجد للتزيين منفعته ومنفعة غيره. فإذا جاز له أن يصرف ماله إلى منفعة نفسـه بهذا الطريق فلأن يجوز صرفه إلى منفعته ومنفعة غيره كان أولى؛ وقد أمرنا في المساجد بالتعظيم. ولا شك أن معنى التعظيم يزداد بالتزيين في قلـوب بعض الناس من العـوام، فيمكن أن يقال بهذا الطريق يؤجر هو على ما فعله؛ في الحديث أن النبي ﷺ قال: «يثاب المؤمـن على إنفاق مـاله في كل شيء إلا في البنيان» زاد في بعـض الروايات ما خلا المسـاجد، فإن ثبتت هذه الزيادة فهو دليل على أنه يثاب فيما ينفق في بناء المسـاجد وتزيينها»[1].

هذا القدر الذي قدمناه هنا في زخرفة المسـاجد فيه مجزأة.

تطور النظام المعماري في بناء المساجد

من الفذلكة المتقدمة التي صورنا بها المسجد النبوي، على مشرفـه أفضل الصلاة والسـلام، نسـتطيع أن نصور المسـاجد الإسـلامية بأنها أخذت تشـق طريقًا في بنائها، اقتبسـته من نظام المسجد النبوي، بغير ما حاجة لأن تشتق نظامها من أي فن آخر. هذا النظام جعلها تتألف من أربعة أواوين يحدق بها صحن مكشوف، تقوم في وسطه ظُلَّة، وجعل في كل إيـوان منها رواقًا أو أروقة، تقوم على أسـاطين تعلوها عقود، ويحيط بالصحن جميعه أقواس تغطي أروقة الأواوين، وهذه الأقواس تُحمل إما على دعامات، وإما أسـطوانات وإما عليهما معًا، ووجهاتها تتحـلى بزخارف جصية أو بكوات مفرغة، يقصد منها مضاعفة النور في الأروقة، وهذا علاوة على وجود شرفات أخرى بداخل كل إيوان.

وفيما بـين ذلك كله تقـوم مرافق المسـجد؛ فيقوم بالإيـوان الشرقي المحراب، تعلوه قبة يقابلها قبتان في طرفي الإيوان القبلي والبحري، وقد تستعملان كأضرحة في بعض الأحيان، ثم المنبر وسدة التبليغ والمقصورة، وتقوم بالإيوان الغربي مئذنتان تعلوان طرفيه، وتقوم بين جوانب الصحن أبواب أربعة؛ أحدها الباب المؤدي إلى الإيوان الشرقي، وهذا يقوم وسطًا بين أول رواق من الإيوان؛ وترفع فوقه قبة.

(١) انظر النص كاملًا: الشيباني، **الاكتساب في الرزق**: ٨٠-٨٣.

مضت أغلبية المساجد الإسلامية الأولى كلها على هذا النحو، ولم يطرأ عليها أي تغيير جوهري في الأقطار الشرقية.

تطور المساجد في مصر - المدارس

أمـــا في مصر فقد طـــرأ عليها نظام آخـــر جعل منها منظرًا يتألف من أربعة أواوين، بينها صحن مكشـــوف أو مغطى بســـقيفة مربعة ذات منافذ، وجعل واجهة الأواوين أقواسًـــا منحصرة بين طرفي البناء، وجعل الإيوانين الشرقي والغربي متماثلـــين في المنظر يكبر أحدهمـــا عن الآخر، وجعل الإيوانين القبلي والبحري صغيرين متماثلين، يقابل أحدهما الآخر، ولم يغير من مرافق المسجد شيئًا يذكر، بَيْدَ أنه نقل سدة التبليغ إلى جدار الإيوان الغربي، واستغنى عن قبة المحراب بالسقف ذي السماوات المنمقة[1].

كما استغنى عن وجود المنبر في المسجد إلا بشرط من الواقف، وزاد في مرافق المسجد مساكن وخزائن؛ وضريحًا تعلوه قبة، ولم يراعِ في إقامة المئذنة النظام الســـالف الذكر؛ فجعلهـــا تعلو الباب أو في مكان آخر. وهذا النظام اتبع فيما خصصوه للدرس والتعليم، وســـمِّي في اصطلاح المهندسين الإسلاميين للمساجد بالمدارس.

فمثال الطَّرْز الأول ما نراه ماثلاً أمام أعيننا من المساجد التي بنيت في المدة من سنة (٢١-٦٢٢هـ/ ٦٤١-١٢٢٥م)، ومثال الطَّرْز الثاني يظهر بوضوح تام في جامع قلاوون- المدرســـة المنصوريـــة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) - وهو أكـــبر ما هو ماثل لدينا من هذا الطرز إلى اليوم، وأصغره مدرسة جوهر اللالا الزمام (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، وقد أخذ هذا الطَّرْز يشـــق طريقه في أكثر المساجد الإسلامية التي بنيت بعد، إلا ما كان خاصًّا للصلاة دون الدرس والتعليم، فهذه روعي فيها بقاء النظام الأول مع فوارق زمنية.

وفي خلال ذلك ظهر طَرزٌ آخر للمدارس أيضًا، جعل المســـجد يتألف من بلاطين اثنين يقابـــل أحدهما الآخر، وبينهما مجاز. وهذا الطَّرْز شـــاع استعماله في عدة مساجد في القرن التاسع الهجري؛ أمامنا منها الآن بضعة مساجد. ثم ظهر طَرْزٌ آخر، جعل من المســـجد قاعة فسيحة، يحملها سقف ذو سماوات، يرتكز على أساطين متراصة على نظام الأروقة، تعلوها أقواس، يتألف منها بلاطان يقابل أحدهما الآخر. ويوضع في كليهما مرافق المسجد؛ فالمنبر والمحراب في البلاط الشرقي؛ يقابله سدة التبليغ ومنصة القارئ ومصلى النســـاء في بعض الأحيان، في البلاط الغربي. ويتوسط ذلك أســـاطين أو دعامات، يتكون منها قاعـــدة مربعة تقوم في وسط المسجد، تحمل فوقها سقيفة ذات منافذ.

(١) دخلت عمارة المدارس مصر لأول مرة في نهاية العصر الفاطمي، وذلك في مدينة الإسكندرية؛ حيث شيد الوزير رضوان بن ولخشي عام (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م) أول مدرسة لتدريس المذهب المالكي، وأقر الفقيه أبا الطاهر بن عوف للتدريس فيها. وقد عُرفت بالمدرسة الحافظية نسبة للخليفة الفاطمي الحافظ، ثم عرفت بالمدرسة العوفية نسبة للفقيه ابن عوف. وفي العصر الأيوبي انتشرت المدارس انتشارًا عظيمًا؛ وكان ابتداء ذلك عندما هدم صلاح الدين الأيوبي دار المعونة في مصر وعمرها مدرسة للشافعية وكانت بجوار جامع عمرو بن العاص، وهي أول مدرسة عمرت في مصر لإلقاء العلم في الفسطاط، كما حول دار الغزل بجوار جامع عمرو بن العاص مدرسة للمالكية. وفي العصر المملوكي أصبح الطراز المعماري للمدرسة هو الغالب على الأبنية الدينية. انظر عن المدارس بمصر: المقريزي، **الخطط المقريزية**، مج. ٤، ج. ١: ٤٥١ وما يليها؛ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، مج. ٢: ٤٩ وما يليها؛ **خصائص عمارة القاهرة في العصر الأيوبي**، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مج. ١: ١٦٧ وما يليها؛ جمال الدين الشيال، «أوَّل أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية»، **مجلة كلية الآداب**، جامعة الإسكندرية، العدد ١١ (١٩٥٧): ٣ - ٢٩.

وهذا الطراز شاع استعماله حتى اليوم، فيما أنشئ من المساجد الحديثة الفاخرة.

الفن العثماني: نظامه في بناء المساجد

واختلف الفن العثماني الذي دخل مصر بدخول العثمانيين إليها عن هذا الفن العربي. اختلافًا جعل من المسجد صحنًا فسيحًا تحدق به من جهاته الأربع أروقة أو مجنّبات، تحملها أساطين ذات أقواس، عقد سقفها بقباب نصف كروية.

والظاهر أن الفن العثماني في هذه الظاهرة الجديدة، اقتبس هذه الفكرة من الفن العربي؛ إذ إنه سبقه إليها بمراحل طويلة، إلا أنه طبعها بطابعه الخاص، وأقامها على نظام يميل إليه.

ثم جعل الفن العثماني من المجنبة الشرقية قاعة فسيحة تحملها أساطين، تعلوها قبة نصف كروية شاهقة يتألف منها ومن القباب الأخرى منظر يجعلها وسطًا بينها(١)، وتقوم بين ذلك المآذن؛ من واحدة فأكثر. هذا مبلغ تطور النظام العمراني للمساجد في المملكة المصرية. وقد يوجد في بعض المساجد فوارق يسيرة تغاير هذا النظام، لكنها في الوقت نفسه لا تخرج عن هذه القاعدة.

(١) كانت العمارة العثمانية في بداياتها استمرارًا للعمارة السلجوقية حتى فتحت القسطنطينية عاصمة البيزنطيين عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، ومنذ ذلك الحين دخلت الأساليب البنائية للبيزنطيين إلى الطراز العثماني، خاصة ما نراه في كنيسة آيا صوفيا من قبة مركزية شاهقة، تقوم على أنصاف قباب، وهو ما أصبح مثالاً يحتذى في عمارة المساجد في العصر العثماني.

مواد العمارة العربية في الإسلام

هذا، ولا ننسى أن المسلمين قد استعملوا في بناياتهم الطوب أولاً ثم الحجارة ثم الأسمنت المسلح، وهذه المادة الأخيرة لم تعرف في العصر الحديث إلا منذ عهد قريب. وكانوا يكونون هذه المادة من مزيج الجير والرمل والطَّفل والأحجار الصغيرة حتى تكون بذلك صلبة كالحجر المنحوت. ولدينا شواهد كثيرة من آثارهم من ذلك النوع؛ منها جامع ابن طولون، وقصر مدينة كوبا في صقلية «سيسليا الآن»(٢)، وأبواب القاهرة، وجامع الحاكم، وقصور الأندلس وغيرها.

وكل هذه الآثار القائمة إلى اليوم تشهد بأفصح بيان وتنطق بكل لسان بفضل ما كان للعمارة العربية في الإسلام من التقدم والبراعة.

(٢) جزيرة صقلية أو سيسليا الإيطالية، أكبر جزر البحر المتوسط.

مخترعات المسلمين في فن العمارة

العقود

اخترع المسلمون الأعمدة والتيجان على طَرْز ينبو عنه كل الطرز الماضي.

وإنك لتدهش حينما ترى الأعمدة العربية التي كانوا يجعلون أجزاءها الثلاثة بالنقوش المحفورة، ويطعمونها بالسن والعاج، ويزينون تيجانها بالكرانيش والجفوتات والمقرنصات.

وليست هذه العقود التي يسميها علماء فن العمارة بالعقود الستينية والعقد المخموس والعقود المثلثة، والعقود المكونة من أقواس وممزوجة بخطوط مماسة لها ومتقاطعة عند قمة العقد، والعقد المكون من سلسلة عقود مختلفة- ليست إلا من اختراع المسلمين وحدهم، وقد اعترف علماء الغرب بذلك اعترافًا لم يدع معه ريبة لمرتاب وفي ذلك يقول بعضهم: «لم يكن يعرف قبل العرب إلا العقد نصف الأسطواني، ومع ذلك كان قليل الاستعمال، فأغلب العقود المستعملة الآن في الطرز الأجنبي مأخوذة من العقود العربية، بفضل بحث رجالهم واجتهادهم الذي عاد على فنونهم بالتقدم والنجاح».

الدلايات أو المقرنصات

الدلايات هي الأشكال الهندسية العجيبة التي نراها في أغلب الآثار العربية تشغل منها محلاً عظيمًا، وتسمى في الاصطلاح المعماري بالمقرنصات، وهي شبيهة تقريبًا بخلايا النحل، ويسميها علماء الفرنجة بالدلايات؛ لكونها تتدلى في الفراغ كما يتدلى النجف في الأفراح، وهي ذات طبقات مصفوفة بعضها فوق بعض ببراعة فنية كانت عندهم مألوفة.

وليس الغرض منها الزينة والزخرفة وحسب، بل إنها تشغل في الهندســـة المعمارية ركنًا عظيمًا مهمًّا للغاية، كما أنها تشغل مثله في الهندسة الزخرفية.

ونستعمل الدلايات في أحوال كثيرة:

أولاً: في طريقة الانتقال من شكل إلى آخر يخالفه، مثال ذلك ما نراه في القباب، وهي في الغالب كروية محمولة على قواعد مربعة الشكل، ففي الفراغ الناشئ عادة من انتقال السطح المربع إلى سطح دائري كان المهندسون الإسلاميون يملأونه بهذه الأشكال وهي الدلايات، فيضعون الصفوف فوق بعضها، كل صف يبرز عن الذي أسفله، حتى يلتقي الصف الأعلى بصف القبة، وفي هذه الحالة تعمل الدلايات عملين عظيمين: الأول- أنها حملت الثقل الموزع عليها في أركان القبة الأربعة، فهي من هذه الوجهة شبيهة بالعقود في حمل ما يعلوها من المباني؛ الثاني- وهو الزخرفة الفاخرة التي تنشأ عنها بحسن وضعها الهندسي والبراعة الفنية في تكوينها وتصويرها.

ثانيًا: تستعمل الدلايات في المنارات أسفل دورات المؤذن، وذلك لإيجاد البروز الذي يدور فيه المؤذن، وهي كذلك أيضًا في هذه الحالة عملت عملاً فنيًّا، وهو عمل الكوابيل التي نراها عادة أسفل الشرفات وغيرها لحملها.

ثالثًا: ما نشأ عنها من الزخرفة والزينة، ويختلف شكلها حسب اختلاف البلاد. فكان شكلها في أول الأمر على شكل مثلثات كروية ومجوفة. واستعملت في القرن الرابع والخامس في صقلية، ثم نوعها مسلمو الأندلس وأعطوها أشكالاً منشورية مجوفة، وأحيانًا أشكالاً أخرى ذات سطوح مجوفة.

فاستعمال المقرنصات و الدلايات هو خاص بالمسلمين، ولم يعرف قبلهم في أمة من الأمم .

ومن مبدأ القرن السادس انتشر استعمال هذا النوع من الدلايات في كافة البلاد الإســـلامية، وتنوعت في جميع البروزات وخلافها؛ كالمنارات والقباب، وفي اتصال السطوح ببعض.

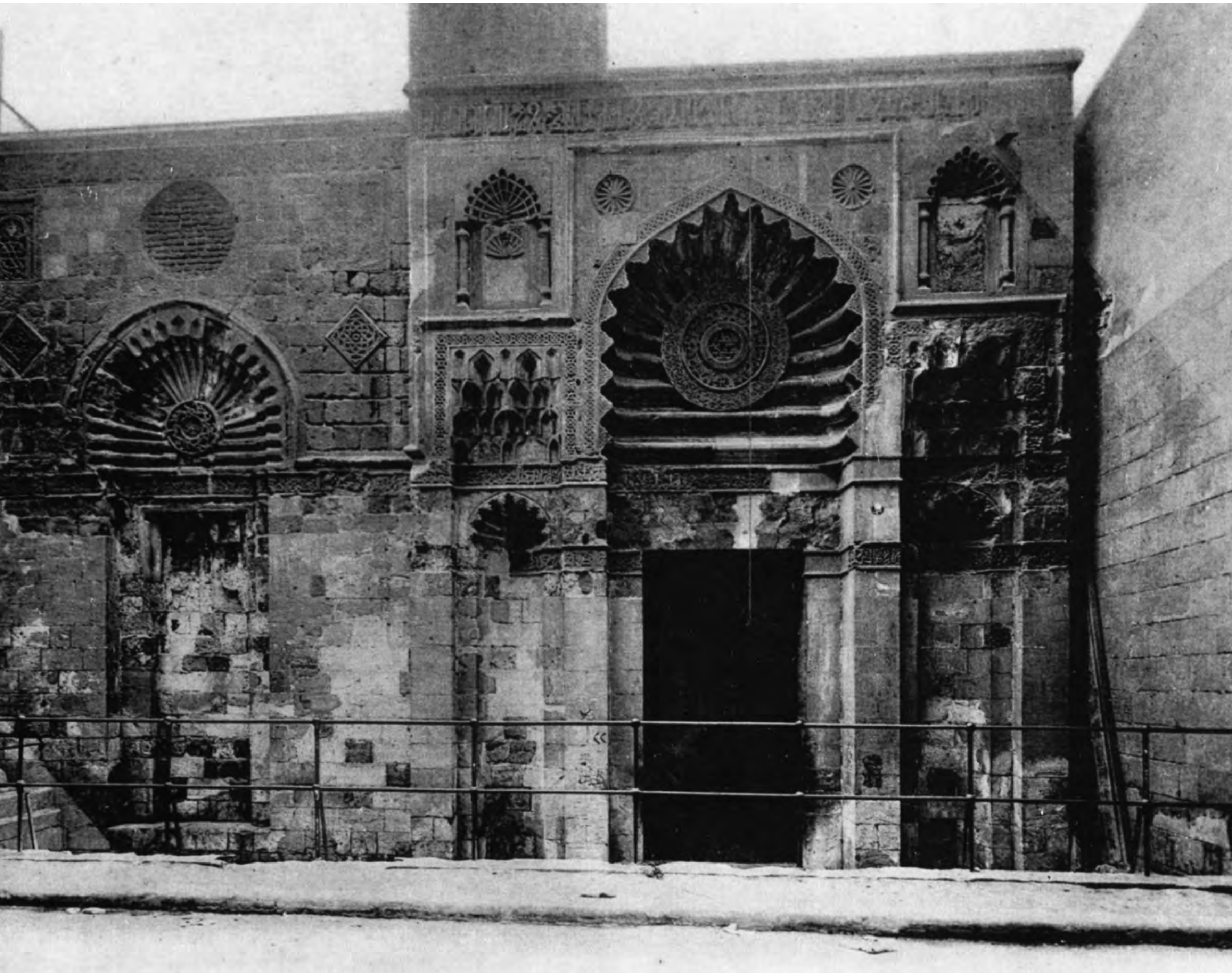
وقد كان للمســـلمين في مبانيهم مـــيزات كثيرة، منها كـــثرة الـــبروزات في الحوائـــط، وهي ميزة نالـــت إعجاب كافة المهندســـين من أجانب وخلافهم؛ لمـــا فيها من الرونق والزخرفة والمقدرة الفنية.

وقد كان منشأ اختراع هذه الدلايات والمقرنصات في بلاد الأندلس، ومنها انتشرت في كافة البلاد الإسلامية.

وأول استعمالها في مصر كان في عصر الدولة الفاطمية، فكانت القاهرة تتســـع في مدة خلافة كل خليفة بما يستجد داخلها وخارجها من المباني الفاخرة. فهم أول من اســـتعمل الأحجار في المباني الإسلامية، وكانت القاهرة في أيامهم مقرًّا للعلـــوم والفنون، فأخذت المدنية الإســـلامية فيها دورًا لم يكن لها من قبل.

وأول مســـجد اســـتعملت فيه المقرنصات في العصر الفاطمي هو المسجد الأقمر المنشأ في سنة (٥١٩هـ/ ١١٢٥م)[١]،

(١) وقد ظهرت في الواجهة الحجرية للمسجد وهي مكونة من أربع حطات، وكانت الأولى من نوعها في عمارة القاهرة إذا استثنيت مقرنصات مئذنة مسجد الجيوشي التي تتكون من حطتين وصنعت من الآجر، انظر: أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، مج. ١: ١٠١.

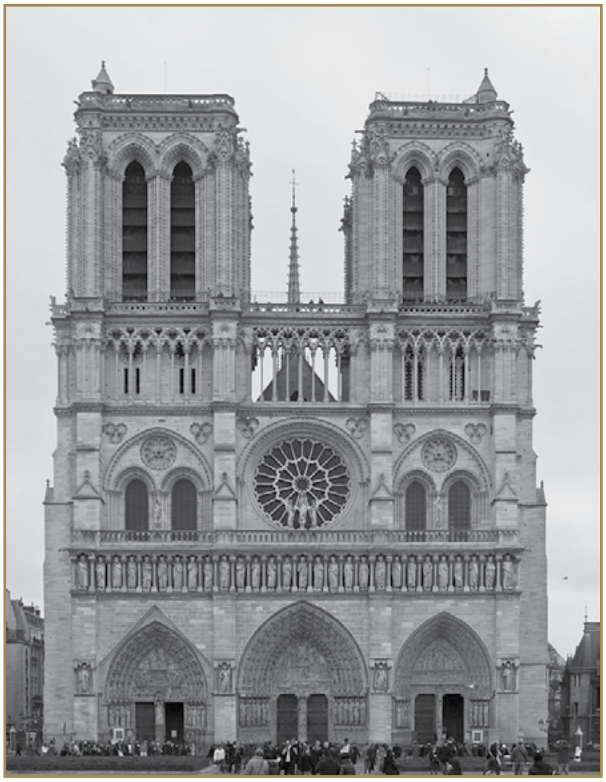


واجهة الجامع الأقمر

في عهد الآمر الفاطمي، وفي عهد الدولة الناصرية[١] شاع وذاع استعمالها في العمارات؛ مساجد وغيرها، كما ترى في مسجد السلطان حسن وغيره.

وقد انتقل هذا الفن إلى أوروبا عن طريق المسلمين، فتجد الكثير من الآثار الأوروبية محلى بزخارف ونقوش عربية. أمثال برج الجرس في كاتدرائية بوى وبعض كنائسها، وكنائس ماجليو وكنديا، وكنيسة نوتردام دي باري، وغيرها من الكنائس والمعابد التي توجد في الولايات الجنوبية لمدينة فرنسا[٢].

وأمثال بعض الكنائس التي توجد في مدن إيطاليا وغيرها، ولسنا نريد بسط القول في هذا الموضوع خاصة، ويمكن مراجعة الكتب المخصصة لهذا البحث؛ كتاريخ باريس لدولور، ولكثير من أمثاله كفياردو وبريس دافين ولينورمان وباتسيه وبلانك وغيرهم ممن شهدوا بفضل هذا الفن الإسلامي وتقدمه.



واجهة كاتدرائية نوتردام دي باري بجنوب فرنسا

الزخرفة والنقش

وعلاوة على ذلك فإن المسلمين هم الذين اشتغلوا بفن الزخرفة والنقش وبرعوا فيه براعة شهدت لهم بها صحائف التاريخ، وإن كثيرًا من آثارهم في النقش والزخرفة باقٍ إلى اليوم بالبلاد التي سبق لهم فتحها وامتلاكها، كميلان وروما[٣] وغيرها.

وليست الأندلس وحدها هي مفخرة المسلمين في العمارة وحسب، بل إن المسلمين في كل بلد قد بلغوا الغاية القصوى من هذه الصناعة، في مصر وبغداد والشام وإفريقيا

(١) هي دولة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي حكم ثلاث فترات كان آخرها أطولها (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م)، والتي استمرت من بعده على يد أولاده وأحفاده حتى نهاية دولة المماليك الأولى في مصر والشام عام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م).

(٢) شهد الفن الرومانسكي بوسط وجنوب فرنسا منذ نهاية القرن العاشر الميلادي إلى القرن الثاني عشر قبل أن يتطور إلى الفن القوطي، الكثير من المؤثرات الإسلامية التي انتقلت له عبر الأندلس، عن هذه المؤثرات انظر: أحمد فكري، «التأثيرات الفنية الإسلامية العربية على الفنون الأوروبية»، **مجلة سومر** ٢٣ (١٩٦٧): ٦٧-٩٤؛ سعد زغلول عبد الحميد، «المؤثرات الإسلامية على الفن الرومانسكي في أوروبا الغربية كما نراها في أعمال الدكتور أحمد فكري»، **بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية** (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣): ٣-٣٦؛ Ahmed Fekry, *L'art roman du Puy, et les influences islamiqes*, (Paris, 1934).

(٣) لم يسبق للمسلمين أن فتحوا أو امتلكوا مدينة روما الإيطالية، بل كان نفوذهم منحصرًا في جزيرة صقلية وجنوبي شبه الجزيرة الإيطالية.



جامع الزيتونة بتونس أواخر القرن التاسع عشر

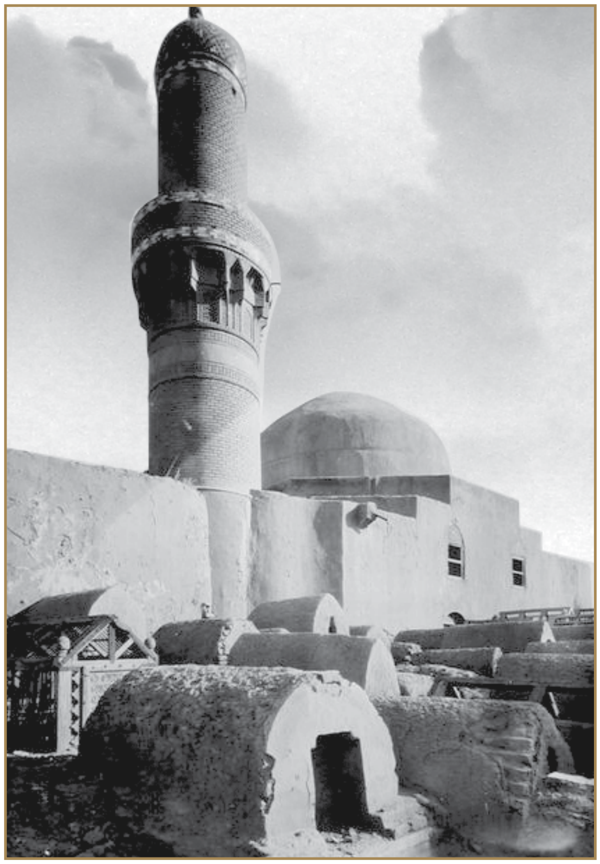
الشمالية وغيرها؛ ومن آثارهم التي ما برحت بارزة للعيان جامع عقبة بن نافع بالقيروان، الذي أنشئ في منتصف القرن الأول للهجرة ثم تجدد في أول القرن الثاني؛ وهو مثال كامل لمساجد الإسلام الأولى، وأخصها مسجد الرسول ﷺ، ثم جامع الزيتونة بتونس الذي أنشأه حسان بن النعمان الغساني[١] في سنة (٧٩هـ/ ٦٩٨م)، ثم جدده ووسعه عبيد الله ابن الحبحاب في سنة (١١٤هـ/ ٧٣٢م)[٢].

ثم جامع القرويين بفاس، وهو مثال لما بقي من الآثار النسوية في بلاد المغرب، أنشأته السيدة فاطمة الفهرية القيروانية في سنة (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، ثم جامع مدينة تلمسان وآثارها العربية، وجوامع الرباط وسلا ومراكش وغيرها مما أفردنا لبيانها من الناحية التاريخية والفنية رسائل مستقلة، أبنّا فيها وجه الحقيقة عن هذه الآثار التي خبط فيها جمهرة

(١) حسان بن النعمان الغساني، من أبرز قادة الفتح الإسلامي بالمغرب، ولي إفريقية من قبل عبد الملك بن مروان عام (٧٣هـ/ ٦٩٢م)، أكمل مسيرة عقبة بن نافع في فتح المغرب، أنشأ مدينة تونس؛ لتكون قاعدة للمسلمين في المغرب الأوسط، توفي عام (٨٦هـ/ ٧٠٥م)، انظر: ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، مج. ١: ٢٦٩-٢٧٤.

(٢) هو عبيد الله بن الحبحاب الموصلي، تولى مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك عام (١١١هـ/ ٧٢٩م)، وفي عام (١١٦هـ/ ٧٣٦م) =

= تم نقله واليًا على إفريقية، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بناء جامع الزيتونة، ولكن أغلب الأقاويل ترجعه إلى فترة ولايته (١١٦-١٢٣هـ/ ٧٣٦-٧٤٢م) والأرجح عام (١١٦هـ/ ٧٣٦م)، انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**: ٤١٦؛ زامباور، **معجم الأنساب**، مج. ١: ٣٩؛ وعن تاريخ جامع الزيتونة وتطور بنائه، انظر: أحمد فكري، «مسجد الزيتونة الجامع»، **الجمعية التاريخية المصرية** ٤، العدد ٢ (١٩٥٢): ٨٤ وما يليها.



مئذنة جامع معروف الكرخي ببغداد «عن كريسويل»

من علماء الآثار خبط عشــواء، ولم يبينوا حقيقتها وذهبوا فيها مذاهب شتى.

ومن آثار المســلمين الماثلة إلى الآن التي تشــهد لهم بعظيم الفضل والتقدم في هذا الفن، جوامع بني أمية بدمشق وحلــب والقدس والرملة، وجوامع إيــران وبغداد، كجامع معروف الكرخي ذي المئذنة العجيبة، ومئذنة جامع المكتفي بالله المعروفة بمئذنة مســجد الخلفاء، وهي بشــكلها الحالي تــدل الناظر إليها على فنها الباهر رغم شــيخوختها، وجامع المستنصر بالله المعروف بالقمرية، وبقايا المدرسة المستنصرية إلى غير ذلك. أما آثارهم بمصر فهي عبارة عن مجموعة فاخرة

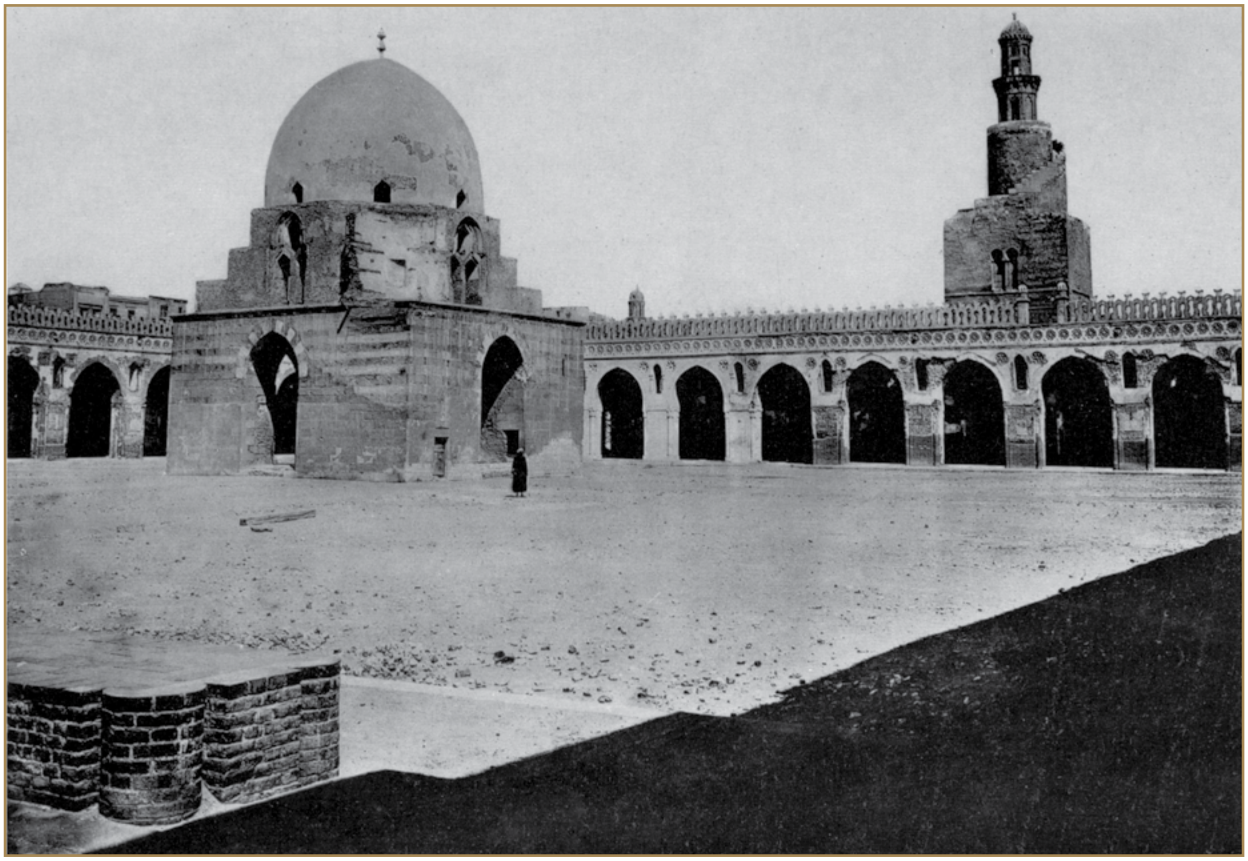


جامع عمرو بن العاص بالفسطاط

تتألف من فنون شتى، تتكون منها جبهة معمارية تشهد لهم بالنبوغ والرقي في هذا الفن إلى أبلغ نهاية.

فتجد في مدينة الفســطاط عاصمــة الديار المصرية المؤسســة في ســنة (٢١ من الهجرة/ ٦٤١م) - جامع عمرو، وهو أشهر ما أقيم من مبانيها، وعلى الرغم من ضياع معالمه الأولى للأسباب المذكورة في تاريخه، فإنه من الآثار العربية الجديــرة بالانتباه؛ ومما يدعو إلى التأمل فيه تلك المخلفات التي عثر عليها الباحثون من آثاره الأولى التي يرجع عهدها إلى الدولة العباسية والفاطمية.

ثم مجموعة الدور التي كشــفتها حفريات الفسطاط التي ألقت على علماء الآثار في الشرق والغرب ضوءًا كثيرًا



جامع أحمد بن طولون

من الفن الإسلامي في عمارة المنازل والقصور وإنشاء الطرق إلى غير ذلك.

ثم تغادر مدينة الفسطاط إلى المدينة الطولونية «القطائع» التي أنشأها ملك مصر المستقل أحمد بن طولون(١) في سنة (٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، في شمالي مدينة العسكر. فأول ما يسترعي نظرك بهذه المدينة الجديدة ذلك الجامع العظيم «جامع ابن طولون»، الذي هو أظهر مثال في فن العمارة الإسلامية تخلف من ذلك العهد، وأشهر أثر إسلامي بقي حتى الآن حافظًا لأوضاعه(٢).

(١) أبو العباس أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ/ ٨٦٨-٨٨٤م)، مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩١هـ/ ٨٦٨-٩٠٤م)، أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية بمصر والشام، انظر ترجمته وفترة حكمه: الكندي، **كتاب الولاة**: ٢١٢-٢٣٣؛ أبو محمد عبد الله ابن محمد المديني البلوي، **سيرة أحمد بن طولون**، تحقيق: محمد كرد علي (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.)؛ أبو العباس أحمد بن محمد ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، مج.١ (بيروت، ١٩٦٩-١٩٧٢): ١٧٣ وما يليها؛ المقريزي، **المقفى الكبير**، تحقيق: محمد اليعلاوي، مج.١ = (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١): ٢٢٠-٢٧٠؛ سيدة كاشف، **أحمد بن طولون** (القاهرة، ١٩٦٥).

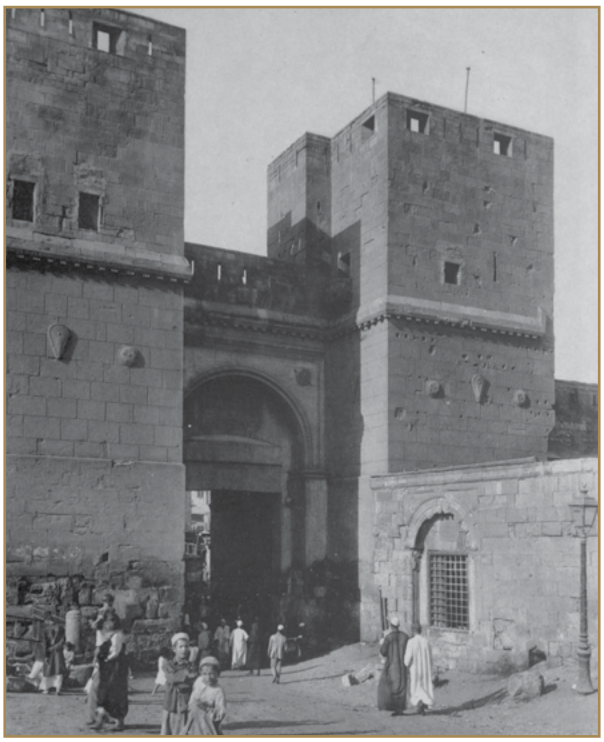
(٢) يعد جامع ابن طولون أقدم المساجد الجامعة القائمة في مصر وأعظمها قيمة أثرية وأكثرها اتساعًا، فهو يشغل مساحة قدرها ستة أفدنة ونصفًا. وتمتاز عمارة هذا المسجد ببنائه كله من الآجر المكسو بالجص، وباستخدام الدعامات في حمل العقود ورفع السقف لأول مرة في مصر بدلاً من الأعمدة، كما نراه من قبل في جوامع العراق، أما المئذنة فهي العنصر الوحيد من =

فإذا غادرت مدينة ابن طولون إلى العاصمة الجديدة التي أسسها جوهر[١] لمولاه المعز لدين الله الفاطمي[٢] في سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م)، تجد فيها من الآثار العربية الجميلة ما يبهر النظر من جمال الفن وإحكام الصنعة ودقة التصوير، وانسجام الوضع والتنسيق.

فتجد من ذلك أبواب القاهرة الثلاثة التي بقيت من ثمانية أبواب كانت تحيط بهذه المدينة؛ فمنها باب زويلة،



باب زويلة أواخر القرن التاسع عشر



باب النصر أواخر القرن التاسع عشر

= عناصر الجامع التي استخدم في بنائها الحجر وليس الآجر، وقد اشتهرت باسم المنارة الملوية؛ لأنها بنيت على غرار منارة المسجد الجامع في سامراء مما يشير إلى التأثيرات العراقية، انظر عن تاريخه: محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد بن عبد الظاهر، **الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة**، تحقيق: أيمن فؤاد سيد (بيروت: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٦): ٧٦-٨٥؛ المقريزي، **الخطط المقريزية**: ٥٩-٩٠؛ محمود عكوش، **تاريخ ووصف الجامع الطولوني** (القاهرة، ١٩٢٧)؛ حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد**، مج. ١: ٣٢-٤٦؛ فكري، **مساجد مصر ومدارسها**: ١٠١-١٣٦؛ فريد شافعي، **العمارة العربية**، مج. ١: ٤٦٣-٤٩٥؛ ماهر، **مساجد مصر**، مج. ١: ١٣٥-١٥١؛ كريسويل، **الآثار الإسلامية الأولى**: ٣٩٩ وما يليها.

(١) القائد أبو الحسن جوهر بن عبد الله، المعروف بالكاتب الرومي، كان من موالي المعز بن المنصور، سيره المعز لفتح مصر في ربيع الأول سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م)، تسلم مصر في شعبان من نفس السنة، وفيها بدأ في بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة ملك الفاطميين، انظر ترجمته: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**: ٣٧٥-٣٨٠؛ المقريزي، **المقفى الكبير**، مج. ٣: ٨٣-١١٢؛ علي إبراهيم حسن، **جوهر الصقلي** (القاهرة، ١٩٣٤).

(٢) الإمام أبو تميم معد المعز لدين الله، الخليفة الفاطمي الرابع (٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٣-٩٧٥م)، انظر ترجمته: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج. ٥: ٢٢٤-٢٢٩؛ لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب، **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**، القسم الثالث من أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق: أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني (الدار البيضاء، ١٩٦٤): ٥٥-٦١؛ المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: جمال الدين الشيال، ومحمد حلمي محمد أحمد، مج. ١ (القاهرة، ١٩٩٦): ٩٣-٢٣٥.

وباب النصر، وباب الفتوح، وهي كلها من إنشاء بدر الجمالي[١] وزير المستنصر[٢]، أنشأها ما بين سنة (٤٨٠-٤٨٥هـ/ ١٠٨٧-١٠٩٢م).

أما الآثار الفاطمية التي تزدان بها هذه المدينة وظواهرها فقد أبقى منها الدهر أهمها، وهي الأزهر ورغم عن أن هذا الأثر تتألف منه الآن مجموعة من فنون شتى تداولت عليه في عصور مختلفة، فإن آثار الفاطميين فيه ماثلة كوضح النهار، أخصها الإيوان الشرقي بعقوده الهندسية ومحرابه الجميل.

ثم جامع الحاكم، الذي يلفت النظر بمآذنه وزخارفه الجصية.

(١) أبو النجم بدر الجمالي، المنعوت بالسيد الأجل أمير الجيوش، كان مملوكًا أرمينيًّا لجمال الدولة أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس الشام، ولي دمشق من قبل المستنصر في ٢٣ من ربيع الآخر سنة (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)، كان بعكا حين انتهكت حرمة المستنصر فكتب إلى أمير الجيوش كتابًا يستدعيه للقدوم عليه وإنجاده، فسار من عكا حتى دخل على المستنصر لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة (٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م)، وشرع في تدبير الأحوال واستبد بأمور الدولة، ولم يزل على قوة وسداد من أمره إلى أن مات سنة (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، انظر ترجمته وأخباره في: أبو القاسم علي بن منجب بن الصيرفي، **الإشارة لمن نال الوزارة**، تحقيق: أيمن فؤاد سيد (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠): ٩٤-٩٧؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج. ٢: ٤٤٨-٤٥٠؛ المقريزي، **المقفى الكبير**، مج. ٢: ٣٩٤-٤٠٢؛ **اتعاظ الحنفا**، مج. ٢: ٣١١-٣٢٩.

(٢) أبو تميم مَعَد المستنصر بالله، الخليفة الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٦-١٠٩٤م)، صاحب أطول فترة حكم مسجلة في التاريخ الإسلامي والتي امتدت لستين سنة قمرية وأربعة أشهر، يعتبر حكمه بداية فترة ضعف الدولة الفاطمية وتناقص نفوذها، انظر ترجمته: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج. ٥: ٢٢٩ وما يليها؛ المقريزي، **اتعاظ الحنفا**، مج. ٢: ١٨٤-٣٣٤؛ عبد المنعم ماجد، **الإمام المستنصر بالله الفاطمي** (القاهرة، ١٩٦١).

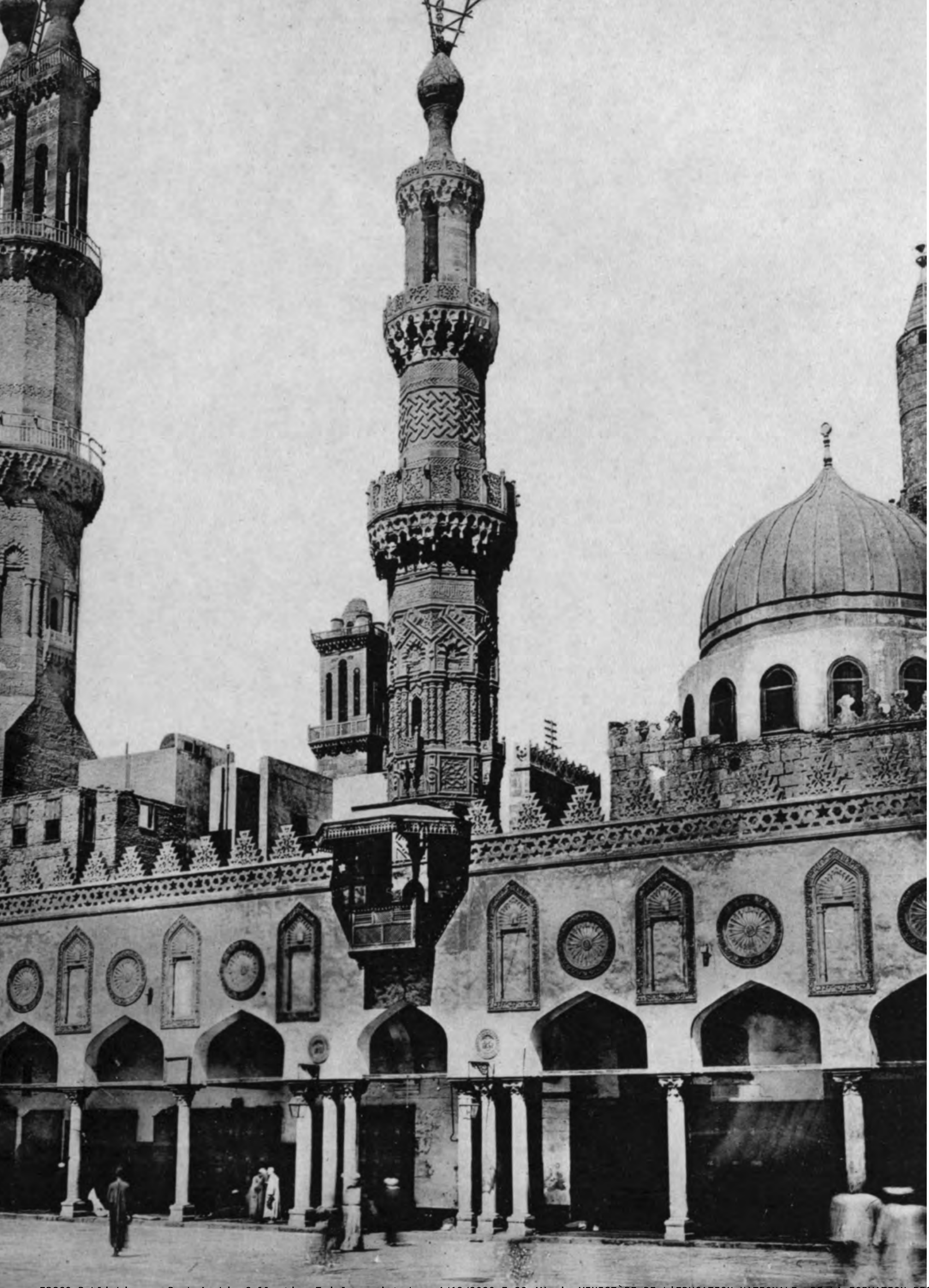


باب الفتوح

ثم الجامع الأقمر، وأهم ما يلفت النظر فيه واجهته الغربية المبنية بالحجر المنحوت والمحلاة بمقرنصات.

ثم الجامع الصالح طلائع بن رزيك، والمتأمل في هذا الجامع يجد فيه تحفة من الفن الإسلامي تتجلى في زخارفه ونقوشه وعقوده وجمال وجهته الغربية البديعة الشكل.

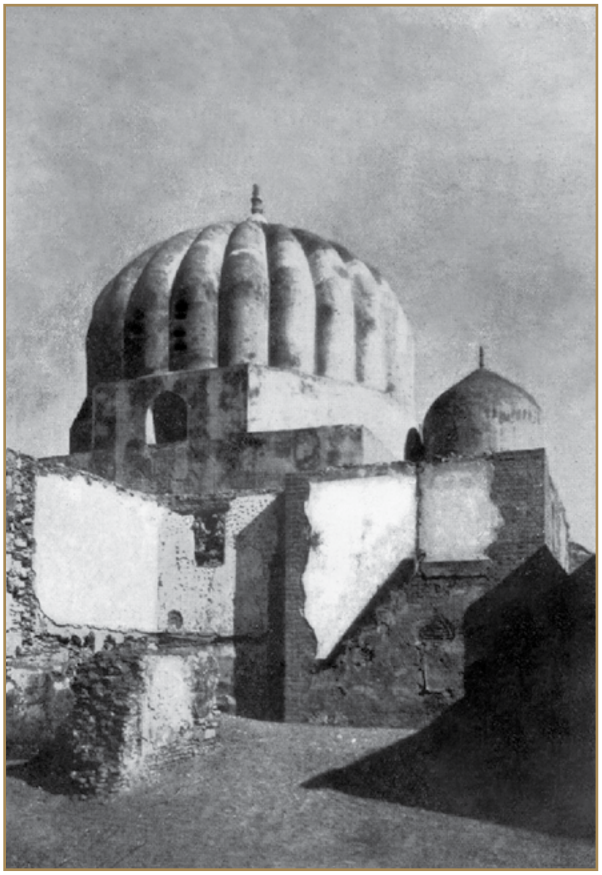
وهذه، وإن كانت هي أشهر الآثار الفاطمية المتخلفة من هذا العهد، فإنه لا يزال باقيًا منها ما يلفت النظر؛ كتربة بدر الجمالي المذكور آنفًا، المنشأة في سنة (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م)، وهي المعروفة بالشيخ يونس السعدي بشارع نجم الدين ظاهر باب النصر، والذي يلفت النظر فيها من آثار ذلك العهد، تصميم القبة وعقودها الفاطمية والطراز المحلى بنقوش وكتابات كوفية، الذي عن يمين المحراب ويساره. وفي هذه التربة كان المقر الأخير لذلك الوزير الخطير بدر



الجامع الأزهر



جامع الصالح طلائع، أواخر القرن التاسع عشر



مشهد الأشراف المعروف بيحيى الشبيه

الجمالي؛ ثـم لابنه الأفضل وجمهرة من أولاده وأحفاده. وقد كتبنا عنها بحثًا وافيًا لم يُسبق إليه، أبنّا فيه حقيقة كانت مجهولة عن هذا الأثر.

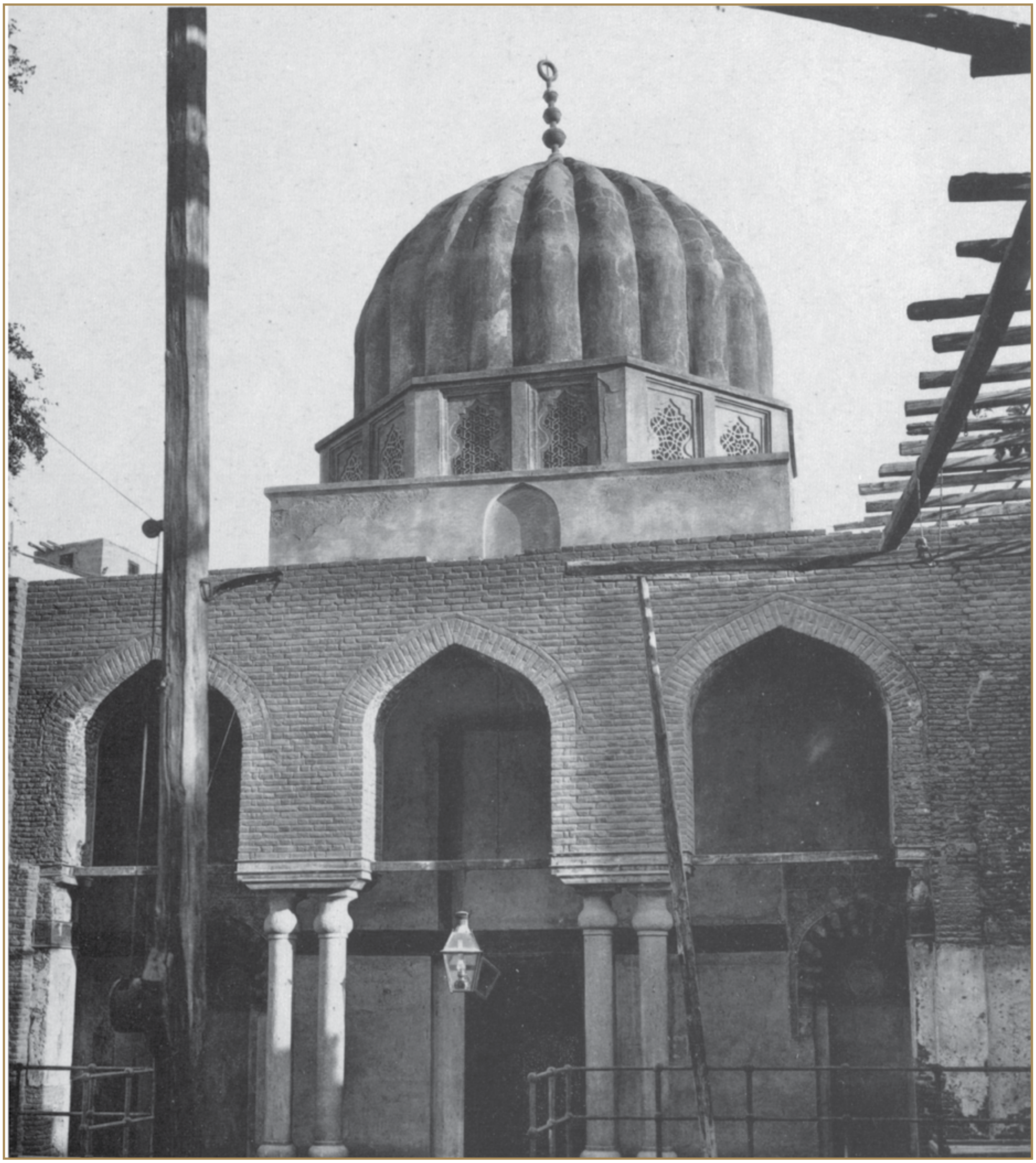
ومما يلفت النظر من المشاهد الفاطمية مشهد الأفضل ابـن بدر الجمالي الكائن بأعلى الجبل المقطم، وهو يسترعي النظر بنظامه الممتزج ومئذنته ونقوشه الجصية، وفيه استقر الأمير سند بن الأفضل.

ثم مشهد الأشراف المعروف بالشبيه بالقرافة الجنوبية. وهذا الأثر كما يشترك فيه الفن الفاطمي، يشترك فيه أيضًا الفن الطولوني، وهو يتجلى فيه بوضوح في كتاباته الكوفية، التي تبين أسماء مَن دفن في هذه القبور من الأشراف، ونسبهم ووصاياهم إلى غير ذلك.

ثم مشهد معاذ بالقاهرة الذي بناه أبو الغضنفر أسد الفائزي، ثم قبة إخوة يوسف؛ وهي مثال ظاهر من آثار العهد الفاطمي، ثم مشهد السيدة رقية بالخليفة؛ وهو مثال باهر لما بقي من آثار العهد الحافظي، يبهرك فيه مجموعة النقوش والزخارف التي يتحلى بها داخله.

ثم تلك القبة الفاطمية المضلعة التي تشبه مشهد قباب إفريقيا في الأزمان الغابرة.

وليس هذا كل ما للمسلمين من آثار عربية تزدان بها مدينة القاهرة، بل ثمة آثار أخرى لدول تالية تعطينا فكرة واضحة عن تطور فن العمارة الإسلامية في مصر، وسنعرض في كتابنـــا هذا مجموعة كبيرة من أهـــم الآثار العربية التي خلفها المســـلمون في مدينة القاهـــرة، فكتبت لهم أروع الآيات، وأصدق البينات على تقدمهم ونبوغهم في هذا الفن.



مشهد السيدة رقية بالخليفة

الفن الإسلامي في عمارة المآذن
تاريخها وتطورها في الإسلام

الاصطلاح اللغوي في تعريف المئذنة

المآذن «ومفردها» مئذنة، هو ذلك البناء المرتفع على سطح المسجد أو الملحق به، الذي ينادي المؤذن من أعلاه بالأذان؛ إعلامًا بدخول وقت الصلاة، ويطلق عليه أيضًا المنارة بالفتح من الإنارة، وجمعها مناور على قول الجوهري، ومنائر على قول ثعلب.

هل كانت المآذن بالمسجد النبوي على عهده ﷺ؟

لا نزاع في أن حضرة النبي ﷺ حينما بنى مسجده بالمدينة ألحق به كل ما يحتاجه من مرافق؛ فمن محراب إلى مئذنة إلى مصلى إلى مظلة إلى غير ذلك.

فهل لنا أن نتساءل هنا كيف كانت صفة مئذنة مسجد رسول الله ﷺ التي بنيت في عهده؟

١- روى ابن النحاس في «النـــزهة الثمينة في أخبار المدينة» المحفوظة منه نسخة كاملة بالمتحف البريطاني، عن نافع عن ابن عمر، قال: «كان بلال يؤذن على منارة في دار حفصة بنت عمر التي تلي المسجد، قال: فكان يرقى على أقتاب فيها (مراقٍ- سلالم)، وكانت خارجة عن مسجد رسول الله ﷺ».

٢- جـــاء في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، نقلاً عن خليـــل في التوضيح. اختلف أهل النقل؛ هل كان يؤذن بين يدي النبي ﷺ أو على المنارة، الذي نقله أصحابنا أنه على المنارة.

٣- في المرقاة والمجموعة لعبد الرحمن بن القاسم، عن مالك، أن الأذان في زمنه - عليه الصلاة والسلام- كان على المنارة.

٤- في المداخل لابن الحاج: السنة في أذان الجمعة إذا صعد الإمام على المنبر أن يكون المؤذن على المنارة، كذلك كان على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر. وفيه أيضًا: المنارة - عند السلف - بناء يبنى على سطح المسجد.

٥- روى ابن سعد في الطبقات عن أم زيد بن ثابت قالت: «كان بيتي أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن فوقه من أول ما أذن، إلى أن بنى رسول الله ﷺ مسجده، فكان يؤذن بعد ذلك على ظهر المسجد، وقد رفع له شيء على ظهره».

هذه خمس روايات تثبت في مجموعها ثبوتًا لا مجال للشك فيه، ولا وجه لنقضه، أن ظهور المآذن في المساجد كان على عهد رسول الله ﷺ وبأمره ووضعه[١]، وعلى عهد أبي بكر وعمر، فإذا ثبت هذا بطل كل ما عداه، وإذ قد تبين ذلك فأحرى بنا أن نقول.

رد مزاعم ودحض مفتريات

إن ما يروى في المصادر العربية من أن عهد المآذن في المساجد يرجع إلى زمن عمر بن عبد العزيز، فهو قول لا يعتد به بعد ما تبين مما تقدم، وكذلك ما ينقل عن علماء الآثار من مستشرقين وغيرهم من أن مآذن مساجد المسلمين اشتقت من الأبراج التي كانت للمسيحيين في معابدهم، أو أنها بنيت على نسق منارة الإسكندرية[٢]، أو ما يشبه هذا القول وبقرب منه، فمردود من كل وجوهه؛ إذ إن الروايات المذكورة آنفًا قد نصت نصًا صريحًا في وجود المئذنة في المسجد النبوي لأول عهده.

(١) قال ابن زبالة: حدثني محمد بن إسماعيل وغيره، قال: «كان في دار عبد الله بن عمر أسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليها بلال، يرقى إليها بأقتاب»، والقتب هو الرحل الصغير على قدر سنام البعير، «والأسطوان مربعة قائمة إلى اليوم يقال لها المطمار»، والمطمار كان عبارة عن تكوين معماري مربع من قاعدته إلى أعلاه يرقى إليه المؤذن من خلال أقتاب تلتصق به من إحدى جهاته الأربع، كما يتضح أن المطمار كان خارجًا عن مسجد رسول الله ﷺ، وقد اتفق على هذا الموضع ابن النجار والسمهودي، انظر: السمهودي، **وفاء الوفا**: ١٠١؛ عبد الله كامل موسى، **تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربي وحتى نهاية العصر المملوكي**- دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الإسلامي (رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة. كلية الآثار، ١٩٩٤).

(٢) ذهب بتلر Butler على سبيل المثال إلى الاعتقاد بأن منار الإسكندرية اتُخِذ نموذجًا للمآذن المصرية، إلا أن كريسويل Creswell رفض هذه النظرية في الوقت الذي ذهب فيه إلى الاعتقاد بأن أقدم صور المآذن الإسلامية بسوريا كانت تنحو نحو الأبراج المسيحية المربعة التي كانت قائمة بسوريا قبل الفتح الإسلامي، كما هي الحال في أبراج المعبد الوثني بدمشق، ثم انتقل التأثير السوري إلى مآذن المغرب، ويتجلى ذلك في مئذنة جامع القيروان أقدم المآذن الإسلامية القائمة (١٠٥هـ/ ٧٢٤م)، ويؤيد الدكتور أحمد فكري ما ذهب إليه كريسويل في أن مئذنة القيروان قد اشتقت بالكامل من أحد الأبراج الضخمة مربعة الأضلاع بسوريا، وعلى هذا أصبحت مئذنة القيروان نموذجًا لباقي مآذن المغرب والأندلس، انظر: ألفريد بتلر، **فتح العرب لمصر**، ترجمة: محمد فريد أبو حديد (القاهرة: هيئة الكتاب، ١٩٩٩): ٣٤٥؛ أحمد فكري، **المسجد الجامع بالقيروان**: ١١٠-١١١؛ السيد عبد العزيز سالم، **المآذن المصرية**: **نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي وحتى الفتح العثماني** (الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، د. ت.): ٦-٩.

Creswell, "The Evolution of the Minaret", *Burlington Magazine 48*, No. 278 (March-June 1926): 7-9; El Sayed Abdel Aziz Salem, "The Influence of the Lighthouse of Alexandria on the Minarets of North Africa and Spain", *Islamic Studies 30*, No. 1/2, Special Issue, Muslim Heritage in Spain (Spring-Summer 1991): 149-156.

فإذا قلنا إن حضرة النبي ﷺ حينما بنى مسجده، هو الذي صممه لم يصممه له غيره، كما رأيت في الفذلكة التي قدمناها لك عن تاريخ بناء المسجد النبوي - وإذا اعتبرنا أن المسجد مع ما بلغت فيه العمارة الإسلامية أوجها - كان خاليًا من كل زخرفة، بل كان مع ما وصف به من الاتساع و الإحكام في البناء على غاية من البساطة مع وجود مرافقه و مشتملاته كاملة؛ إذا قلنا هذا، واعتبرنا ذاك، أمكننا أن نقول هذا القول نفسه في المئذنة التي كانت للمسجد في ذلك العهد، وهذا ما يؤيده حديث تنبؤه ﷺ بتعلية المنارات في المساجد في آخر الزمان، وهو الحديث الذي يقول فيه: «إن من أشراط الساعة أن تزخرف المساجد، وتعلى المنارات؛ وقلوبهم خاوية من الإيمان».

وهذا الحديث أصل في زخرفة المساجد، وتعلية المنارات على الشرط الذي اشترطه رسول الله ﷺ. إذن فلنا أن نصفها بأنها كانت عبارة عن بناء مستطيل، إمّا مرتفع على سطح المسجد، وإمّا منفصل عنه مربع الشكل، تبعًا لنظام بناء المسجد؛ إذ إن الاستدارة لم تكن تعرف بعد، وكانت تنتهي بطابق علوي يقف عليه المؤذن.

فإذا رأينا بعد ذلك عثمان بن عفان حينما أمر ببناء المسجد النبوي وتوسيعه، وإعادة بناء المئذنة الأولى وإضافة ثلاث إليها أخريات، وإذا رأينا عمر بن الخطاب والعباس كذلك في المسجد النبوي، وسليمان بن عبد الملك في مسجد الرَّملة، ومسلمة بن مخلد في إعادة بناء مآذن جامع عمرو، وعقبة بن نافع في بناء مئذنة جامعه بالقيروان، والوليد ابن عبد الملك بن مروان في بناء مئذنة جامعه بدمشق، وعبد الملك بن مروان في بناء مآذن بيت المقدس، والحرم المكي والمسجد النبوي.

إذا رأينا كل هؤلاء وغيرهم، قد بنوا هذه المآذن على نسق مئذنة المسجد النبوي التي بنيت في عهد رسول الله ﷺ رأينا أنها كانت عبارة عن مرتفعات قائمة في أربعة أركان المسجد، هذا إن كان للمسجد أربع مآذن، أو في أية جهة منه إن كانت له مئذنة واحدة- مربعات الشكل يصعد إليها بدرجات من داخلها تنتهي بطابق علوي يقف عليه المؤذن، ولها شرفات للإنارة، قد تفاوت بعضها واختلف في بنائه.

فإن كانت مئذنة المسجد النبوي قد بدأت صغيرة، وخالية من كل زخرفة معمارية، فالمآذن التي بنيت في عهد عثمان كانت بطبيعة الحال أوسع منها، وأعلى وأحكم، وما إلى ذلك، سنة التدرج وطبيعة العمران.

كذلك الحال في مآذن عمر بن عبد العزيز بالشام والحجاز، ومآذن جوامع حماة وحرَّان والرَّقة وديار بكر، وما إلى ذلك من المساجد الأولى التي ما زالت تحتفظ بنماذج لمآذنها. وقد كانت الفكرة في إقامتها على هذا النظام المربع- راجعةً إلى نظام المآذن التي بنيت في الصدر الأول من الإسلام، وأخصها مآذن المسجد النبوي.

ومن ذلك مآذن جامع عمرو، ومئذنة القيروان التي بناها عقبة بن نافع سنة ٥٠ من الهجرة، على نسق مئذنة المسجد النبوي سواء بسواء، ثم أعاد بناءها بشر بن صفوان في خلافة هشام بن عبد الملك سنة (١٠٥هـ/ ٧٢٣م) وتوسع في بنائها.

وهذه المئذنة هي أقدم ما وصل إلينا من نماذج المآذن الإسلامية التي كانت في صدر الإسلام؛ إذ إنها باقية على حالها إلى اليوم إلا بعض تغيير طفيف لم يمس جوهرها، فإذا استثنينا منها ضخامتها وكبرها والطابق الزائد عليها- أمكننا أن نصل إلى وصف حاسم لمئذنة المسجد النبوي

بلا خلاف في ذلك. إذن فهذه المئذنة التي هي أقدم مآذن مساجد الإسلام الباقية لليوم، إنما اقتبس نظامها من مآذن المسجد النبوي- لا من أي شيء آخر- كبرج أو خلافه، وأين كانت الأبراج وقتئذ حتى يقتبس منها المسلمون مآذن مساجدهم؟ وكيف يقدم المسلمون على ذلك وهم يعلمون أن الإسلام جب ما كان قبله وهدمه؛ وأتى به رأسًا على عقب؟ فقد أخبرهم حضرة النبي ﷺ بذلك في حديث له مع عمرو بن العاص، ثم طالما كان يأمرهم بمخالفة اليهود والنصارى في كل شاردة وواردة، حتى في أدق الأمور، فكان يقول: خالفوهم في كذا، خالفوهم في كذا.

وفي معنى ما أمر به حضرة النبي ﷺ من المخالفة: جاء القرآن الكريم كلام الله تعالى صريحًا بذلك- ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، وفي قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[4]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[5]، وفي قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾[6]، في هذه الآيات الكريمة جاء معنى المخالفة التي أشار إليها حضرة النبي ﷺ في حديثه، وليس لنا أن نقول إن ذلك خطاب خاص لحضرة النبي ﷺ؛ إذ إننا داخلون لا محالة فيه؛ ولا يمكننا الخروج منه إلا بدليل يخرجنا، ولا دليل لدين.

انظر ما يقوله الجويني[7] أحد أساطين العلم في هذا الصدد: «فبان من هذا ما يذكر في هذا الصدد ليست له أية قيمة. وعلى فرض أن بلاد الشام كان فيها عند دخول المسلمين إليها بقية من أبراج كنائسية فقد كانت أطلالاً ماثلة لا تساوي النظر إليها فضلاً عن الاقتباس منها، وقد هدمها المسلمون وأقاموا على أنقاضها مساجدهم، كما فعل الوليد بن عبد الملك في هدم كنيسة مار يوحنا وإقامة الجامع الأموي على أرضها، وقد أَرْضى المسيحيين ببناء آخر بعيدًا عن هذه المنطقة، وأعطاهم مالاً له صورة، وقد مثل معهم سماحة الإسلام بأظهر مثال. وإنما اختار الوليد هذه المنطقة لا لحاجة في نفسه، وإنما لحسن موقعها من وسط المدينة التي غدت إسلامية».

من هذه النبذة الموجزة يتبين أن القول باشتقاق مآذن مساجد المسلمين من الأبراج أو غيرها - قول قد ناقشته أدلة صحيحة لا يتسرب إليها الشك بحال.

(١) «سورة الجاثية»، الآية ١٨.
(٢) «سورة البقرة»، الآية ١٤٥.
(٣) «سورة المائدة»، الآية ٤٨.
(٤) «سورة الأنعام»، الآية ١٥٩.
(٥) «سورة هود»، الآية ١١٣.
(٦) «سورة الشورى»، الآية ١٥.

(٧) أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الملقب بإمام الحرمين (٤١٩-٤٧٨هـ/ ١٠٢٨-١٠٨٥م)، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، ولد في جوين «من نواحي نيسابور» ورحل إلى بغداد فمكة حيث جاور أربع سنين، وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس جامعًا طرق المذاهب، ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الملك «المدرسة النظامية» فيها، وكان يحضر دروسه أكابر العلماء. له مصنفات كثيرة في الفقه والأصول وعلم الكلام والسياسة الشرعية، منها نهاية المطلب في دراية المذهب، وغياث الأمم في التياث الظلم، والرسالة النظامية في الأركان الإسلامية، انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج. ٣: ١٦٧؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**: ٢٥٧٤.

الفن الإسلامي فن قائم بذاته، لا صلة له بأيّ فن آخر

ومما ذكر يتبين أن المسلمين قد وضعوا لمبانيهم هندسة أخـرى مبتكرة لم تكن تعرف قبلهم ولا يسـتغرب ذلك عنهم؛ إذ هـم منبع كل حضارة وصلـت وتصل إلى العالم أجمع، ونستطيع بعد ذلك أن نقول: إن المصدر الأصلي الذي أخذ عنه المسلمون شكل منائرهم- إنما هي مئذنة المسجد النبوي التي كانت هي الحجر الأول لوضع أسـاس المآذن في مساجد المسلمين.

وهذا بالرغم من إرادة بعض الباحثين إقصاء الإسلام؛ جملة وتفصيلاً؛ عن الفن وجعله متأثرًا بالفنون المسـيحية تأثيرًا كبيرًا، وهذه النظريـة قد تكون صحيحة لو لم تقم الأدلة على نقضها من أساسها وقلبها رأسًا على عقب.

فقد ثبت بالعلم الصحيح أن للإسـلام فنًّا أصيلاً قام بذاته، غـير متأثر بأي فن آخر مـن الفنون التي عاصرت الإسلام أو سـبقته(١). ويبدو ذلك ظاهرًا بالتأمل في دراسة الفن المعماري الذي قام على أساسـه مسجد المدينة الجامع والمساجد الأخرى.



مئذنة المسجد النبوي على الطراز العثماني

(١) لا يمكن إنكار تأثر الفن الإسلامي في مراحله الأولى بالفنون السائدة في الأقطار التي فتحها المسلمون، لا سيما الطرازين الشائعين آنذاك في بلدان الشرق الأدنى، الطراز الساساني أو الفارسي في العراق وفارس، والطراز البيزنطي ذا الأصول الهلينية في الشام ومصر. وهناك أدلة كثيرة من العمائر الإسلامية الأولى فضلاً عن نماذج من التحف المنقولة، فعلى سبيل المثال هناك زخارف جامع قبة الصخرة بالقدس والجامع الأموي بدمشق من القرن الأول الهجري، والتي قد تأثرت كل التأثير بأساليب الفنون الهلينية. أما العمائر الإسلامية في العراق والتي ترجع إلى العصر العباسي فنرى بها الكثير من التأثيرات الساسانية؛ وأبرزها الزخارف التي تم اكتشافها بمدينة سامراء، والتي ترجع للقرن الثالث الهجري.

إن المتأمل في مسجد المدينة بكل ما فيه من مرافق منذ نشأته – يجد أنه كان في غاية الغاية من البساطة، بحيث إنه لم يبلغ في دقة الفن وتصويره مبلغًا يجعل الرسول ﷺ وصحابته في حاجة لأن يقتبسوا نظام المسجد من معابد النصارى، أو كنائسهم، أو آثارهم القائمة!

وحسبنا دحضًا لهذه الفرية وردًّا لهذا الزعم ما قام يدعو إليه أكثر من واحد من علماء الآثار– أمثال الأستاذ محمود عكوش[١] ؛ ردًّا على مزاعم بعض المستشرقين الذين ينشرون هذا الرأي، مستندين على أوهن الأسباب وأوهى الروايات، و[انظر أيضًا كتاب جامع القيروان للدكتور أحمد فكري][٢].

ومما ذكر يتبين أن البحث العلمي الصحيح قام يدحض هذا الرأي ويؤيد هذه النظرية، تأييدًا لا مجال للشك فيه.

ومهما يكن من الأمر، فإنه ثبت لدينا أن الفن الإسلامي في إبكاره قد تأثر بفن آخر، لا يمت إلى الإسلام، فقد كان بحكم التدرج العمراني والفارق الزمني، ثم كان ما اقتبسه الإسلام من هذه الفنون فنًّا له طابعه الخاص وميزته الخاصّة.

وكانت أوروبا في الوقت الذي ازدهر فيه الفن الإسلامي وبلغ شأنًا بعيدًا من التقدم والرقي– تتبع في مبانيها هندسة بعض المباني القديمة وأخصها الجرمانية.

(١) راجع ما كتبه بعنوان أصول فن العمارة الإسلامية في مجلة الهندسة (المؤلف).

(٢) أحمد فكري، **المسجد الجامع بالقيروان** (القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٣٦م).

فلما اقتربت من المسلمين كان أول ما اقتبسه عنهم ذلك الفن الإسلامي الزاهر، الذي بدا تأثيره ظاهرًا للعيان إلى الآن[٣] .

ويقول بعض علماء الغرب المنصفين في هذا الصدد بعد مقدمة أبان فيها فضل الفن الإسلامي ومبلغ تأثيره على الفنون الأخرى وأصالته إلى غير ذلك: «ولقد كانت أوروبا يومئذ، تشيد حصونها وقصورها وكنائسها على طراز الهندسة الجرمانية السكسونية، فلما اتصلت فرنسا بمسلمي الأندلس أخذت عنهم عمل القنطرة والتزيين بالرسوم الكتابية، وقد عرفنا من التاريخ أن الملكين فيليب أوجست[٤]، ولويس التاسع[٥] عادا من الشام والقدس بأمهر الصناع المسلمين وأبرع الفنانين منهم. ولقد استطاع

(٣) راجع ما كتبنا في كتابنا الآخر، بعنوان الفن الإسلامي وتأثيره في فنون أوروبا، وراجع رسالة بهذا المعنى للدكتور أحمد فكري (المؤلف).

(٤) فيليب الثاني أغسطس، آخر ملوك الفرنجة (٥٧٦–٥٨٦هـ/ ١١٨٠–١١٩٠م)، وأول ملوك فرنسا (٥٨٦–٦٢٠هـ/ ١١٩٠–١٢٢٣م)، والذي شارك في الحملة الصليبية الثالثة على المشرق بين عامي (٥٨٥ -٥٨٨هـ/ ١١٨٩–١١٩٢م)، انظر:
Bradbury, *Philip Augustus: King of France 1180–1223* (London, 1998).

(٥) لويس التاسع أو القديس لويس ملك فرنسا (٦٢٣–٦٦٨هـ/ ١٢٢٦–١٢٧٠م)، قاد الحملة الصليبية السابعة على مصر عام (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)؛ فاحتل دمياط عام (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، إلا أنه هُزم بعد ذلك وأسر في أولى مواجهاته في المنصورة عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، وبعد أن افتدى نفسه من الأسر استقر في الشام أربع سنوات (٦٤٨–٦٥٢هـ/ ١٢٥٠–١٢٥٤م) عاد بعدها إلى فرنسا، انظر: جوانفيل، **القديس لويس**: **حياته وحملاته على مصر والشام**، ترجمة وتعليق: حسن حبشي (القاهرة، ١٩٦٨)؛ جوزيف نسيم، **لويس التاسع في الشرق الأوسط** (القاهرة، ١٩٥٩)؛ جوزيف نسيم، **العدوان الصليبي على مصر** (الإسكندرية، ١٩٦٩)؛ محمد مصطفى زيادة، **حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة** (القاهرة، ١٩٦١).

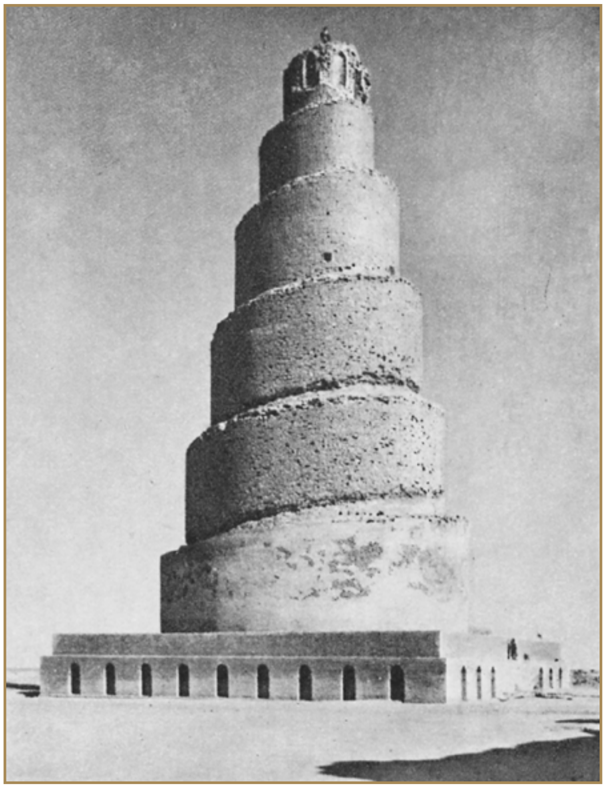
المسلمون أن يدهشوا أوروبا بمخترعاتهم في هذه الصناعة التي بلغت عندهم مكانًا ساميًا من الدقة والعناية والإتقان».

أشكال المآذن وصفتها في صدر الإسلام

بقي لنا أن ننظر إلى تطور المآذن في الإســلام وما آل إليها أمرها بعد:

قلنا إن المآذن حينما بنيت في صدر الإســلام كانت مربعة الشكل تبعًا لنظام بناء مئذنة المسجد النبوي، فكانت كذلك في عصر الخلفاء الراشــدين؛ وكانت كذلك في مصر وغيرها من البلدان التي كانت خاضعة للدولة الأموية التي تولت الحكم بعد. وقد شــاع هذا الفن في الدولة الأموية شــيوعًا بلغ الحد الأقصى، فلما زالت دولة الأمويين الأولى وقامت دولتهم الثانيــة في الأندلس[١] قام هذا الفن بينهم. بينما تطور في الأقطار الأخــرى وانطبع بطابع آخر؛ فتجد المــآذن في العراق غيرها في مصر والشــام والأندلس، وقد يرجع هذا لسببين اثنين لا ثالث لهما:

الأول: إما أن تكون مئذنة مسجد البصرة الأول[٢] كانت مستديرة، وكانت درجاتها من الخارج، وإما كان هذا



المئذنة الملوية بسامراء بالعراق

الوصف في مئذنة مسجد الكوفة[٣]؛ لأنه، وإن لم توافنا المصادر العربية بوصف شامل لمآذن مساجد البصرة والكوفة التي بنيت في عهد الخلفاء الراشدين في سنة (١٧هـ/ ٦٣٨م) وما بعدها، فإننا نرجح ذلك- ولسنا ممن يقول بأن مساجد البصرة والكوفة بنيت بغير مآذن؛ لأنه محال أن يكون الأمر كذلك إذا علمنا أن الأذان من شعائر الصلاة

(١) سقطت الدولة الأموية الأولى في دمشق عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، ثم قامت دولتهم الثانية في الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك؛ الملقب بالداخل، وذلك عام (١٣٨هـ/ ٧٥٥م).

(٢) كان جامع البصرة من أوائل المساجد الجامعة التي بنيت في الإسلام بعد المسجد النبوي، وذلك عام (١٤هـ) بعد تأسيس مدينة البصرة على يد القائد عتبة بن غزوان، والذي بناه من القصب على غرار ما بنى به المدينة. أما منارته فقد ذكر البلاذري أنها بنيت بالآجر والجص على يد صالح بن عبد الرحمن السجستاني أثناء ولايته خراج العراق في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، لكنه لم يشر إلى شكلها، انظر عن جامع البصرة: البلاذري، **فتوح البلدان**: ٤٨٣-٤٨٨.

(٣) ذكر كل من الطبري والبلاذري أن بناء جامع الكوفة كان بعد اختطاط المدينة في عهد عمر بن الخطاب عام (١٧هـ/ ٦٣٨م)، وذكر ياقوت أن اختطاطها كان عام (١٨ أو ١٩هـ/ ٦٣٩ أو ٩٤٠م)، انظر عن الجامع الأول وتخطيطه: البلاذري، **فتوح البلدان**: ٣٨٧، ٣٨٨؛ الطبري، **تاريخ الرسل**: ٤٤-٤٩؛ ياقوت، **معجم البلدان**: ٤٩١؛ كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: نبية أمين فارس، ومنير البعلبكي، ط.٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨): ١٤٠؛ أحمد فكري، **مساجد مصر ومدارسها**: ٢٠٠-٢٠٣.

لا يتم إلا بها، ويتحتم أن يكون المؤذن في مستوى عالٍ- بحيث يسمع بصوته الحجر والمدر- فضلاً عن البشر- ، وأيضًا فقد رأى المسلمون أن نبيهم حينما بنى مسجده لم يتركه بدون مئذنة، بل كانت هي من أوليات المرافق التي عُنِيَ بوضعها حضرة النبي ﷺ في مسجده؛ فكيف تبنى مساجد في أمصار جديدة بدون مآذن؟! هذا ما يستحيله العقل.

السبب الثاني: أن العباسيين حينما قامت دولتهم وتثبتت دعائمها وخلا لها الجو في سائر معمور الأرض - عدا الأندلس؛ وبعض المدن النائية- رأوا أن مخالفة سلفهم الأمويين أمر يُحتم عليهم تقتضيه التقاليد الدولية والأوضاع العرفية، ولا يزال شيء من هذا عالقًا بأذهاننا من عهد الدولة الأيوبية في مصر؛ فإن عاهلها صلاح الدين حينما قضى على الدولة الفاطمية قضى على كل ما لها من شعار ودثار وخالفها، حتى في أتفه الأمور؛ فالعباسيون لا يبعد أن يكونوا كذلك.

المآذن الإسلامية لم تشتق من الأبراج المسيحية، إنما هي فن ابتكره المهندسون المسلمون

ومهما يكن من شيء فلا نستطيع القول بأن مئذنة مسجد المعتصم «على الصحيح» بنيت على شكل برج بابل- لا نستطيع أن نقول هذا القول؛ لأنه ليس لدينا إلى الآن معلومات عن شكل برج بابل ووصفه.

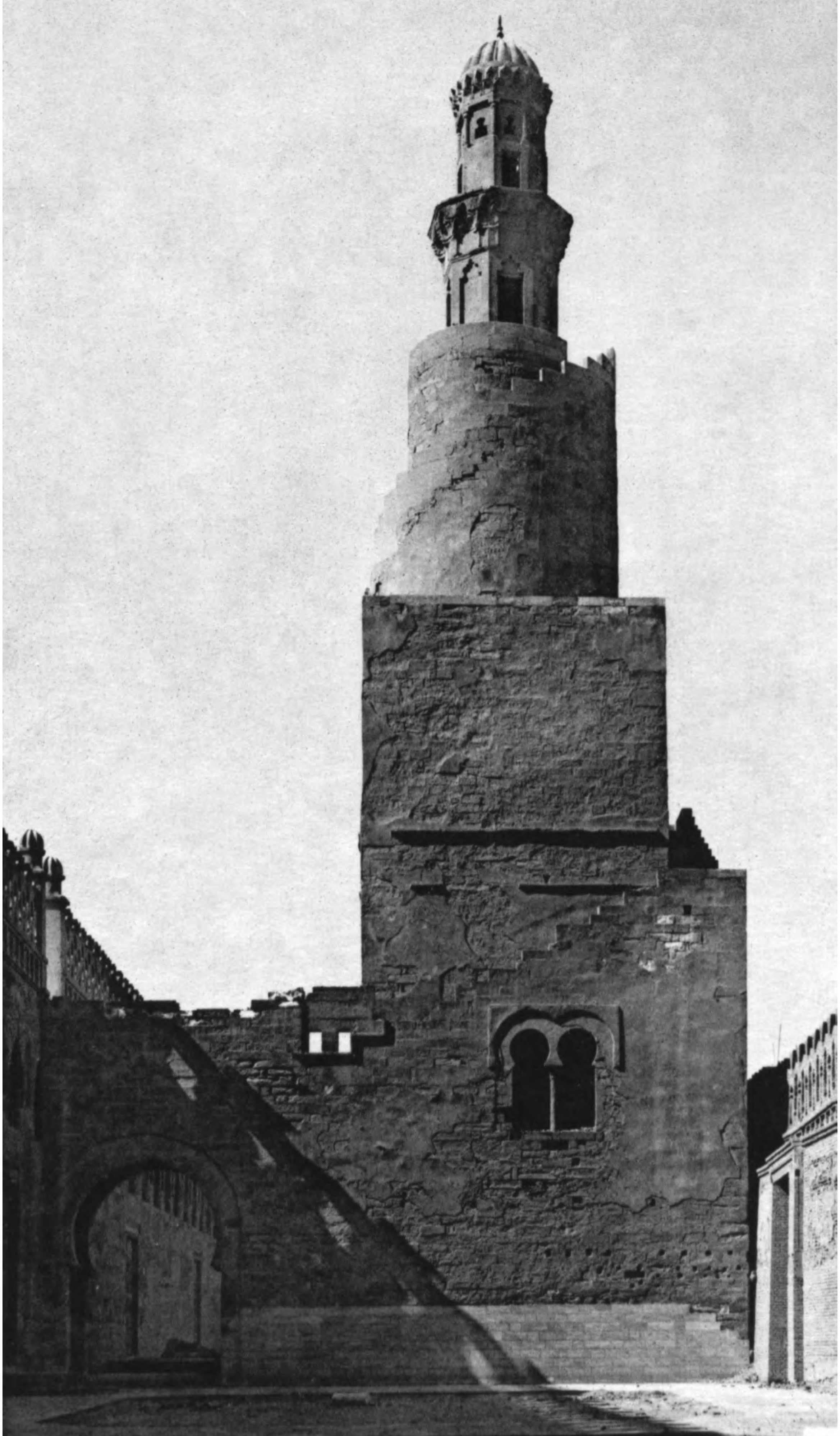
ولقد ظل علماء الآثار حينًا من الدهر يتخيلون هذا البرج، ويرسمون له أشكالاً مختلفة، فبعضهم من الفرقة التي تذهب برأيها إلى أن مئذنة جامع المعتصم بنيت على نسقه؛ يرسمونه بشكلها في صورة مكبرة مضخمة، وبعضهم يخالفونهم في ذلك بعض المخالفة، وهكذا من ضروب الحدس والتخمين.

وشأنهم في هذا البرج شأنهم في برج الرزاز، وبرج حماة؛ وبرج دير قصر البنات، وبرج أم الرب، وبرج سما، وبرج القديس جورج، وبرج أم الرصاص، وأغلبها بالشام، وليس لدينا عنها أي نص ثابت.

ولقد شاء الله تعالى، ودار الزمان دورته، فانهار هذا البناء الموهوم؛ فقد قامت بعثة كولدي الألمانية باكتشاف جزء من قاعدة برج بابل، فإذا بينه وبين مئذنة جامع المعتصم بُعْدُ ما بين المشرقين. وهذه القاعدة هي عبارة عن أحجار متراصة؛ بعضها فوق الآخر، يتكون منها سلالم بنسب مختلفة تبتدئ بحجم أكبر، ثم تتضاءل قليلاً قليلاً، حتى تصل إلى قمة البرج.

بينما نجد أن المئذنة المذكورة هي عبارة عن بناء حلزوني منفصل عن المسجد، مخروطي الشكل، مركب من ست طبقات مستديرة موضوعة على قاعدة مربعة، تنتهي بقمة كروية الشكل، محمولة على دعائم، لها سلم خارجي، يبتدئ من أسفلها إلى أعلاها، وليس لدينا أي نص ثابت أو غير ثابت يثبت أنها قائمة على أصل برج بابل أو خلافه.

وما لعلماء الآثار في هذا الصدد جاء عن طريق استنتاجي- لا تؤيده النقول الصحيحة؛ كقول بعضهم: وقد زار حوران، ورأى بعض أطلالها الماثلة. إن هذه البقايا لابد أن تكون في الأصل كنيسة ذات برج، ثم راح يضع مقايسة عن هذا البرج، ويجعل له مسقطًا أفقيًا، حتى إذا أسس هذا الأساس اتخذه دعامة يتوكأ عليها في أبحاثه عن فن العمارة الإسلامي.



مئذنة جامع أحمد بن طولون

وإذا أردت أن أصف لــك مئذنة المعتصم بعبارة أدق، فتجدني ذاهبًا بك إلى مئذنة جامــع أحمد بن طولون[١] التي بنيت على نسق هذه المئذنة، وهي رغم أنها انطبعت بطابع آخر جعلها متباينة بعض التباين مع مئذنة جامع المعتصم- فإنها تعطيك فكرة صحيحة عن مئذنة جامع سُرَّ مَنْ رَأَى؛ إذ إن أحمد بن طولون قد تأثر بها ليس في عمارة المئذنة فحســـب، بل في عمارة المسجد جميعه، الذي هو عبارة عن نموذج مكبر من المسجد النبوي، ومن مساجد الإسلام الأولى جمعاء.

وقد كان لهذه الاســـتدارة التي بدأ بها المعتصم منارة مســـجده شـــأنها في المآذن التي بنيت بعد ذلــك؛ فإنه من وقتئذ- وبخاصة حينما دخل هذا النموذج إلى مصر بدخول هذا الفن إليها مـــن طريق جامع ابن طولون- بدأت تتطور المآذن تطورًا آخر، وتنصبـــغ صبغة أخرى، فمن التربيع إلى الاســـتدارة إلى غير ذلك. لكن لمّا لم تبنَ المآذن بَعْدُ على شـــكل مئذنة ابن طولون، فقد بنيت على نظام آخر، أكسبها رشـــاقة وجمالاً، وما يدرينا أكانت المـــآذن في عهد الدولة الإخشـــيدية في مصر التي لم يسمح الزمان بأن نرى لها أثرًا ما- مبنية على نســـق مئذنة ابن طولون، أم اكتسبت صبغة أخرى؟ بديهي أنها كانت ذات طابع آخر، تبعًا لتطور العمران وتغيير الأساليب المعمارية.

ويمكنك أن تقول بعد هذا في منارة الإســـكندرية ما قيل في برج بابل، رغم محاولة العلماء في حقيقة كنهها. ولكي نصل بك إلى ما ينير لك السبيل في هذا الصدد نلخص لك ما قيل عن هذه المنارة.

المرجح أنـــه فكر في إنشـــاء هذه المنـــارة في حكم بطلميوس الأول ســـنة (٣٢٣-٢٨٣ ق.م.)، وفرغ من بنائها في حكـــم بطلميـــوس الثـــاني ســـنة (٢٨٠ أو ٢٧٩ ق.م.). والمهندس الذي بناها اســـمه سوســـتراتوس من بلدة سنيد، وهي بلدة يونانية قديمة من آسيا الصغرى على شاطئ البحر بين جزيرتي رودس وقبرص. وقد بلغت تكاليف إنشـــائها حســـب رواية بلين الكبير، ٨٠٠ تالان. فإذا اعتبرنا التالان المذكور من الفضة كانت تكاليف إنشائها مبلغ ٨٠٠ جنيه و١٩٢ قرشًا.

وكانت المنارة مركبة من ثلاثة أقســـام: القسم الأول على شـــكل مربع؛ والقسم الثاني على شـــكل مثمن؛ والثالث على شكل مدور. وكان فوق هذه الأقسام تمثال بوسيون، وهو إله البحر عند اليونان، وكان ارتفاعه ســـبعة أمتار. وكان في أعلى المنارة مرآة ذات شكل مقوس، وقيل إن نور المنارة كان يشاهد على بعد ٣٠ كيلو مترًا، كما قيل إن القسم المدور منها تهدم في القرن الثاني بعد الميلاد.

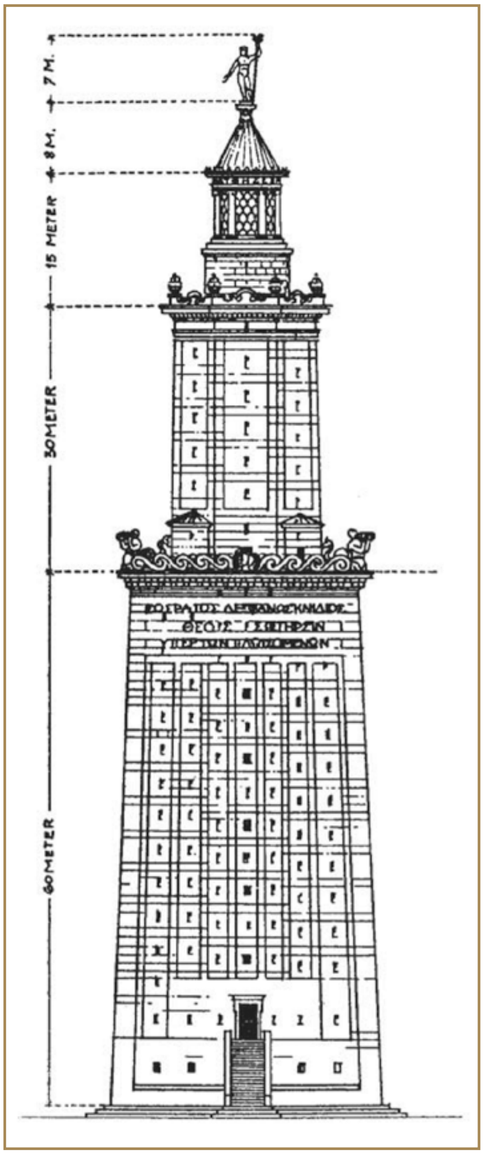
وقد قيل أيضًا إن أعلى المنـــارة هدم في خلافة الوليد ابـــن عبد الملك بن مروان، بحيلة أتمهـــا عليه ملك الروم.

(١) بنيت مئذنة جامع ابن طولون على غرار منارة المسجد الجامع في سامراء مما يشير إلى التأثيرات العراقية، إلا أنها لاقت جدلاً واسعًا بين المتخصصين عن كونها أصلية أم أعيد بناؤها في التجديدات التي حدثت عام (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) من قبل السلطان لاجين المملوكي. والرأي المتفق عليه حاليًّا أن المئذنة الحالية قد أعيد بناؤها على مثال ما كانت عليه من قبل وذلك عام (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) فيما عدا بعض التعديلات، والدليل على ذلك المبخرة المضلعة في قمتها، وهي على طراز المآذن المملوكية، كما تم ربطها بسطح مؤخرة المسجد عن طريق قنطرة أقيمت على عقدين منفوخين على أسلوب العقود في المغرب والأندلس، وهي تأثيرات وفدت على العمارة المصرية في العصر المملوكي، انظر: أحمد فكري، **مساجد مصر ومدارسها**: ١٠٤-١٣٦؛ سالم، **المآذن المصرية**: ١٥-١٧؛ السيد عبد العزيز سالم، «بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية»، **مجلة المجلة**، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٥٧)؛ فريد شافعي، «مئذنة جامع ابن طولون: رأي في تكوينها المعماري»، **مجلة كلية الآداب**، جامعة القاهرة ١، العدد ١٤ (مايو ١٩٥٢).

والمرجح أنه هدم بسبب زلزال حدث في ذلك الحين. وهذا هو الصحيح، وكان ارتفاعها نحو أربعمائة قدم. إلا أن ابن الصائغ أحد علماء الإسلام بالأندلس في المائة السادسة- ذكر أن ارتفاعها كان يبلغ مائة وأربعين مترًا وثلاثين سنتيمترًا، بمقاييس هذا الزمن، فخالف بذلك ما ذهب إليه الكثيرون من الكتاب والمؤرخين الذين قالوا: إن ارتفاع المنارة كان مائة وعشرين مترًا. ولعل رواية ابن الصائغ أقرب إلى مقتضيات الذوق الهندسي وإلى جمال الشكل. وذكر المؤرخون الذين يوثق بصدق روايتهم أن نفقات بناء المنارة بلغ ثمانمائة كيس من الفضة، أي ما يبلغ نحو ربع مليون جنيه بالنقود المصرية الحالية، وهذا يخالف الرأي الأول.

أما المهندس الذي بناها بأمر البطلميوس فهو سوستراتوس، وقد اشتهر اسمه في التاريخ. ومما يجدر بالذكر أن الكثيرين من كبار المهندسين في العالم درسوا مقاييس المنارة المذكورة، فأدهشتهم دقة صنعها والمقدرة الفائقة التي أظهرها بانيها، ومعرفته لحساب ضغط الأثقال وطبيعة التربة، وما إلى ذلك من المعلومات.

وقد اتفق منذ عهد قريب أن انتخب دون ألبا عضوًا بالأكاديمية البريطانية، فكانت أول خطبة ألقاها في الأكاديمية المذكورة عن منارة الاسكندرية، وما أسفرت عنه المباحث التاريخية الأخيرة بشأنها، ولا سيما المباحث التي قام بها اثنان من كبار العلماء الأسبان، وهما دون ميجل بالاسيوس ودون موريستو أويترو. ولا يخفى أن «تيرش» العالم الألماني نشر في سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) كتابًا جليل القدر عن منارة الإسكندرية[١]؛ ضمنه طائفة كبيرة من



رسم لمنارة الإسكندرية «عن الألماني هيرمان تيرش»

(١) توصل الألماني هيرمان تيرش (١٢٩١-١٣٥٨هـ/ ١٨٧٤-١٩٣٩م) في كتابه الذي ترجم إلى العربية عام (٢٠٠٩م)، إلى أن هناك علاقة ما بين شكل الفنار «فاروس» والمآذن المصرية التي اعتبرها أهم =

= الروائع الرئيسية للعمارة الإسلامية بأشكالها الأكثر تميزًا، فإنه يبرهن على أنه عبارة عن استناد مباشر ووثيق للنموذج الأصلي، ليس فقط في الشكل، بل أيضًا في الاسم، وعن كيفية توطيد دعائم الإسلام مع الجذور القديمة؛ فإنه كان من المعروف بصفة عامة أنه لا يمكن العثور على مثال جازم على ذلك، وقال «ما يدهشني دائمًا من التقارير العربية ما يبدأون به جميعًا» المنارة من الإسكندرية، وهذا يعني مئذنة الإسكندرية، تبدو كذا وكذا. وفجأة تنقشع الغشاوة عن عيني، فماذا تعني كلمة =

المعلومات التي كانت في يوم ما مجهولة حتى عن الكثيرين من العلماء. وقد حاول في مؤلفه أن يصور المنارة المذكورة صورة تنطبق على الشكل الحقيقي؛ كما يستفاد من البيانات التاريخية الموثوق بها، وكما كانت المنارة تبدو للناظر قبيل هدمها في القرن الثامن، ولا حاجة إلى القول أن تيرش اطلع على مؤلفات كثيرة مطبوعة ومخطوطة بكلتا اللغتين اليونانية واللاتينية.

وعلى معظم أقوال المؤرخين، وعلماء الجغرافيا والسياح الذين زاروا مصر قبل القرن الثامن، وشاهدوا فيها المنارة المذكورة- ولا سيما مؤرخي الإسلام الذين أسهبوا في وصفها وكتبوا عنها كثيرًا. ومن دواعي الأسف أن كثرة المؤلفات عن تلك المنارة أدت إلى ظهور متناقضات كثيرة بشأنها، ضاع معها جانب كبير من الحقيقة، مع أن تيرش كان من أكبر العلماء النقادين، وقد بذل جهدًا كبيرًا لاجتناب الخطأ فيما كتبه عن المنارة، ولتصويرها تصويرًا يقربها من الحقيقة. ومع ذلك فإنه لم يسلم من الخطأ في بعض الأمور التفصيلية؛ لأنه اعتمد على أقوال كثيرة لم تثبت صحتها، وكانت منقولة عن معلومات قديمة تكتنفها بعض الشكوك. كما أنه حاول أن يأتي بمنظور حقيقي لشكل المنارة فلم يوفق.

ومن دواعي الارتياح أن العلماء عثروا أخيرًا على مؤلف نفيس يرجع إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد، ولم يطلع عليه تيرش عندما وضع كتابه المشار إليه، وهذا المؤلف هو لكاتب مسلم من أهالي مالقة يدعى ابن الصائغ عاش من سنة (٥٢٧-٦٠٢هـ/ ١١٣٢-١٢٠٥م)، وزار الإسكندرية سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) وأقام بها سنتين متتاليتين، وقف نفسه خلالهما على التحصيل ودرس العلوم والآداب وفن الهندسة، وقد زار جميع الآثار الهندسية التي كانت لعهده في الإسكندرية، وعُني بها عناية خاصة تبدو لك الآن من خلال ما كتبه عنها. ومن جملة الآثار التي زارها واهتم بها، منارة الإسكندرية. وقد مكنه من فهم أسرارها أنه كان ذا إلمام تام بفن الهندسة والبناء. لذلك كان يتردد إليها من وقت إلى وقت، فيدون مقاييسها من الداخل والخارج ويعلق عليها بما يعن له. ولتعليقاته هذه شأن عظيم؛ لأنها كانت مبنية على مقاييس جمعها المؤلف بنفسه غير مستند إلى أقوال الكتاب والمؤلفين الذين تقدموه.

ولما عاد إلى مالقة بالأندلس سنة (٥٦١هـ/ ١١٦٥م)، أخذ يجمع مذكراته وما دونه عن منارة الإسكندرية من بيانات ومقاييس وملاحظات، فصنف منها كتابًا جليل القدر، لا شك في أنه خير ما كتبه المؤلفون عن المنارة، وأقربه إلى الحقيقة، ولم يعثر العلماء على هذا الكتاب قبل الآن.

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة مسهبة ضمنها فذلكة تاريخية عن منارة الإسكندرية وكيفية بنائها، والعهد الذي بنيت فيه، وانتقل من ذلك إلى الكلام على المكان الذي اختير لتشييدها فيه مع وصف الطريق الموصل إليه. وهذا المكان هو جزيرة صغيرة[1] كانت تبعد نحو ميل عن ميناء الإسكندرية، وإلى الشمال الشرقي من ذلك الميناء، وكان يتوصل إلى هذه

= منارة، وماذا تعني كلمة مئذنة، التي وردت إلينا عن التحريف اللغوي الإيطالي للكلمة العربية ؟ منارة معناها كما هو معروف مكان ينبعث منه النور، أو تشتعل فيه النار، منارة معناها نور وتعني الفنار، انظر: هيرمان تيرش، **فاروس**، المصادر الإسلامية القديمة والغربية: بحث في تاريخ العمارة، ترجمة وتحقيق: ميرفت سيف الدين (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٩).

(١) هي جزيرة فاروس، والتي كانت تقع في مواجهة ساحل مدينة الإسكندرية، ربطها الإسكندر الأكبر باليابسة عن طريق جسر قسَّم شاطئ الإسكندرية إلى قسمين، بني عليها بعد ذلك في العصر البطلمي فنار الإسكندرية، انظر: السيد عبد العزيز=

الجزيرة بعد اجتياز جسر «كوبري» كبير يقوم على أسس مركزة في قاع البحر تسندها صخور طبيعية، وكان طول هذا الجسر ستمائة ذراع، وعرضه عشرين ذراعًا، وارتفاعه فوق سطح البحر ثلاث أذرع. وكان المشاة والفرسان يستطيعون السير على هذا الجسر، إلا في وقت المد؛ فقد كان ماء البحر يغطيه إلى ارتفاع بضعة سنتيمترات، وكان عند نقطة اتصال الجسر بالمنارة قناطر منحدرة، عددها ست عشرة قنطرة مندرجة في الارتفاع، وطولها مائة خطوة.

وكانت القنطرة الأخيرة أعلى تلك القناطر، وهي ملاصقة المنارة، وقد بلغ من ارتفاعها أنه لو وقف تحتها فارس راكبًا جواده، ورفع يده لما استطاع أن يمس سقفها.

وكانت المنارة مشيدة على جزيرة كما تقدم؛ وفي فناء مربع، ولهذا الفناء سور يحيط به من جهاته الأربع، وخارج السور من جهة البحر رصيف يسير عليه الناس، عرضه اثنتا عشرة ذراعًا، وارتفاعه فوق سطح البحر اثنتا عشرة ذراعًا أيضًا. وكان الرصيف مبنيًّا بالحجارة المنحوتة؛ وقد قصد منه أن يتلقى الأمواج المرتدة التي تتحطم عليه، ويحول دون وصولها إلى السور. وكانت حجارة السور مربوطة بعضها إلى بعض بواسطة أطواق من حديد، والحجارة ملحومة بعضها إلى بعض بالرصاص؛ زيادة في التقوية.

أما المنارة نفسها فكانت ثلاث طبقات، وهي السفلى والوسطى والعليا. فأما السفلى فكانت مربعة الأضلاع، وطول كل ضلع منها عند قاعدة المنارة خمس وأربعون خطوة، أي أن محيط هذه الطبقة عند قاعدتها كان مائة وثمانين خطوة، أما ارتفاع الطبقة فوق الأرض فكان إحدى وثلاثين قامة، وأعلى هذه الطبقة طبقة أخرى بمنزلة قاعدة للطبقة الثانية أو الوسطى، وحول هذه القاعدة سور مربع يبلغ ارتفاعه قامًا.

وأما الطبقة الوسطى من المنارة فكانت مثمنة الأضلاع، طول كل ضلع منها عشر خطوات، أي أن محيط الأضلاع كلها كان ثمانين خطوة.

أما الطبقة الثالثة أو العليا فكانت مستديرة، وكان محيطها أربعين خطوة، أي نصف محيط الطبقة الوسطى تمامًا، وارتفاعها أربع قامات، و فوقها قبة مخروطية الشكل، وفوق القبة تمثال رجل يحمل مصباحًا.

وكان داخل المنارة سلالم لولبية «حول داخل المنارة» ترقى وتتصل بقمة الطبقة العليا. وهذه السلالم تشبه المرقاة اللولبية التي ترى حتى الآن في قصر إشبيلية، وكانت مراقي هذه السلالم منخفضة جدًّا، بحيث يستطيع الإنسان أن يلقاها راكبًا جواده.

وكانت المراقي عريضة بحيث يتسنى لراكبيْن أن يصعداها معًا؛ وكان عددها في الطبقة الوسطى ثماني عشرة مرقاة؛ وعددها في الطبقة العليا اثنتين وثلاثين مرقاة.

ثم إن الطبقة السفلى كانت تحتوي على خمسين منقورة في الجدران من الداخل.

وهناك أمور تفصيلية؛ كزينة المنارة من الداخل والخارج، وما كان عليها من نقوش فنية دقيقة، لم نقف لها على وصف دقيق، ماعدا الكتابة اليونانية التي كانت على أعلى الطبقة السفلى، فقد ذكر المؤرخون أن أحرف هذه الكتابة كانت كبيرة جدًّا يستطيع الإنسان قراءتها عن بعد.

= سالم، **تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي** (الإسكندرية، ١٩٨٢): ٢٨.

على أن المنارة كانت في سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) «وهي السنة التي زارها فيها ابن الصائغ الذي سبقت الإشارة إليه» قد أصيبت بعطب كبير فلم تعد تصلح للغرض الذي شيدت من أجله، فضلاً عن أن بعض النقوش الأصلية التي كانت قد عطبت رممت ترميمًا لا ينطبق على الشكل الأصلي تمام الانطباق، ومع ذلك استطاع ابن الصائغ لتبحره في علم الهندسة أن يستدل على شكل بعض تلك النقوش، وعلى مقاييس المنارة الحقيقية، بحيث يتسنى للمهندس الآن أن يعيد بناءها على وجه ينطبق على الأصل كل الانطباق تقريبًا، ولابد لنا هنا من القول إن المقاييس التي توصل إليها تيرش لا تنطبق على الأصل كل الانطباق؛ لأنها كانت مبنية كما قلنا على معلومات لم يثبت التاريخ صحتها. ومع ذلك فإن معلومات تيرش والمقاييس التي انتهى إليها لا تبعد عن الحقيقة إلا قليلاً.

ومما يجدر بالذكر أن جميع الذين كتبوا عن تاريخ منارة الإسكندرية، وبحثوا في هندسة بنائها- شهدوا بأن البناء كان آية من آيات الفن؛ لانطباقه على شروط الهندسة ومقتضيات الجمال ومبدأ التناسق، فضلاً عن أن هذا البناء روعي فيه شرط المتانة؛ لكي يثبت على فعل الأمواج وعاديات الزمن.

وأي دليل أصدق على متانته من كونه عاش من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الرابع عشر بعد الميلاد؟ نعم إن البناء كان عند زيارة ابن الصائغ قد أصيب بعطب شديد. ولكن الجزء الأكبر منه كان لا يزال قائمًا يدل على مهارة الذين شيدوه.

ولابد لنا هنا من القول أيضًا إن المقاييس الموثوق بها تدلنا على أن نسبة محيط الطبقة السفلى عند قاعدتها إلى نصف ارتفاع تلك الطبقة كنسبة الرقم ٦ إلى الرقم ٧.

ولاختيار هذه النسبة العددية مغزى كبير، فقد كان كلا الرقمين من الأرقام الدالة على الكمال عند القوم، فضلاً عن أن هذه النسبة قد روعي فيها ناموس حمل الأثقال ومقاومة قوة الرياح، وما إلى ذلك من الاعتبارات الفنية .

ولا شك أن الذين درسوا تاريخ هذه المنارة وعرفوا تفصيلات هندستها وبنائها، يدهشون من ارتفاع المستوى الذي وصل إليه فن الهندسة في ذلك العهد، وما عرفه القوم من نواميس الضغط واحتمال الأثقال وصدمات الأمواج، وما إلى ذلك من البيانات التي جعلت منارة الإسكندرية من أعجب عجائب الدنيا السبع.

ومع هذا الوصف الذي يصف به ابن الصائغ منارة الإسكندرية، فإننا لم نجد فيما توصف به أوفى مما كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي الأندلسي، المعروف بابن الشيخ، المتوفى في أوائل القرن السابع الهجري حوالي سنة (٦٠٥م/ ١٢٠٨م) في كتابه [ألف باء].(١)

وقد كانت كتابته عنها سنة (٥٦١هـ/ ١١٦٥م)؛ أي بعد زيارة ابن الصائغ لها بعام، إذ دخل مدينة الإسكندرية في

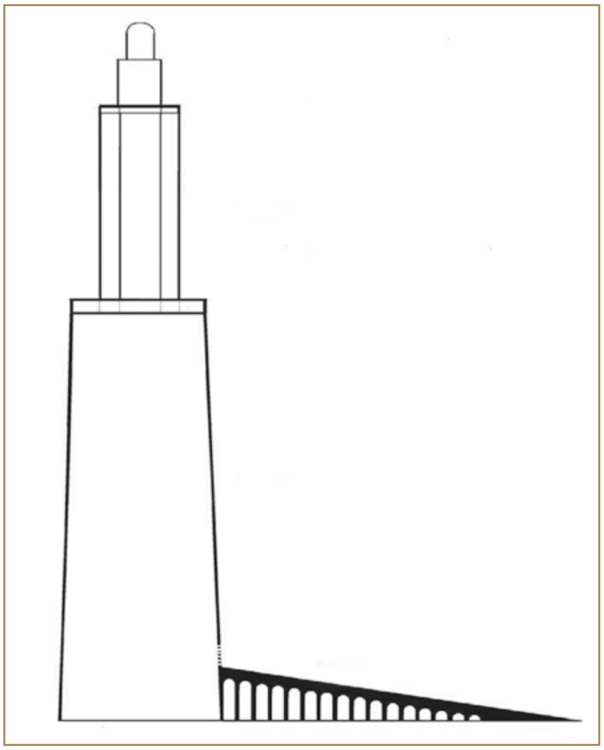
(١) يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحي بن غالب، أبو الحجاج البلوي المالقي الأندلسي المالكي، المعروف بابن الشيخ (٥٢٩-٦٠٤هـ/ ١١٣٥-١٢٠٧م)، عالم باللغة والأدب، زار الإسكندرية أثناء حجه ذاهبًا وآيبًا عامي (٥٦١ و٥٦٢هـ/ ١١٦٥ و١١٦٦م). قال ابن الآبار: إنه بنى ببلده مالقة خمسة وعشرين مسجدًا من صميم ماله، وعمل فيها بيده وغزا عدة غزوات مع المنصور بالمغرب ومع صلاح الدين بالشام. له كتاب [ألف باء ط] مجلدان، سماه الزبيدي «ألف با للألبا»، وكتاب آخر توسع فيه بما أوجز في «ألف باء» من أخبار وأشعار سماه «تكميل الأبيات وتتميم الحكايات مما اختصر للألباء في كتاب ألف باء»، الزركلي، **قاموس الأعلام**، مج. ٨: ٢٤٧، ٢٤٨.

هذه السنة سائحًا وشـاهدها، ورأى المنارة وذَرَعَها ووصفها وصف معاين مشاهد.

وإليك ما كتبـه عنها في أثنـاء كلامه على عجائب الإسـكندرية بكتابه المذكور [ج ٢ ص٥٣٧و ٥٣٨]، قال: «أمـا منارتها فبينها وبين المدينة نحو ميل أو أكثر بجنوبيها، وهي جزيرة صغيرة في الماء، وقـد بني منها إلى البر رصيف في الماء طوله سـتمائة ذراع وأزيد (٣٣٤ مترًا) وعرضها منه عشرون ذراعًا (١٠,٨٠ من الأمتار) وارتفاعه فوق الماء ثلاثة أذرع (١,٦٢ من الأمتـار). فإذا هاج البحر غطى الماء ذلك الممشى ولكنه بحر لين، بسبب الجزيرة والأحجار التي حول ذلك الموضع، فيمشي الماشي عليه في الماء إلى الكعبين أو نحو ذلك، فإذا انحسر الماء مشى في اليبس.

والمنارة في آخر الجزيرة وهي مربعة، كل وجه خمسـة وأربعون باعًا (٨٢,٣٥ من الأمتار). والبحر يكثر في الممشى الذي حول البناء من جهة الشرق والجنوب بينه وبين الجدار اثنتا عشرة ذراعًا (٦,٤٨ من الأمتار)، وارتفاعه من الماء إلى الهواء ذلك المقدار إلا أنه من جهة البحر أوسـع، أعني أنّ أول البنـاء الذي على الحجارة تحت الماء كأنه جبل. ثم كلما طلع البناء ضاق حتى يرتفـع على وجه الأرض، ويبقى بينه وبين جدار المنارة القدر المذكور أولاً. وقد أحكم إلصاقه وبناؤه، وأفرغ بالرصاص في أقفال من حديد تمسـك ذلك الكدان المنحوت، الذي كل كدانة منه أطول من لوح البناء وأغلظ من عرضه. وهذا البناء الذي أصفه محدث؛ لأنه كان قد انهد ذلك الجانب فبني أحسن من البناء القديم.

ومن الحائط الذي يـلي البحر من جهة الجنوب كتابة بالخط القديم، لا أدري ما هو، وليسـت كتابة تعلم، وإنما هي صور وأشـكال من حجارة صلبة طوال سود قد أدخلت



منارة الإسكندرية من تخطيط محمد البلوي الأندلسي «عن دوريس أبو سيف»

في الكدان. وقد أكل البحر وهواؤه الكدان. فبرزت الحروف لصلابتها؛ طول الألف منها فوق الذراع (٥٤ سـنتيمترًا)، ورأس الميـم قد خرج من البناء كـدور فم البرمة الكبيرة. وهكذا أكثر الحروف على هذا الشكل.

وبـاب المنارة مرتفـع عن الأرض قـد بني له ممشى طوله نحو مائة باع (١٨٣ مترًا)، وتحت الممشى قبة في شـبه القنطرة يدخل الفـارس تحت القوس منها، ولو رفع يده ما أدرك السمك في الكبار منها؛ وعددها ستة عشر قوسًا، أولها قصير، ثم كلما مضى ارتفـع حتى يتصل آخرها بالباب وهو أرفعها سـمكًا. ودخلنا على الباب فمشـينا نحو أربعين باعًا (١٠٩,٨٠ من الأمتار)، فوجدنا بابًا مفتوحًا فدخلنا من بيت

ثمانية عشر بيتًا سوى الزقاق التي تمشي فيها، وهي بيوت ينفذ بعضها إلى بعض.

وحينئذٍ علمنا أن جوفه فارغ، وإنما عددنا من عن يمين الزقاق ويساره، ومشينا ستين باعًا (١٠٠,٨٠من الأمتار)، فوجدنا أربعة عشر بيتًا. ومشينا خمسة وستين باعًا (١٠٠,٦٥ من الأمتار) وانتهينا إلى الحزام الأول، وليس هناك درج؛ إنما هي أرض مرتفعة قليلاً تدور بعجل عظيم. تجد عن يمينك غلظ الحائط الذي لا ندري قدره، وعن يسارك العجل الذي فيه البيوت المذكورة كانت تمشي في زقاق سعة سبعة أشبار (١,٦١ من الأمتار)، و فوق الرأس سقف ألواح من حجارة رأينا حينما طلعناه فارسًا يهبط؛ وآخر يصعد حتى التقينا في الطريق، ولم يضيق أحدهما على الآخر.

فلما انتهينا إلى الحزام الأول ذرعنا منه إلى الأرض بشريط في طرفه حجر فوجدناه إحدى وثلاثين قامة (٥٦,٧٣ من الأمتار) وستائره حائط نحو من قامة (١,٨٣ من الأمتار)، وقام في الوسط فحل مثمن في كل وجه عشرة أبواع (١٨,٣٠ من الأمتار)، وبينه وبين الستارة خمسة عشر شبرًا (٣,٤٥ من الأمتار)، وغلظ الستارة سبعة أشبار أو تسعة (١,٦١ أو ٢,٠٧ من الأمتار) أشكل عليَّ هذا الحرف من الأم التي نقلت هذا منها. لأني كتبت هناك هذا كله، ومضيت إليه بالمداد، والكاغد والشريط حتى لا أسقط منه شيئًا، فإنه عجب وأي عجب [والله خلقكم وما تعملون] وأكثر ظني أنه تسعة، ورأس هذا الحزام أضيق من أسفله، فدخلنا في جوفه ومشينا خمسة عشر باعًا (٢٧,٤٥ من الأمتار). ووجدنا درجات رقينا منها مائة وثماني عشرة درجة، وانتهينا إلى الحزام الأوسط فذرعناه بالشريط، فوجدنا منه إلى الحزام الأول خمس عشرة قامة (٢٧,٤٥ من الأمتار)، وقام في وسط ذلك الفضاء فحل آخر مدور غلظه أربعون باعًا (٧٣,٢٠ من الأمتار)، وبينه وبين الستارة تسعة أشبار ونصف (٢,١٨٥ من الأمتار)، فدخلنا فيه أيضًا وصعدنا إحدى وثلاثين درجة، وانتهينا إلى الحزام الثالث، فذرعنا منه إلى الحزام الأوسط أربع قامات (٧,٣٢ من الأمتار). وفي وسطه مسجد يفتح على أبواب أربعة كالقبة، ارتفاعه في الهواء نحو ثلاث قامات (٥,٤٩ من الأمتار) وغلظه عشرون باعًا (٣٦,٦٠ من الأمتار) وأمامه ستارة غلظها شبران (٠٤٦ من الأمتار) ومنها إلى المسجد خمسة أشبار (١,١٥ من الأمتار)، فجميع بيوته التي دخلناها سبعة وستون بيتًا، سوى الأول المقفل، ويقال إن فيها مهاوي تنفذ إلى البحر؛ وطول المنارة على هذا الحساب ثلاث وخمسون قامة (٩٦,٩ من الأمتار) ومن الأرض إلى ماء البحر خَمْسٌ (٩,١٥ من الأمتار)، وتحت الماء الظاهر نحو القامة (١,٨٣ من الأمتار) أو أكثر ترمى بالحجر من أعلاه، فلا يقع إلى الأرض حتى يمس في الحائط لسعة أسفله وضيق أعلاه، وإنما بني هناك؛ ليستدل به على البلد السائرون إليه في البحر، وتوقد في أعلاه النار لأهل المراكب، لئلا يضلوا، ولقد فاتتنا رؤيته فلم نقدر ندخل مرسى البلد، وكان رئيسنا أيضًا لم يكن دخله قبل ذلك فخلفناه وراءنا.

وأدخلتنا الريح في موضع ليس فيه مرسى، ثم سلم الله بعد أن أشرفنا على الهلكة، وخرجت إلينا القطائع من البلد فأدخلونا البلد يومًا آخر، وكانت العافية والحمد لله(١).

وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته [ج ١/ ص ١٣ من طبعة وزارة المعارف] تخرب المنارة، وكان قد رآها قبل أن يستولي عليها الخراب عند زيارته للإسكندرية في جمادى الأولى

---

(١) انظر: أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي الأندلسي، **ألف باء**، مج. ٢ (د.م.، د.ت.): ٥٣٧، ٥٣٨.



رسم لمنارة الإسكندرية لأبي حامد الغرناطي يرجع للقرن الثاني عشر من كتاب تحفة الغرناطي

سنة (٧٢٦هـ) / إبريل سنة (١٣٢٦م)، وهي أول زيارة زارها فيها؛ فقال: «قصدت المنارة في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدمًا» - إلى أن قال: «ووجدته قد استولى عليه الخراب، بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه، وكان الملك الناصر -رحمه الله- قد شرع في بناء منار مثله بإزائه، فعاقه الموت عن إتمامه»[(١)].

ويؤخذ من هذه العبارة أن المنارة بدأت تستخرب في السنين التي بين عام (٧٢٦ و٧٤٩هـ/ ١٣٢٥ و١٣٤٨م).

كذلك لا بد لنا من القول إن منارة تابو زيريس، أو بعبارة أوضح منارة أبو صير بمريوط- ليست إلا صورة مصغرة من منارة الإسكندرية، وقد بنيت قلعة أو طابية قايتباي الحالية والمسجد وما يلحق ذلك في سنة (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)، فوق أنقاض منارة الإسكندرية بعد سقوطها تمامًا في التاريخ المتقدم.

ويوجد حول هذه الطابية بعض أعمدة من حجر الجرانيت، يقال إنها من مخلفات المنارة، وقد أشار ابن إياس[(٢)] في حوادث هذه السنة (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م) إلى عمارة

(١) محمد بن عبد الله اللواتي، المعروف بابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (القاهرة، ١٩٦٦): ٢٢.

(٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، مج. ٣: ١٥١- ١٥٢.

قايتباي بهذه المنارة، بما نصه: «وكان سفر السلطان إلى الإسكندرية في هذه المرة لأجل البرج الذي أنشأه هناك؛ وقد انتهى العمل منه، فتوجه ليرى هيئته ...ثم كشف عن البرج الذي أنشأه بثغر الإسكندرية مكان المنار القديم فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجل الآثار الحسنة، وقيل إن صفة بنيان هذا البرج أن دهليزه عُقد على قناطر في البحر المالح من الساحل حتى ينتهي إلى البرج، وقد بني على أساس المنار القديم الذي كان بالإسكندرية. وأنشأ بهذا البرج مقعدًا مطلاًّ على البحر؛ ينظر منه من مسيرة يوم إلى المراكب وهي داخلة إلى المينة، وجعل بهذا البرج جامعًا يخطبه وطاحونًا وفرنًا وحواصلَ وأشحنهم بالسلاح، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلاً ونهارًا، لئلا تطرق الإفرنج الثغر على حين غفلة، وجعل بها جماعة من المجاهدين، قاطنين به دائمًا، وأجرى عليهم الجوامك، والرواتب في كل شهر، وجعل شادًا من خواصهم، وهو باش عليهم يقال له قانصوه المحمدي الخاصكي. وهو الذي ولي نيابة الشام فيما بعد؛ وصار يعرف بقانصوه البرجي، وقيل إن السلطان صرف على هذا البرج زيادة عن المائة ألف دينار، وأوقف عليه الأوقاف الجليلة».

هذا كل ما قيل عن منارة الإسكندرية، وهو في جملته وتفصيله لا نستطيع أن نأخذ منه دليلاً واحدًا على ماهية هذه المنارة وكيفيتها؛ على أن لدينا أمرًا حريًّا بالنظر، وهو: هل يمكن للقائلين بأن المسلمين أخذوا شكل منائرهم عن منارة الإسكندرية- أن يأتوا لنا بمنارة من منارات المساجد الأولى، أنشئت في عصور ازدهار هذه المنارة في القرن الثاني أو الثالث أو الرابع من مساجد الإسلام الأولى؟!

لقد كان عقبة بن نافع في مصر- فترة من الزمن- ثم سافر منها إلى إفريقيا وبها أسس جامعه، فرأينا منارته؛ بينها وبين هذا الوصف الذي يترسمونه في مخيلاتهم بُعْدُ ما بين السماء والماء.

كذلك أحمد بن طولون، ثم الحاكم بأمر الله، ثم بدر الجمالي، ثم مأمون البطائحي، ثم غير هؤلاء في مصر وغيرها من الأقطار الإسلامية إلى العصر الذي اختفت فيه المنارة عن الأنظار، لم نر من هؤلاء واحدًا اقتبس من منارة الإسكندرية حتى شرفة منها. مع أنها في هذه العصور كانت قائمة حافظة لشكلها، على ما يذكر المؤرخون، وعلى ما ثبت بوجه لا يقبل الشك.

إذن هذه قالة لا ينبغي أن تقال، وزعم خاطئ؛ يجدر بالباحثين في هذا الفن بنوع خاص؛ من مستشرقين وغيرهم- البعد عنه وتجنبه؛ لأنه يوقعهم في محظور، ويودي بهم إلى هوة الخلاف والارتباك.

تطور المآذن في الأقطار الإسلامية

قلنا: إن المآذن لم تثبت على حالة واحدة، فتطورت على أشكال عدة، وبينما تطورت المآذن في مصر هذا التطور؛ من التربيع إلى الاستدارة إلى غير ذلك، نراها تطورت نفس هذا التطور في بلاد المغرب، إلا أن أغلبيتها ظلت باقية على شكلها المربع، مع إدخال شيء من الرشاقة عليها، فتجد مثلاً في مئذنة جامع الكتبيين في مراكش الذي أسس في آخر القرن السادس الهجري نموذجًا من هذا التطور، وقد يكون مصدره الأصلي مئذنة جامع الشرفاء الذي أسسه إدريس بن إدريس في فاس سنة (٩٣هـ/ ٧١١م)، «وهو الضريح الإدريسي الآن»، أو مئذنة جامع القرويين بفاس الذي أسسته فاطمة الفهرية في سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، أو مئذنة جامع الأندلسيين بفاس المؤسس في سنة (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، أو مئذنة جامع الزيتونة المؤسس في سنة (١١٤هـ/ ٧٣٢م)، أو جامع تلمسان الذي يمتاز بكثرة الزخرفة فيه إلى حد كبير.

أو سائر المساجد الإسلامية الأخرى التي أسست قبل القرن الخامس الهجري في تلمسان، وصفاقص، وتونس، والرباط، وغيرها من بلاد المغرب. وهذا يجعلنا في حل لأن نقول إن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن[1] حينما أتم هذا



مئذنة جامع الكتبيين بمراكش

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، المعروف بالمنصور الموحدي، ثالث خلفاء دولة الموحدين في المغرب (٥٨٠-٥٩٥هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م)، كان من أكثر حكام المغرب اهتمامًا بالتشييد والبناء، فبنى مدينة الرباط، ومسجد سلا الكبير، ومئذنة جامع حسان بالرباط، والجامع الأعظم بقصبة مراكش، ومسجد الكتبيين. وأقام مئذنة للمسجد الجامع في إشبيلية المعروفة اليوم بـ «الخيرالدا» أو الدوارة، انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج. ٧: ٣ وما يليها؛ لسان الدين ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**: ٢٦٩ وما يليها؛ محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن عليّ المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** (د.م.: طبعة ليدن، ١٨٨١): ١٨٩ وما يليها.

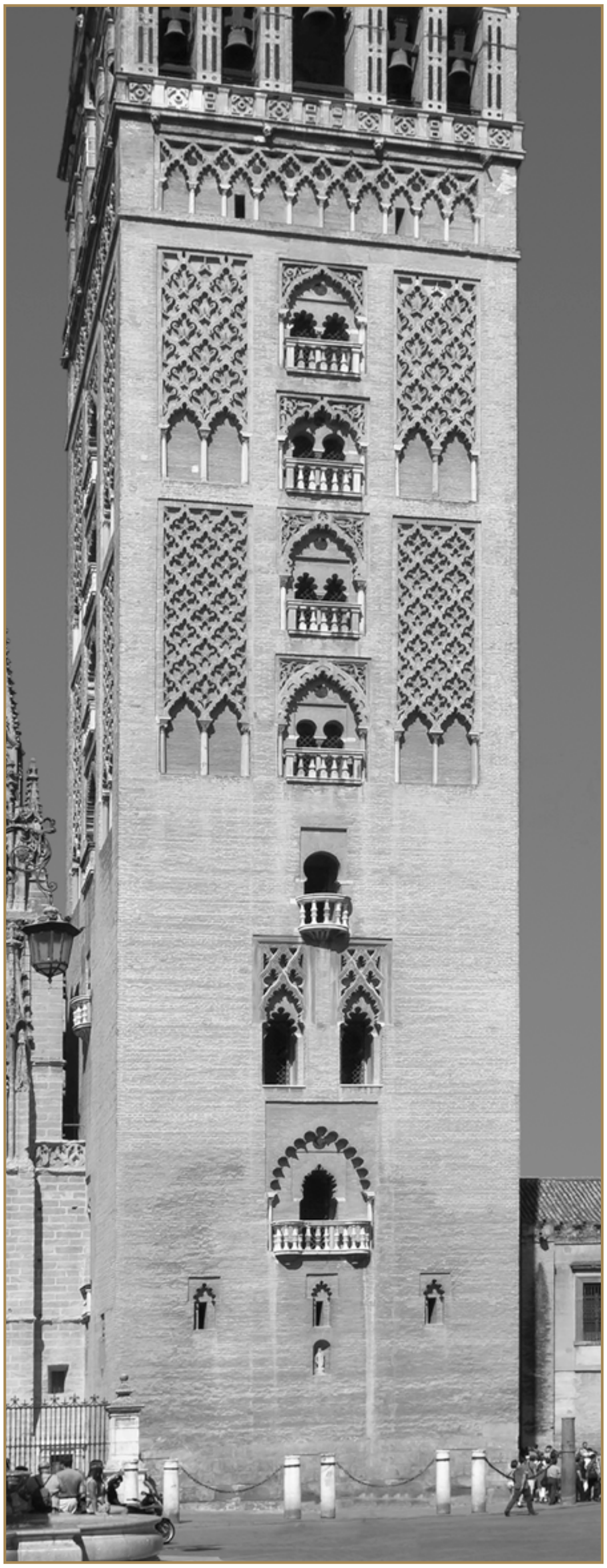
المسجد وبنى منارته هذه، أتاحت له وجود هذه المآذن في البلاد المجاورة له الفرصةَ في أن يبني مئذنة جامع الكتبيين ومئذنة جامع حسان بالرباط على شكل هذه المآذن.

أشكال المآذن في المغرب والأندلس

أما أشكال المآذن في المغرب والأندلس فنستطيع أن نقول: إنها جميعها مربعة ذات دور واحد، وهذا الدور هو عبارة عن غرفة لها أربع نوافذ من كل جهاتها الأربع، يحول منها المؤذن وجهه مناديًا بالأذان، وبعضها يبلغ في الارتفاع حدًّا كبيرًا؛ كمئذنة جامع إشبيلية بالأندلس المشيدة في القرن الرابع، التي يبلغ ارتفاعها ٧٠ مترًا، وعرضها من أسفلها ١٥ مترًا، ثم يقل هذا العرض تدريجيًّا إلى أن يبلغ ثمانية أمتار ويصعد إلى قمتها على سطح مائل من الداخل ميلاً خفيفًا، وهي مبنية بالطوب الأحمر. وقد زاد الإسبان في ارتفاعها ٢٠ مترًا ورفعوا على قمتها تمثالاً لرمز الإيمان عندهم؛ من برونز يبلغ ارتفاعه ٤ أمتار، ووزنه حوالي طن، ووضعوه بطريقة يدور معها على نفسه عند هبوب الريح، ولهذا أطلقوا عليه اسم «برج خيرالدا» أي البرج الدوار، وهذه المئذنة الحالية وإن كانت من آثار دولة الموحدين في الأندلس فإنها نسخة كاملة من المئذنة الأولى رغم أنها مطبوعة بطابعهم الخاص.

وهذه المئذنة ببنيانها الشامخ تبرهن على ما وصل إليه الفن الإسلامي في عمارة المآذن في عهد المسلمين؛ حينما كانت أوروبا لا تعرف شيئًا من هذا الفن بعد.

ويلي هذه المئذنة في العلو والارتفاع والفخامة والكبر والاتساع- مئذنةُ جامع حسَّان بالرباط التي هي إحدى عجائب الدنيا، ومطاف الزائرين من علماء الآثار، من كل حدب وصوب؛ إذ إنها تحفة فنية، وآية رائعة في فن



مئذنة جامع إشبيلية «خيرالدا».



مئذنة جامع حسان بالرباط

العمارة الإسلامية في المغرب. وقد شادها يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن بن علي؛ الملقب بالمنصور الموحدي في سنة (٥٩٣ و٥٩٤هـ/ ١١٩٦ و١١٩٧م)، وهي السنة التي تم فيها تأسيس مدينة رباط الفتح؛ التي سبق لأبيه وضع تأسيسها وتخطيطها.

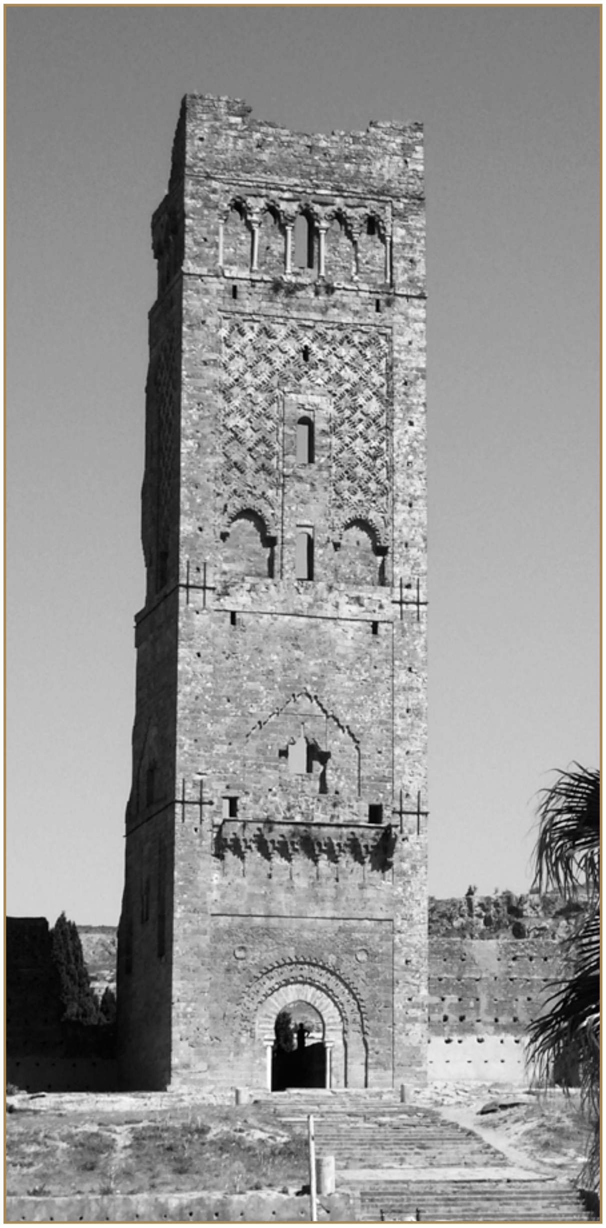
ويصف هذه المئذنة عبد الواحد المراكشي، في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب - أنها بلغت في نهاية العلو ما بلغته منارة الإسكندرية[1].

وقد يكون في وصف هذا المؤرخ لعلو هذه المئذنة بعض المبالغة؛ إشارة لارتفاعها البعيد عن سطح الأرض. ويقول: «إنه يصعد إليها بغير درج».

وهذه المنارة تشبه في هذا الوصف منارة جامع الأنوار بمكناس؛ الذي أسسه مولاي إسماعيل في سنة (١٠٣١هـ/ ١٦٢١م)؛ إذ إنها بغير درج أيضًا. وقال عن المسجد: «وبنى فيها مسجدًا عظيمًا كبير المساحة، واسع الفناء جدًّا، لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه».

ومن هذا الطراز المئذنة الحديثة لجامع الزيتونة الأعظم بتونس، التي شيدت في سنة (١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م)، فقد يبلغ ارتفاعها ٤٣ مترًا، وتمتاز برشاقتها وزخارفها وانسجامها، وهي تشبه من وجه مئذنة جامع باريس المشيد في سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، ومئذنة جامع السلطان مولاي محمد؛ بالدار البيضاء.

ومن هذا الطَّرْز أيضًا مئذنة جامع المنصورة بتلمسان، التي شيدها السلطان يوسف بن يعقوب في سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، وتمتاز بما فيها من الفصة الخضراء والزرقاء التي



مئذنة جامع المنصورة بتلمسان

تغطي بدنها، فهي من هذا الوجه تشبه منارة جامع أبي مدين؛ إذ إنها مغطاة بالقاشاني الأزرق والأخضر.

ومآذن الجامع الأعظم بتلمسان، وجامع الأندلس بفاس، والمسجد الأعظم بمكناس- وهذه المئذنة يبلغ سعة

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي، **المعجب**: ١٩٢، ١٩٣.



المئذنة الحديثة لجامع الزيتونة الأعظم

كل جدار منها مترًا و٧٠ سم، وعرض كل جهة من جهاتها الأربع ٥م و٥٠سم، وعدد درجاتها ١١٣ درجة؛ علو كل درجة ٢٠ سم.

أما منارة جامع الكتبيين بمراكش التي أنشأها يعقوب المذكور في سنة (٥٩٣هـ/ ١١٩٦م)، «المسجد أسسه جده عبد المؤمن بن علي في سنة (٥٣٧هـ/ ١١٤٢م) ولم يتمه»- فيبلغ ارتفاعها حوالي ٦٣ مترًا، وعرضها ١٥ مترًا، وسمكها متران ونصف، وقمتها مكونة من سبع قباب، وتمتاز هذه المئذنة عن غيرها ببنايتها من الحجر النحيت.

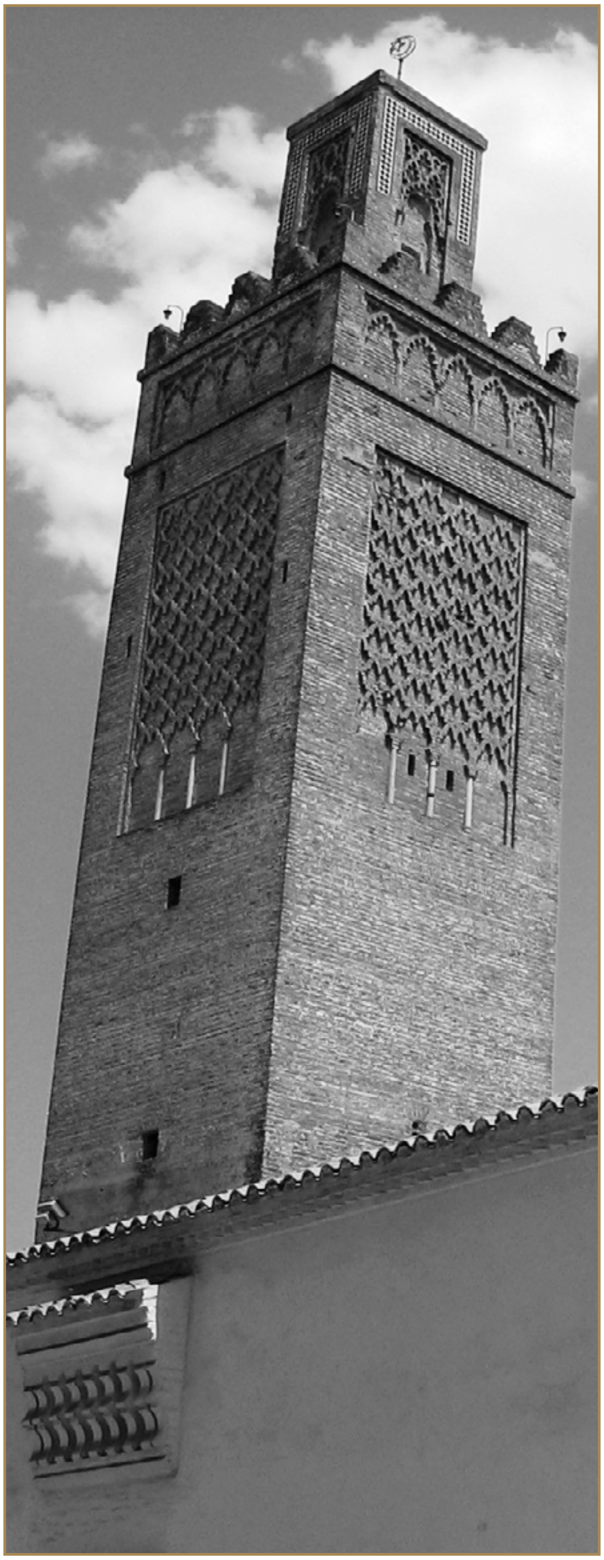
أما مئذنة جامع ابن يوسف الذي أسسه علي بن يوسف ابن تاشفين المتوفى في سنة (٥٢٦هـ/ ١١٣١م)، فطولها ٣٠ مترًا، وعرضها ثمانية أمتار ونصف، وسمكها متر ونصف. وتنتهي قمتها بخمس قباب. وهي وإن كانت حديثة عهد بالبناء؛ لأنها بنيت في سنة (١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م)، بأمر السلطان مولاي سليمان- فإنها بنيت على نسق المئذنة الأولى القديمة، التي كانت قائمة بالمسجد من عصر إنشائه في مكان قريب منها.

ثم هنالك من المآذن الحديثة ما يبلغ منها في الارتفاع هذا القدر كما بيّنا آنفًا.

ومن هذا النوع منارة المسجد الأعظم بمدينة سلا؛ الذي أسسه بنو الأمير قاسم بن عشرة، أحد أمراء المغرب في عهد المؤيد هشام صاحب قرطبة وملكها، وكان تأسيسهم له في سنة (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م) . وقد نسب هذا المسجد إلى المنصور الموحدي؛ لتجديده له بعد سقوطه في سنة (٥٢٧هـ/ ١١٣٢م).

وقد كانت مئذنة هذا المسجد تعد من عجائب العمارة الإسلامية في المغرب؛ فقد بلغ التأنق فيها إلى حد كبير.

وما زالت هذه المنارة على حالها إلى عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام سلطان المغرب؛ ففي أثناء مدته



مئذنة الجامع الكبير بتلمسان

ظهـــر بها خلل أدى إلى هدمها، وإعادتها على نســـق المئذنة الأولى؛ إلا أن هذه جاءت أرشق منها نوعًا ما. وقد عمر معها المسجد جميعه، وجدد ما تشـــعث منه. وكان وزير الأوقاف وقتئذٍ الحاج أحمد بن محمد بن الهاشـــمي عواد، وقد بلغت النفقة عليـــه ٣٤٢٤ مثقالاً، وبعـــض الأواقي؛ أي بما يقدر بألفي ريال ومائة وأربعين، بالعملة المصرية حوالي ٩٠٠ جنيه.

ووافق الفراغ من بنائه في سنة (١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م)، كما جاء بالمذكرة التاريخية المنقوشة على بابه:

«وقـــد جددت وزارة الأوقاف الخيرية في المغرب هذه المئذنة في سنة (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)؛ في عهد السلطان محمد بن يوســـف؛ ســـلطان المغـــرب، فرممت الجزء العلـــوي منها، وجددت أعلى الســـور. وأعادت قبتها العلوية وأدارت محيطها بالنحاس، وقد بلغت نفقات ذلك التجديد حوالي ٧٧٠٠ فرنك»

أما مآذن المساجد في طرابلس الغرب فأخصها مئذنة جامع أحمد باشا القرامنلي المؤسس في سنة (١١٣٠هـ/ ١٧١٧م)، وهي مئذنة مبنية على طرز يباين طرز نظام المآذن الأولى[(١)]؛ إذ إنهـــا تبدأ بمضلع ثم تنتهي بمخروط، وبينها وبين مئذنة



مئذنة جامع أحمد القرامنلي بطرابلس

(١) شيده أحمد باشا القرامنلي، الوالي العثماني ثم مؤسس الأسرة القرامنللية الحاكمة في ليبيا (١١٢٣-١١٥٨هـ/ ١٧١١-١٧٤٥م)، بطرابلس الغرب بالقرب من مدخل المدينة القديمة المعروف بباب هوارة. ويعد أحد أهم نماذج عمارة المساجد العثمانية في بلدان المغرب الإسلامي، أما مئذنته فهي منفصلة عن بيت الصلاة؛ إذ تقع بأحد أركان المسجد، وتتكون من بدن مثمن الأضلاع تم تشييده على قاعدة مربعة مرتفعة قليلاً، وتنتهي من أعلى بشرفة مثمنة يعلوها بدن مثمن يتوجه شكلاً مخروطيًّا، انظر: علي مسعود البلوشي، «نظرة على العمارة الدينية وتطورها في ليبيا»، في معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، **منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو** (الرباط: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ٢٠١٠): ٣٢٤، ٣٢٥.

جامع سيدي أحمد بن عروس بتونس نسبة قريبة في الشبه، إلا أن هذه تمتاز عنها بزخرفة أضلاعها وبتغطية دورتها محل ما يقف المؤذن؛ على نحو ما نراه في مساجد إيران والعراق. وهذا الجامع المذكور من أشهر مساجد طرابلس، ويليه جامع محمد باشا بسوق الترك المؤسس في سنة (١١١٠هـ/ ١٦٩٨م)، وجامع سيدي حمودة، وهو الشيخ محمد بن العربي ابن محمد بن حمودة بن الصغير الهاشمي؛ من علماء طرابلس الأعلام. كان في عهد أحمد باشا القرامنلي هو العالم المشار إليه بالبنان. ويمتاز هذا الجامع بزخارفه وعقوده وفخامة بنائه وبابه الكبير بواجهته الفخمة.

ومن الأماكن الأثرية بطرابلس التي ترجع إلى عهد بعيد - قصورُ حسان بن النعمان الغساني؛ عامل عبد الملك ابن مروان، وهي التي تعرف اليوم بتمد حسان بقرية حسان من أعمال طرابلس.

وقد تكون المئذنة الوحيدة التي تختلف عن طراز مآذن المغرب هي مئذنة جامع الشيخ عبد السلام الفيتوري المعروف بالأسمر، وهي تشبه من وجه المآذن العثمانية في استدارتها وملوستها، وهي ذات طابق واحد ينتهي بقمة قصيرة مثلثة، وليس فيها من الفن المغربي ما يذكر بشيء.

مئذنة المسجد النبوي هي المصدر الأصلي الذي أخذ المسلمون عنه شكل منائرهم

ويلوح بعد ذلك أن نقول: «إن هذا التطور البديع الذي حدث في المغرب، في نظام بناء المآذن في المساجد، وكان مصدره الأندلس والشام أو القيروان، ومصدرهم جميعًا المسجد النبوي- جعل للفاطميين مندوحة في أن يبنوا مساجدهم بما فيها المآذن وخلافه على نظام مساجد المغرب، إلا أنها طبعت بطابعهم الخاص».

وأقدم مثال نراه للفاطميين في مآذنهم في مئذنتي جامع الحاكم، الذي بدأ في بنائه العزيز بالله سنة (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) ولم يتمه، فأتمه ولده الحاكم بأمر الله إلى سنة (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)، وقد تم تشييد المئذنتين قبل ذلك بعامين، أي في سنة (٤٠١هـ/ ١٠١٠م)[١] وسقط الجزء العلوي منهما في زلزلة سنة (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م)،[٢] فجدده في السنة التي تليها الأمير بيبرس الجاشنكير بأمر السلطان الناصر محمد، وجاءت قبتاهما معًا تشبهان قبة مئذنة الخانقاه البيبرسية.

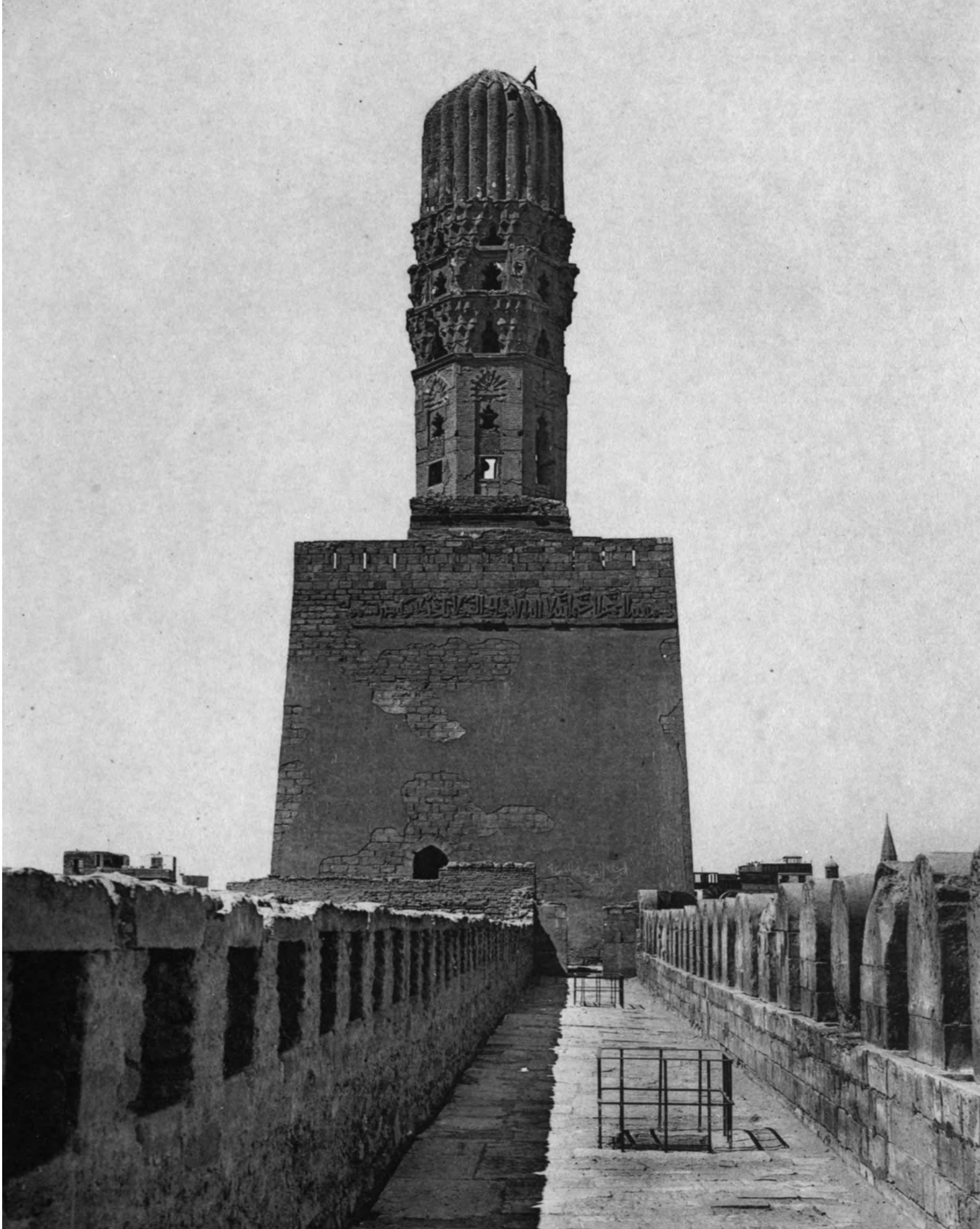
ثم مئذنة مسجد الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش التي شيدت في سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م)، وقد تأثرت هذه المئذنة بالفن الفارسي نوعًا ما، وهي تشبه من وجه مئذنة الجامع العمري بإسنا، الذي جدده بدر الجمالي سنة (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)،[٣] ثم مئذنة الجامع العمري بالإسكندرية الذي

---

(١) بهاتين المئذنتين إزار منقوش بالخط الكوفي فيه آيات قرآنية واسم الحاكم بأمر الله، إلا أن التاريخ سقط في إزار المئذنة الشمالية. أما المئذنة الغربية فقد ورد النص كاملاً، إذ يقرأ فيه: شهر رجب سنة (٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م)، انظر: أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، مج. ١: ٦٨؛ سالم، **المآذن المصرية**: ١٧، ١٨.

(٢) بالمسجد نقش كتابي جاء فيه: «وكان الفراغ في شهر ذي الحجة سنة ثلاث وسبعمائة»؛ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، مج. ١: ٦٤.

(٣) تعتبر مئذنة جامع إسنا الذي يرجع إلى العصر الفاطمي من أقدم المآذن المؤرخة في مصر الإسلامية، وعلى غرارها أنشئت مآذن الوجه القبلي، كما بقيت اللوحة التذكارية لإنشائها وهي مثبتة على يسار المحراب ومكتوبة بالخط الكوفي باسم منشئها أبي منصور سارتكين الجيوشي عام (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)، انظر نصها: سعاد ماهر، **مساجد مصر**، مج. ١: ٢٧٦؛ فرج حسين فرج الحسيني، **النقوش الكتابية الفاطمية على العمائر في مصر** (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٧): ١٨٤. إلا=



إحدى مئذنتي جام
الحاكم بأمر الله
بالقاهرة

جدده بدر الجمالي أيضًا في سنة (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م)، وقد حلت محلها مئذنة أخرى.

ثم مئذنة مسجد السيد معاذ الحسني بالبرقية، التي شيدها الوزير أبو الغضنفر أسد الفائزي؛ أحد وزراء الدولة الفائزية، في سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) لمشهد السيد معاذ الحسني المتوفى سنة (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م)[1]. وهذه المئذنة هي الأولى



مئذنة خانقاه بيبرس الجاشنكير «عن مساجد مصر»

= أن كريسويل يرجعها إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الهجري؛ نظرًا لأن الجوسق الذي على قمتها ينتمي بصورة وثيقة إلى القباب الصغيرة التي ترجع إلى القرن الحادي عشر بجبانة أسوان لما تتميز به من قرون، هذا فضلاً عن البدن المربع الذي يتوجه أسطوانة تتناقص تدريجيًّا، والرقبة المقعرة المثمنة ذات القرون التي لا وجود لها إلا في القرن الحادي عشر، وقد ذكر الدكتور عبد العزيز سالم تأثرها بالنماذج الفارسية على أنها تكشف في نفس الوقت عن تأثرها بالتقاليد المغربية، انظر: كريسويل، **العمارة الإسلامية في مصر: (الإخشيديون والفاطميون)**، ترجمة: حسن عبد الوهاب علوب (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٤): ١٥٨؛ سالم، **المآذن المصرية**: ٢١.

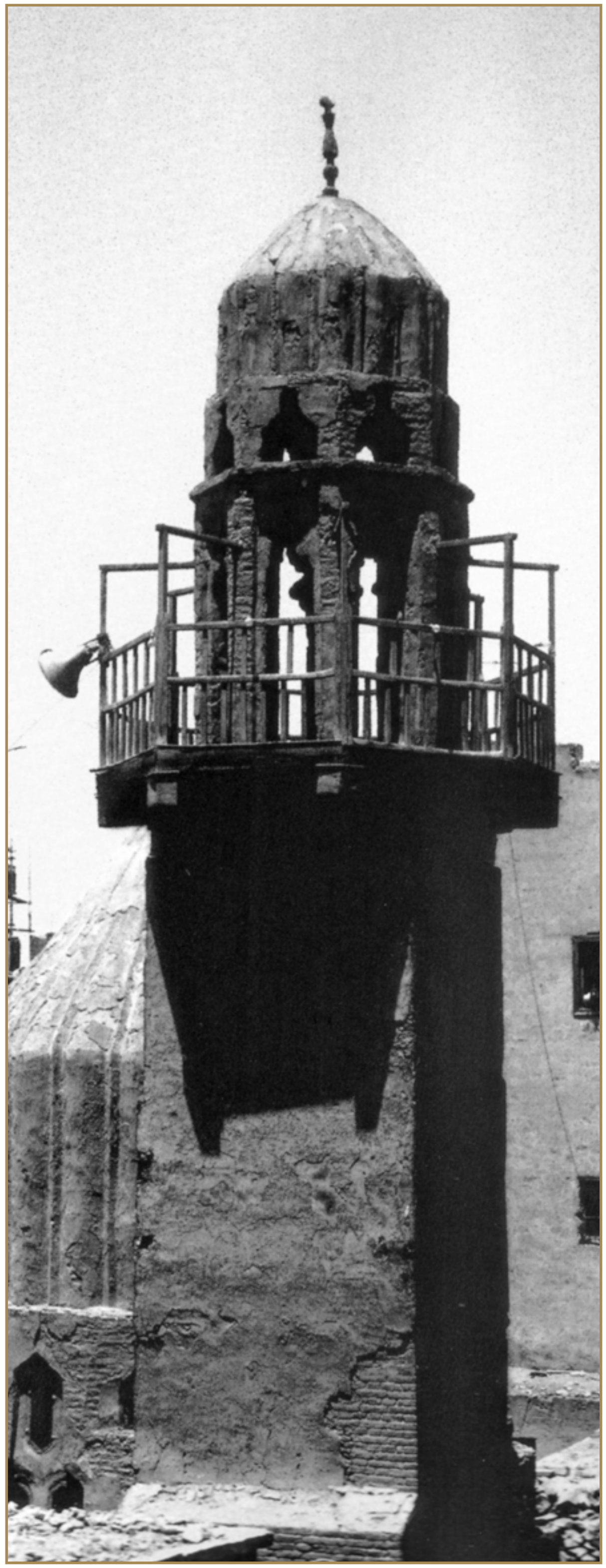
(١) يقع المشهد حاليًّا في حارة سيد معاذ، امتداد جوهر القائد بالدراسة- قسم الجمالية، قال ابن عميد الدين النجفي [المتوفى في أواخر القرن التاسع]: إن هذا المشهد كان بآخر شارع الدراسة قريبًا من السور الشرقي من آخر أسوار القاهرة وهو تحت قبة، بناه المرحوم السلطان قايتباي وكتب بالزجاج على كوة من كوات القبر هكذا: «السيد الشريف معاذ بن داود بن محمد بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب» وهكذا ذكره السخاوي في مزاراته، وقد توفي السيد معاذ هذا في ربيع الأول سنة خمس وتسعين ومائتين. إلا أن الشريف معاذًا قد دفن أولاً في قرافة السيدة نفيسة أو في القرافة الصغرى، وقام أبو الغضنفر أسد الفائزي؛ وزير الخليفة الفاطمي الفائز سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) بنقل رفاته وإعادة دفنه في ضريحه الحالي بالدراسة، كما هو ثابت على اللوحة التأسيسية الرخامية المثبتة فوق باب الضريح، وتعد مئذنة مشهد سيدي معاذ المبنية من الآجر- المئذنة الفاطمية الوحيدة المتبقية من القرن الثاني عشر الميلادي، وتمثل آخر مرحلة من مراحل تطور المآذن الفاطمية، على الرغم من أن البعض قد أرجعها إلى عام (٨٦٥هـ/ ١٤٦٢م)، انظر: ابن عميد الدين النجفي، **بحر الأنساب المسمى بالمشجر الكشاف لأصول** =

والأخيرة من المآذن الفاطمية التي اتخذت نموذجًا لما بني بعدها من المآذن في المدة التي بقيت من أيام الدولة الفاطمية، وأقربها إلينا مئذنة جامع الصالح طلائع بن رزيك بالقاهرة، التي كانت قائمة بالمسجد وسقطت في ختام القرن السابع؛ إذ إنها كانت من هذا النوع الفائزي، إلا أنها كانت أفخم منظرًا وأكبر حجمًا وأدق صناعة، وأحكم أساسًا وبنيانًا.

وقد كانت هذه المآذن الفاطمية الأخيرة قاعدة سارت عليها مآذن العصور التالية حتى أوائل القرن الثامن الهجري، ثم أخذت تتطور تطورًا آخر.

فمن المآذن التي بنيت على نسق هذه المآذن الفاطمية، أو التي ماثلتها واكتسبت منها قاعدة التربيع، والمنظر نفسه، وبني أعلاها باللبن وأسفلها بالحجر:

- مئذنة جامع الصالح نجم الدين أيوب؛ بشارع المعز لدين الله «النحاسين سابقًا»، شيدت في سنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)، وهي إحدى منارتيه[١].
- مئذنة زاوية الهنود «السيني بلاط»، شيدت في سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) في أواخر عهد الدولة الأيوبية[٢].

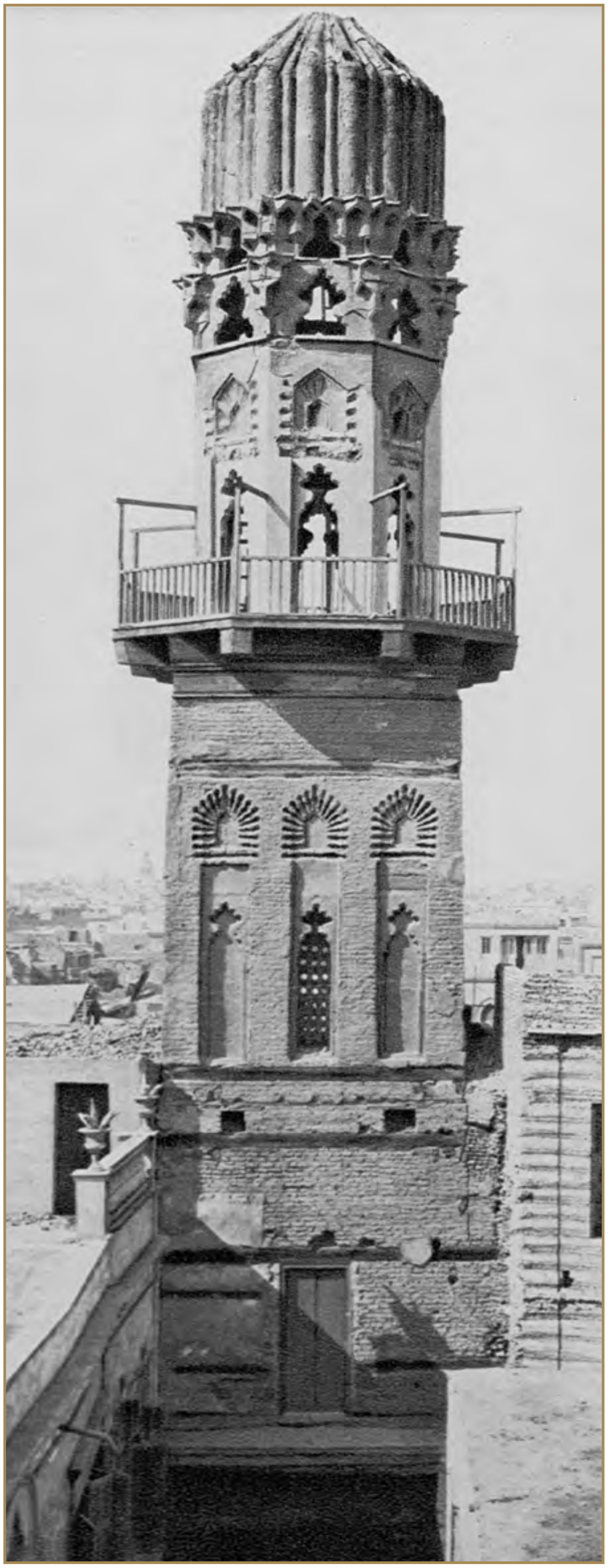


مئذنة أبي الغضنفر «سيدي معاذ»

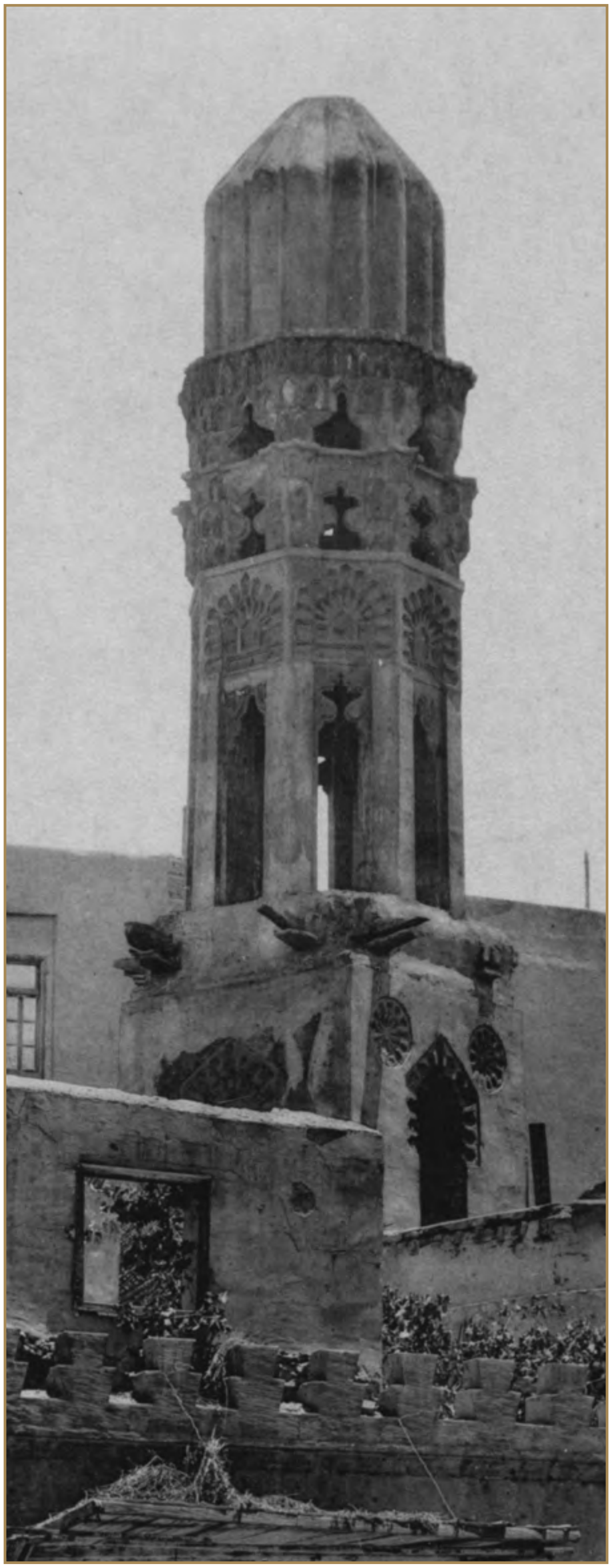
= **السادة الأشراف** (مصر: طبعة دار الكتب المصرية، د.ت.): ١٠؛ الحسيني، **النقوش الكتابية**: ٣٢١؛ سالم، **المآذن المصرية**: ٢٢.

(١) تعتبر المئذنة الوحيدة التي تبقت سليمة من العصر الأيوبي، وتتميز بتطور الطابق المثمن إلى جزء مستقل بعد أن كان مندمجًا في مئذنة الجيوشي ومئذنة إسنا في مجموع البناء وأصبحت تتوجه مبخرة تقليدية، وسيظل هذا النظام متبعًا بعد انتهاء الدولة الأيوبية بنحو نصف قرن، انظر: سالم، المآذن المصرية: ٢٤، ٢٥.

(٢) لم يشر المؤرخون إلى تاريخ هذه المئذنة، ولهذا نسبها البعض إلى عصر المماليك، وأرجعها البعض الآخر إلى العصر الأيوبي؛ لتشابه عناصرها المعمارية والزخرفية مع عناصر مئذنة المدرسة الصالحية، انظر: أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، مج. ٢: ٤٤.

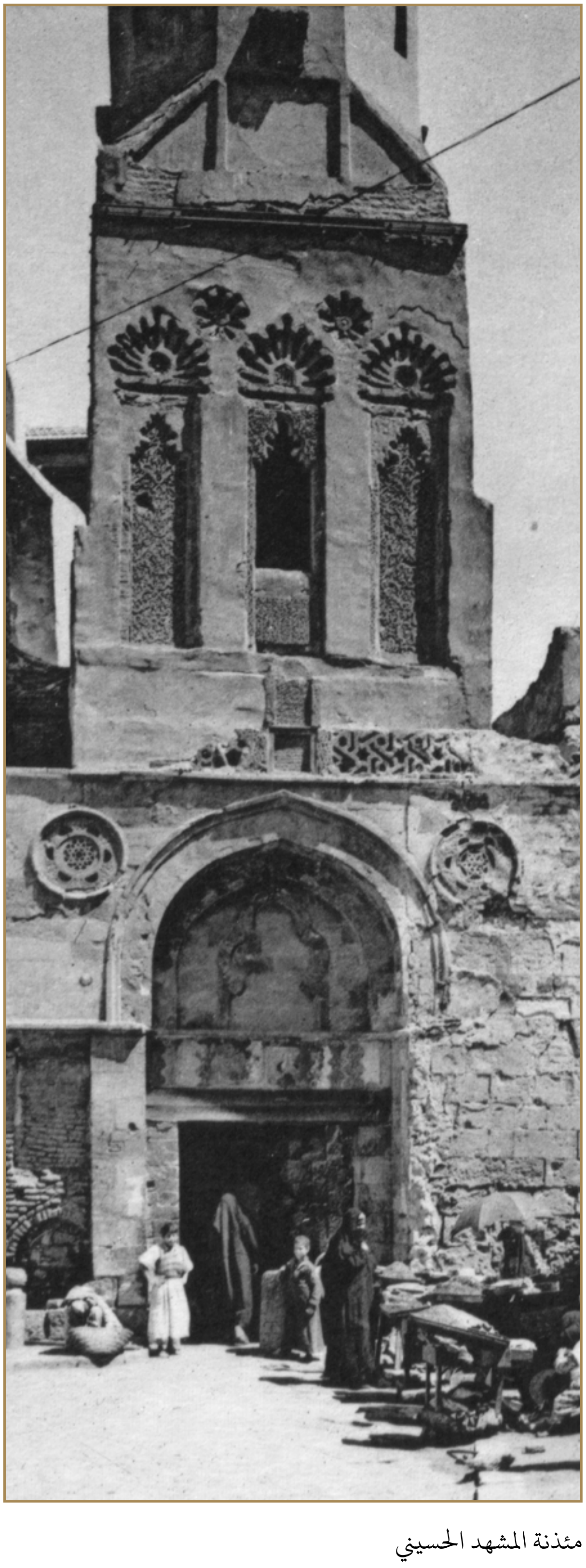


مئذنة المدرسة الصالحية «عن مساجد مصر»



مئذنة زاوية الهنود

- مئذنة الرباط السليماني بالهلالية بالقاهرة، وقد سقطت هذه المئذنة منذ نصف قرن أو أكثر (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م).
- مئذنة أم السلطان خليل «خوند فاطمة»، شيدت في سنة (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م).
- مئذنة مدرسة منازل العز «جامع شهاب الدين المرحومي» بحارة الشراقوة بالفسطاط. كانت هذه المئذنة من المآذن ذات القاعدة المربعة، وكان بدنها جميعه من الآجر المحلى بمقرنصات جصية، وقد سقطت هذه المئذنة من حوالي نصف قرن، ويرجع عهدها إلى العصر الأيوبي.
- مئذنة المشهد الحسيني، أنشئت في سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م)، أنشأها الشيخ أبو القاسم الزرزور السكري بالاشتراك مع ابنه، كما جاء بالنص التاريخي المودع بآخر قاعدتها وهي الجزء الذي تخلف منها[١]، أما أعاليها فقد حدثت منذ العصر العثماني، وهذا الجزء الباقي من هذه المئذنة الحافل بالزخارف الجصية البديعة ينبئ بأنها كانت ذات فن بديع[٢].



مئذنة المشهد الحسيني

---

(١) نصه: «بسم الله أوصي بإنشاء هذه المئذنة المباركة على باب مشهد السيد الحسين تقربًا إلى الله ورفعًا لمنار الإسلام- الحاجُّ إلى بيت الله أبو القاسم بن يحيي بن ناصر السكري المعروف بالزرزور، تقبل الله منه. وكان المباشر لعمارتها ولده لصلبه الأصغر الذي أنفق عليه من ماله بغية عمارتها خارجًا عما أوصى به والده المذكور. وكان فراغها في شهر شوال سنة أربع وثلاثين وستمائة»، انظر: سالم، **المآذن المصرية**: ٢٤.

(٢) يتميز الجزء الأصلي من المئذنة بجوفاته المقرنصة الثلاثة، التي تشغلها ثلاث حشوات مطولة تزخر بحشد من الزخارف النباتية المحفورة في الجص، من الطابع الأندلسي الذي نراه في قصر الجعفرية بسرقسطة وفي المسجد الجامع بتلمسان، انظر: سالم، **المآذن المصرية**: ٢٤؛ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، مج. ٢: ٣٩.

- مئذنة جامع المنصور قلاوون، شيدت في سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، وسقط الجزء العلوي منها في زلزلة سنة (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م)، وأعيد في السنة التي تليها[١]، وفي سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م) قويت قبتها لظهور ضعف بها. وهذه المئذنة اكتسبت منظرًا آخر يباين المنظر السالف ببعض فوارق.
- مئذنة جامع القاضي كريم الدين الكبير الناصري، المعروف بجامع الشيخ علي البقلي الأحمدي «بالقبيبات» شارع البقلي الآن، شيدت في سنة (٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)، وهذه المئذنة خالفت القاعدة العامة في نظام المآذن المربعة في هذا العصر، فبنيت بقاعدة مربعة، لكن بطَرْزٍ يتباين مع الأطرزة الأخرى.
- مئذنة جامع الناصر محمد بن قلاوون بشارع بين القصرين، شيدت في سنة (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)، وهذه المئذنة تمتاز عن غيرها من مثيلاتها بمجموعة الزخارف الكتابية أندلسية الطرز؛ ومنها المذكرة التاريخية «الجزء العلوي منها مشوه»[٢].
- وللناصر محمد بن قلاوون مئذنة أخرى من هذا النوع المربع، شيدها لجامع سليمان بن عبد الملك بالرَّملة المؤسس في سنة (٩٨هـ/ ٧١٦م)، وهي مئذنة مربعة الشكل مبنية بالحجر، لها خمس طبقات، وطولها من القاعدة ٢٥ مترًا وأكثر من نصف متر، وطول قاعدتها مترٌ و١٥ سم، وعدد درجاتها ١٢٥ درجة، وقد حلت هذه المئذنة محل مئذنة أخرى بناها الملك الظاهر بيبرس الأول في سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، أما مئذنة الجامع الأولى فقد سقطت في زلزال سنة (٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م).

وعلى هذه المئذنة مذكرة تاريخية في ٣ أسطر، ونصها:

البســملة... إنما يعمر مســاجد الله من آمن بالله واليــوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله. أمر بإنشاء هذه المئذنة المباركة، مولانا السلطان الملــك الناصر العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر سلطان الإسلام والمسلمين محيي العدل في العالمين قاتل الكفرة والمشركين ملك العرب والعجم مالك

---

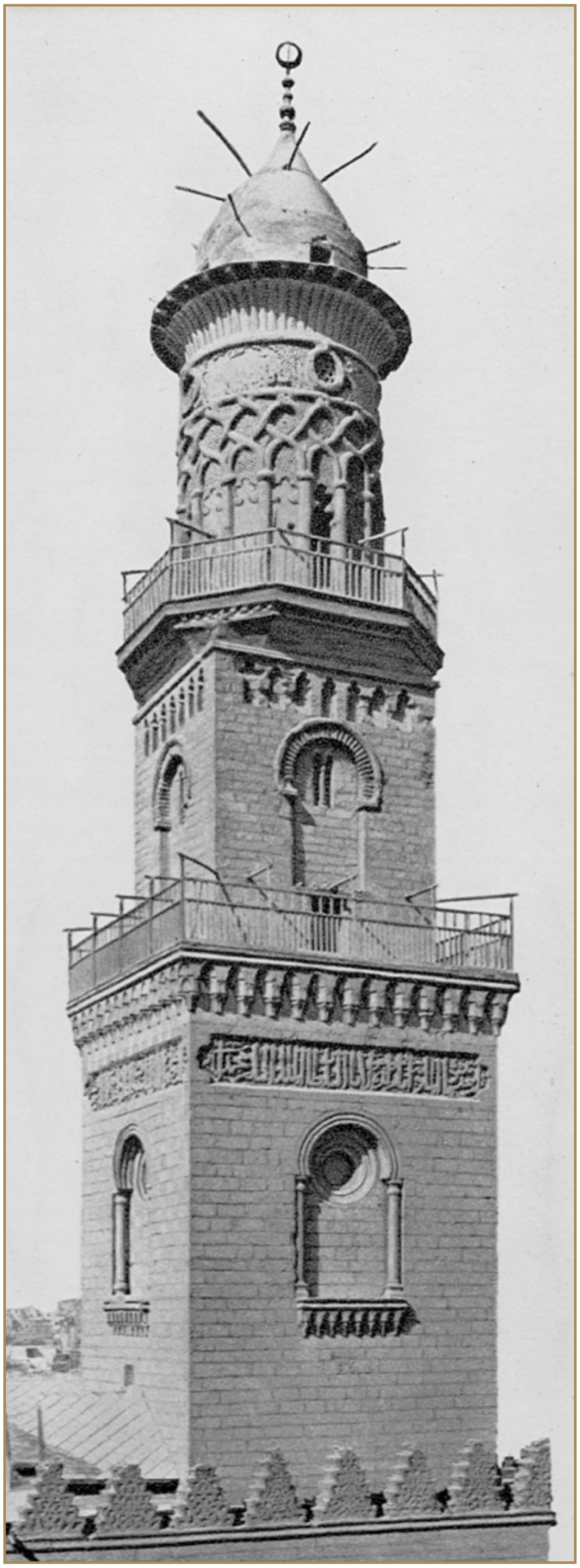
(١) تم إثبات تهدم المئذنة القديمة لمجموعة قلاوون بنص على المئذنة الحالية التي أنشأها الناصر محمد عام (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)، بمعرفة الأمير سيف الدين كهرداش المنصوري، حيث نقش تاريخ التجديد في أربعة أسطر تحيط بمربع الدورة الأولى أسفل المقرنص بما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. اللَّهُمَّ جدّد الرحمة والرضوان على روح الملك المنصور رحمه الله، أمر بتجديد هذه المئذنة في أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبو الفتح محمد، وذلك عند ظهور الآيات المنـزلة وسقوط أعاليها عند حدوث الزلزلة في شهور سنة ثلاث وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام». كما أثبت ذلك أيضًا في لوحة ثانية على وجه قاعدتها من الناحية البحرية، انظر: حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**، مج. ١: ١١٦، ١١٧.

(٢) تعد زخارف هذه المئذنة من أهم الشواهد على نفاذ التأثيرات الأندلسية في العمائر المصرية في العصر المملوكي، ويعد ذلك من = توابع حركة الاسترداد الإسباني وسقوط القواعد الأندلسية في ذلك الوقت، والذي أدى بدوره إلى هجرة عدد كبير من أهل الأندلس إلى المشرق بعد سقوط مدنهم، ومن أولئك كان بالطبع بعض الصناع وأرباب الحرف. أما عن أهم التأثيرات التي شهدتها المئذنة فهي متمثلة في إفريز المقرنصات أعلى القاعدة المربعة، والذي يشبه إفريز العقود المتجاوزة المتشابكة الذي نراه في مئذنة جامع إشبيلية وغيرها من مآذن الموحدين، بل إن الطابق الثاني يكشف بجلاء عن هذا التأثير في إفريز العقود ثلاثية الفصوص الذي يعلوه، وفي العقد المتجاوز الذي يتوسط هذا الطابق بأوجهه الأربعة، كما أن الطابق الأخير يمثل شبكة من المعينات تشبه ذلك النوع من التشبيكات التي ظهرت في واجهة بهو الجص بقصر إشبيلية وزخارف المعينات بالخيرالدا، انظر: السيد عبد العزيز سالم، «بعض التأثيرات الأندلسية على العمارة المصرية الإسلامية»، **مجلة المجلة**، العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٥٧)؛ سالم، **المآذن المصرية**: ٣٠.

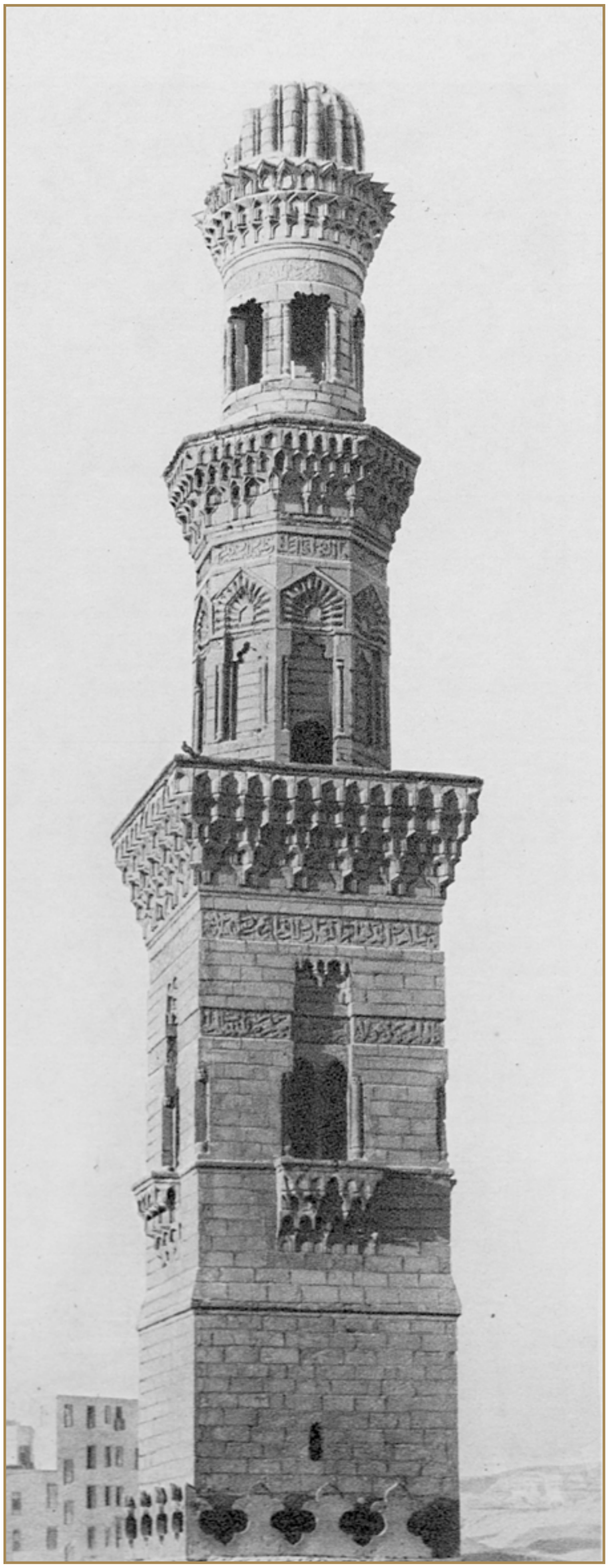


الزخارف الجصية لمئذنة
مدرسة الناصر محمد
بالنحاسين

رقاب الأمم حافظ بلاد الله ناصر الدنيا والدين؛ أبو الفتح محمد بن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه ونشر بالنصر ألويته وأعلامه. وكان الفراغ من إنشائها في نصف شهر شعبان سنة ثمان عشر وسبع مائة»



مئذنة قلاوون بالنحاسين «عن مساجد مصر»



مئذنة جامع وخانقاه قوصون اليوسفي «عن مساجد مصر»

تطور المآذن المربعة

وإلى هذا التاريخ أخذت المآذن المربعة تتطور تطورًا آخر؛ فظهرت مئذنة الوزير تنكزبغا سنة (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، وقد سبقت هذه المآذن مآذن أخرى مربعة إلا أنها لا تمت إلى هذا الفن بصلة. وهي مآذن جامع وخانقاه قوصون، ثم مئذنتا جامع الناصر بالقلعة.

ثم ظهرت مئذنتا جامع فرج بن برقوق بميدان القبق «الصحراء» سنة (٨١٣هـ/ ١٤١٠م)، وتماثلها من وجه قريب مئذنة جامع الأشرف إينال (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م).

ومئذنتا جامع أبي النصر جان بلاط (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م) «هُدِم هذا الجامع سنة (١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م)».

ومئذنة مدرسة قانباي الجركسي بدار الضيافة «ميدان السيدة عائشة» (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، وتمتاز هذه المئذنة عن غيرها من النوع المربع بأن بدنها العلوي أسطواني والأدنى مربع، ومن هذا الوجه مئذنة المسجد النبوي على مشرفه أفضل الصلاة والسلام، وهي مئذنة مصرية إسلامية صميمة (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م).

واتبع المهندس المسلم الحديث في مصر هذه القاعدة في جامع محمد الخواص بقنطرة الدكة مع أنها ذات طابع خاص[1].

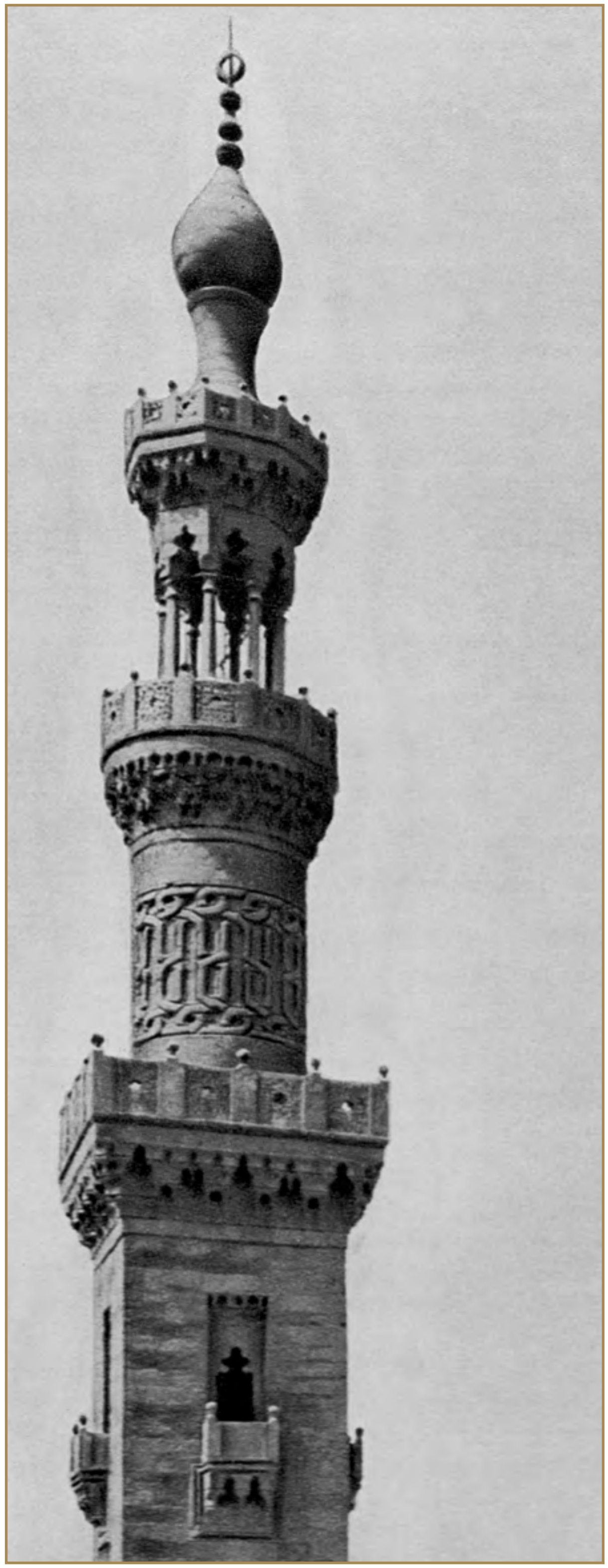
مئذنتا جامعي قانباي السيفي أمير آخور «ناظر المدور» أنشئتا في سنة (٩٠٨ و٩١١هـ/ ١٥٠٢ و١٥٠٥م). الأولى بجامعه الكائن بدرب اللبانة على رأس الصُّوَّة شرقي مسجد الرفاعي، وقد سقطت هذه المئذنة منذ قرن، فأعيدت مع الجزء الذي

(١) سقط القسم العلوي من هذه المئذنة عقب زلزال عام (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

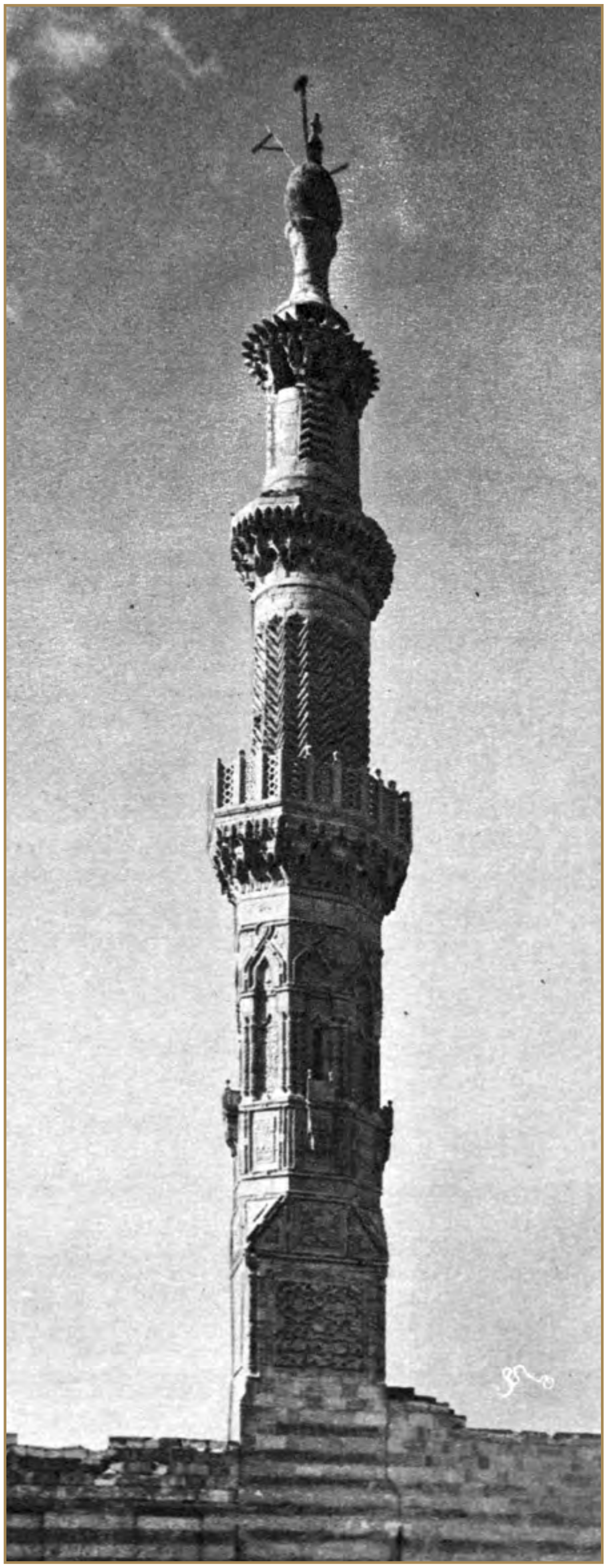




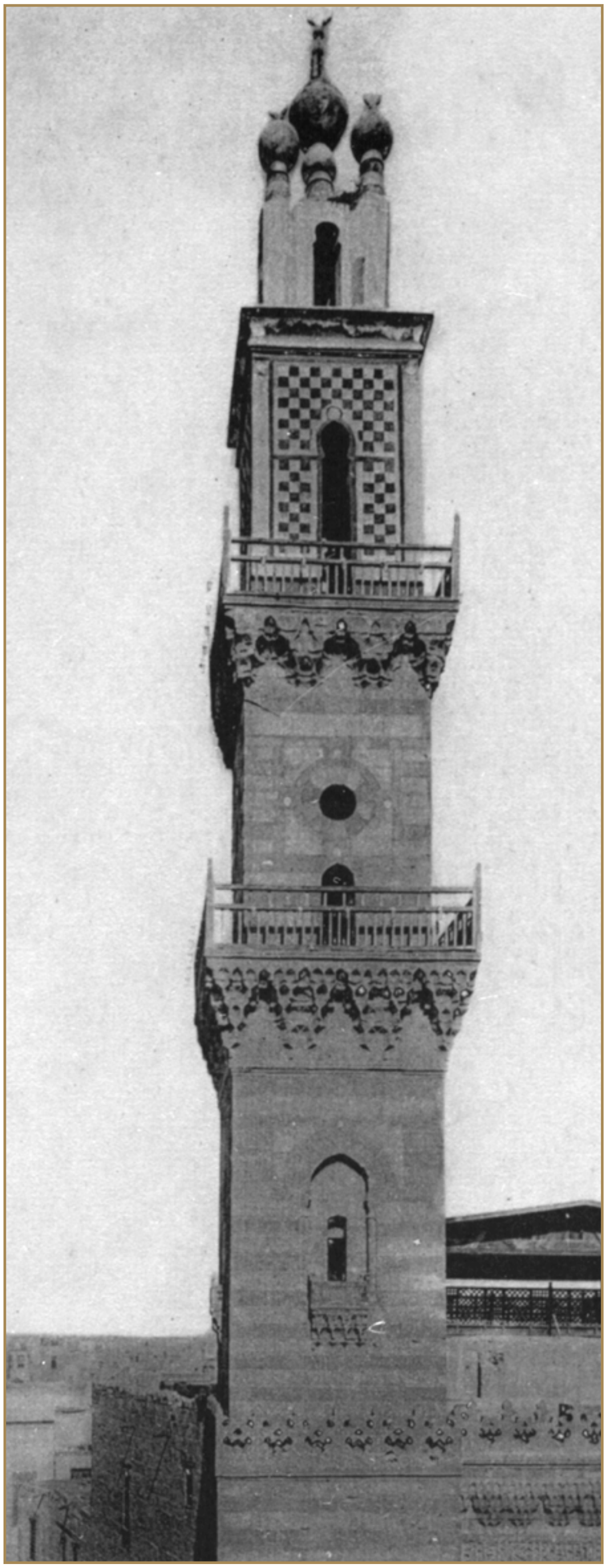
مئذنتا جامع السلطان الناصر محمد بالقلعة اليوسفي «عن مساجد مصر»



مئذنة خانقاه فرج بن برقوق بصحراء المماليك «عن مساجد مصر»



مئذنة جامع الأشرف إينال «عن مساجد مصر»



مئذنة مجموعة الغوري بشارع المعز

كان مفقودًا من مرافق المسجد، وهو السبيل والكتاب في سنة (١٣٥٧ و١٣٥٨هـ/ ١٩٣٨ و١٩٣٩م). والثانية بجامعه الآخر بالناصرية.

مئذنة جامع قانصوه الغوري المشيدة في سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) «الجامع سبق هذا التاريخ بعامين».

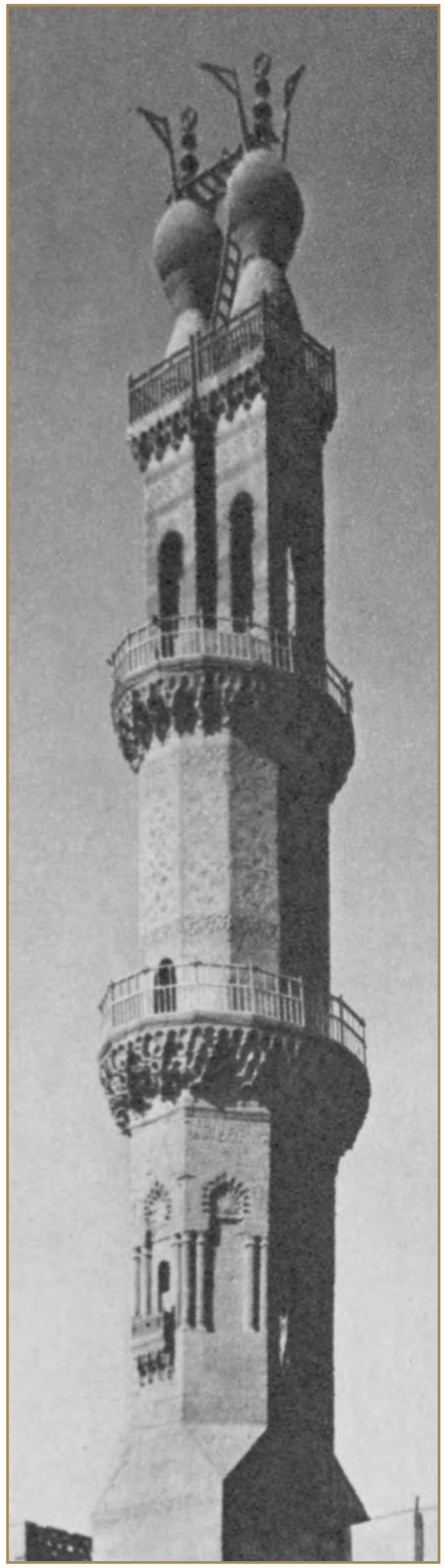
مئذنة جامع أبي العباس الحريثي (القرن العاشرالهجري/ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي) بالمحلة الكبرى، وهذه المئذنة تمتاز عن غيرها بما فيها من زخارف منسقة تنسيقًا بديعًا، وجزؤها العلوي على الأخص المبني من الآجر المطلي بالجص، يكاد يسترعي النظر بما فيه من عقود، وبقبتها المضلعة الجميلة. وهذه المئذنة وإن كانت من منشآت سنة (١١٤١هـ/ ١٧٢٨م)، فإنها تشبه من وجه المآذن التي سبقت هذا التاريخ، وأخصها المآذن ذات القاعدة المربعة التي تتحلى مدينةُ القاهرة بمجموعة منها تزيد عن واحدة؛ وهي التي لا تتعدى أوائل القرن الثامن.

مئذنة الجامع الأزهر؛ التي شيدها الغوري في سنة (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)[١]، وهي ذات ميزة خاصة معمارية؛ تبدو في أضلاعها وزخرفتها بالقاشاني، وفي رأسيها.

مئذنتا جامعي الأشرف برسباي؛ بالقاهرة، ومنشأة سرياقوس «الخانكة»، وقد شيدت الأولى في سنة (٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م) والجزء العلوي منها مفقود، والثانية في (٨٣١-٨٣٢هـ/ ١٤٢٧-١٤٢٨م).

أما مئذنة جامعه الآخر الكائن بالصحراء المنشأ في سنة (٨٣٤ و٨٣٥هـ/ ١٤٣٠ و١٤٣١م)، فهي حديثة عهد

(١) لم يثبت تاريخ بناء هذه المئذنة، انظر: علي مبارك، **الخطط التوفيقية**، مج. ٤ (مصر: طبعة بولاق، ١٣٠٥هـ): ١٢؛ أحمد فكري، **مساجد القاهرة ومدارسها**، مج. ١: ٤٥.



مئذنة الغوري بالجامع الأزهر «عن مساجد مصر»





تفاصيل من مئذنة الغوري بالجامع الأزهر «عن دوريس أبو سيف»

بالبناء حلت محل المئذنة الأولى التي هدمت لظهور خلل بها، وهي ذات قاعدة مربعة، ومادتها من اللبن المطلي بطبقة من الجص.

مئذنة جامع تغري بردي الدوادار؛ بالصليبية، وهي تشبه من وجه هذه المآذن المذكورة، وقد شيدت في سنة (٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م).

مئذنة جامع قوصون الناصري، بالقرافة الناصرية شيدت في سنة (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)، وهذه المئذنة بنوع خاص يغلب عليها التأثير بالفن الإيراني التبريزي، كما يبدو في كلام المقريزي[١].

مئذنتا جامعه الآخر، الذي تبقى منه بابه الشرقي بشارع السروجية، وبعض أجزاء في داخله، وقد كانت هاتان المئذنتان من طرز هاتيك المئذنة السابقة، وقد أنشئتا مع الجامع في سنة (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)؛ فبقيت الأولى إلى سنة (١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م)، ثم سقطت، وبقيت الثانية إلى سنة (١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م)[٢].

وشاهد كلام المقريزي يدل دلالة واضحة على أنهما من أصل تبريزي، إذ يقول: «قد حضر من بلاد توريز بناء، فبنى مئذنتي هذا الجامع، على مثال المئذنة التي عملها خواجا علي شاه؛ وزير السلطان أبي سعيد في جامعه بمدينة توريز».[٣]

وقد نستطيع مما ذكره المقريزي عن مآذن قوصون أن نتعرف على الفن الذي تمتُّ إليه مئذنة جامع الناصر بالقلعة، وقد تقارب إنشاؤها من إنشاء الخانقاه القوصونية، فبينهما عام واحد[٤].

وقد لا نعجب إذا علمنا أن هذا الفن التبريزي قد غزا قطرًا آخر غير القطر المصري، في عهد تأخر عن العهد الذي غزا فيه مصر.

فقد ألحق هذا الطرز بأثر عثماني الوضع يقوم في جامع مدينة صنعاء باليمن، فإن الناظر إلى هذه المئذنة يتذكر ذلك الفن التبريزي بمجرد النظر إليها، رغم أن الجامع تركي الوضع، يشبه بقبابه جامع محمد بك أبي الذهب.

ولهذه المئذنة ميزة خاصة هي كثرة الزخارف الجصية التي تحجب لبناتها الآجرية، كما أنها تمتاز بانفرادها عن المسجد، كانفراد بعض مساجد القاهرة، وهي وإن كانت بهذا الوصف الذي ذكرنا فإن لها صبغة خاصة. كما أن كل

(١) المقريزي، **الخطط المقريزية**، مج. ٤، ج. ١: ٢٢٣

(٢) سقطت الأولى عام (١٨٠١م) على يد الاحتلال الفرنسي، والثانية مع فتح شارع محمد علي عام (١٨٧٣م)، انظر: علي مبارك، الخطط التوفيقية، مج. ٥: ٨٨؛ حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ١٣٩-١٤٢.

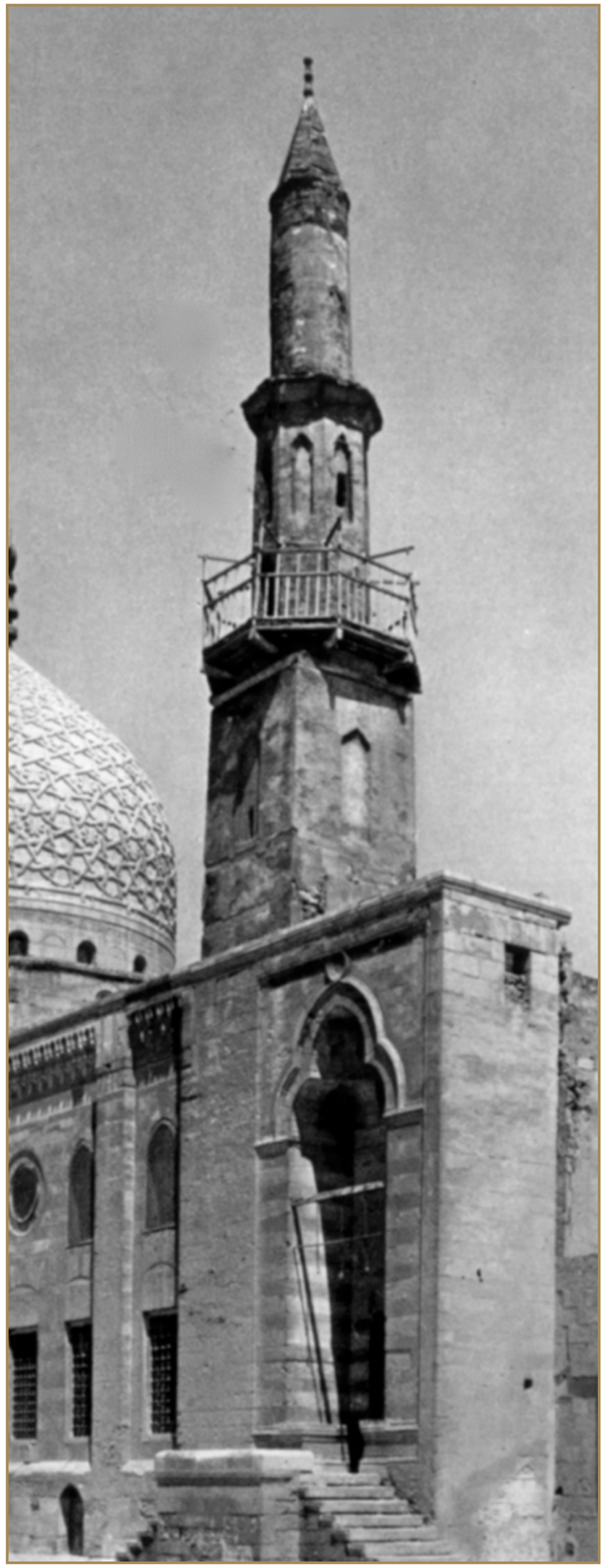
(٣) المقريزي، **الخطط المقريزية**، مج. ٤، ج. ١: ٢٢٣.

(٤) حدثت العديد من الهجرات المغولية الكبيرة إلى مصر في العصر المملوكي الأول، أُطلق عليها من قبل المؤرخين الوافدية أو المستأمنة، وفي عهد الناصر محمد أدت العلاقات الودية بينه وبين إيلخان مغول فارس «أبي سعيد» إلى وفود العديد من تلك العناصر إلى مصر، وهكذا أصبح لهذه العناصر المغولية وعلى رأسها مغول القفجاق تأثير كبير على المجتمع المملوكي في شتى الجوانب العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية حتى العمرانية، ويتجلى هذا التأثير في مئذنتي جامع الناصر بالقلعة خاصة في الكسوات الخزفية الخضراء التي تميزت بها المآذن المغولية في إيران والعراق. عن الهجرات المغولية وتأثيرها في العصر المملوكي، انظر: صلاح الدين محمد نوار، **الطوائف المغولية في مصر تأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية**، (الإسكندرية: منشأة المعارف بالإسكندرية، [١٩٩٦])؛ حياة ناصر الحجي، «العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق»، **حوليات كلية الآداب**، جامعة الكويت، العدد ٢ (١٩٨٠)؛ فايد حماد عاشور، **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى** (مصر: دار المعارف، ١٩٧٦)؛ سالم، **المآذن المصرية**: ٣١.

ما تقدم من هذه المـــآذن، وإن كانت قد تماثلت جميعها في القاعدة المربعة، فلكل منها صبغة خاصة تميزها عن غيرها، فتجد في مآذن الدولة القلاوونية وما ماثلها ميزة لا نجدها في مآذن الأشرف برســـباي ومثيلاتهـــا، وكذلك في مآذن البرقوقية ومئذنة تنكزبغا وغير ذلك. وقد يكون الخلاف شكلاً وطرازًا في آنٍ واحد، وشكلاً لا طرازًا في آنٍ آخر.

كما يبدو للـــرائي متمثلاً فيما ذكر مـــن هذه المآذن، وأخصهـــا مئذنة النـــاصر محمد بن قـــلاوون، إذ نجد فيها ميزة في زخارفها أكســـبتها منظرًا رائعًا جميلاً، وتجد نفس هذا المنظر بل أبدع منه وأجمـــل هندامًا في مئذنة الخانقاه البيبرسية. وقد كانت قبتها مغشاة بطبقة من القاشاني اعتبر نموذجًا لما بعده. وتجد في مئذنة المدرسة الجاولية منظرًا آخر يسترعي الانتباه، ويستوقف النظر من روعته وجماله. ولعل التربيع والاســـتدارة أو بالأحرى أناة بانيها- أكســـبها هذا الهندام الجميل، وجعل لها ميزتها الخاصة.

وتجد في مئذنة جامع الغوري شكلاً وميزة أخرى. أما الميزة وهي أهم ما يسترعي النظر في هذه المئذنة، فقبتها التي تتكون من أربعة رءوس، خـــلا الرأس الأصلي، وهذه الميزة جعلتها موضع نظر عنـــد الناس جميعًا. وقد تفنن المهندس إينـــال في عمارتها وتأنق إلى حد كبير، فغشى الجزء العلوي منها بقطع القاشاني التي ما زالت منه بقية إلى الآن، لكن كان من سوء الحظ أن ظهر بها خلل وتشقق بعد عامين من بنائها، فهدمت من أساســـها وأعيـــدت على نموذج المئذنة الأولى بنفس المواد عينها، وقـــد قصرت عن الأولى قليلاً، وغـــشى الجزء العلـــوي منها المبني باللبن بقطع القاشـــاني



مئذنة وقبة خانقاه الأشرف برسباي بصحراء المماليك

الأزرق.[1] ونجـد نفس هذا الوضـع في مئذنة الأزهر، وهي من إنشـاء الغوري أيضًا في سـنة (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، إلا أنها أقل بكثير من مئذنة جامعه. وقبتها مكونة من رأسين لا أربعة كهذه، وهي مغشاة بالقاشاني أيضًا. وتمتاز بأضلاعها المثمنة التي زادت عن القاعدة المقررة، وتذكرنا هذه المئذنة بمئذنة جامع الغمري بالمحلة الكبرى، ذات الرأسين أيضًا. وليسـت مئذنة الغوري هي الأولى من المآذن التي غشيت بالقاشاني، بل ثمة مئذنة جامع الناصر بالقلعة، ذات البدن الأسـطواني، فإن قبتها مغشاة بالقاشـاني الجميل، وكذلك المئذنـة الأخرى لنفس الجامـع ذات القاعدة المربعة؛ فإن دورتها الثالثة مغشـاة بطبقة جميلة من القاشـاني البديع، ومن هذه المآذن المغشاة بالقاشاني مآذن أخرى، ذكرنا منها فيما تقدم مئذنة الخانقاه البيبرسية، وسنذكر ما غشي منها بنوع آخر غير نوع القاشاني.

وبالنظر إلى هذا التطور البديع الذي أحدثته الظروف المعمارية، في المئذنة المربعة- تتبين الفوارق العظيمة بين ما كانت عليه مبدئيًّا وما آل إليه حالها فيما بعد.

ازدهار الفن الإسلامي في عمارة المآذن في مصر في القرنين الثامن والتاسع

أما المآذن المسـتديرة السـميكة فهي التي ازدهرت عمارتها في مصر ازدهارًا بلغ الغاية القصوى. فقد ابتدئت المئذنة في بادئ الأمر سميكة الأضلاع، مع استدارة ظاهرة، يصحبها في بعض الأحيان تضليعٌ على شكلٍ ثمانيّ. كما ترى في مئذنة جامع ألطون بغا المارداني[2]، التي شـيدت في سنة (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)[3].

ومئذنـة جامع بيدمـر البدري سـنة (٧٤٤-٧٤٥هـ/ ١٣٤٣-١٣٤٤م)، وأظهـر مـن ذلك في مئذنـة تربة خوند سـمراء الأشرفية بالقرافة الناصرية، وهي مما أنشئ في عهد الأشرف شـعبان بن حسـين. وهذه المئذنة لها ميزة خاصة وطابع خـاص، وهي التي يظـن أنها لقوصـون وهو خطأ،

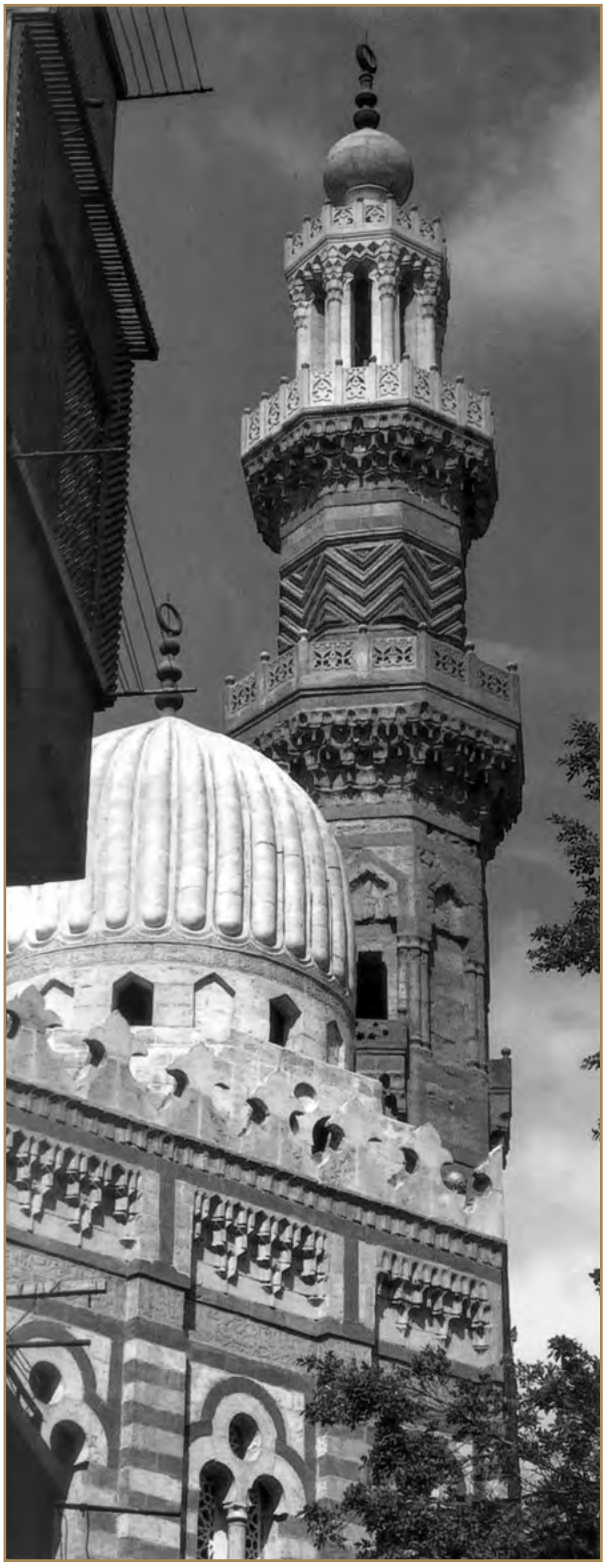
(١) وصف ابن إياس المنارة بمناسبة افتتاح الجامع في يوم الجمعة مستهل شهر ربيع الآخر سنة (٩٠٩هـ)/ سبتمبر (١٥٠٣م)، فقال: «وصنع به مئذنة لها أربعة رؤوس، وهو أول من اتخذ ذلك»، ثم ذكر في حوادث شهر جمادى الأولى سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، أنه حصل خلل وميل بهذه المنارة، وآلت إلى السقوط بسبب ثقل علوّها لكونها تشتمل على أربعة رؤوس فأمر السلطان بهدمها، فلما هدمت أعيد بناؤها، وقد بني علوّها بالطوب وكسي بالقاشاني الأزرق، ولم يذكر ابن إياس على أي شكل بنيت بعد ذلك، لكن يبدو أن الرؤوس الأربعة التي سببت الخلل قد أبدلت برأسين كما ظهرت في بعض لوحات الفرنسي ديفيد روبرتس عام (١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م)، لكنها لم تثبت على هذه الحال وطرأ عليها تغيير بعد ذلك جعلها على ما تبدو عليه الآن بخمسة رؤوس خشبية، انظر: ابن إياس، **بدائع الزهور**، مج. ٤: ٥٨، ٨٤؛ حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ٢٩١-٢٩٣.

(٢) وقيل: «أَلْطُنْبُغَا المارديني»، وكان ساقيًا أمَّره الناصر محمد بن قلاوون وقدَّمه وزوجه ابنته؛ أما جامعه فقد ظل باقيًا إلى أن تخرب في نهاية القرن التاسع عشر؛ فعملت لجنة حفظ الآثار العربية على إصلاحه وتجديده وإعادة بناء الدورة العليا من مئذنته في الفترة بين سنتي (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م و١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، انظر: المقريزي، **الخطط المقريزية** مج.٤، ج. ١: ٢٢٧؛ حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ١٤٧-١٥١؛ سعاد ماهر، **مساجد مصر**، مج. ٣: ٢١٤-٢٢١؛ عصام عرفة محمود، **مسجد الطنبغا المارداني بالقاهرة**، رسالة ماجستير بكلية الآثار- جامعة القاهرة (القاهرة، ١٩٨١م).

(٣) طرأ تحول في تطور المئذنة منذ القرن الثامن، فأخذت القامة المربعة الطويلة في القصر حتى صارت مجرد دعامة تسند الجدار الخارجي للمسجد، وأصبح الجزء الظاهر من المئذنة هو الطابق المثمن كما هي الحال في مئذنة الماردانى. ويعتقد كريسويل أن ظهور هذا النظام الجديد كان نتيجة لتطور طويل في مآذن العراق وسوريا، الأمر الذي يرجح الأصل السوري للمئذنة المصرية، انظر: سالم، **المآذن المصرية**: ٣٢؛ Creswell, *The Evolution of the Minaret*: 19.



مئذنة جامع الطون بغا الماردانى «عن مساجد مصر»



مئذنة مدرسة أم السلطان شعبان «عن دوريس أبو سيف»

ثم **مئذنة** جامع أصلم السلحدار سنة (٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م)، وقد كانت تشبه من وجه قريب مئذنة جامع بيدمر البدري. ومئذنة خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان، المشيدة في سنة (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م). ومئذنة خوند تتر الحجازية، المشيدة في سنة (٧٦١هـ/ ١٣٥٩م)، ومئذنتا جامع الناصر حسن (٧٥٧هـ/١٣٥٦م)(١).

ولقد بدأ السُّمك في المئذنة يتصاغر شيئًا فشيئًا، إلى أن أصبحت الاستدارة في المئذنة نوعًا من الرشاقة. ومن هذا النوع مئذنتا جامعي شيخو العمري الناصري (٧٥٠-٧٥٦هـ/ ١٣٤٩-١٣٥٥م). ومئذنة جامع صرغتمش الناصري (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م)، المئذنة الحالية أنشئت على نسقها سنة (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م) من نفس المواد التي كانت تتألف منها(٢). ومئذنة جامع بشتاك الناصري (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م).

ثم مئذنة جامع آق بغا عبد الواحد الناصري بباب الأزهر (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)، التي يقال إنها ثاني مئذنة بنيت بالحجر في مصر، وهذا سهو من المقريزي فيما يظهر؛ وكأنه قد غاب عنه مئذنة جامع ابن طولون وقاعدة مئذنتي جامع الحاكم، والأفضل وغيرها مما سنبينه قريبًا؛ وهذه المئذنة يبدو لي أن فيها بعض تغيير طفيف من أعاليها(٣).

ولقد كانت المئذنة في القرن التاسع أرشق منها وأبدع في القرن الثامن؛ فإنك لا تجد رشاقة مئذنة جامع قايتباي بالصحراء (٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) في المآذن التي شيدت في القرن الثامن.

وتجد نفس هذه الرشاقة، وهذا الجمال الفني المعماري- في المآذن التي أنشئت في ذلك التاريخ؛ **كمئذنتي** جامع المؤيد شيخ (٨١٨-٨٢١هـ/ ١٤١٥-١٤١٨م) أعلاهما ودوراتهما حديث(٤).

وفي مئذنة جامع القاضي أمين الدين الحراني بالمدابغ القديمة (٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، والجزء العلوي منها مفقود، ودوراتها حديثة(٥).

وفي مئذنة جامع جانم قرا البهلوان، أعاليها حديث (٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م)، وفي مئذنة جامع قجماس الظاهري

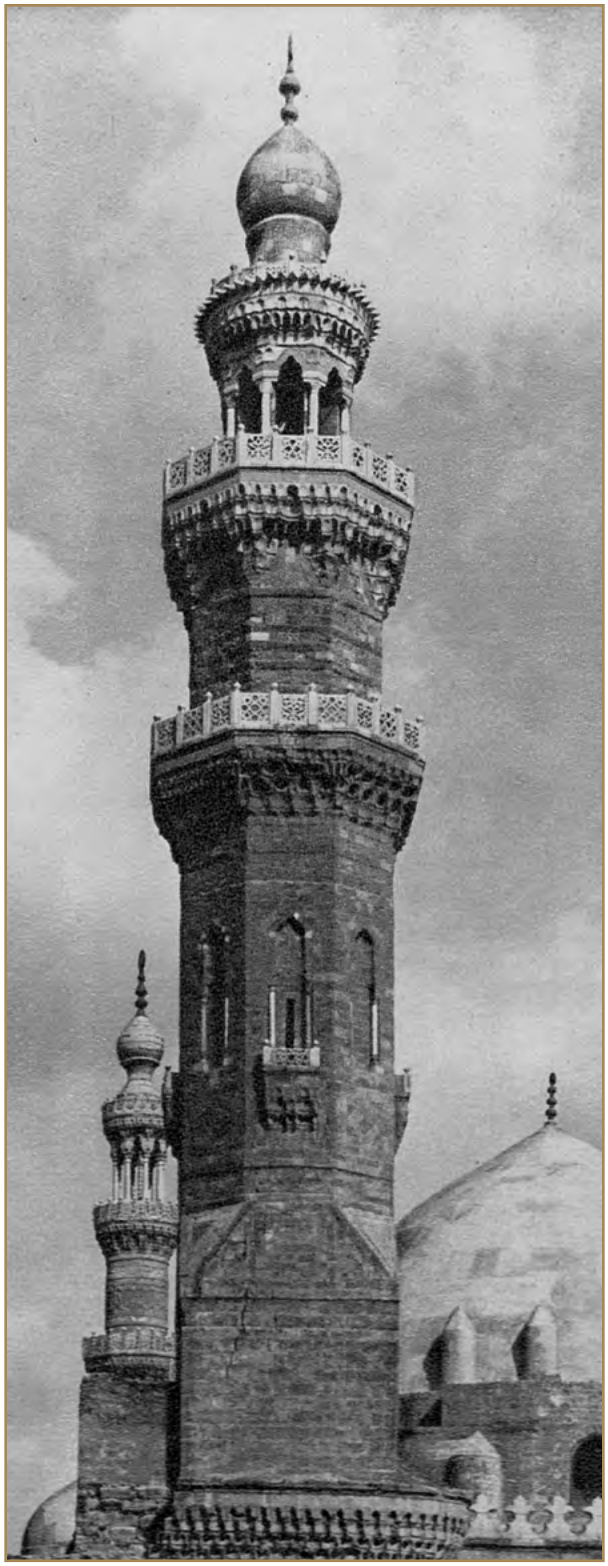
(١) وهما تكتنفان قبة المدرسة بالواجهة الشرقية، سقطت الشمالية منهما عام (١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م)، وجددها إبراهيم باشا عام (١٠٨٢هـ)، إلا أنه كان من المقرر في مشروع البناء تشييد أربع منارات، فرغ من بناء ثلاث، فكانت الثالثة على الكتف اليمنى للباب العمومي، وقد سقطت في يوم السبت ٦ ربيع الآخر عام (٧٦٢هـ/ ١٣٦١م)، فأبطل السلطان حسن بناء الرابعة التي كان مقررًا لها الكتف اليسرى للباب المذكور، انظر: علي مبارك، **الخطط التوفيقية**: ٨٣-٨٧؛ حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ٢٦٨؛ سعاد ماهر، **مساجد مصر**، مج. ٣: ٢٨٣.

(٢) طرأ عليها خلل، فقامت إدارة حفظ الآثار العربية بفكها وأعادت بناءها عام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٤م)، انظر: حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ١٦٤.

(٣) المقصود هنا مئذنة المدرسة الأقبغاوية التي أنشأها علاء الدين أقبغا عبد الواحد أستادار الناصر محمد، وقد قامت إدارة حفظ الآثار العربية بإكمال قمة منارتها عام (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م)، انظر: حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ٥٧، ٥٨.

(٤) كان لهذا الجامع ثلاث مآذن؛ واحدة كانت فوق الإيوان المقابل لإيوان القبلة وهي صغراهن ولم تعد موجودة، وأقيمت اثنتان على بدنتي باب زويلة الملاصق للجامع، كتب على الشرقية ما نصه: «عمل هذه المئذنة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى محمد ابن القزاز وكان الفراغ أول رجب سنة اثنين وعشرين وثمان مائة»، وعلى الغربية: «أمر بإنشاء هاتين المنارتين المباركتين سيدنا ومولانا السلطان المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ عز نصره، وذلك في نظر العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن القزاز والفراغ في شهر شعبان المعظم قدره سنة ثلاث وعشرين وثمان مائة»، المقريزي، **الخطط المقريزية**، مج. ٤، ج. ١: ٣٣٤-٣٤٧؛ حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ٢١٣.

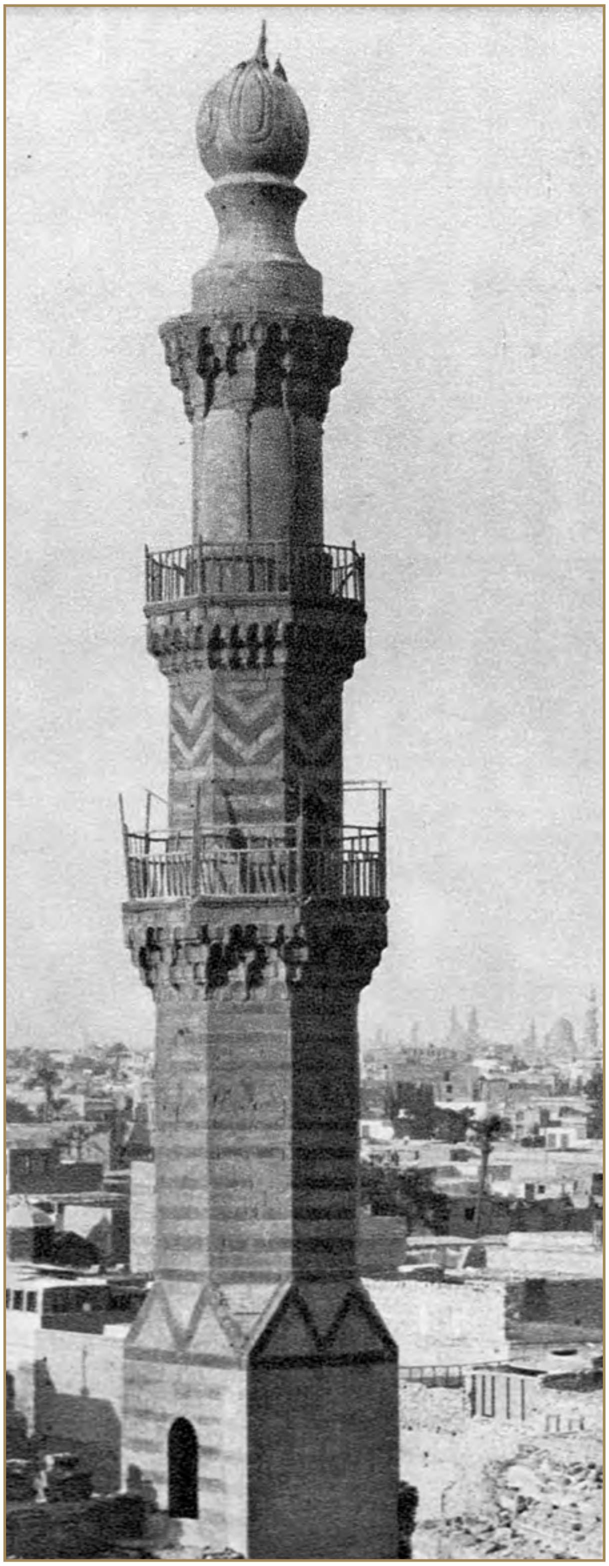
(٥) يقصد المؤلف منارة جامع العمري، أثر رقم ٤٥٦.



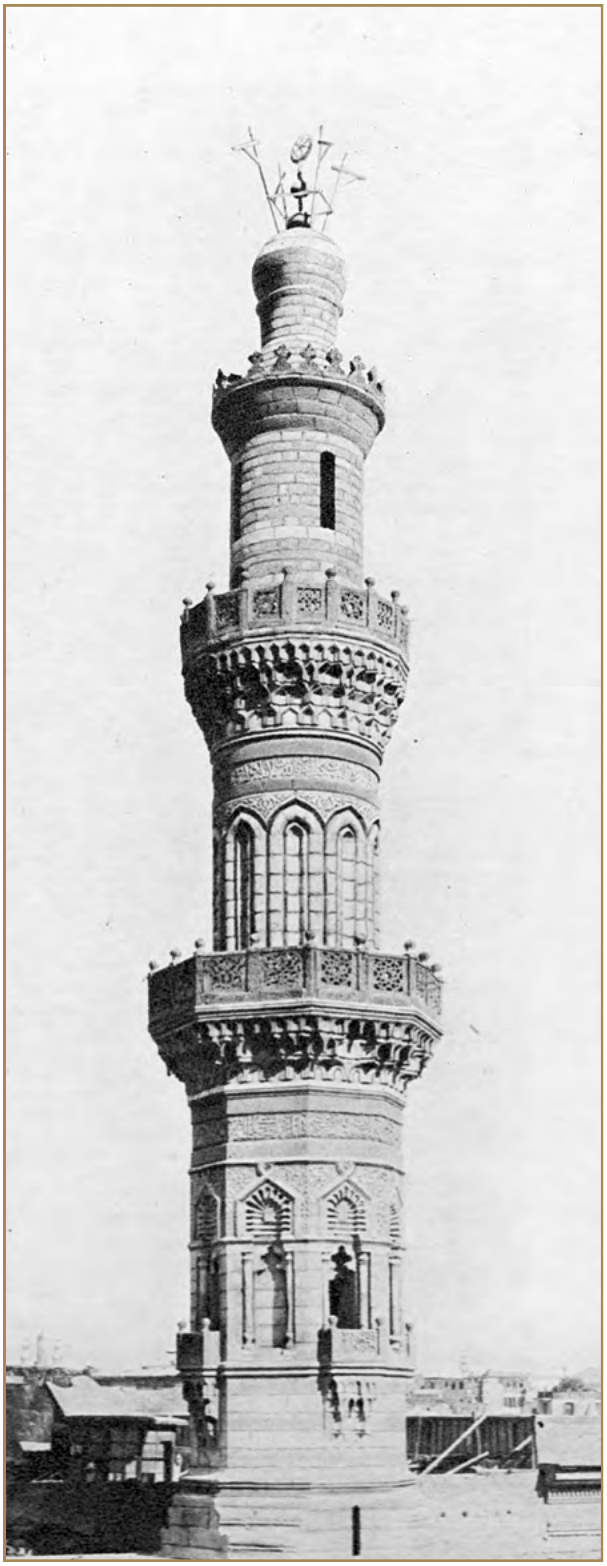
مئذنتا جامع السلطان حسن «عن مساجد مصر»



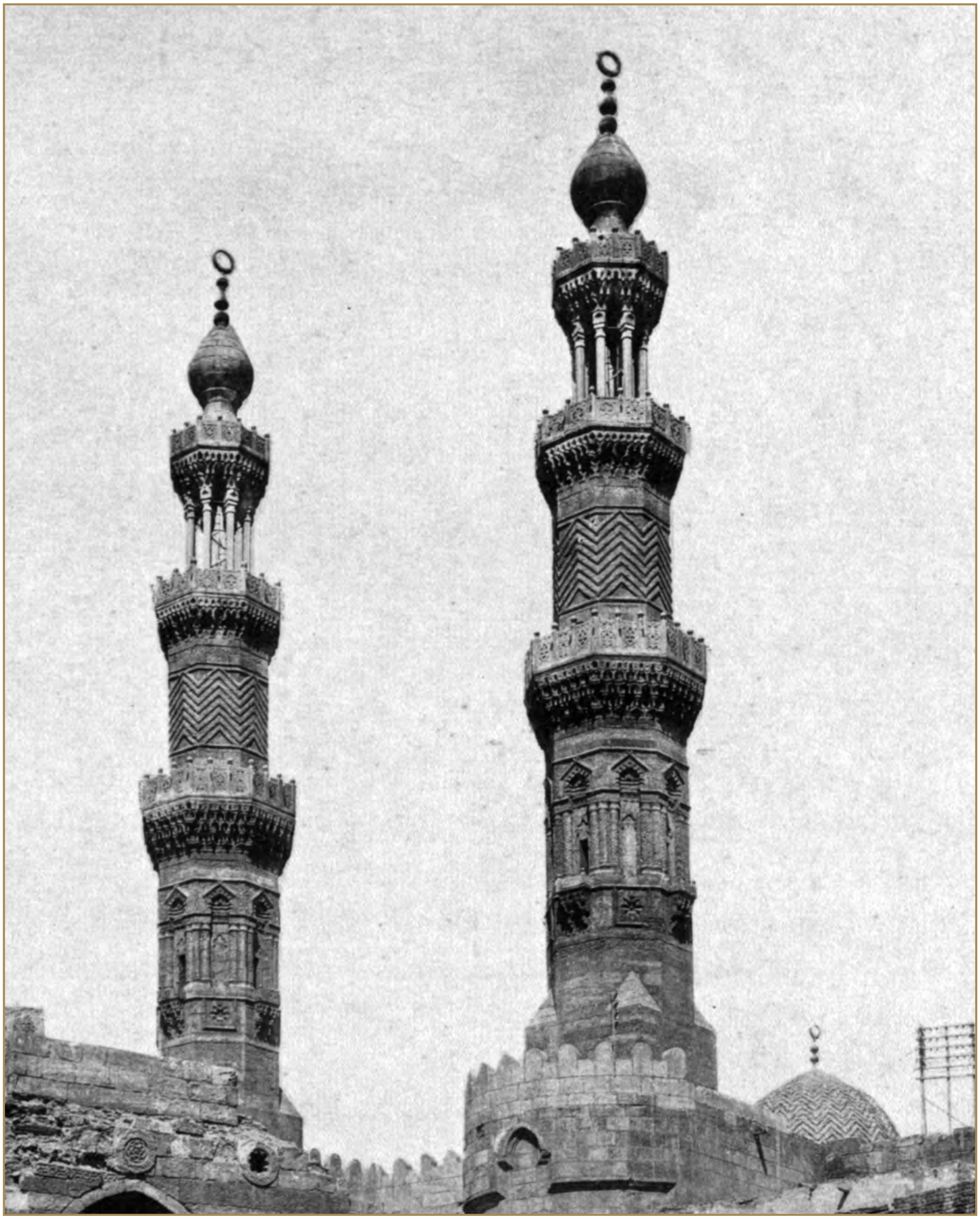
مئذنة جامع جانم البهلوان «عن مساجد مصر»



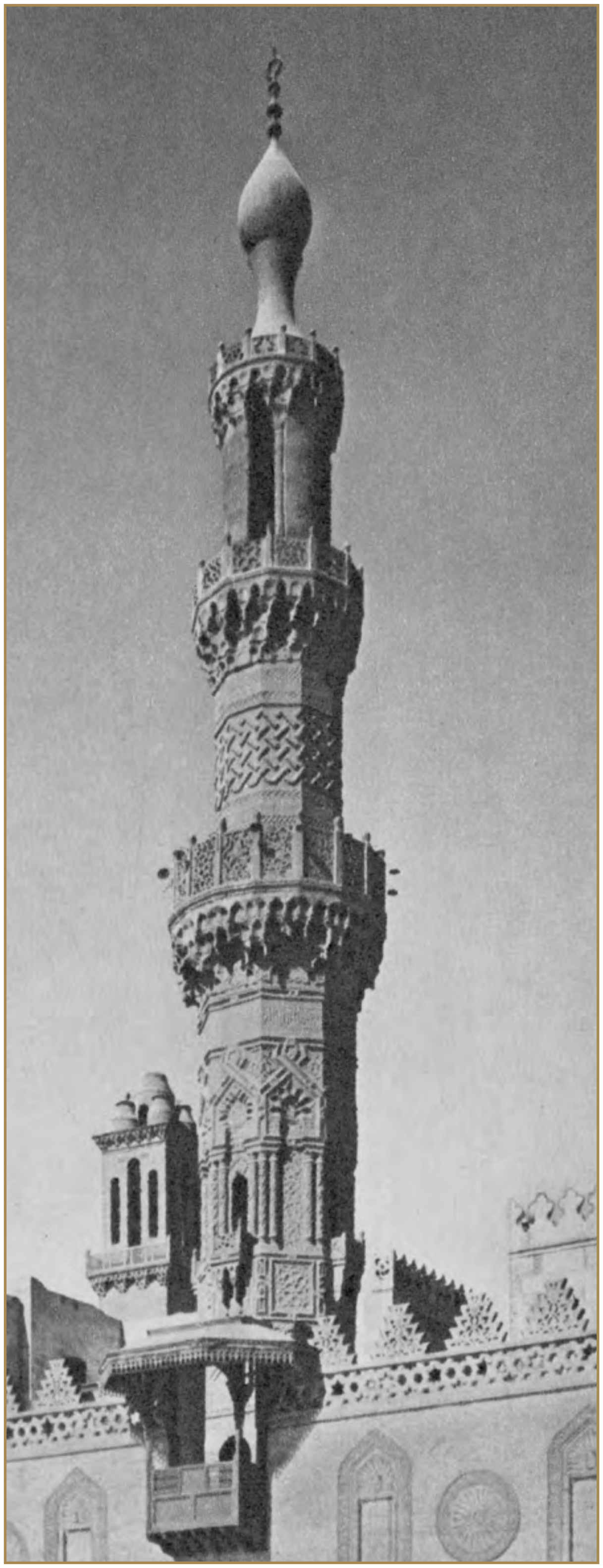
مئذنة جامع صرغتمش «عن مساجد مصر»



مئذنة جامع بشتاك «عن مساجد مصر»



مئذنتا جامع المؤيد شيخ



مئذنة قايتباي بالأزهر «عن مساجد مصر»



مئذنة قايتباي بقلعة الكبش «عن مساجد مصر»

(٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) ومئذنة جامع أبي بكر مزهر (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)، ومئذنة يشبك الدودار بمسجد الإمام الليث (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م).

ومئذنة جامع يحيي زين الدين الاستادار (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م)[١]، وهذه المئذنة تمتاز عن المآذن الأخرى التي تعاصرها بتطعيم دورتها الوسطى بوزرة من الرخام؛ موضوعة بطريقة هندسية بديعة، أكسبتها هندامًا جميلاً، ولعل مهندس هذه المئذنة أراد أن يحاكي بها مئذنة جامع الظاهر برقوق بشارع بين القصرين (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)؛ إذ إنها مطعمة بوزرة من الرخام دورتها بشكل هندسي جميل.

وللأمير زين الدين هذا جامعان آخران، إلا أن مئذنتيهما لا قياس بينهما وبين هذه المئذنة؛ فالفرق بينهما بعيد جدًّا، بُعد ما بين السماء والماء، ويبدو لي أن إحداهما متأخرة؛ أولاهما في جامعه الكائن بشارع المحكمة بقسم بولاق، والثانية في جامعه الآخر الكائن بالحبَّانية. وقد تأخر إنشاء هذين الجامعين عن هذا الجامع، كما أن مئذنة قايتباي بالأزهر (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، ومئذنة جامع قايتباي بالروضة (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م)- كلتيهما مثال لتقدم الفن المعماري في المنارات في هذا العصر. والمئذنة الأولى قد تقادم الجزء العلوي منها في شهر ربيع الأول سنة (١٣٥٨هـ)/ مايو سنة (١٩٣٩م)، وأعيد كأصله.

وبينما نجد هذه الرشاقة في مآذن القرن التاسع، نجد في نفس القرن مآذن لم تبلغ في الرشاقة مبلغ هذه المآذن.

وأظهر مثال لذلك مئذنة جامع فيروز الساقي (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م)، التي تشبه من وجه مئذنة جامع ألماس الحاجب بحدرة البقر (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)، وكلتاهما متأخرتان عن هذا العهد.

ومئذنة جامع قراقجا (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، وهي منفصلة عن المسجد، كانفصال مئذنة شمس الدين محمد بن كتيلة، المعروف بالكتيلي بالمحلة الكبرى، وهي من منشآت القرن التاسع، لا العاشر؛ كما هو الرأي السائد، وكانفراد مئذنة جامع منجك اليوسفي، ذات الظاهرة الغريبة في طرزها؛ «أصلحت قاعدتها في سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)»[٢]. ثم مئذنة جامع تنم من رصاص الظاهري، (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م) بالسَّبْع سِقايات قسم السيدة، وهذه المئذنة تشبه بضفائرها الخوصية مئذنة جامع الأمير حسين بن حيدر بك الرومي (٧١٩هـ/ ١٣١٩م).

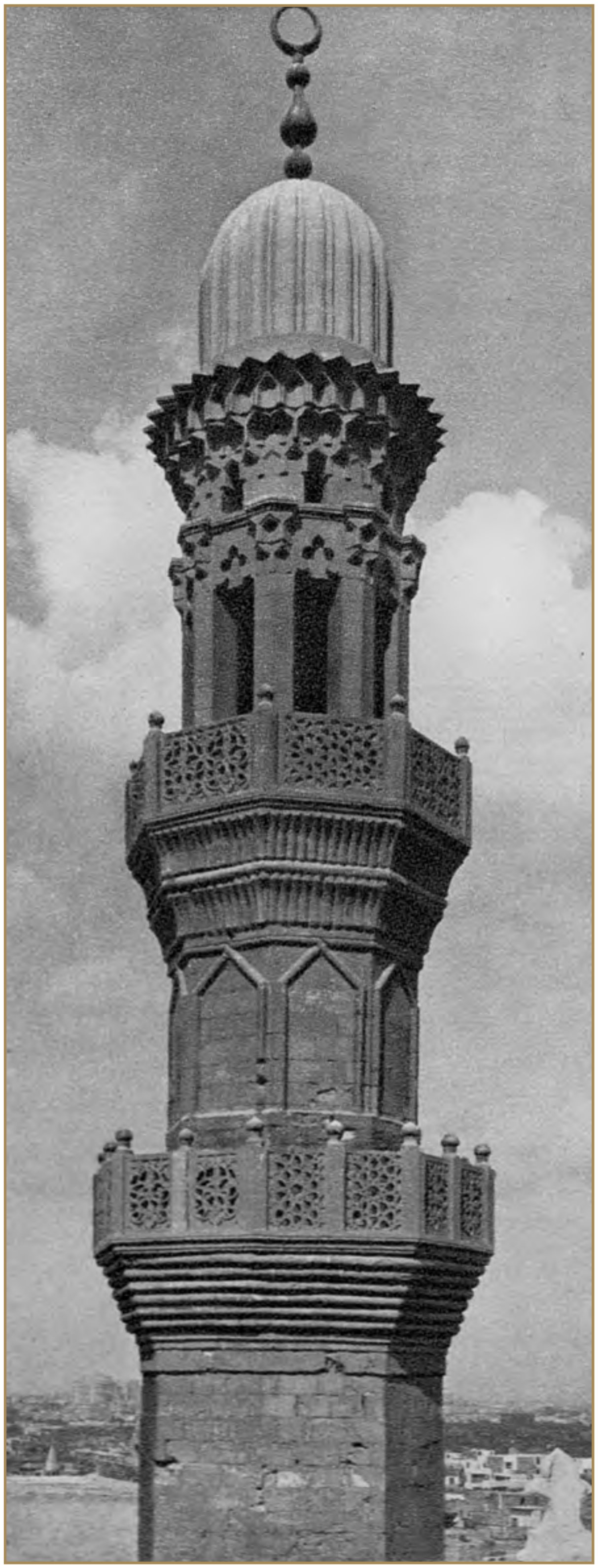
ومع هذا فإنّا نجد في كل عصر نماذج من المآذن، يختلف عن الآخر اختلافًا بينًا.

ويبدو ذلك ظاهرًا في مئذنة الأمير حسين المذكور، ثم في مئذنة جامع أيدمر الخطيري (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)[٣]، التي تتقارب في الشبه معها ومع مئذنة تنم من رصاص بفوارق زمنية.

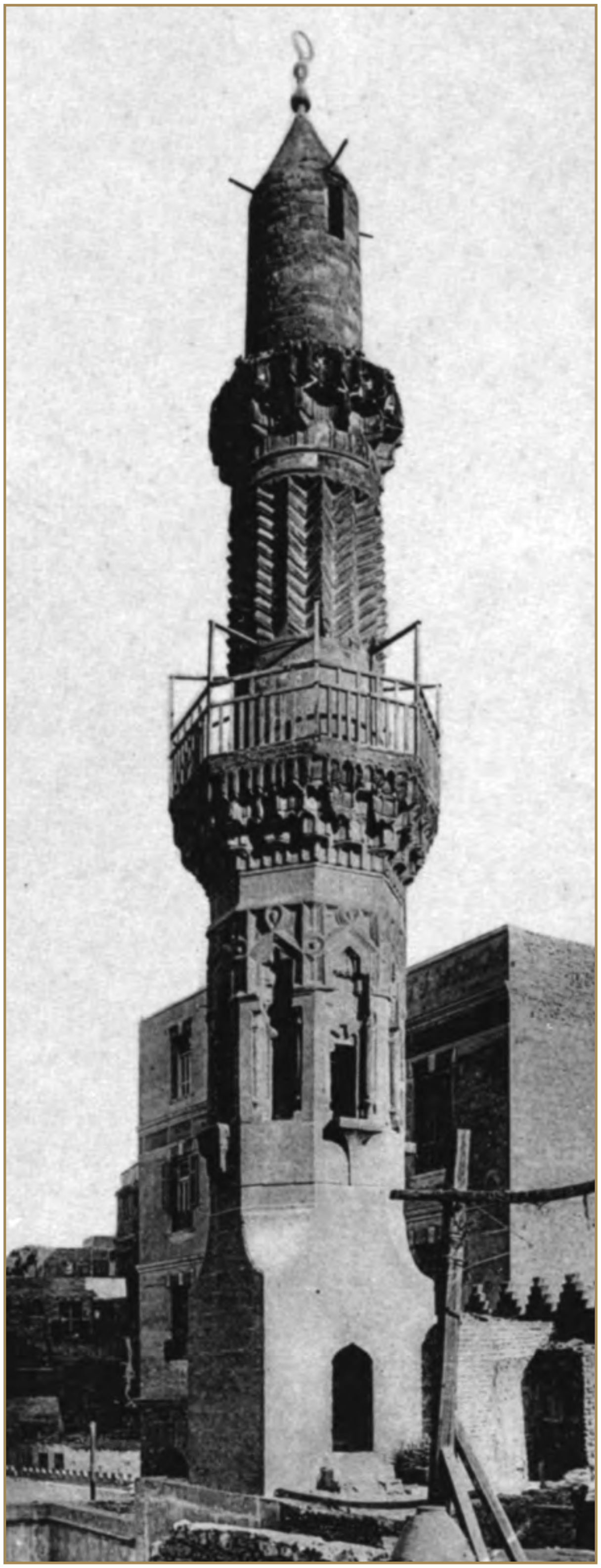
(١) يقصد المؤلف جامع القاضي يحي الواقع عند تقاطع شارع الأزهر مع شارع الخليج المصري «بور سعيد».

(٢) كان تمام عمارتها مع الجامع سنة (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، وهي تنفصل عن الجامع بنحو أربعة أمتار، وكان الجزء العلوي منها قد تهدم فأعادت لجنة حفظ الآثار بناءها عام (١٩٤١م)، انظر: المقريزي، **الخطط المقريزية** مج.٤، ج. ١: ٢٩٥؛ علي مبارك، **الخطط التوفيقية**، مج. ٥: ٢٨٠.

(٣) ظلت بقايا جامع الخطيري موجودة إلى وقت قريب في تقاطع ٢٦ يولية «بولاق وفؤاد الأول سابقًا» مع شارع كورنيش النيل، ولكنها أزيلت نهائيًّا عند تنظيم شوارع بولاق أواخر القرن العشرين، وهدمت أيضًا منارة جامع الأمير حسين.



مئذنة جامع منجك اليوسفي «عن مساجد مصر»

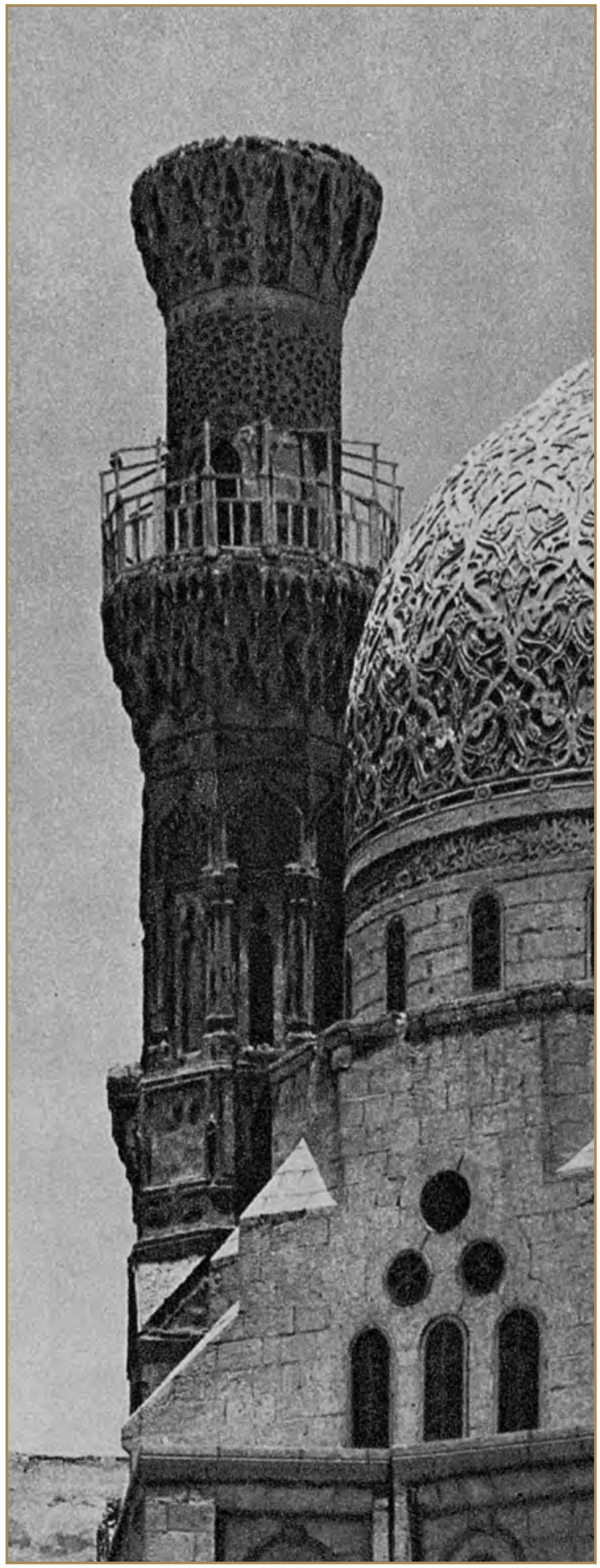


مئذنة جامع الأمير حسين «عن لجنة حفظ الآثار العربية»

كذلــك في مئذنة جامع أيتمــش البجاسي (٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م)، وهي متأخرة عن عهد الجامع فيما يبدو ظاهرًا في تفاصيلها المعمارية التي تخالف تفاصيل المسجد.

وفي مئذنة جامع فخر الدين قزل «أبي ســعيد قجمق»، وهي من إنشــاء الجمالي يوســف بن كاتب جكم في سنة (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م). وهــذه المئذنة قد طرأ عليها ما شــوهها، وقلب أوضاعها في عصور متأخرة، ثم أصلحت على الشكل الحالي. وفي مئذنة جامع بشتاك الناصري (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م). وفي مئذنة جامع سونج بغا الأبوبكري (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م).

كما تجــد نفس تلك الفوارق في القــرن العاشر وما بعده؛ كالفارق الجسيم الذي يبدو في مئذنة الأمير خاير بك من بلباي الجركسي (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م)، ذات الظاهرة الغريبة في مدخليها الداخــلي، والخارجي بل في تركيبها، ويحتمل أن يكون ذلك قاعدة ليســت مطَّــردة، إنما هي ظرفية قليلة الشيوع؛ ذلك كما نشاهده في نماذج المآذن التي تنشأ بيننا.



مئذنة وقبة جامع خاير بك الجركسي «عن مساجد مصر»



مئذنة قوصون وجامع محمد علي باشا بالقلعة «عن فريث»

تأثير الفن العثماني على العمارة الإسلامية للمآذن في مصر

وقد ظلت المآذن على هذا النموذج العربي الإسلامي الجميل، الغالب عليها الاستدارة بعد التربيع والتنميق- إلى أواخر القرن التاسع.

ولعل آخر مئذنة بنيت من هذا النوع نشاهدها لليوم هي مئذنة جامع الأمير الناصري محمد بن بردبك (٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م)؛ بشارع أم الغلام «الغلمان الصالحية سابقًا»، وقد جاءت بعدها مئذنة في (٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م)، وهي مئذنة جامع قايتباي بمنطقة البيارة بالسيدة عائشة، ولكن هذه المئذنة قد سقطت في وقت ما[١].

ثم جاءت مئذنة جامع أزبك اليوسفي (٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)؛ بخط درب البابا ابن جنكل ببركة الفيل- خاتمةً لهذا الطرز المناري البديع[٢].

ثم أخذت المآذن بعد ذلك تشق قاعدة التربيع، فبنى جان بلاط مئذنة في (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م) مربعة، وبنى قانباي في (٩٠٨-٩١١هـ/ ١٥٠٢-١٥٠٥م) على هذه القاعدة، وبنى الغوري مئذنة جامعه (٩٠٩-٩١١هـ/ ١٥٠٣-١٥٠٥م) كذلك، ولو شاء الله ودامت دولة الغوري؛ آخر ملوك مصر المستقلين، لأخذت المآذن عمومًا تشق هذا الطريق.

(١) هُدم بقايا هذا الأثر عند شق طريق «صلاح سالم» في ستينيات القرن العشرين.

(٢) تتكون من ثلاثة طوابق وقاعدة؛ الطابق الأول مثمن الشكل والثاني دائريٌّ، أما الطابق الثالث فمكون من ثمانية أعمدة تقوم فوقها خوذة القبة، إلا أن هذا الطابق سقط في العصر العثماني وبني مكانه شكلٌ مخروطيٌّ مماثلٌ لنهايات المآذن العثمانية، ولكن أزالته لجنة حفظ الآثار العربية، وأعادت بناء الطابق مماثلاً لشكله الأصلي، انظر: سعاد ماهر، **مساجد مصر**، مج. ٤: ٢٩٢.

لكن بالرغم من ذلك، فإنا نجد في نفس هذا التاريخ نماذج أخرى خالفت هذه القاعدة، وأظهر مثال لذلك مئذنة جامع أزدمر من علي باي الدوادار (٩١٢-٩١٣هـ/ ١٥٠٦م)، وهي مئذنة تذكرنا برشاقتها مآذنُ أخرى تقدمتها؛ ثم مئذنة جامع الغوري بالميدان (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م)، وهي إن كانت اكتسبت قاعدة الاستدارة، فإنها أخذت من البساطة مكانًا كبيرًا، ولا يقاس بينها وبين مئذنة جامع الأمير بيبرس؛ أمير آخور «ناظر المدور، أو مأمور الاصطبلات السلطانية»[٣]. وهو من أعضاء الأسرة الملكية الغورية، وقد أنشئت في سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)، أي قبل زوال دولة الغوري بعامين تقريبًا، وقد كانت تحاكي من وجه قريب مآذن أواسط القرن التاسع.

ومن هذا العهد أخذت العمارة الإسلامية للمآذن تدخل في طور آخر، ويحل محل ذلك الفن الرائع الجميل فنٌّ آخر له طابعه الخاص، وهو في نظرنا فن قائم بذاته لا يمت إلى أي فن آخر، إلا أن له صبغة تباين الصبغة العربية الإسلامية التي تقدمت هذا العصر.

هذا الفن جعل المئذنة رفيعة مخروطة الشكل ممشوقة، يُبنى منها أكثر من واحدة في المسجد الواحد، كالحالة الأولى التي كانت عليها المآذن من قبل.

وقد كان ذلك طبيعيًّا، فإن مصر لما آلت إلى الدولة العثمانية وأدار شئون إدارتها موظفون عثمانيون- كان لزامًا أن تنطوي صحيفة ذلك الفن الرائع الجميل، وأن يظهر الفن الجديد الذي انتقل إلى مصر ولعبت فيه السياسة الدولية دورًا هامًّا، سنة الله في الدول الغالبة والمغلوبة. لكن بالرغم من ذلك فهو فن جميل له ميزاته وخصوصياته، ولا يمكننا

(٣) يقع هذا الأثر بالجودرية وقد اختفت منارته.

الخط من شأنه إلى الدرجة التي يتبعها جمهرة من كتاب هذا العصر، لاسيما في بيوت الله التي أذن الله أن ترفع، لا أن تخفض وتزدرى لمجرد تغاير فن عن آخر. وسنعرض لك صورة مكبرة من جمال هذا الفن في المساجد العثمانية التي تتحلى بها مدينة القاهرة.

وأظهر مثال لذلك الفن العثماني الجديد في المآذن نجده في مئذنتي جامع محمد علي باشا، المشيد في سنة (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م)، على نسق جامع السلطان أحمد بالأستانة[١]، ثم في مئذنة جامع الملكة صفية (١٠١٩هـ/ ١٦١٠م)[٢]، ثم في مئذنة المسجد الحسيني، وهي نسخة كاملة من مئذنة جامع أزبك من ططخ العثمانية. ومئذنة جامع سنان باشا (٩٧٩هـ/ ١٥٧١م)، وجامع محمود باشا بميدان سوق الخيل (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧)[٣].

ونستطيع أن نلمس في هذه المآذن المذكورة بنوع خاص ازدهارَ هذا الفن الجديد ازدهارًا يلفت النظر، بالرغم من أن المآذن التي أنشئت في هذا العصر في عصور مختلفة لم تبلغ في الرشاقة مبلغ هذه المآذن المذكور.

فإنك لا تجد هذه الرشاقة وهذا الانسجام الذي تراه في مئذنتي جامع محمد علي باشا- في مئذنة جامع محمود باشا (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م)، ولا في مئذنة سليمان باشا (٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)[٤]، ولا في مئذنة مسيح باشا الخازندار (٩٨١هـ/ ١٥٧٣م)[٥]. وقد تجده نوعًا ما في مئذنة جامع جمال الدين بن شاهين الخلوتي (٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م)[٦].

وبالرغم من هذا أيضًا فإنا نجد طرزًا آخر في هذا العهد يذكرنا بعصر المماليك، وأظهر مثال لذلك الطرز مئذنة جامع كريم الدين البرديني (١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م)[٧]، ومئذنة

(١) جامع السلطان أحمد أو الجامع الأزرق بإستانبول المشيد بين عامي (١٠١٨-١٠٢٥هـ/ ١٦٠٩-١٦١٦م) ، أحد أهم وأضخم المساجد في العالم الإسلامي، ويحتوي على ست مآذن بلغت مبلغًا كبيرًا من الرشاقة والارتفاع.

(٢) يعتبر ثالث الجوامع التي تبنى في مصر على الطراز العثماني، بعد جامعي سليمان باشا بالقلعة وسنان باشا ببولاق، انظر: حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**، مج. ١: ٣٠٩.

(٣) رغم أن منارته أقيمت وفقًا للطراز العثماني فإنه من الواضح أن إقامتها على قاعدة مستديرة تخرج عن إطار جدران المسجد- قد تأثرت بمئذنتي جامع السلطان حسن المملوكي الطراز، القائم بالقرب منه، انظر: تقرير ماكس هرتس بك عن جامع المحمودية ومنارته في كراسات لجنة حفظ الآثار العربية، ذيل الكراسة ٢٣، ١٩٠٦.

(٤) تمثل مئذنة جامع سليمان باشا بالقلعة أول مثال لطراز المآذن العثمانية في القاهرة؛ حيث شيدت على طراز مآذن إستانبول، وتقع في الركن الجنوبي من حرم الجامع، وبدنها متعدد الأضلاع لدرجة تبدو معه أنها أسطوانية، وقد أثرت على كثير من المآذن التي شيدت بعد ذلك، لا سيما المحمودية وسنان باشا ومسيح باشا، انظر: سعاد ماهر، **مساجد مصر**، مج. ٥: ٨٤.

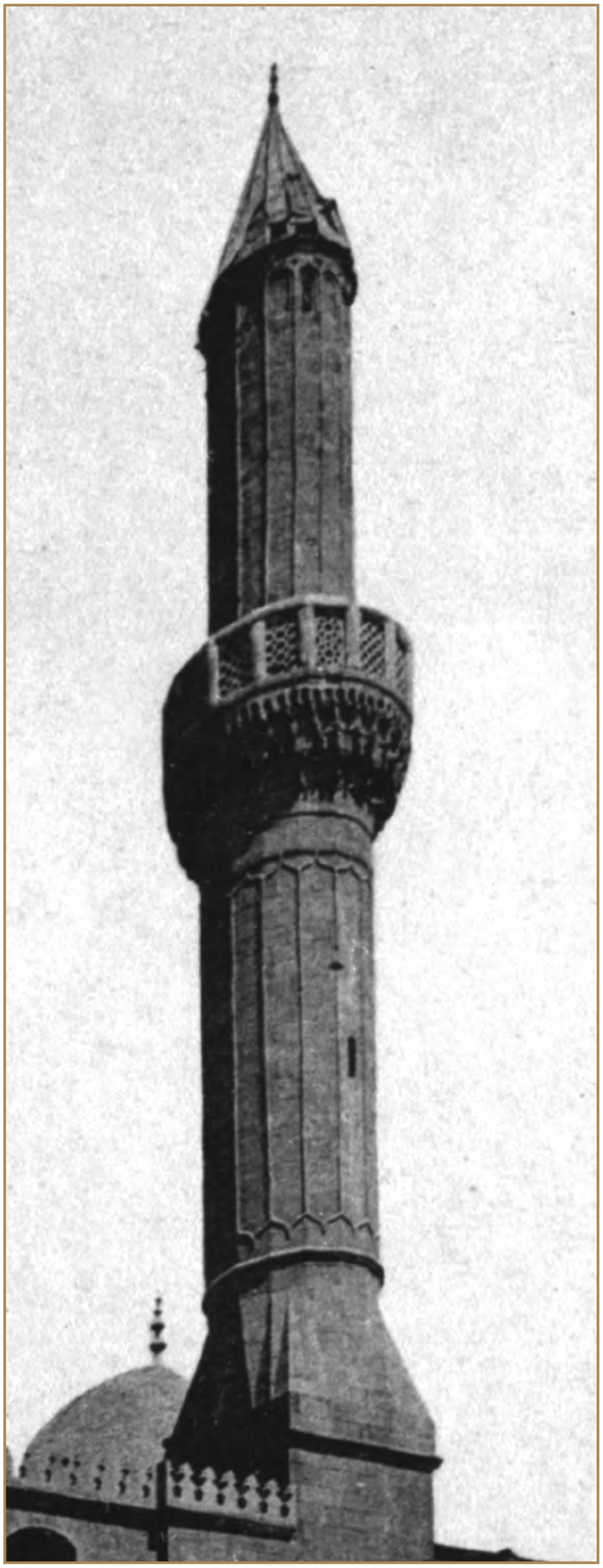
(٥) أقام الجامع القائم حاليًّا بميدان السيدة عائشة مسيحُ باشا المتولي الوالي العثماني لمصر وفقًا للطراز المملوكي، إلا أن مئذنته جاءت عثمانية الطراز، انظر: علي مبارك، **الخطط التوفيقية**، مج. ٥: ١١٥.

(٦) تعتبر ثالث مئذنة عثمانية في مصر بعد مئذنتي سليمان باشا في مسجديه ببولاق والقلعة، وهي تمثل مع هاتين المئذنتين المآذن العثمانية الثلاث الوحيدة في مصر المكونة من ثلاثة أدوار، متأثرة بذلك بالمآذن المملوكية، إلا أنها تنتهي بخوذات عثمانية مخروطية بدلاً من الخوذات المملوكية بصلية الشكل، انظر: محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية في العصر العثماني**، مج. ١ (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠٣): ٥٢.

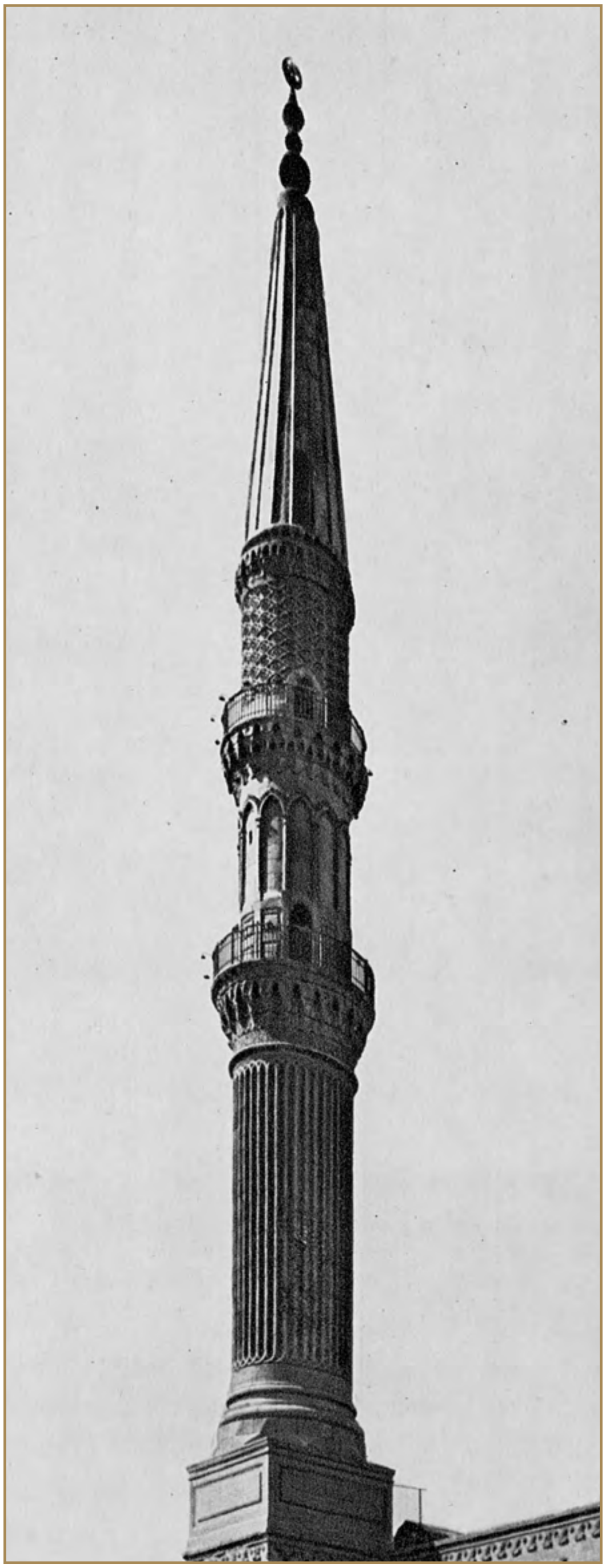
(٧) على الرغم من أن تاريخ إنشاء جامع البرديني وهو (١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، كما جاء في إزار كتابي يدور حول جدران بيت الصلاة، فإنه ورد في بعض المصادر إنشاء مئذنته عام (١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م)، وتمثل عناصر الجامع المعمارية والزخرفية استرجاعًا للطراز المملوكي بما في ذلك المئذنة، انظر: علي مبارك، **الخطط التوفيقية**: ٦٥؛ محمود أحمد، **دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة** (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٨): ١٩٣، ١٩٤؛ Nimet A. Allam Hamdy, "Cairene Ornamental Traditions in Ottoman Architecture of Egypt", in Fifth International Congress of Turkish Art (Budapest, 1978): 417.



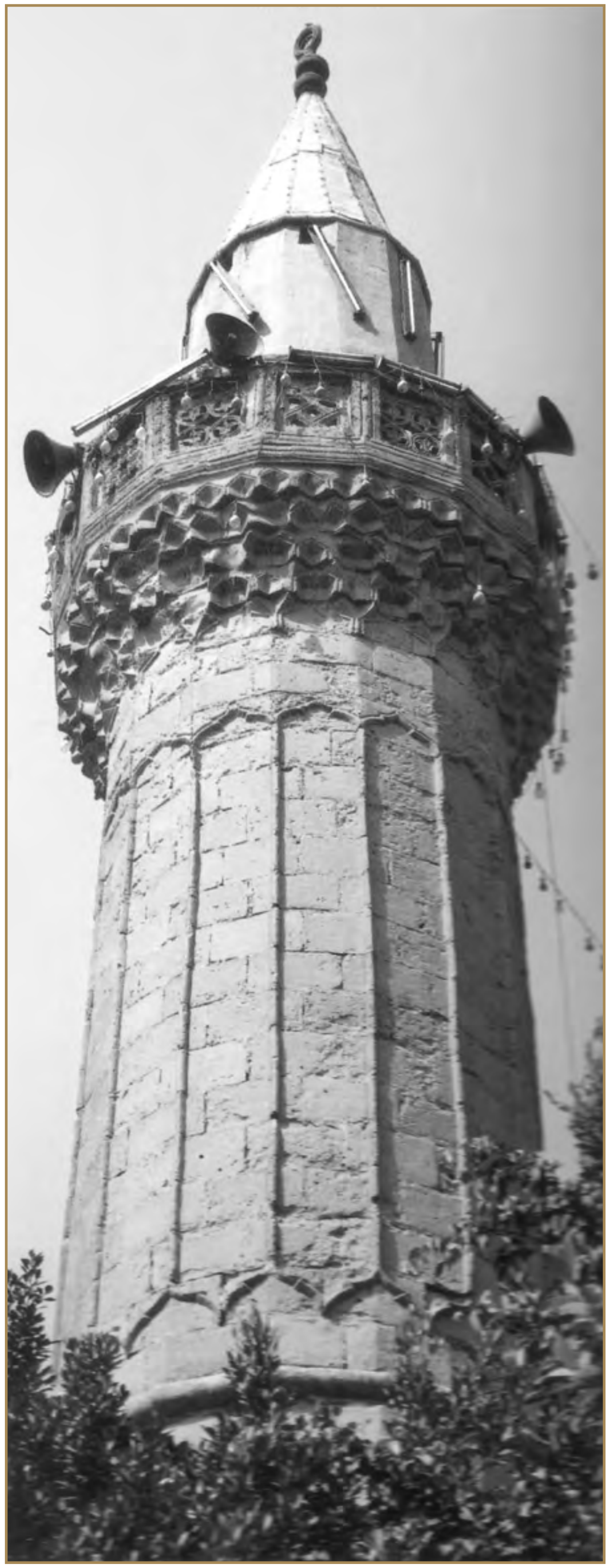
مئذنتا جامع محمد علي باشا «عن مساجد مصر»



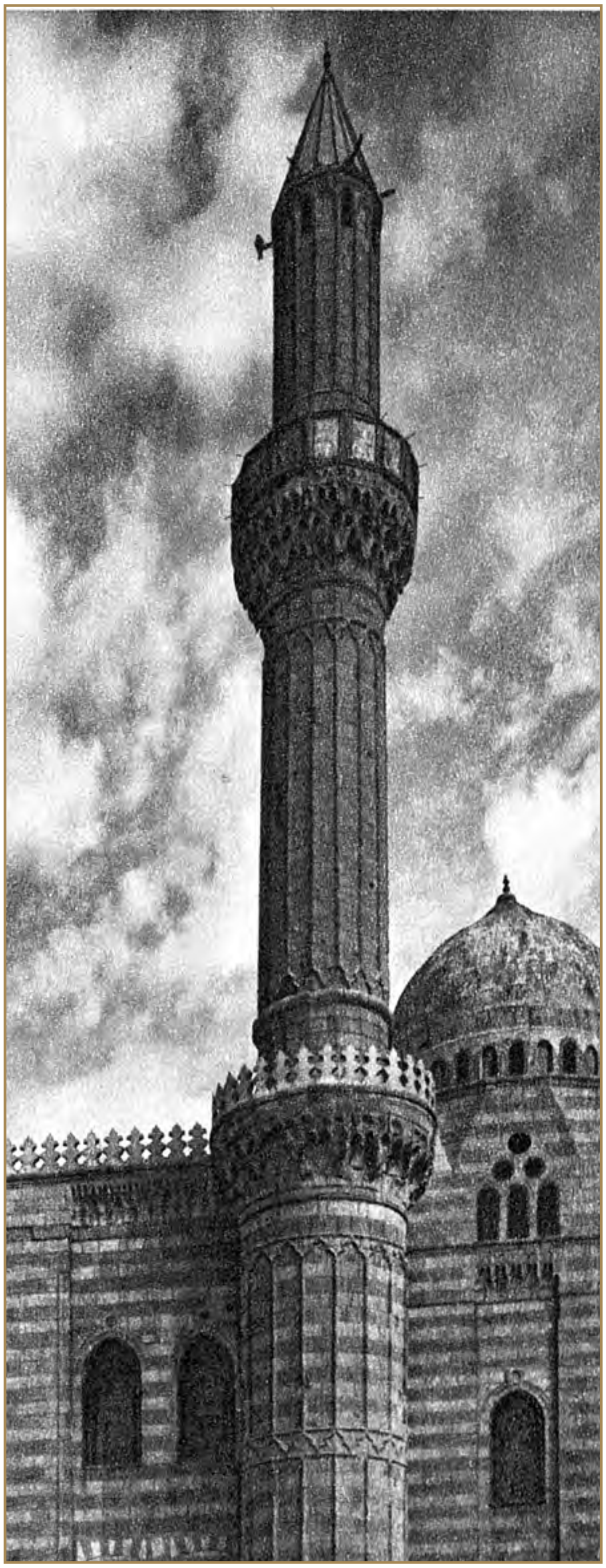
مئذنة جامع الملكة صفية «عن مساجد مصر»



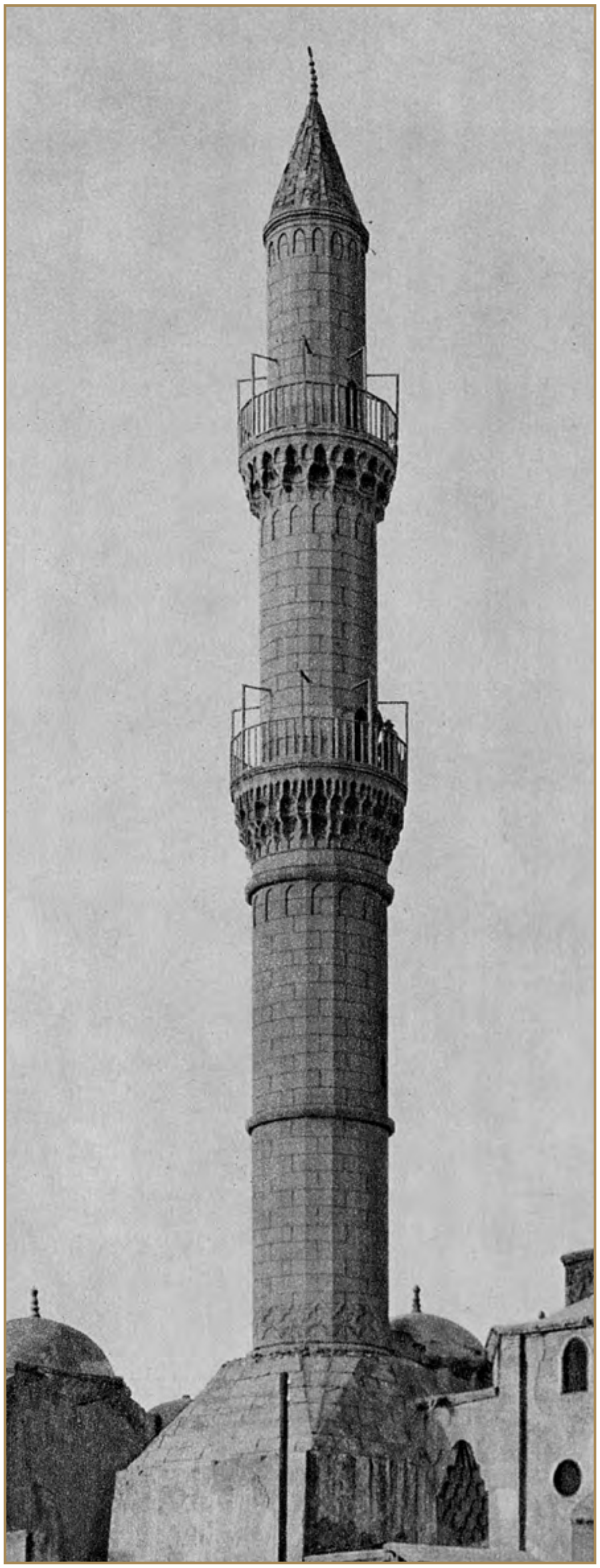
مئذنة المسجد الحسيني «عن مساجد مصر»



مئذنة جامع سنان باشا «عن دوريس أبو سيف»



مئذنة جامع المحمودية «عن مساجد مصر»



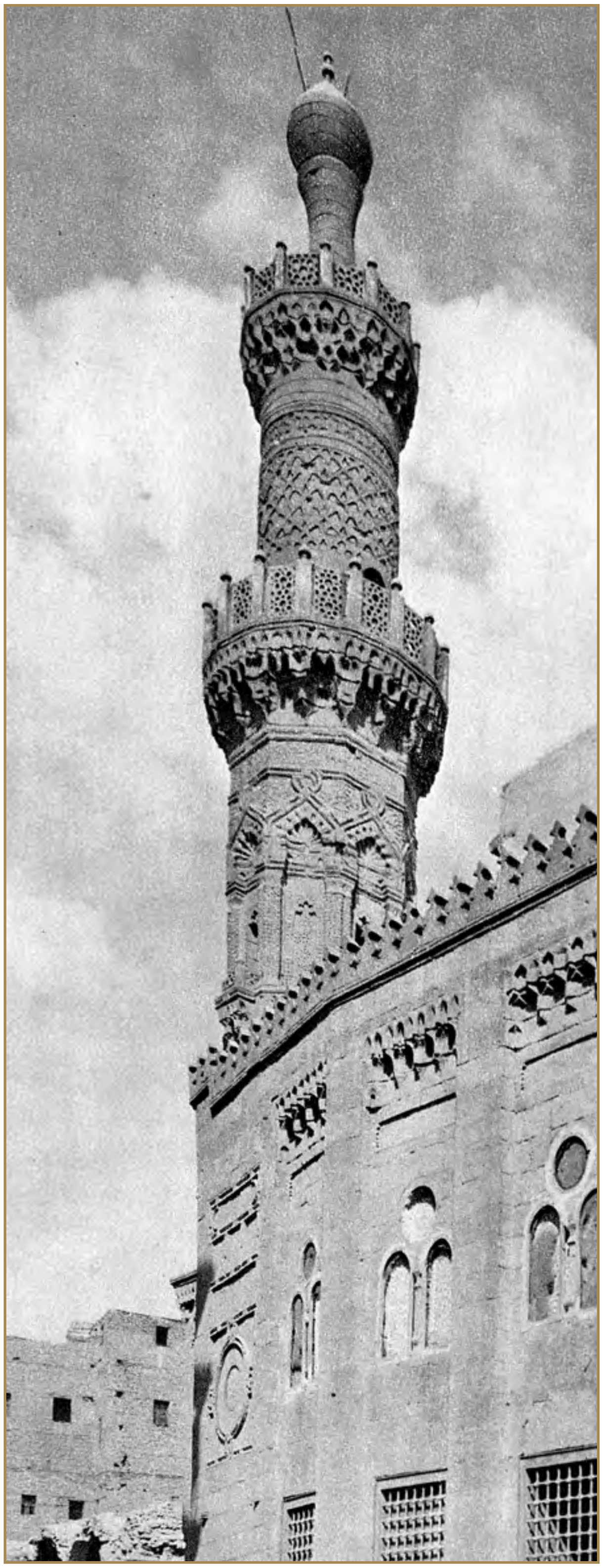
مئذنة جامع سليمان باشا بالقلعة «عن مساجد مصر»



مئذنة مسيح باشا الخازندار «عن دوريس أبو سيف»



مئذنة جامع شاهين الخلوتي بالمقطم



مئذنة جامع البرديني «عن مساجد مصر»

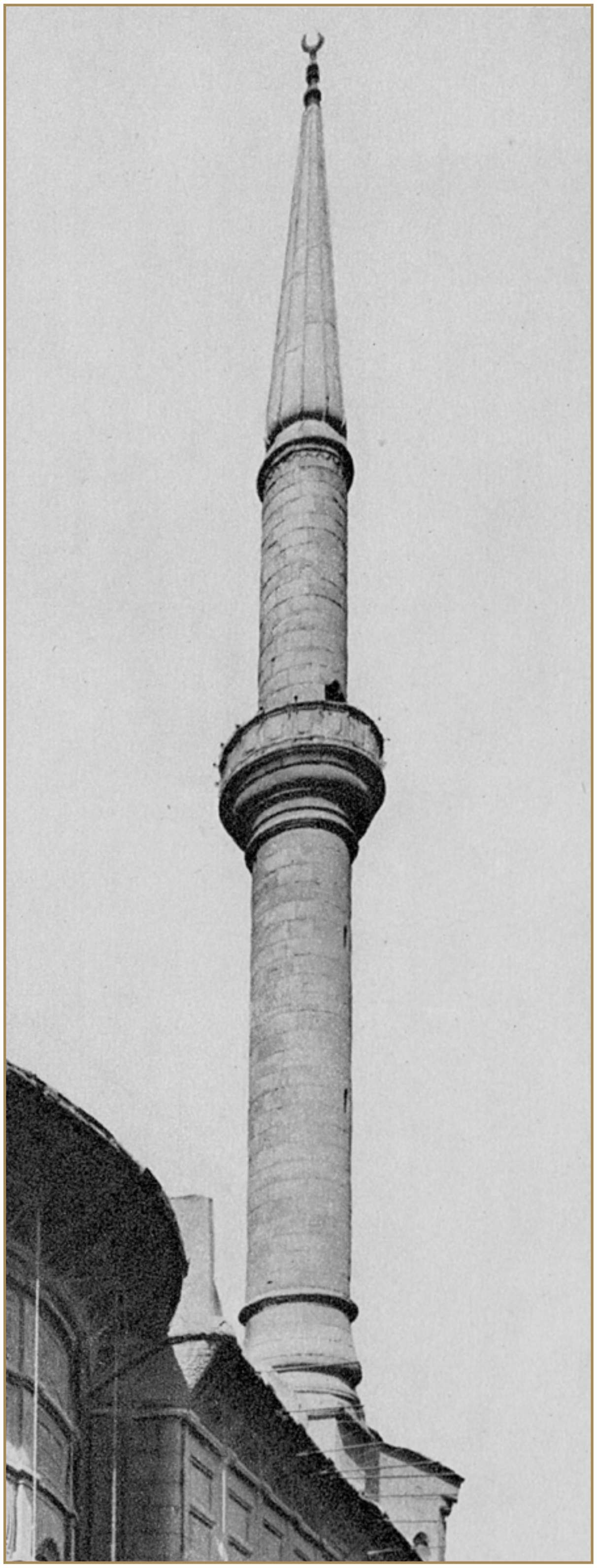
جامع حسن طاهر باشا (١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م)، ومئذنة جامع الشيخ يوسف الكردي الشاذلي، وهي من إنشاء محرم بك في سنة (١١٢٨هـ/ ١٧١٥م)، ومئذنة جامع الشيخ أحمد بن حسن النشرتي، الشهير بالعريان (١١٧١هـ/ ١٧٥٧م).

وقد يكون الشيءُ الذي يدعو إلى التأمل في هذا الفن عن غيره- ما نجده في هذه المآذن من تغاير بديع.

فبينما نجد منها الأسطواني الأملس، والمضلع المستدير؛ كمئذنة جامع فخر الدين عبد الغني، وهي من إنشاء «ممتاز قادن» أم حسين بك بن محمد علي باشا في سنة (١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م).

وهذه المنارة تشبه من قريب جدًّا منارة جامع أسكوب في يوغسلافيا، وهي مما أنشأه العثمانيون، مع أنها تختلف عنها في تسنم قبتها وضخامتها؛ ومثلها منارة جامع جمال الدين عبد الباقي «مراد باشا»، وقد سقطت من نحو نصف قرن.(١)

وكمنارة جامع سليمان أغا السلحدار (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م)، وجامعه الآخر (١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م).



مئذنة جامع سليمان أغا السلحدار «عن مساجد مصر»

(١) ليس بالجامع نص تأسيسي يشير إلى سنة البناء، إلا أنه بني بين عامي (٩٧٦-٩٨٦هـ/ ١٥٦٨-١٥٧٨م)، أما المئذنة فقد هدمتها لجنة حفظ الآثار العربية بين عامي (١٣٠٥-١٣٠٦هـ/ ١٨٨٧-١٨٨٨م) نظرًا لميل حدث بها، وما زالت قاعدة المئذنة ماثلة في الركن الغربي من الجامع، انظر: علي مبارك، **الخطط التوفيقية**، مج. ٣: ٧٥؛ كراسات لجنة حفظ الآثار العربية لسنة (١٨٨٧-١٨٨٨م): ٤٠.

فبينما نجد ذلك منها إذا بنا نجد أيضًا ذات البدن المضلع والمنتهي بمسلة مخروطية الشكل، والأسطواني المقسم سطحه إلى مناطق مفصولة بعضها عن الآخر.

ومن هذا الطرز بعض ما ذكرنا من المآذن المتقدمة، ومنه مئذنة جامع الأمير يوسف بن عبد الله السعدي السلحدار، المشهور بالحين (١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م)[(١)] ومئذنة جامع الظافر الفكهاني (١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م)[(٢)]، ومئذنة جامع فاطمة الشقرا «رشيد البهائي» «الجامع سبق إنشاء المئذنة»،[(٣)] ومئذنة جامع «ذي الفقار بك» (١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م)،[(٤)] ومنارة جامع أزبك من ططخ العثمانية التي حلت محل المنارة الأخرى، التي أنشئت في سنة ٨٨٠هـ، وقد كان الغالب على هذه المئذنة الملوسة، كمئذنة المسجد الحسيني أو السلحدار من وجه أقرب، وقد هدمت قبل إنشاء المسجد الحسيني في سنة (١٢٦٨هـ/ ١٨٥١م).

ومئذنة جامع «عبد اللطيف القبجاقي» ببركة الفهادة، المعروف الآن بجامع شريف باشا، ومنارة جامع محمد بك المبدول، المبني في عهد الخديو محمد توفيق (١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م).

ومنارة جامع ابن الأرسوفي، المعروف بجامع الشيخ عبد العزيز الديريني المصري المتوفى به، وقد أنشأ هذه المئذنة إسماعيل باشا عاصم في سنة (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م)، ومنارة جامع عقبة بن عامر (١١٦١هـ/ ١٧٤٨م)، ومنارة جامع أحمد المهمندار (١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م)؛ وهذه المنارة لها طابع خاص، وهي من إنشاء سليمان القازدوغلي؛ ومن هذا النوع ذي الطابع الخاص:

منارة جامع سليمان كتخدا الخربوطلي (١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م)، ومنارة جامع جوهر اللالا بالمصنع، وهذه المنارة الصغيرة حلت محل منارة أرشق منها وأبدع، كما حل مثلها منارة يلبغا السالمي بالجامع الأقمر، ومنارة جامع قوطون أولموز «ألماس».

منارة جامع علي كتخدا القيصرلي (١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م)، ومئذنة جامع محمد كتخدا مستحفظان «الفارقاني» بدرب سعادة (١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م)، ومنارة الجامع المعلق (١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م)، ومنارة جامع صالح أبي حديد (١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م)، ومنارة جامع منكلي بغا بسويقة القيمري «حسين باشا أبي أصبع» (١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م)؛ ومئذنة جامع الأمير قسطة الأرمني «سارية» بداخل القلعة، وهي من إنشاء سليمان باشا (٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)، ومنارة جامع الناصري محمد بن قرقماس الظاهري «جان بلاط»، ومئذنة جامع مصطفى بك ميرزا، وهي تشبه من وجه منارة جامع تيرانا؛ عاصمة ألبانيا، ومنارة جامع عثمان كتخدا القازدوغلي (١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م).

ومئذنة جامع الشيخ درويش العشماوي (١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م)، وهاتان المئذنتان تشبه كلٌّ منهما الأخرى رشاقة وانسجامًا وإحكامًا في الفن، وقد تكون المنارة الثالثة التي تفوق عليهما- هي منارة جامع الفتح التي تعلو عن

---

(١) ذكر تاريخ الإنشاء وهو (١٠٣٥هـ/١٦٢٥م)، في كتابات إزار سقف السبيل الملحق بالمسجد في الركن الجنوبي من الواجهة الجنوبية الشرقية، وفيه: «وكان الفراغ في شهر رجب سنة خمس وثلاثين بعد الألف والحمد لله وحده»، انظر: محمود حامد الحسيني، **الأسبلة العثمانية في مدينة القاهرة (١٥١٧-١٧٩٨م)**، (القاهرة، ١٩٨٨).

(٢) علي مبارك، الخطط التوفيقية، مج. ٣: ٣٠.

(٣) تم إنشاء الجامع عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) على الطراز المملوكي، إلا أن المنارة أنشئت لاحقًا في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، على الطراز العثماني، انظر: حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**، مج. ١: ٢٤٧.

(٤) علي مبارك، **الخطط التوفيقية**: ٢٣٦؛ سعاد ماهر، **مساجد مصر**، مج. ٥: ٢١٠.

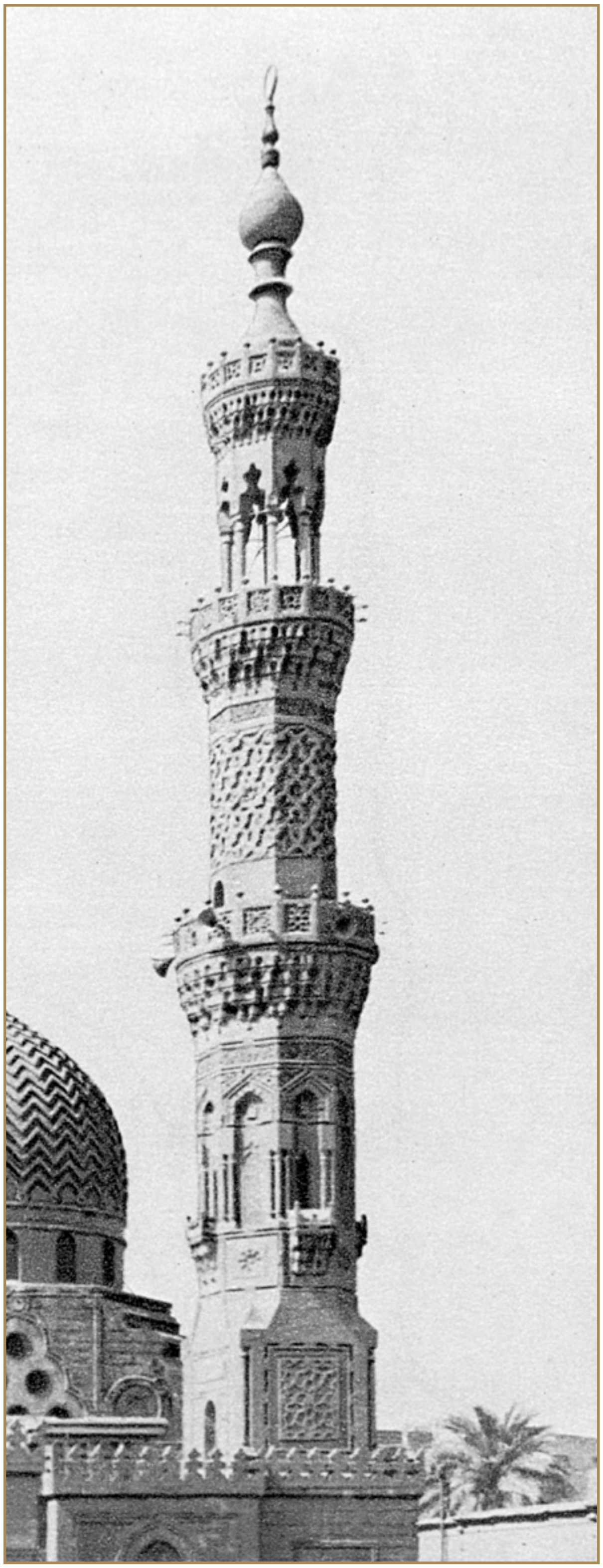
الأرض نحو ٤١ مترًا، وهي مسبوقة عليهما. ومئذنتا جامع عبد الرحمن كتخدا، بزيادة الأزهر (١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م). ومئذنته الأخرى بجامع كزل بغا بقنطرة سنقر، (١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م). ومئذنة جامع القاضي محمود بن أجا الحلبي- كاتم السر بالمملكة المصرية في دولة الأشرف قانصوه الغوري- وقد شيدت في (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م)، والجامع سبق هذا التاريخ (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)[١].

إلى غير ذلك من مآذن أخرى من هذا الطرز العثماني الجديد، أهمها ما ذكر.

مصر تستعيد فنها العربي الإسلامي في عمارة المآذن

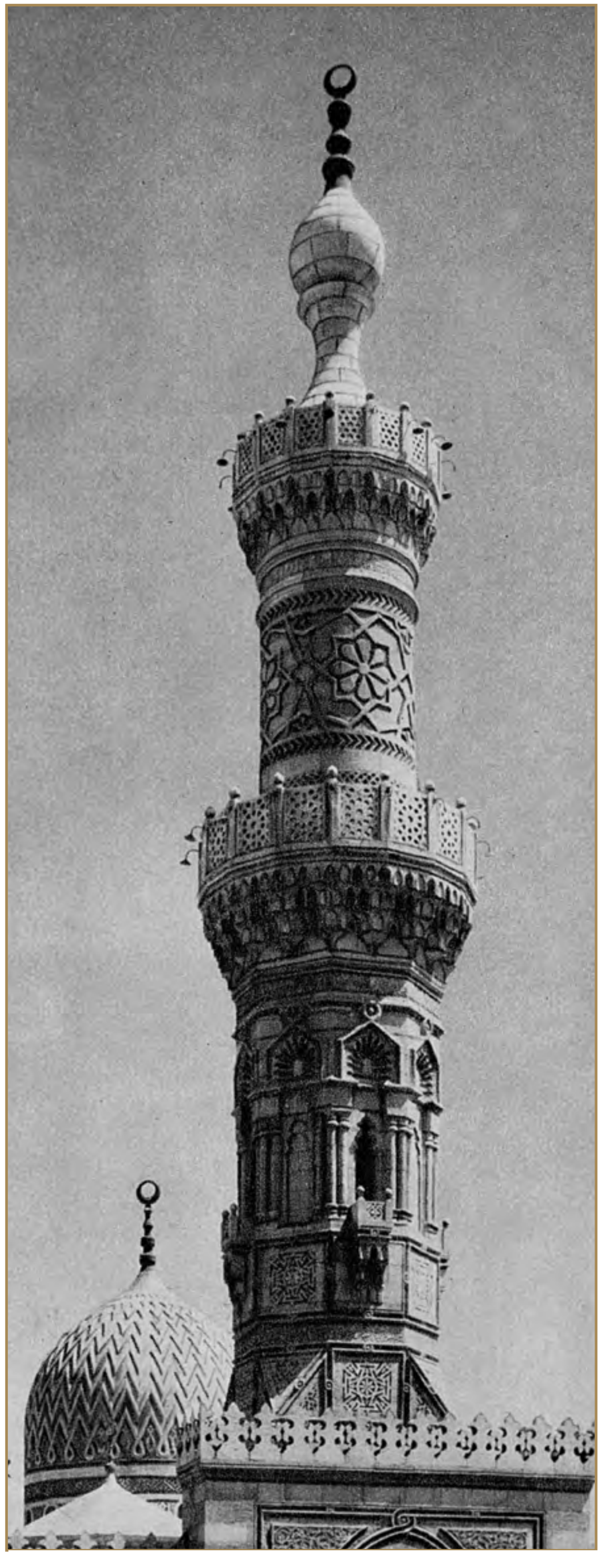
وقد ظل هذا الفن في المآذن شائعًا في مصر حتى عهد الخديو توفيق باشا، فلما رسم بعمارة مسجد الشافعي في سنة (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م) إلى وزارة الأوقاف في عهد وزيرها محمد زكي باشا، رأى باشمهندس الأوقاف وقتئذ، وهو صابر صبري باشا، أن يرجع بالفن المعماري للمآذن إلى عصر المماليك؛ فبنى منارة الشافعي على هذا النظام، وقد تبعه في نفس هذه الفكرة مهندسون آخرون معاصرون له؛ فوضعوا نفس هذا التصميم في منارة جامع السيدة زينب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، سنة (١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م). ثم في مئذنة جامع الشيخ محمد بن دمرداش المحمدي (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م). لكن جاءت منارة الشافعي أرشق من هاتين المئذنتين.

ومن حينئذٍ بدأ هذا الفن المماليكي يستعيد ماضيه في مصر العلوية؛ فسرى مسراه في منارة الجامع النفيسي

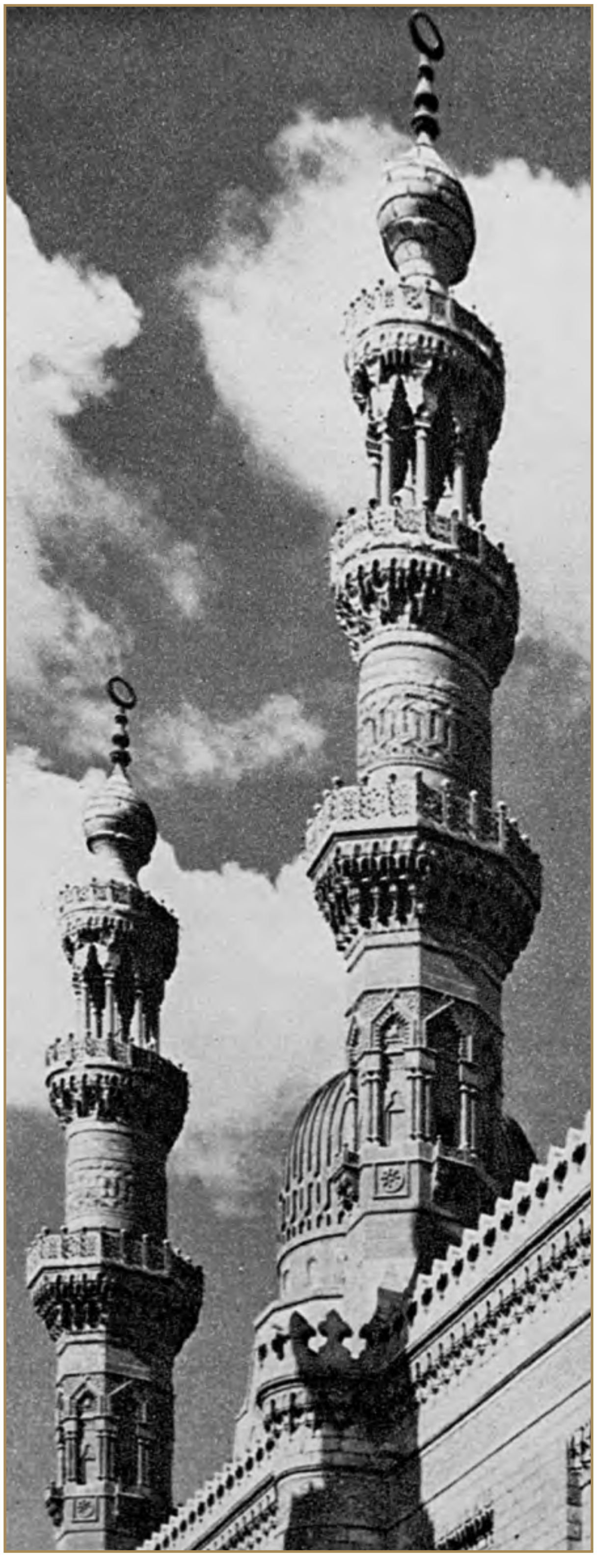


مئذنة جامع السيدة زينب «عن مساجد مصر»

(١) هُدم هذا الجامع عند توسعة شارع الخليج المصري «بور سعيد» في خمسينيات القرن العشرين.



مئذنة جامع السيدة نفيسة «عن مساجد مصر»



مئذنتا جامع الرفاعي «عن مساجد مصر»



مئذنة جامع أولاد عنان



مئذنة جامع الطباخ بعابدين

(١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م).[(١)] ومنارة جامع السيدة سكينة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)،[(٢)] ومنارة جامع السيدة فاطمة النبوية، ومنارة الجامع العباسي بشارع ذهني (١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م)، ومنارة جامع آق سنقر الرومي، ومنارة جامع السيدة فاطمة العظم (١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)[(٣)]، ومنارتا جامع الرفاعي المبالغ في رشاقتهما[(٤)]، وفي منارة جامع نازلي هانم شريف (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، وفي منارة جامع الخازندار (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م).

(١) المسجد الحالي من إنشاء الخديو عباس حلمي الثاني عام (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م)، انظر: كراسات لجنة حفظ الآثار العربية، الكراسة ٨، ١٨٩١.

(٢) كان للجامع منارة عثمانية من عمل عبد الرحمن كتخدا، إلا أن الجامع أزيل وأعيد بناؤه في عهد الخديو عباس حلمي الثاني عام (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) على الطراز المملوكي، انظر: المرجع السابق.

(٣) بشارع خيرت، وقد هُدم جوسق المنارة بعد زلزال (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، وكانت من أجمل المنارات.

(٤) انتهى العمل بهما مع تمام عمارة الجامع عام (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، وقد حاول المعماري استلهام روح العمارة المملوكية من جامع السلطان حسن المقابل، فأقام المنارتين على قواعد مستديرة، إلا أنهما امتازتا بالرشاقة الزائدة، انظر: حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ٣٦٦.

وفي منارة جامع بدر الجمالي بالإسكندرية «سابقًا الجامع العمري» [العطارين][(١)]، وفي منارة جامع شمس الدين المقسي «سابقًا الحاكم بأمر الله» [أولاد عنان][(٢)]- (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م)، ومنارة جامع إبراهيم عزبان (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م)، إلى غير ذلك.

ونستطيع مع هذا أن نقول: إن الفن العربي الإسلامي للمآذن أخذ يشق طريقًا آخر في مصر كان قد غاب عنه زمنًا طويلاً.

إلا أننا بالرغم من هذا، نرى اليوم لونًا غريبًا في عمارة المآذن يدعو إلى التأمل؛ كمنارة جامع أقوش «الطباخ» (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)[(٣)]، ومنارة جامع البرلمان (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، ومنارة مسجد محمد بن أبي بكر بشارع باب الوداع بالفسطاط (١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م). ومنارة جامع إبراهيم البردار «جركس»، ومنارة مسجد الشعراني (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م). ومنارة جامع آق سنقر الظاهري «أبو اليسر القطان»، وهذه المئذنة بنوع خاص تعتبر هي ومنارة جامع قنطرة الدِّكة تقريبًا- صورة مصغرة من مئذنة جامع شمس الدين محمد ابن حسن الحنفي، المؤسس في سنة (٨١٧هـ/ ١٤١٤م)، ذات الرءوس الأربعة التي وَضَعَ تصميمها محمود باشا فهمي؛ مهندس وزارة الأوقاف في سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م).

لئن كان الفن متفاوتًا بعض التفاوت كما رأينا في مئذنتي أبي اليسر والحنفي، فإن القاعدة فيما عداهما واحدة، والأساس متحد.

وقد تكون أهم كل هذه المآذن وأبدعها- مئذنة جامع الطباخ؛ فإنها تمتاز عن غيرها من هذا النوع الممتزج بما يزينها من قطع الخزف والقاشاني الأزرق والأخضر، والظاهر في هذه المئذنة أن فيها ما لا يمت إلى الفن العربي الإسلامي بشيء.

كما أننا نرى في مآذن هذا العصر نماذج أخرى من مآذن قروية؛ كمئذنة جامع القاضي شرف الدين الصغير[(٤)]، ومئذنة جامع منكوتمر[(٥)]؛ وهذا التصميم في هذه المآذن شاع استعماله في المآذن القروية، فهو يوجد فيها بكثرة، إلا أن أجمله مئذنة جامع قايتباي بالقرين، الذي أنشأه الأمير يشبك الجمالي بأمر السلطان في سنة (٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م).

لكن في استطاعتنا أن نقول إن هذه قاعدة ليست مطردة، فلا يمكن أن تكون أساسًا لوضع نظام بناء المآذن في مساجد مصر، في هذا العصر.

(١) أمر بإنشائها الخديو عباس حلمي الثاني عام (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م)، ضمن التجديدات التي شهدها الجامع، وتم بناؤها من الحجر على الطراز المملوكي، انظر: حسن عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ٦٨.

(٢) بميدان باب الحديد «رمسيس»، وقد هدمته وزارة الأوقاف وأنشأت مكانه جامع الفتح، ونقلت أحجاره وأعادت تركيبها مكان جامع السيدة عائشة القديم بما في ذلك المنارة، انظر: أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية**: ٣٤٩ – ٣٥٢.

(٣) أنشئ جامع الطباخ في العصر المملوكي كما ذكر المقريزي، ثم أقيم على بقاياه جامعٌ عام (٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م) بمعرفة السلطان العثماني سليمان القانوني، وكان له مئذنة على الطراز العثماني، إلا أن الجامع أعيد بناؤه بواسطة المهندس الإيطالي المسلم ماريو روسي على الطراز المملوكي بما في ذلك المئذنة، وذلك في عهد الملك فؤاد عند تجديدات قشلاقات الحرس الملكي بعابدين عام (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، وعقب زلزال (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) قامت وزارة الأوقاف بهدم القسم العلوي للمئذنة، وحاولت إعادة بنائه على نفس النسق، انظر: المقريزي، **الخطط المقريزية**، مج. ٤، ج. ١: ٢٦٦؛ كراسات لجنة حفظ الآثار العربية لسنة ١٨٨٩: ١٢١؛ أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية**: ٥٣.

(٤) بشارع الأزهر [أثر رقم ١٧٦] وقد هدمت هذه المئذنة منذ عدة سنوات.

(٥) بشارع بين السياج، وقد تهدمت.

وبالرغم من ذلك، فقد رأينا مهندس جامع فاروق الأول بضاحية المعادي «منية السودان ثم العدوية سابقًا» (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) قد رغب في أن يحل الفن المغربي في مصر محل الفن المماليكي أو العثماني.

فقد وضع تصميم هذه المنارة على القاعدة المغربية، لكنها بالرغم من ذلك قد جمعت إلى هذا الفن مسحة من الفن الفارسي الذي يبدو في دورتها المغطاة محلَّ ما يقف المؤذن، ثم زادت عليها الذوق المصري، وهذا مع ملاحظة أن في تونس وطنجة وغيرهما من بلاد المغرب أقصاه وأوسطه وأدناه- مآذن دورتها مغطاة، لكن غطاؤها يتباين مع هذا الغطاء نوعًا ما؛ فمهندس هذه المنارة قد أصاب في تصميمه، لكن مهندسًا آخر قد وُفق في إحلال هذا الفن المغربي بمصر توفيقًا لم يوفق إليه هذا المهندس الآخر.

فإن منارة جامع الأمير محمد علي[1]؛ المنشأة سنة (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) قد ماثلت المآذن المغربية ذات الأغطية تماثلاً قريبًا، مع أنها قصيرة.

ونستطيع أن نقول بعدئذٍ إن المآذن في القرنين التاسع والثامن، قد أخذت طرزًا معماريًّا، لا نظير له في العصور الأخرى؛ فقد بلغت المئذنة في هذين القرنين، وبخاصة في أواخر القرن التاسع، مبلغًا عظيمًا من الرشاقة والزخرفة والانسجام.

والغالب فيها جميعًا، أن تكون من أربعة أدوار؛ فالدور الأول السفلي هو عبارة عن نوافذ تخصص للاستضاءة، وتكون عادة محلاة بمشربيات تكتنفها عقود محمولة على أسطوانات متكئة على بدن المئذنة. فهي في الوقت الذي تستعمل فيه كمنفعة من مرافق المئذنة، تستعمل المزينة أيضًا.

أما الدور الثاني وهو محل ما يقف المؤذن فيكون عادة أكبر طبقة في المئذنة، ويحاط بسياج من البناء محلى بزخارف سطحية ذات فرج يتكون منها رسمٌ هندسيٌ غاية في الإبداع.

والدور الثالث يصغر عن السابق قليلاً، ويرتكز كسابقه على مقرنصات «دلايات»، تتألف من ثلاثة أحزمة أو أكثر، وفي أسفل الحزام الأخير طرازان بهما مجموعة من الزخارف الكتابية، وقد يكون هذا الطراز في بعض الأحيان بأسفل الدور الأول من المنارة أو بهما معًا.

ويلاحظ هنا أن الفن الإسلامي الذي ابتكر هذه الدلايات ذهب في ابتكاره لها إلى حد بعيد، ضرب فيه الرقم القياسي في هندسة المباني الإسلامية. فقد يبدو أن هذه الدلايات استعملها المهندس المسلم للزخرفة فحسب. فهو حقًّا قد استعملها لهذا، فوق استعماله لها؛ ككوابيل تحمل دوائر المئذنة، فهي من هذا الوجه ذات ميزة فنية وعملية في آنٍ واحد، وهذا منتهى البراعة في الفن الإسلامي.

أما الدور الرابع فيكون عادة محمولاً على أساطين، تبلغ اثنتي عشرة أسطوانة، في بعض الأحيان وقد تكون قائمة بنفسها، أو متكئة على دعائم. وقد تكون هذه الأسطوانات من الرخام أو من الحجر، كما في مئذنتي جامع المؤيد شيخ «أعاليها حديث»، وجامع سونج بغا وغيرها، وقد تكون مفردة أو مزدوجة في بعض الأحيان، وتنتهي هذه الأسطوانات بالدور الأخير، الذي قد يكون كسابقيه أو يختلف عنهما بعض الاختلاف؛ كأن يحاط به بدل السياج

(١) بقصر المنيل بالروضة.

المخـــرم مداميك حجرية صغيرة الحجـــم كالتي تتحلى بها وجهات المساجد.

ومن هذا الدور تنتهي المئذنة بخصة من البناء، مخروطة من الجانبين تحمل فوقها قبة المئذنة، التي قد تكون كروية، أو بيضاوية في بعض الأحيان.

وبآخر هـــذه الكرة هـــلال مرفـــوع على قاعدة من النحاس الأصفر، والســـلم الذي يســـتعمل في هذا الطابق الأخير لا يكون إلا من الحديد الحلزوني الشكل.

أما الســـلم الرئيسي للمئذنة فهو يبتدئ من قاعدتها إن كانت ذات قاعدة، أو من ســـطح المسجد إن كانت المئذنة مرتكزة عليه، ويكون على شكل حلزوني تبعًا لنظام المئذنة؛ وتختلف عدد درجاته عن بعضها بحسب العلو والانخفاض، وثمت مآذن ليست لها هذه الأسطوانات المذكورة.

وبالجملة، فنجد في مجموعة المآذن الإسلامية في مصر من الميزات ما لا نجـــده في مآذن أخرى، وبخاصة في العصر المماليكي الأخير؛ إذ هو العـــصر الذي ازدهرت فيه العمارة الإسلامية ازدهارًا كبيرًا.

فنجـــد منها المربعة، ثم الحلزونيـــة والمثمنة، كما نجد المضلعة والأسطوانية، ونجد منها المبني بالحجر جميعه وبعضه وبالآجر، والمحلى بزخارف كتابية وغيرها، إلى غير ذلك.

تطور المآذن في المغرب

ولعل مـــا قدمناه هنا عن تاريخ المـــآذن وتطورها في الإسلام فيه مجزأة. بقي لنا أن نقول: في الوقت الذي تطورت فيه المآذن إلى هذا الحد في مصر، وقف تطورها عنه نوعًا ما في بلاد المغرب، فإنك لا تجـــد فرقًا كبيرًا بين مآذن جوامع الكتبيين بمراكش، وابن يوسف، والمواسين، والجامع الكبير بتازا وسلا، وجامع حسان بالرباط.

وبين مآذن فاس والدار البيضاء، التي حدثت في عهد الدولة العلوية الحالية؛ ويرجع ذلك إلى أســـباب، أهمها أن السياسة الدولية لم تســـتطع أن تلعب دورها الذي لعبته في مصر.

فلما لم تجد السياسة ســـبيلاً للوصول إلى قلب نظام العمارة الإسلامية العربية، بقي الفن محفوظًا مختومًا بطابعه الأصلي، رغم تنقله من الأندلس إلى المغرب.

وبين تعاقب الدول المغربية عليه؛ من الدولة الإدريسية إلى دولة الموحدين، إلى دولة بني مرين إلى الدولة الوطاسية، إلى السعدية، إلى الدولة العلوية الحاكمة اليوم.

وكذلك الحـــال في تونس؛ من دولـــة الأغالبة، ثم من الدولة الحفصية إلى الدولة الحسينية الحالية[1].

ولقد كان لهذا أثره في بقاء حرمة هذه الآثار، وقيمتها على مدى الأيام، فالفن المغربي عند علماء الآثار في الشرق والغرب ينظر إليه من الناحية الفنية وحسب، بصرف النظر عن القيمة التاريخية له. ونســـتطيع أن نقدم دليلاً على ذلك جامع مولاي محمد سلطان المغرب[2] الحالي بالدار البيضاء؛ فإن هذا الجامع على حداثـــة عهده يكاد الناظر إليه يقف مندهشًـــا من جمال الفن الذي أبدعه مهندس ذلك الجامع المغـــربي، بل إن نظام صحنه الفســـيح الأرجاء بأســـاطينه ودعائمه ونقوشـــه وزخارفه وما فيه من مشكاوات أندلسية

---

(١) يقصد المؤلف أربعينيات القرن العشرين.

(٢) هو محمد بن يوسف سلطان المغرب بين عامي (١٩٢٧-١٩٥٣م)، وملك المغرب بين عامي (١٩٥٧-١٩٦١م).

وفصة جميلة عربية، ومئذنته التي تشرف من جانب الصحن.

كل ذلك دليلٌ واضحٌ على إحلال هذه الآثار على حداثتها محل ما تقدمها من الآثار الماضية، وهذا كله راجع إلى الأسباب المذكورة.

بل إن هناك ما هو أدعى للتأمل من ذلك، فهذا جامع المسلمين المغاربة في باريس[1]، قال عنه بعض علماء الآثار في الغرب: إن مسجد باريس ليس كعبة يحج إليها المسلمون فقط، بل هو أيضًا مقصد عشرات المئات من الباريسيين والسياح الأوروبيين والأمريكيين الذين يقصدونه كل يوم عشرات عشرات، ليشاهدوا مبلغ إعجاب الفن في بناياته وأقسامه، ويسرحوا طرفهم في جمال زخرفته وبدائع هندسته، وبالأخص في بابه الفخم؛ الذي تجلت فيه مقدرة الفنان المغربي، وطول أناته وشدة صبره، وما حباه البارئ من روح فنية فطرية إلى حد يدهش الناظر.

وبالتأمل في الأسطوانتين اللتين يرتكز عليهما عتب هذا الباب، وما يتحلى به من زخارف يرى فيه تحفة فنية لا تقدر. أمّا منبره الجميل الذي أهداه له ملك مصر السابق فؤاد الأول - رحمه الله - وأجزل أجره فهو تحفة فنية نادرة المثال.

وبالجملة، فإن الفن المغربي الحديث الذي هو نسخة كاملة من الفن الأندلسي في أزهى عصوره- لم يفقد صبغته الأولى، وليس ذلك في المساجد وحسب، بل في الفنون المعمارية في جميع نواحيها؛ فتجده في الدور

(١) هو مسجد باريس الكبير، من أقدم المساجد في فرنسا، أسسه الجزائري قدور بن غبريت عام (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م)، بمؤازرة المهاجرين الجزائريين الأوائل إلى فرنسا، على الطراز المغربي الأندلسي؛ وذلك تخليدًا لذكرى الجنود المسلمين الذين دافعوا عن فرنسا في الحرب العالمية الأولى.



مئذنة جامع باريس الكبير

والمدارس والسِّقايات والأبواب العمومية. وإنك لتدهش حينما تقف على سِقاية «سبيل» باب النجارين بفاس، وتشاهد منه عظمة الفن المغربي الحديث؛ من تطريز وتخريم وتنسيق إلى غير ذلك.

ولم يقف الفن المغربي عند هذا الحد، بل تعداه أيضًا إلى الصناعات الفنية الدقيقة؛ كصناعة التسفير والتكفيت والزجاج والنحاس والتذهيب، والمنسوجات وصناعة السجاجيد، والزركشة وتطعيم الأخشاب وصناعة الخزف

والقاشـــاني وغير ذلك. فتجد في المغرب اليوم مجموعة كاملة من المشـــكاوات الزجاجية والثريات النحاســـية، والتنانير والأزيار والكراسيّ والشـــمعدانات، وغيرها من الصناعات الأندلســـية القديمة، ما كنت تجدها بالأمس في الأندلس والمغرب في عصوره الماضيـــة، وفي مصر في عهد الفاطميين المغاربة. ولقد شاهدت بعيني ثريا من نحاس أصفر صنعت بفاس منذ خمس سنوات تقريبًا، تتضاءل أمامها ثريا جامع السلطان حسن المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة.

الفن الإسلامي في عمارة المآذن في الأقطار الشرقية

هذه صـــورة مصغرة أريناكها في عرض سريع من حال الفـــن المغربي. فهو لـــم يتأثر بالظروف حـــتى الحرجة منها، كالتي تعانيها البلاد اليوم. أمـــا في العراق فقد بلغ فيه الفن من التطور مبلغ ما وصل إليه في مصر؛ فقد ذكرنا فيما تقدم أن الفن العراقي قد تجلى بأظهر مثال في مئذنة جامع سُرَّ مَنْ رَأَى الذي بناه المعتصم، وهي التي يســـميها العراقيون اليوم بالملوية، وهي إحـــدى عجائب الدنيا؛ فإن الناظر إلى دورات هذه المئذنة، وإلى نظامها وإبداعها- يعلم مبلغ ما وصل إليه المهندس الإسلامي من البراعة والمهارة في هذا الفن العجيب.

ثم يعـــرف كيف أعجب أحمد بن طولـــون بهذا الفن المعماري لهذه المنارة؛ فاقتبسه في منارة جامعه، وقد لا تعجب من هذه المنارة عجبك من الجامع الذي كانت قائمة فيه.

فقد ذكر المؤرخون أن جامع المعتصم في ســـامراء كان هو الجامـــع الذي ليس له نظير في معمـــور الأرض، بطولها والعرض. ويصفونه بأن جدرانه كانت مغشـــاة بطبقة من المرايا ذات الماء النـــقي. فكان المصلي إذا وقف للصلاة رأى من كل جانب من جوانب المسجد الداخل والخارج والقائم والقاعد من الناسَ.

ولمـــا بنى المعتصم جامعه على هـــذه الصفة قام الناس وقعدوا؛ ينكـــرون عليه هذه المبالغـــة في الزخرفة إلى هذا الحد، فلما كثر الهرج والمـــرج أصدر كبار العلماء وقضاة الإسلام الفتاوى العديدة بجواز زخرفة المساجد.

ولا تـــزال أطلال هذا المســـجد، وجدرانه، وملاصق المرايا المذكورة- بارزة للعيان إلى الآن.

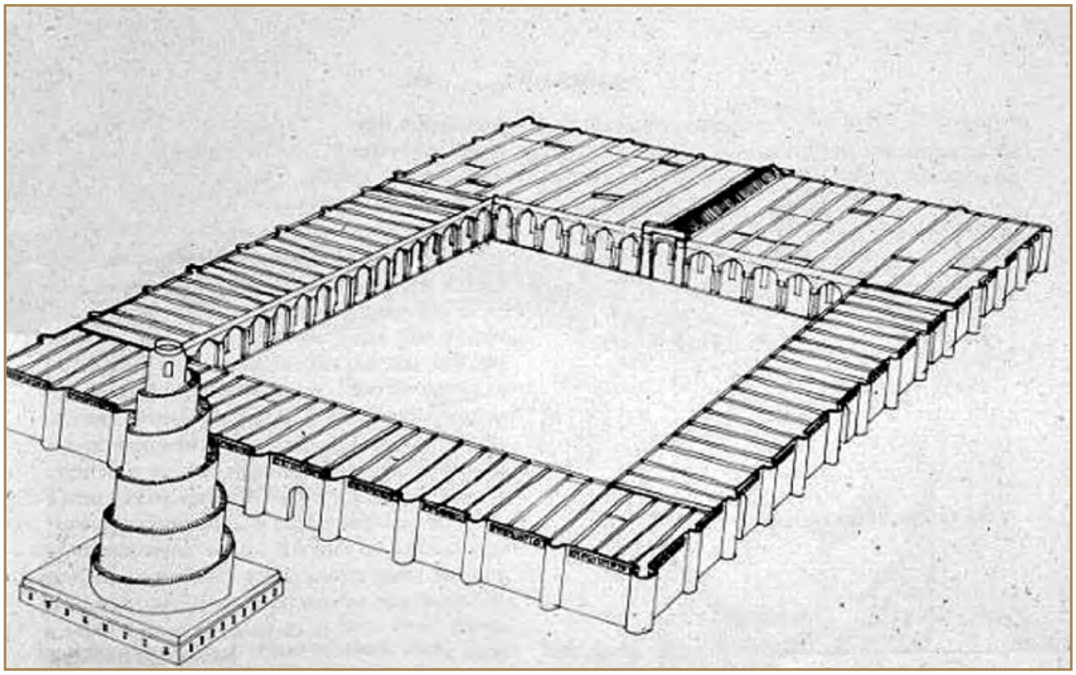
وقد اقتبـــس المهندس العراقي اليـــوم فكرة ملاصق المرايـــا بالجدران في المســـاجد من هذا المســـجد الجامع، فأدخلها في مســـاجد العراق، وأعني بها المشاهد، خاصةً؛ كمشهد النجف الأشرف، وكربلاء وغيرهما.

وقد ذهـــب جمهرة مـــن علماء الآثار مســـتشرقون وغيرهم، أمثال هرتسفلد الألماني وغيره- إلى القول بأن أحمد ابن طولون نقل هذا الفن الملوي، الذي طابقت تسميته طرز بنائه- عن مئذنة جامع المتوكل وأدخله إلى مصر في مئذنته.

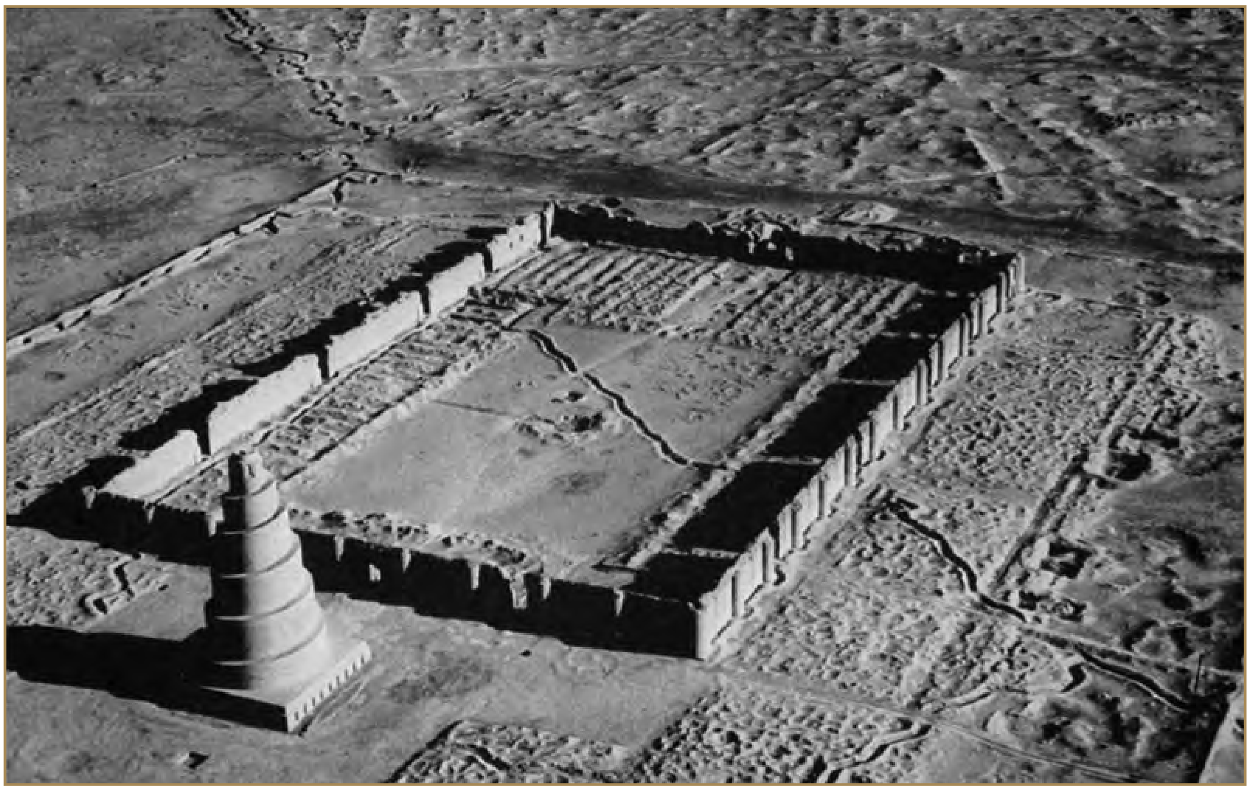
وقد يكون لهذا القول أثر من الصحة، إذا ثبت لدينا أن المتوكل بنى جامعًا يحق لابن طولون وغيره أن يقتبس من هندسته ما شاء.

إن المتأمل في سيرة المتوكل يرى فيه رجلاً كان متلونًا، ثائرًا، يقابل الناس بوجوه مختلفة، ويميل إلى التخريب أكثر منه إلى التعمير.

ولقـــد بلغ من بغض الشـــعب له أنه لا يمـــرُّ يومٌ من الأيام، إلا وتؤلف فيه المظاهرات العدائية ضده، حتى هجاه الشعراء، وسبه الناس جميعًا سبًّا علنيًّا بالكتابة على الحوائط والجدران في المعابـــر والطرقات، وما برح كذلك حتى قتل



منظور لجامع المعتصم بسامراء



أطلال جامع المعتصم بسامراء «عن كريسويل»

هو ووزيره في ساعة واحدة [راجع تاريخ الخلفاء لابن أنجب والأربلي والسيوطي وغيرهم].

فمن كان على هذه الصفة يستحيل عليه أن يبني مسجدًا يصح الاقتباس منه.

ومهما يكن من الأمر، فإنا لا نستطيع أن نقول إن ابن طولون بنى مئذنته على نظام مئذنة مليكه المتوكل، التي لا نعلم لها شكلاً ولا طرزًا، في حالة مثول مئذنة المعتصم بين يدينا، وهذه المئذنة الطولونية نسخة منها، فالأقرب ما هو مرئي لنا، ماثل بين أعيننا؛ خاصة أنه قد قامت الأدلة وتواطأت النصوص الصريحة على ثبوته، وبذلك تكون قد بَطَلَت هذه القالة.

تطور الفن المناري[1] في العراق

ليس لدينا نص ثابت يثبت لنا أن المآذن في العراق كانت على نظام مئذنة المعتصم، أو أنها أخذت تشق لها طريقًا آخر، تطورت فيه إلى نظام متباين؟!

القول الذي نرتاح له ونذهب إليه هو أن مئذنة المعتصم هذه كانت هي الأولى والأخيرة، التي بنيت على هذا النظام الملوي؛ لأننا لا نتصور أن تكون مئذنة جامع المهدي بالرصافة، أو جامع المنصور- كانت مآذنهما بهذا الوصف.

وأول مئذنة نشاهدها قائمة إلى اليوم، يتجلى فيها الفن العراقي إلى اليوم بأجلى بيان، هي مئذنة جامع الخليفة المكتفي بالله[2].

وهذه المئذنة إن لم تكن من آثار الدولة العباسية فإنها بنيت على طرز المئذنة الأولى لهذا الجامع، التي سقطت ثم أعيدت ثم سقطت مرة ثانية، أو أنها اقتبست من نظام مئذنة جامع الناصر التي سنذكرها قريبًا.

أما تاريخ إنشاء هذه المئذنة فيرجع إلى سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)، في عهد أباقا خان بن هولاكو خان الإيلخاني سلطان العراق؛ حسبما أفصح عنه ابن الفرضي في تاريخه في حوادث هذه السنة وسنة (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م)؛ حيث قال: «وفيها (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) أمر علاء الدين صاحب الديوان بتجديد عمارة منارة جامع الخليفة، وكان صدر الوقوف يومئذ «ناظر الأوقاف» شهاب الدين علي بن عبد الله، فشرع في ذلك، وأنجزت في آخر شعبان، ثم سقطت في شهر رمضان بعد فراغ الناس من صلاة التراويح، ولم يتأذَّ أحد ممن كان هناك».

«وفيها (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) تمت عمارة منارة جامع الخليفة، وكانت قد سقطت في شهر رمضان سنة سبعين وستمائة».

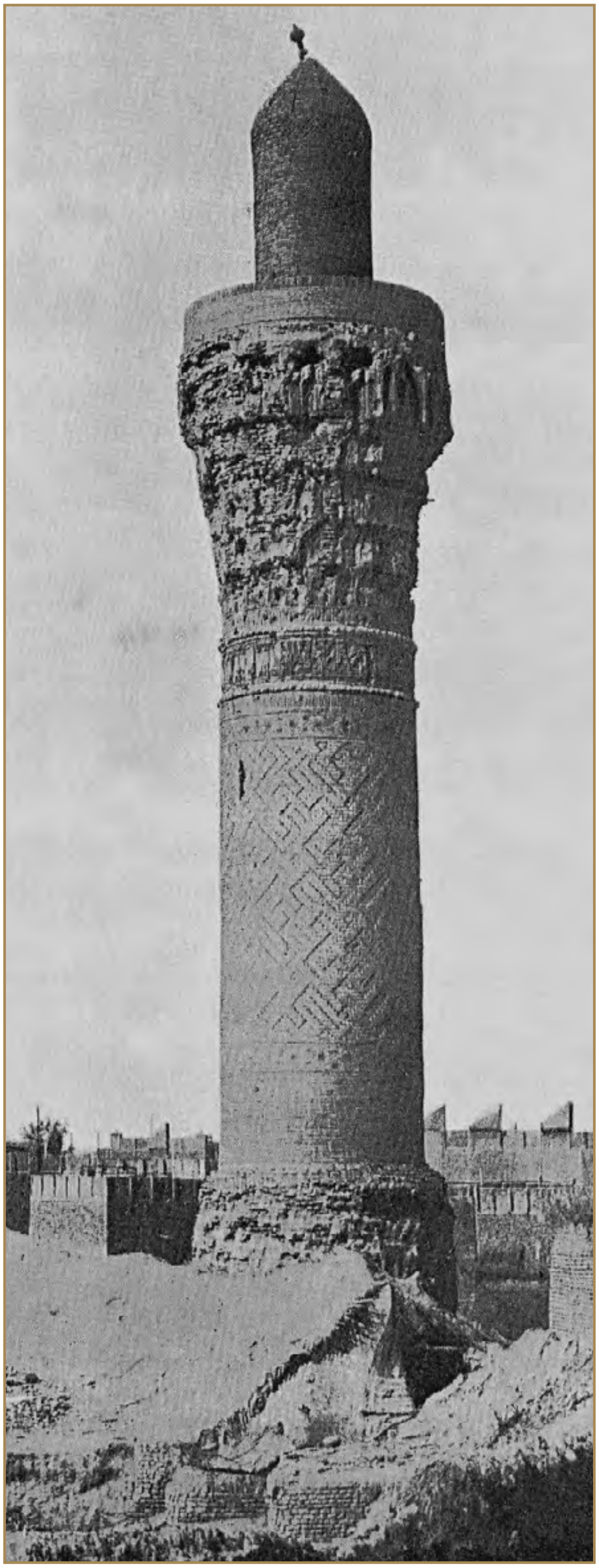
وإن المتأمل هذه المئذنة يجد أنها بديعة التنسيق لحد ما، وهي مبنية بالآجر، ومؤلفة من أشكال ظاهرة متكسرة الخطوط، وقاعدتها ذات طاقات وأواوين صغيرة، ومن تحت

(١) كلمة «المناري» من كلمة «المنارة» والمقصود تطور فن بناء المآذن.

(٢) هو جامع الخلفاء الذي بناه الخليفة العباسي المكتفي بالله بين عامي (٢٨٩-٢٩٥هـ/ ٩٠٢-٩٠٨م)، شرقي القصر الحسني في بغداد، = وكان يعرف بجامع القصر، وتعتبر منارته التي بنيت من الآجر من الآثار المعمارية القليلة الباقية من دار الخلافة العباسية ومساجدها، ولقد سقطت المنارة وهدم الجامع عام (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م)، وأعيد بناؤهما في (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)، ثم سقطت وأعاد تشييدها الوالي العثماني سليمان الكبير (١١٩٣-١٢١٧هـ/ ١٧٧٩-١٨٠٢م)، انظر: مصطفى جواد، وأحمد سوسة، **دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديمًا وحديثًا** (د.م.: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٨): ١٢٥.



مئذنة جامع الخلفاء ببغداد (Archnet)



منارة جامع الخلفاء في سوق الغزل ببغداد

حوضها منطقتان من الآجر؛ بينهما طراز زخرفته كتابية بالخط الكوفي.

وقد جدد قاعدتها بعض علماء الآثار الإنجليز، ويوجد على مقربة منها الجامع الذي أقامه سليمان باشا والي بغداد في سنة (١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م) على أنقاض المسجد القديم، وهو الجامع الذي يعرف اليوم بجامع سوق الغزل.

ويقال إن هذه المئذنة نسخة كاملة من مئذنة جامع الخليفة المهدي، الذي أمر ببنائه في رصافة بغداد سنة (١٥٩هـ/ ٧٧٥م).

ومهما يكن من الأمر، فإن لدينا نموذجًا آخر من هذا الفن، يتجلى بوضوح في مئذنة جامع الخليفة الناصر لدين الله؛ الذي بناه في سنة (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) للزاهد المشهور معروف الكرخي، وفي هذه السنة نفسها توفي ولده عليٌّ الذي كان مرشحًا للخلافة بعده، فدفنه إلى جانب معروف.

وهذه المئذنة - وإن كانت قريبة الشبه بمئذنة جامع الخليفة - تمتاز عن غيرها، بالمقرنصات التي ترتكز عليها دورتها، وهي مبنية من الآجر، وسمكها أكبر حجمًا من السابق.

وعلى طراز هذه المئذنة بنيت مئذنة جامع الحظائر، أو جامع الخفافين كما يعرف اليوم، وهذه المئذنة من منشآت زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله المذكور آنفًا.[1]

ثم منارة مسجد المستنصر بالله المعروف بقمرية، وهي إحدى إمائه؛ شادها في سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، كما في تاريخ ابن القوطي في حوادث تلك السنة، قال: «وفي شعبان تكامل بناء المسجد المستجد المعروف بقمرية». وهذه المئذنة تكاد تكون هي الوحيدة في بغداد من آثار الدولة العباسية؛ إذ إنها مع مرور هذا الزمن لم تتغير معالمها؛ وهي بيضاء اللون مبنية بالآجر والجص متقنة البناء، جميلة التنسيق، رشيقة نوعًا ما عن المآذن الأخرى.

وقد تكون مئذنة جامع المرجانية، التي شيدت في سنة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م)- أرشق منها وأبدع. ونستطيع القول



مئذنة جامع الغباس بكربلاء

(١) لم يبقَ من الجامع القديم غير منارته القائمة على ضفة نهر دجلة الشرقية، تحت المدرسة المستنصرية، ويعتبر المؤرخون أن هذه المنارة إنما هي أقدم المنائر في بغداد، وهي تشتمل على نوع من الفن البنائي الراقي، مما يجعلها نموذجًا للفن العراقي؛ إذ يوجد في رأسها أشكال هندسية من النقوش والزخرفة بالقاشاني، وبناء مسجد الحظائر اليوم يعود إلى العصر العثماني المتأخر، غير أن مئذنته لا تزال تحتفظ بمعظم عناصرها الأصلية.

بأن هذه المئذنة هي النموذج الوحيد للمآذن التي بنيت بعد، وكانت علمًا على الفن العراقي.

فإنك تجد النسبة بين هذه المئذنة، ومئذنة جامع داود باشا المعروف بالحيدرخانة، المشيد في سنة (١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م)- متقاربة، وبينها وبين مئذنة جامع الشيخ عبد القادر الجيلاني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ التي تشبه من وجه مئذنة جامع الحظائر، إلا أنها أرشق منها، وبينها وبين مئذنة جامع الميدان أو الأحمدية، الذي شيده الأمير أحمد كتخدا في سنة (١٢١١هـ/ ١٧٩٦م)، بل بينها وبين مآذن الكاظمية الأربع المشيدة في القرن العاشر الهجري؛ ومشاهد النجف وكربلاء، إلى غير ذلك.

وهذا بالرغم من أن هناك فوارق تظهر للمتأمل، أخصها تلك الأغطية التي تمتاز بها مآذن الكاظمية ومشاهد الأشراف، التي تكون عادة مغشاة بطبقة من الصفائح الذهبية، عدا بعض المآذن الأخرى التي لا تستعمل فيها مواد البناء مطلقًا.

وقد نستطيع بذلك أن نتعرف مدى التطور الذي أحدثته العمارة الإسلامية في مآذن مساجد العراق، فقد بدأت المئذنة في الفن العراقي مستديرة سميكة الحجم، ذات طابق واحد؛ يرتكز على مقرنصات، ورقبة صغيرة، تتغطى بطاقية من البناء محلاة بزخارف سطحية. وما برحت على ذلك في عصورها الأولى، ثم ما لبثت أن تطورت من السمك إلى الرشاقة، حتى بلغت ما نراه الآن في المآذن العراقية الحالية. ولا يقاس هذا التطور بمثله في الفن العربي الإسلامي في مصر؛ إذ إنه أوسع منه تطورًا، وأكثر نماذج.

ويلاحظ أن المآذن العراقية أنشئت من أول عهدها ذات طابق واحد كما قدمنا، إلا في بعض الأحيان فإنا رأينا نموذجًا منها من طابقين، في مئذنة جامع الآصفية، الذي كان في الأصل جزءًا من المدرسة المستنصرية، ثم جدده الوزير داود باشا مدةَ ولايته على بغداد.

وقد كان له مئذنتان بنيتا إلى جانب بعضهما على نسق مآذن العراق، فبقيتا إلى سنة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)، وفيها هب إعصار شديد في بغداد، فاقتلع معه قبتي هاتين المئذنتين؛ فبقيتا كذلك إلى سنة (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م)، فأقامت وزارة الأوقاف العراقية هذه المئذنة ذات الطابقين على أنقاض إحدى المئذنتين في ذلك التاريخ، وقد شيدتها على نظام الفن العراقي إلا أنها ميزتها بطابق آخر.

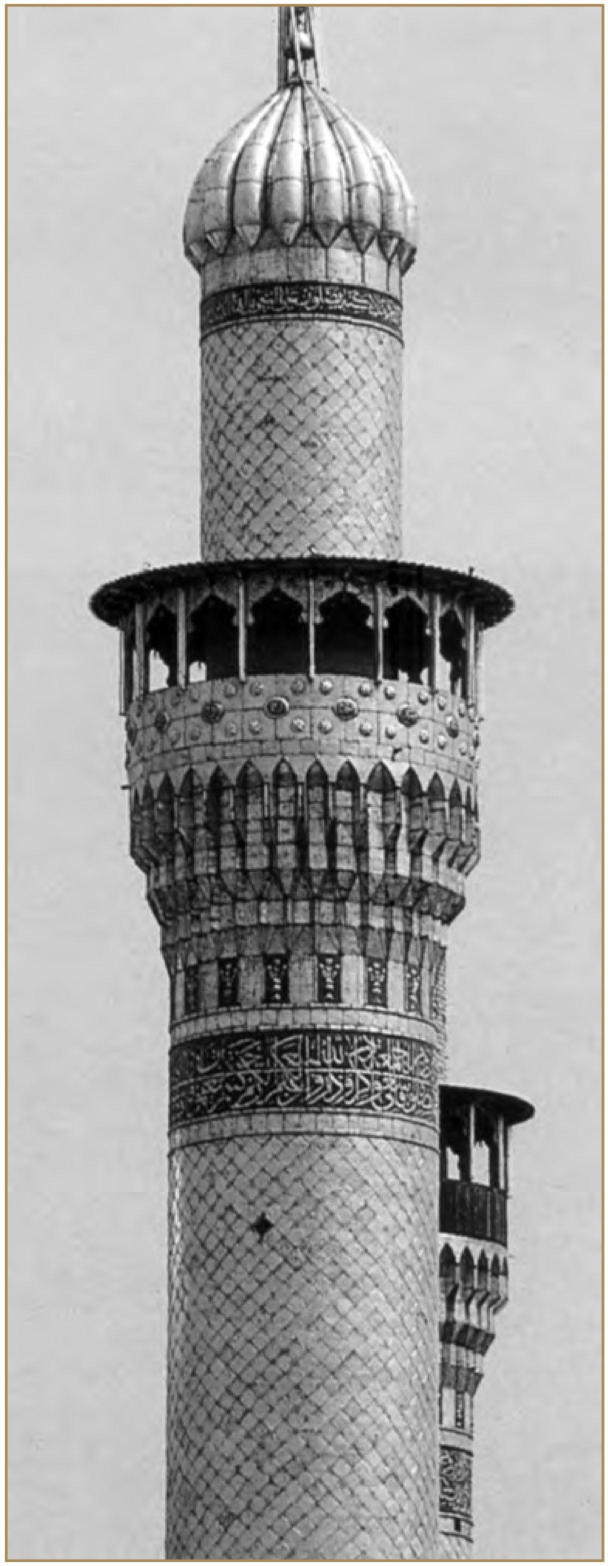
وفي عهد متأخر امتزج الفن العراقي بصنوه الفن الإيراني.

فإن المتأمل في بعض المآذن العراقية لا يجد فيها فرقًا كبيرًا عن المآذن الإيرانية إلا في بعض شرفاتها، وقد اقتبس الفن العراقي من أخيه الفن الإيراني كثيرًا من معالمه المعمارية وأدخلها في منائره، وأخصها تغطية دوراتها وتغشية جدرانها بالقاشاني أو الصفائح الذهبية.

وأظهر مثال لهذا نجده في مآذن الكاظمية ومآذن مشهدي الإمامين علي الهادي والحسن العسكري - بسامراء - ومشهد النجف وغيرها.

وفي استطاعتنا مقارنة هذه المآذن بمآذن مشهد السيدة فاطمة بنت الإمام علي الرضا بمدينة قم، التي تمتاز عن غيرها بجمالها ورشاقتها و الفصة التي تغطي بدنها؛ وبمآذن جامع البرلمان الإيراني وغيرها.

على أننا لو تراجعنا بالفن الإيراني قليلاً إلى الوراء لوجدناه فنًّا مستقلاً كان قائمًا بهذه البلاد منذ عهود



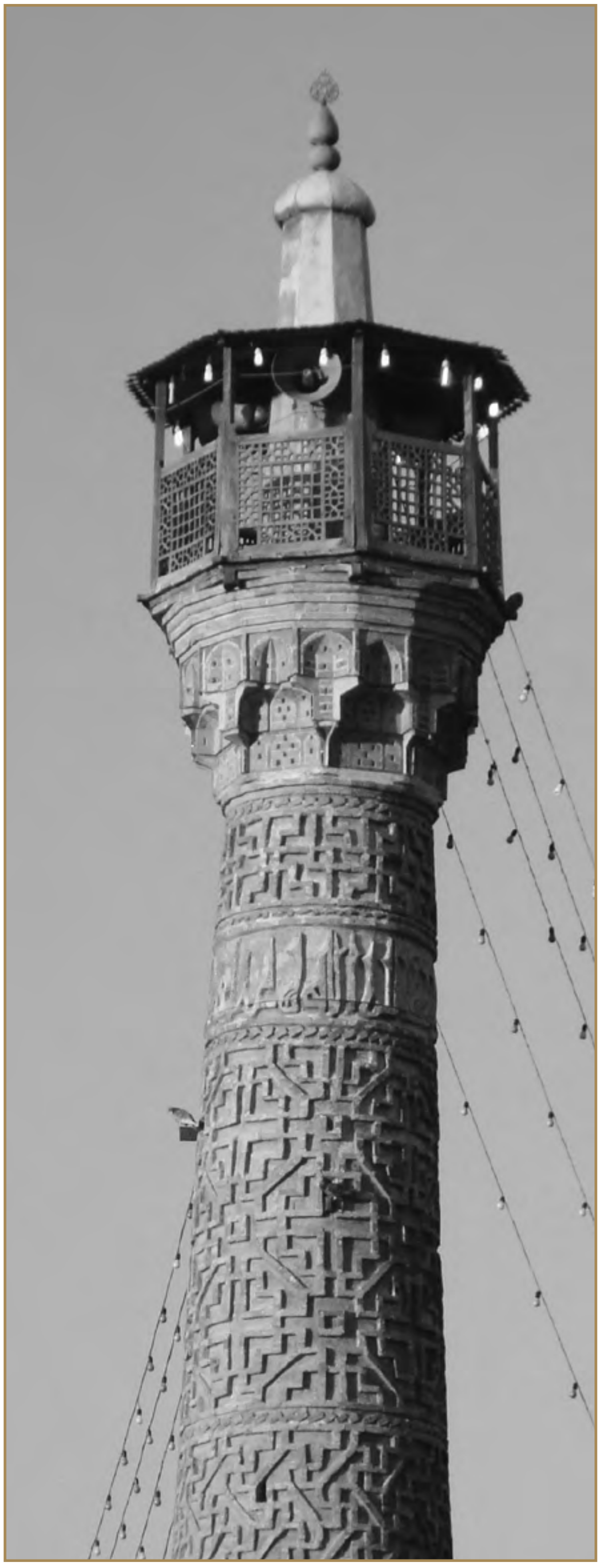
مئذنة مشهد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري بسامراء



مئذنة مشهد الإمام علي بالنجف الأشرف



مآذن مشهد فاطمة المعصومة بمدينة قم الإيرانية



مئذنة مسجد سمنان بإيران

الإســـلام الأولى التي مرت بالبلاد، فلم يكن يومًا ما يمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى أي فن آخر من الفنون المســيحية أو غيرها.

وأظهر مثال للفن الإيراني في المــآذن نراه ماثلاً أمام أعيننا إلى اليوم في مئذنة جامع الشــاه بأصفهان، وهي من القرن الحادي عشر (١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م).

ومن المآذن التي يتجلى فيها الفن الإيراني بوضوح تام، ويبهرك جمال منظره ويروعك بزخارفه ومقرنصاته وغشائه إلى غير ذلك- تلك المجموعة الهامة التي يشاهدها الزائر في هذه البلاد، ومنها: مئذنة المســجد الجامع في نايين، مئذنة جامع بســطام (٥١٤هـ/ ١١٢٠م)، مئذنة جامع ســمنان؛ التي بلغت في الارتفاع مبلغًا عظيمًا، وهي من القرن الخامس.

منارة مســجد جوهر شــاد بمدينة مشــهد (٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، مئذنتا مدرسة نادرشاه بأصفهان (١١٢٦هـ/ ١٧١٤م)، ثم مآذن مساجد وأســواق مدينة يزد، ثم تبريز وغيرها من البلاد الإيرانية[1].

أما المــيزة التي يمتاز بها الفن الإيــراني عن غيره في المآذن بوجه خاص- فهي تغطيتها بالقاشــاني الذي برعت فيه هذه البلاد من أقــدم عصورها إلى الآن. ولا غرو، فإن الفن الإيــراني بوجه عام يمتاز عن كل فــن آخر؛ بزخارفه ونقوشــه ومميزاته المعمارية، والمآذن الإيرانيــة تتباين مع المآذن الأخرى في الممالك الإسلامية بفوارق ظاهرة.

فالمئذنة الإيرانية عبارة عن بناء شاهق، يتحلى ظاهره بزخارف ونقــوش فصية، تغطي بدن المئذنــة جميعها من قاعدتها لقمتها.

والمئذنة الإيرانية ليس لها طبقات ولا نوافذ، وتكاد تكــون خالية من المرافق التي توجد عادة بالمآذن الأخرى، فهي من هذا الوجــه تقام للزينة أكثر منهــا للمنفعة التي وضعت من أجلها؛ وهي الأذان، وهي فضلاً عن ذلك خاليةٌ من الدورات والدرج أيضًا.

ولهذا كانت المنارة الإيرانية مرتفعة جدًّا حالة كونها أسطوانية الشكل ممشوقة تصحبها الرشاقة في أغلب الأحيان. هذا مبلغ الفن الإيراني للمآذن في إيران الإسلامية.

أما في ســمرقند، أما في بخارى، أمــا في تركيا، أما في الصين، أما في اليابان، أمــا في بلاد جاوه جميعها- فإننا نجد لونًا آخر من الفن الإســلامي في بناء المآذن في تلك البلاد؛ فنجد في تركيا نوع المآذن الرفيعة الاســطوانية الشكل التي قدمنا نماذج منها؛ من مآذن مصر، القاهرة.

ونجد في الهند وبخارى و سمرقند نوع المآذن المستديرة المخروطية الشــكل، المخرمة من الوسط بمثلثات هندسية غاية في الإبداع.

ونراها تبتدئ بمخروط مســتدير يصغر كلما ارتفع، تزينها فوهات منسقة تنسيقًا بديعًا، وفي أعلاها من الداخل طابــق محتجب تحت بدنها، يقف عليه المؤذن، ويتوصل إلى هذا الطابــق من درج في داخل المئذنــة. وأظهر مثال لهذا النموذج الفريد نراه في منارة الجامع الكبير في خيوا الواقعة غربي بخارى وبحر الخزر وعلى الشمال منها بلاد الكرخ وعلى الجنوب بلاد العجم.

(١) راجع كتاب الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، للصديق الفاضل الدكتور زكي محمد حسن، طبع القاهرة (المؤلف).

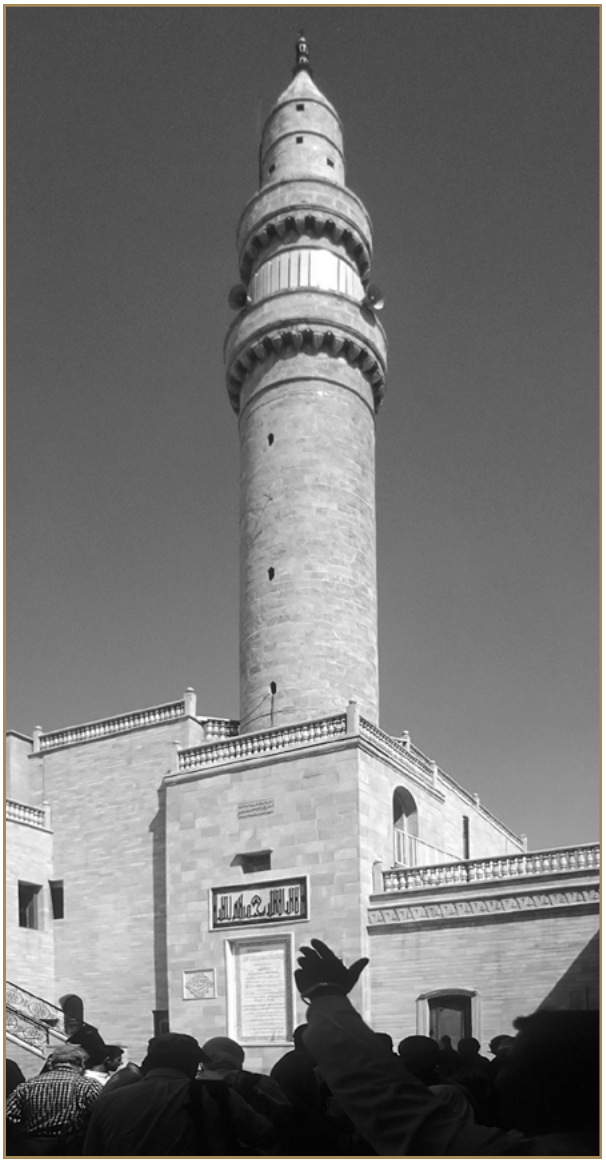
ومنها نوع آخر، هو عبارة عن بناء مســـتدير الشكل؛ محلى بزخارف جصية ينتهي بقبة مضلعة نصف كروية.

وهذا النوع ليس به دورات يشرف منها المؤذن للنداء، بـــل تنتهي بردهة ترتكز على أضـــلاع المئذنة، ولها كوات أشـــبه بنوافذ الدور، لكنها صغيرة الحجم، وهي تســـتعمل للإضاءة، فإذا صعد المـــؤذن درج المئذنة وانتهى به الصعود إلى أعلى جزء منها حتى قارب فوهتها- ظهر برأســـه مناديًا بالأذان دائرًا بدوران المئذنة.

ومثل هذا النموذج المناري، نجد مجموعة وافرة منه في جوامع الأقطار الإســـلامية النائية، فيما وراء النهر؛ إلا أنها تختلف اختلافًا يسيرًا بحسب طابعها الخاص.

وفي جاوة الشرقية نجد المآذن مستديرة ذات أضلاع متراصة تبدو كبيرة، ثم تصغر كلما ارتفعت، ثم تنتهي بقبة مرتكزة على بـــدن المئذنة، ومن هذه القبـــة يطل المؤذن بالأذان من نوافذ مفرقـــة، في كل ركن من أركانها وبأعلاها طائرة من خشب، تقوم مقام الهلال في المآذن الأخرى.

وأظهر مثال لهذا الطرز نجده في مئذنة جامع سلاغور؛ بالملايو من بلاد جاوة الشرقية.



مئذنة جامع النبي يونس بنينوى

والمـــآذن في الموصل تكاد تكون نســـخة من الفن العثماني، أي أنها أســـطوانية الشكل ملساء، تمتاز بقصرها عن المآذن التركية، وبقصر قبتهـــا؛ وأظهر مثال لهذا النوع نراه في مئذنة جامع النبي يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بنينوى.

وفي اســـتطاعتنا أن نقول بعدئـــذٍ: إن كل مملكة من ممالك الإسلام لها فن خاص طبع بطابعها، لا يمت إلى الفن الآخر بصلة، إلا بحكم الظـــروف والمقتضيات؛ ففيها قد يتأثر فن بآخر.

كما تأثرت العمارة الهنديــة بالفن الفارسي، ويبدو ذلك التأثير واضحًا في مآذن مسجد دلهي، التي يبلغ طول إحداها ثمانين مترًا، وحجارتها من المرمر الأبيض؛ والحجر الرملي الأحمر، وفي مآذن ضريح تاج محل .

وكمــا تأثرت بعض مبــاني العمــارة الفاطمية بالفن الفــارسي أيضًا، فإنــك ترى على بعض عقــود هذه المباني مســحة من الفن الفارسي بادية للعيان، وفي بعض المآذن؛ كمئذنة مسجد الأفضل شاهنشــاه بن أمير الجيوش بدر، ذات القاعدة المربعة والشــكل المستدير الكروي، والغطاء الجميــل الذي يغطي رأس قبتها، كما تأثــرت مآذن مباني قوصون الناصري بهــذا الفن أيضًا كمــا قدمنا، بل مآذن الناصر محمد.

وقد يكون الفــن الوحيد الذي لم يتأثر بأي فن آخر هو الفن المغربي، الذي هو نسخة كاملة من الطرز الأندلسي المتمايز.



منارة ضريح تاج محل بالهند



مئذنتا جامع خالد بن الوليد بحمص



مئذنة قايتباي بالحرم النبوي

وإذا ذكرنا الفن المغربي فإنمـــا نقصد به بلاد المغرب الأقصى؛ فاس ومراكش والدار البيضاء وتازا وسلا والصويرة والجديدة ورباط الفتح، وتلك الرقعة التي تظلل عليها راية الدولة العلوية. أما في المغرب الأدنى والأوسط فقد غزاها فن آخر من الأســتانة وغيرها، إلا ما كان من جامع حمودة باشا ذي الوجهة العربية الجميلة الشاهقة، وإلا ما كان من تونس وتلمسان؛ فإن فنهما لا يزال متماسكًا رصينًا.

وقــد يكون نظام بنــاء المآذن للمســاجد الجامعة وغيرها، في بلاد الشام، والقدس، والجزيرة العربية واليمن- متأثــرًا بفنون أخرى؛ كالمماليكي، أو الأيــوبي، أو العثماني، أو غير ذلك. كما نرى في مآذن المســاجد بصنعاء من بلاد اليمن، وفي مئذنة جامع خالد بن الوليد بحمص.

مآذن الحرم النبوي

وفي مآذن مســاجد المدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام، وهي خمس، ثلاث منها في الجهة الغربية؛ واثنتــان في الجهة الشرقيــة، وأولاهما مصرية إســلامية صميمة، وفي مآذن بيت المقدس؛ كمئذنة العواتكة المربعة الجميلة، ومئذنة باب السلسلة.

مآذن الحرم المكي

وفي مآذن الحرم المكي وهي سبع مآذن[1]:

الأولى: منارة باب العمرة، أنشأها أبو جعفر المنصور (١٤٠هـ/ ٧٥٧م)، وفي سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م) جددها الأمير

(١) تمت إعادة بناء المآذن السبع بعد التوسعة السعودية الأولى على نسق ما نراه اليوم، ثم تمت إضافة مئذنتين أُخْرَيَيْن طبق الأصل للمآذن السابقة في التوسعة السعودية الثانية لعام (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م)، ليصبح إجمالي عدد مآذن المسجد الحرام تسعًا.

محمد الجواد ابن علي بن منصور الأصفهاني؛ وزير الموصل، ثم جددها الملك الظاهر جقمق في سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م).

الثانية: منارة باب الزيادة، أنشأها المعتضد العباسي سنة (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، ثم جددها الأشرف برسباي سنة (٨٣٨هـ/ ١٤٢٤م).

الثالثة: منارة السلطان سليمان، بين باب السلام وباب الزيادة، وهي مؤلفة من ثلاث طبقات.

الرابعة: منارة باب السلام، أنشأها المهدي العباسي سنة (١٦٤هـ/ ٧٨٠م)، ثم تهدمت فأعاد بناءها الناصر فرج بن برقوق سنة (٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، ثم جددها الظاهر جقمق في سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م).

الخامسة: منارة السلطان قايتباي، أنشأها على عقد باب مدرسته التي أنشأها بمكة بتاريخ سنة (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)، وباب هذه المنارة منفصل عن المسجد الحرام مما يلي المسجد، خلافًا للمنائر الأخرى، وهي ذات ثلاث طبقات، على طراز منائر مصر في هذا القرن المزدهر بالفن المعماري.

السادسة: منارة باب علي، أنشأها المهدي العباسي المذكور، ثم جدد أسافلها الملك الظاهر جقمق في سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، ثم هدمها السلطان سليمان، وأعادها على طراز المنائر التركية، وجعلها بدورين؛ كمنارة المدرسة السليمانية.

السابعة: منارة الحزورة أو منارة باب الوداع، أنشأها المهدي العباسي سنة (١٦٤هـ/ ٧٨٠م)، ثم جددها الأشرف شعبان بن حسين ملك الموصل في سنة (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م)[(١)].

والمآذن في يوغسلافيا، أو بلاد البوسنة والهرسك، كما كانت تعرف في العهد الإسلامي من الطرز العثماني المحض، وتتألف من طابق أو أكثر؛ كمئذنة مسجد سراييفو، ومئذنة مسجد الغازي خسرو باشا ذلك المسجد الفخم؛ الذي تتجلى فيه آيات الفن العثماني المتمايز بأظهر مثال؛ وهو من منشآت الأمير المذكور في سنة (٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م)، وقد ذكرنا نبذة عنه في كتابنا هذا مع بعض منظوراته.

والمآذن في حلب وما جاورها تكاد تكون من فن عثماني ومن غيره، يستثنى من ذلك مآذن جامع الوليد بدمشق، ومئذنة الجامع الأموي بحلب[(٢)]، وهو الجامع الذي أنشأه سليمان بن عبد الملك، الذي تولى الحكم بعد أخيه الوليد. وقد أراد ببنائه محاكاة جامع أخيه بدمشق، فيقال إن هذا الجامع كانت له مئذنة لا تعادلها مئذنة أخرى.

(١) عن الإصلاحات المعمارية للمماليك في المسجد الحرام، انظر: عمر بن محمد النجم بن فهد، **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شلتوت، مطبوعات جامعة أم القرى ([مكة المكرمة]: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ١٩٨٤)؛ محمد بن أحمد بن محمد النهروالي، **كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، تحقيق: هشام عبد العزيز (مكة المكرمة: المكتبة التجارية، ١٩٩٦)؛ علي بن تاج الدين السنجاري، **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم**، تحقيق: جمال عبد الله المصري ([مكة المكرمة]: جامعة أم القرى، ١٩٩٨).

(٢) وهي ذات بدن مربع كما شاع في العصر الأموي، وقد سقطت هذه المئذنة مؤخرًا عام (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٣م)، جراء الاعتداءات الغاشمة من قبل قوات النظام السوري على مدينة حلب.

وذلك على اعتبار أنها أول وآخر مئذنة بنيت بالخرسانة المســـلحة في الإسلام، أي بتلك المادة التي لم يهتدِ إليها فن المعمار الحديث إلا منذ ربع قرن، بينما اهتدى المســـلمون إليها من أربعة عشر قرنًا مضت.

وقد كان لهذه المئذنة على ما ذكر ١٧٤ درجة، ولو شـــاء الله أن بقيت هذه المئذنة لتضاءلت أمامها كل مئذنة يعجب بها علماء الآثار اليوم.

أمـــا المئذنة الحالية التي تقوم على أنقاض هذه المئذنة، فهي عبارة عن بناء مربع مســـتطيل، يبلغ محيطه حوالي ٢١ ذراعًا، وارتفاعه مـــن أرض الجامع إلى موقف المؤذن حوالي ٥٢ ذراعًا، ومن موقف المؤذن إلى القبة حوالي ٧ أذرع. وهذه المئذنة على شـــكلها الذي توصف به تشـــبه من وجه مئذنة جامع المنصور قلاوون بمصر.

بل نستطيع القول بأنها نسخة منها، ولا نعجب لذلك؛ إذ الآمر ببنائها وإشـــادتها إنما هو ذلك الســـلطان؛ في سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، وهي السنة التي أنهى إليه فيها حاجة هذا الجامع إلى التعمير، فرســـم بتعميره وتجديده، وقد أفصحت المذكـــرات التاريخية التي يتحلى بها ذلك المســـجد في أكثر من موضع- عن ذلك. وقد سبق لهذا الملك أن جدد بمدينة بعلبك جامعها الأعظم في ســـنة (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، وجعل له مئذنة تحاكي هذا النموذج القـــلاووني، أو تقرب منه، ومن المآذن التي تسترعي النظر بهذه المدينة:



مئذنة الجامع الأموي الكبير بحلب

مئذنة جامع الملـــك الصالح أبي الفداء إســـماعيل، المنشأ سنة (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، ثم جامع الظاهر بيبرس الأول البندقداري المنشأ سنة (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، مع أنه متخرب.

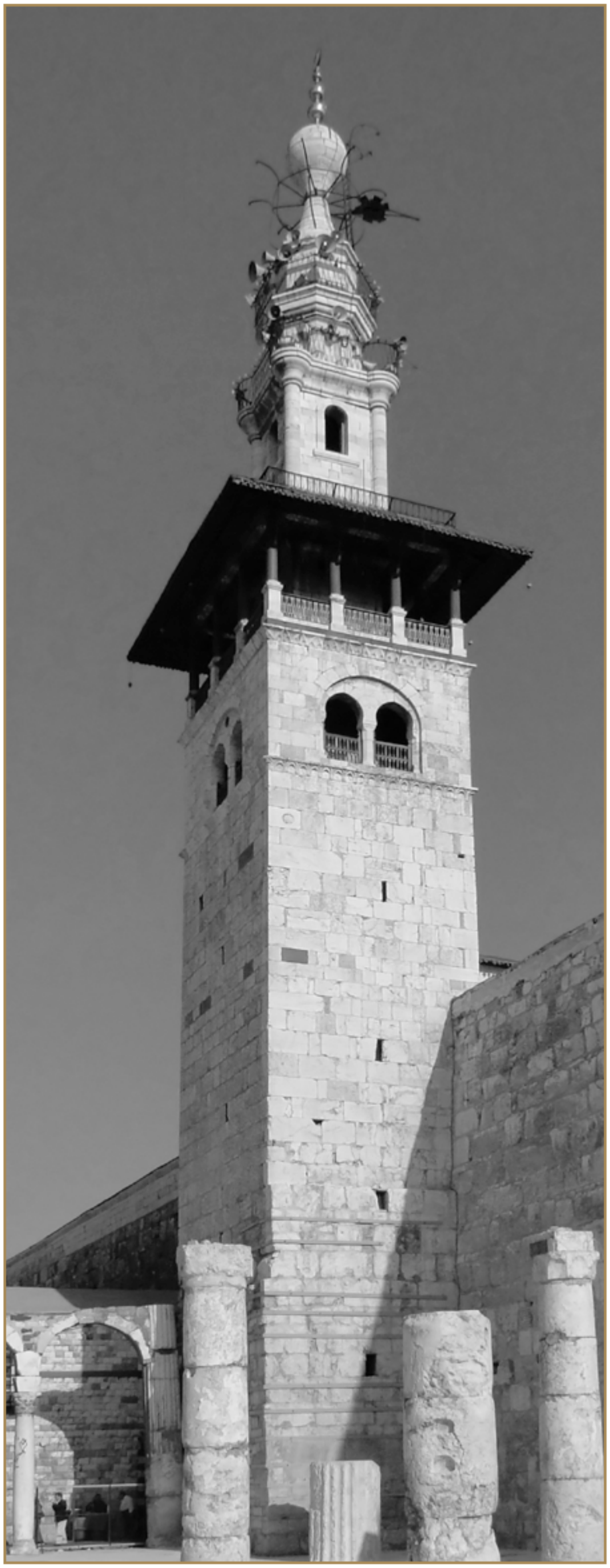
ومن المـــآذن التي تلفت النظر في حلـــب، البالغة في الهندســـة مبلغًا عظيمًـــا، مئذنة جامع حســـن من بلباي

المهمندار، التي شيدت في أواسط القرن السابع، وهي تمتاز بصناعتها الدقيقة، وبميلها الغريب.

الفن الأموي في بناء المآذن

وقـــد يدفعنا هذا إلى القول بأن الفـــن الأموي في بناء المـــآذن كان له طابع خاص، وهندســـة خاصة بلغت أرقى ما وصل إليه المهندس الإسلامي من براعة في الفن وأناة واختبار وحسن اختيار؛ فإنا نرى في المآذن الأموية، الماثلة أمامنا اليوم، بالأندلس والقيروان والشام- ميزات لا تتوفر في غيرها.

فالمتأمـــل في هـــذه المئذنة المتقدمة، ومـــآذن الجامع الأموي بدمشـــق[1]، وغيرها مما نحتفظ به لهذه الدولة التي

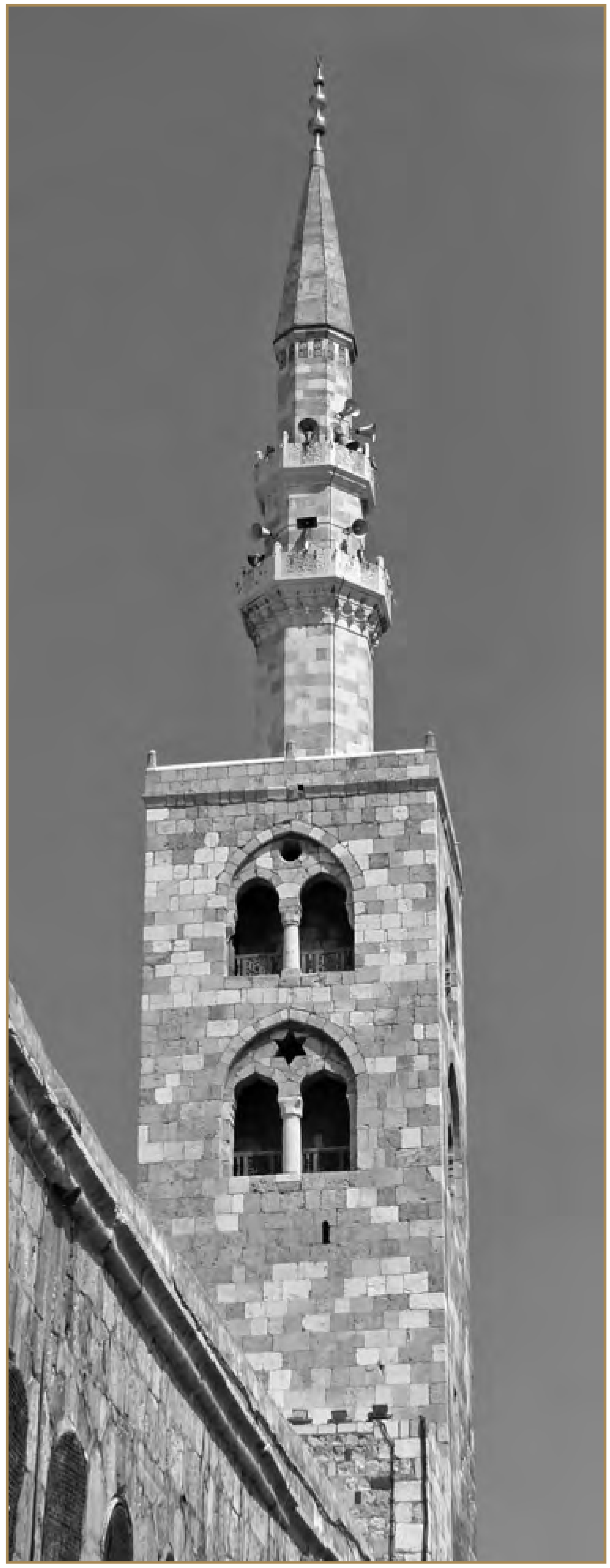


مئذنة العروس بالجامع الأموي بدمشق

(١) كان الجامع الأموي بدمشق كنيسة قبل الفتح الإسلامي، ولما ظهر المسلمون تحول نصفها إلى جامع، وظل الأمر كذلك إلى أيام الوليد بن عبد الملك الذي ضم أرض الكنيسة وبنى على الأرض كلها الجامع الأموي الكبير عام (٨٦هـ/ ٧٠٥م)، ولم يبقَ في المسجد من الكنيسة سوى الجدران وأساس الصومعتين الأماميتين، وكان بالزوايا الأربع قبل أن تصير جامعًا أربع صوامع، فتهدمت الصومعتان الشماليتان قديمًا ولم تجددا وبقي أساسهما، ولما بنى الوليد الجامع رفع فوق الصومعتين الأماميتين المئذنتين الغربية والشرقية، وبنى مئذنة وسط الجدار الشمالي وهي مئذنة العروس، التي احترقت في حريق مدرسة الكلاسة في المحرم عام (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) فجددها السلطان صلاح الدين. أما المئذنة الشرقية فبنيت في الزاوية الجنوبية الشرقية للجامع، ويطلق عليها مئذنة عيسى، وهي أطول مآذن الجامع إذ يبلغ ارتفاعها (٧٧م/ ٦٩٦م)، وترجع بعض المصادر إلى إعادة بناء الجزء السفلي المربع منها إلى القرن التاسع الميلادي، أما الجزء العلوي والذي يتنافر هندسيًّا مع الجزء السفلي فهو مثمن الشكل عثماني الطراز. أما المئذنة الغربية فعرفت بمئذنة قايتباي، الذي أعاد بناءها عام (٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م)، وهي مثمنة الشكل تنقسم إلى ثلاثة أجزاء، انظر: علي الطنطاوي، **الجامع الأموي في دمشق** (جدة: دار المنارة، ١٩٩٠): ٣١-٣٣، ٤٦، ٤٧.



مئذنة قايتباي بالجامع الأموي بدمشق



مئذنة عيسى بالجامع الأموي بدمشق



مئذنة باب الأسباط بالحرم القدسي الشريف



مئذنة باب السلسلة بالحرم القدسي الشريف

ملكت أوسع بلاد الله تعالى- يجد أنها وفقت توفيقًا كبيرًا في هندسة مبانيها إلى حد يفوق الوصف، ويبلغ الإعجاب.

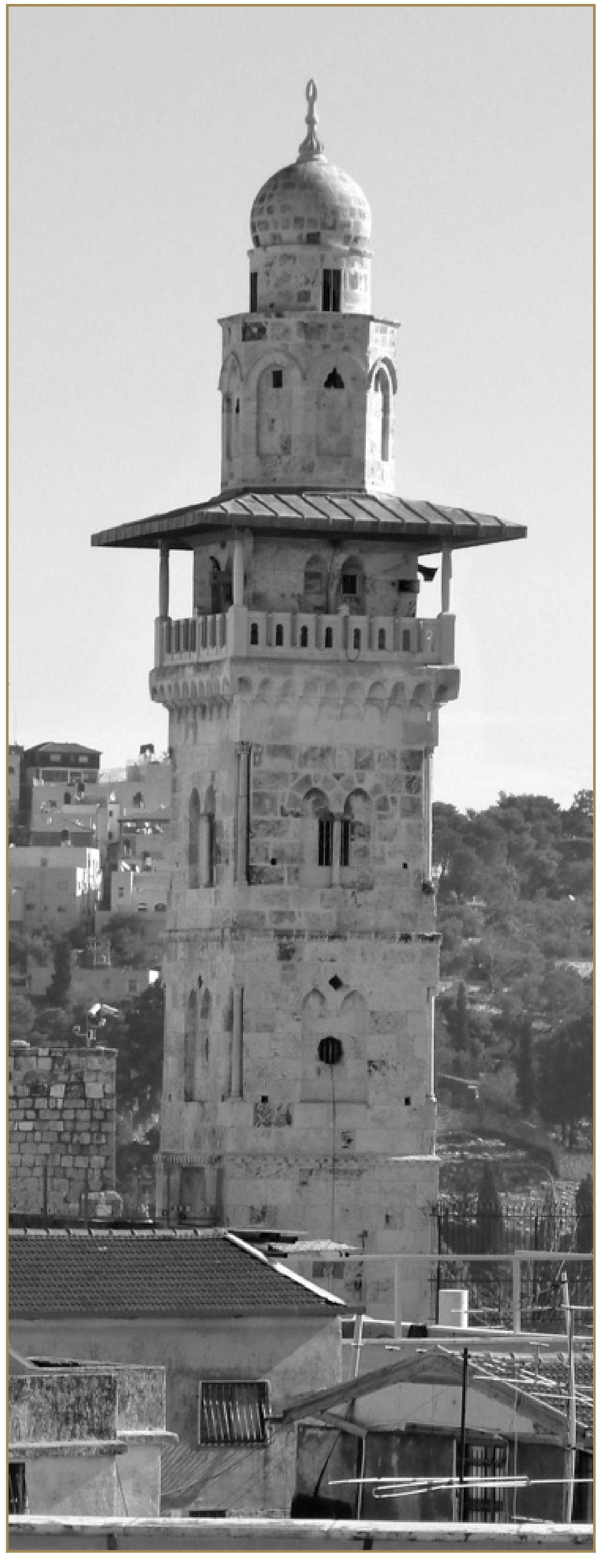
وليس أدل على ذلك من آثارها البادية للعيان إلى الآن؛ بذلك الفردوس المفقود، وبمدينة دمشق قاعدة ملك الدولة الأموية.

وبالرغم من أن هذه الآثار قد فقدت صبغتها الأولى بما طرأ عليها من تقلبات الظروف، فإنها مازالت تحتفظ بثوبها الجميل؛ بعناية الملوك الذين تعاقبوا على ديارهم، وقاموا بتعاهد هذه الآثار والمحافظة على هندامها.

ولدينا من الأمثلة على ذلك منارة العواتكة القائمة بالحرم القدسي؛ فإن هذه المئذنة رغم حدوثها بعد ذهاب دولة الأمويين بحقبة طويلة من الزمن، فإنها تكاد تكون مصطبغة بمسحة من فنهم[1].

وهي- وإن كانت أقل سنًّا من مئذنة الجامع الأموي بدمشق- لها ميزة خاصة؛ جعلتها تبدو كالعروس محلقة في الفضاء.

والمتأمل في قاعدة هذه المنارة يجد أن مهندسها الإسلامي، قد تأثر نوعًا ما بقاعدة مئذنة جامع الوليد، وإن



مئذنة باب الغوانمة بالحرم القدسي الشريف

(١) للمسجد الأقصى أربعُ مآذن تأثرت جميعها بعمارة المآذن في العصر الأموي، خاصة القائمة بالمسجد الأموي الكبير بدمشق، رغم أنها قد أحدثت في فترات تاريخية متأخرة في العصر المملوكي، وأغلب الظن أنه يقصد بمنارة العواتكة المنارة التي تقع في الركن الشمالي الغربي للحرم الشريف، بجانب باب الغوانمة، تم بناؤها في عهد السلطان حسام الدين لاجين (٦٩٦هـ-٦٩٨هـ/ ١٢٩٧م-١٢٩٩م)، على يد القاضي شرف الدين عبد الرحمن بن الصاحب، الذي أشرف أيضًا على بناء مئذنة باب المغاربة، كما تم تجديدها في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في نفس تاريخ إنشائه مئذنة باب السلسلة، وقد عرفت مئذنة باب الغوانمة أيضًا بمنارة قلاوون.

خالفه في الجزء العلوي منهــا، الذي يتألف من قبة صغيرة ذات نوافذ وقاعـــدة مرتفعة. بينما الجزء العلوي من مئذنة جامع الوليد، يبتدئ بمربع ثم بمســـتدير تعلوه القبة، وتجد نفس هذا التأثير في منارة باب السلســـلة، المشيدة في سنة (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م).

بالرغم من أنها لم تبلغ في الرشاقة والانسجام ما بلغته منارة العواتكة.

المواد المعمارية للفن المناري في الإسلام

وإذ قد أبدينا رأينا في هذا البحث وقاربنا أن نصل به إلى الختام، فحقيق بنا ألا نترك الإشـــارة إلى المواد التي كانت تستعمل في عمارة المآذن من صدر الإسلام إلى الآن.

أما في صدر الإسلام فأقرب مثال لذلك مئذنة القيروان، التي توصف بأنها أول مئذنة بنيت بالحجر بطريقة هندسية، يكاد الناظر إليها يخيل إليه أنها من لبن، لا من حجر.

والواقع أننا إذا اعتبرنا أن هذه المئذنة كانت نموذجًا من مساجد الإسلام السابقة عليها- أمكننا أن نقول: إن المآذن في عهـــد النبوة وما تلاه من عهود أخرى كانت تبنى بالحجر، لا باللبِن ولا بغيره. وهذا الاعتبار يدحض القول السائد بأن المآذن في صدر الإسلام كانت تبنى بمواد غير حجرية. ومهما يكن من الأمر، فإن مـــآذن مخلفات الأمويين في الأندلس والشام، والعباسيين في بغداد- جاءت صريحة في ذلك.

تأسيس مدينة القيروان

والقـــيروان هي المدينة التي أسســـها عقبة بن نافع في سنة (٥٠ من الهجرة/ ٦٧٠م)، فكانت هي قاعدة بلاد إفريقيا الشـــمالية قاطبة على عهده وعهد الأمويين والعباسيين، ثم على عهـــد الأغالبة، وما برحت كذلك إلى أن بنى عبيدُ الله المهـــدي مدينـــة المهدية، ونقـــل إليها مصالـــح الحكومة ودواوينها في سنة (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م).

وقد استمرت القيروان على ضخامتها حتى عهد المعز ابن باديس الصنهـــاجي؛ ثم تناقصت أهميتها السياســـية؛ وما برحت أن تصاغـــرت المدينة بانتقـــال عاصمة الملك منها إلى حـــاضرة تونس على عهد الموحديـــن والحفصيين. ومن القيروان ســـافر طارق بن زياد لفتح الأندلس ســـنة (٩٢هـ/ ٧١٠م)، ومنها ســـارت كتائب الجيش الإسلامي عن طريق سوسة لفتح جزيرة صقلية «سيسيليا» بأمر زيادة الله الأغلـــبي، وبقيادة قاضيها أســـد بن الفـــرات عام (٢١٢هـ/ ٨٢٧م)، بحيث كانت القيروان في أواخر القرن الأول قاعدة مملكة كـــبرى، تمتد من جنوب فرنســـا إلى بلاد برقة. وفي القرن الثالث والرابع وأوائل الخامس كان ســـلطانها يمتد على الجزائر وتونس وطرابلـــس وصقلية ومالطة وجزء من سردانيا وبعض جهات إيطاليـــا الجنوبية، ولو لم يكن من جامعها اليوم لكانت هذه المدينة العظيمة نسيًا منسيًّا.

وعلى نســـق مئذنة القـــيروان بنيت مئذنة المســـجد الأعظم بصفاقس في حوالي سنة (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)، وهي ذات طابق واحد؛ بخلاف مئذنة القيروان ذات ثلاث الطبقات.

وقد لا نخرج عن جادة الحق، إذ قلنا إن المهندس الذي وضع تصميم مئذنتي جامـــع الحاكم قد تأثر في قاعدتهما إلى حد ما بهندســـة هذه المئذنة، كما يبدو ذلك من اتساع مبدأ القاعدة ثم تصاغرها حتى موقف المؤذن فأعاليها.

وقد استعمل الحجر في بناء المآذن، مع الآجر في بعض الأحيان، واســـتعمل العباســـيون الحجر في بعض مآذنهم،



مئذنة الجامع الكبير بصفاقس



مئذنة جامع عقبة بن نافع بالقيروان

والأمويــون كذلك، ونقله إلى مصر أحمد بن طولون في بناء مئذنته، وهــذا أول نقل له، والثــاني كان في مئذنتي جامع الحاكم، كما قدمناه.

ثم شاع بعد ذلك استعمال الحجر في بناء المآذن، وراج بخاصة في عهد الدولة المنصورية وما بعدها.

وبينما نجد شيوع اســتعمال الحجر في بناء المآذن في مصر، تجده في الأقطار الشرقية أيضًا؛ فقد اســتعمل الحجر في بنــاء المآذن، وأكثر ما كان يُســتعمل منه في القاعدة أي الجزء الأســفل من المئذنــة، أما الجزء العلــوي منها فكان يبنى من الطــوب الأحمر أي الآجر؛ كمآذن جامع عمرو في بادئ أمرها، وبعض مآذن الجامع الأموي بدمشق في وقت ما، خلا الجامع الأموي بحلــب؛ فقد بنيت مئذنته بالحجر والحديد، كما قدمنا.

ولعل هذه أول مئذنة وآخرها بنيت بالمسلح، لكنا وجدنا مئذنة أخرى بنيت بنفس هذه المادة، غير أنها بنيت في وقت متأخر عن مئذنة سليمان بن عبد الملك، وهي مئذنة جامع القرويــين بفاس؛ فقد تناهى أحمد بن أبي بكر الزناتي عامل بني زناتة على المغرب، فبناها بالحجر وبالحديد، ثم غشاها بعد ذلك بصفائح النحاس الأصفر، وذلك بعد هدم المنارة الأولى، التي شيدت في سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) بنفس الجامع.

ويقول مؤرخو الغرب بأن أحمد المذكور أمر أن تجعل سعة كل وجه من هذه المئذنة ٢١ شبرًا، وجعل بابها من جهة القبلة؛ وبنى بأعلاهــا قبة، وتحتها قبة أخرى لجلوس المؤذنين، وجعل على كل منها مزولة وأسطرلابًا، وجعل عدد درجاتها ١٠٠ درجة، وتم العمل فيها في شهر ربيع الأول سنة (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م).

وقــد بقيت هــذه المئذنة على هذا الوصف إلى ســنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، وفيهــا احتاجــت إلى بعــض الإصلاح والترميم، فرممت وبيض أعلاها بالجص والجير، بعد انتزاع الصفائح النحاســية عنها، ثــم إعادتهــا بصفائح أخرى، وأصلحت آلة التوقيت وغرفتها.

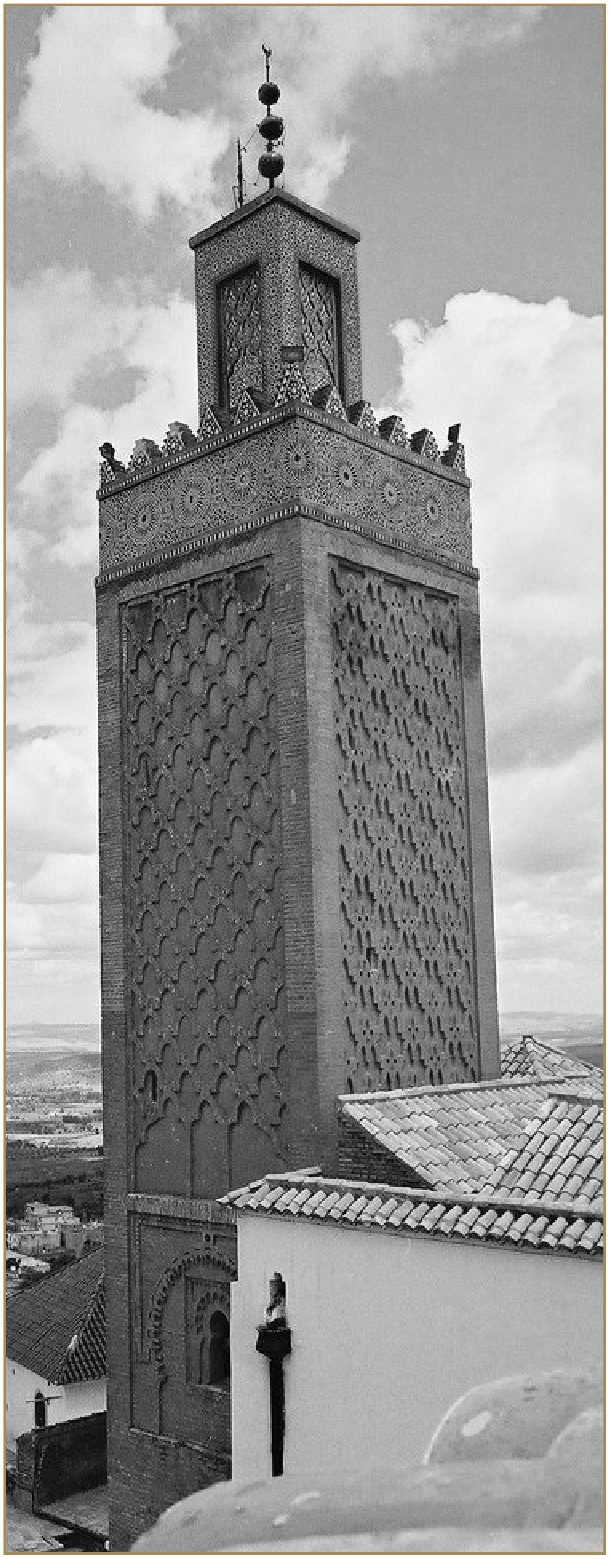
وأحســن المآذن الحجرية في مصر الإســلامية ما بني منها في القرنين الثامن والتاســع، فإنها مع رشاقتها تجدها في غاية الانسجام وحســن الوضع، تشهد للمهندس المسلم المصري بتفوقه وبراعته في هذه الصناعة.

واحتذت مصر ببعض الأقطار الإســلامية الأخرى في تغشية المآذن بالفسيفســاء الملونة المنقوشة أو بغيرها، كما نــرى في مئذنة بيبرس الجاشــنكير (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، ثم في المآذن الأخرى التي احتذت بها في هذه الظاهرة.

واســتعملت بلاد المغرب هذا الغشاء أيضًا في المآذن وغيرهــا، وأظهر مثــال لذلك نراه في مئذنة جامع ســيدي «أبي مدين» بتلمســان، المغشاة بطبقة من القاشاني الأخضر والأزرق الجميل، كقبته سواء بسواء، وكمئذنة جامع مدينة المنصورة، التي بقي منها جــزء يبلغ ارتفاعه حوالي أربعين مترًا، ويتحلى بمجموعة كبيرة من القاشــاني منقطع النظير؛ وهي مربعــة ككل المــآذن المغربية، إلا أنهــا تصرح بفنها صراحة تدعو إلى التأمل والإعجاب بالمهندس المغربي.

وقد اســتعملت نفس هذه الطريقــة في بعض المآذن والقباب الإسلامية في مصر.

واستعمل المهندس المسلم في مصر الرخام في المئذنة، لتطعيم دورتها ولإقامة ســواري الطابق الأخير منها لوضع القبة عليه، وقد سبقه إلى هذا الاستعمال المهندس الشامي



مئذنة جامع سيدي بومدين بتلمسان

في عهد بني أمية. فقد وصف المؤرخون مئذنة الجامع الأموي الذي شيده سليمان بن عبد الملك في سنة (٩٦هـ/ ٧١٤م) بالرحلة من القدس- أن قبتها كانت محمولة على أساطين مخروطة من الرخام، وأن بدنها كان محلى بمجموعة وافرة من أعمدة الرخام المخروطة الصغيرة، وكانت هذه الأعمدة تتكئ على بدن المئذنة، وقد قصد منها الحلية والزينة. ونستطيع أن نجد لدينا من هذا الطرز نماذج في بعض المآذن التي بنيت في القرن التاسع؛ كما في مئذنتي جامع الظاهر أبي سعيد جقمق، بدار النحاس بالفسطاط[1] ودرب سعادة بالقاهرة، وقد هدمت الأولى في أواخر ربيع الأول سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، إلا أن هذه الأساطين استعمل فيها الجص بدل الرخام. واستعمل الخشب والقصب في بناء المآذن وقد كان لدينا نموذجٌ من هذا النوع، في مئذنة أم خوند فاطمة بنت قانباي العمري، لكنها ما لبثت أن احترقت منذ القرن العاشر، ولعل هذا هو السبب في عدم شيوع هذا النوع من المآذن؛ اتقاء ضرره. كما استعمل أيضًا في عواليها كغطاء لبدن المئذنة، واختص هذا الاستعمال بالعصر التركي، كما نرى في مئذنة جامع الجنرال سيف، المعروف بسليمان باشا الفرنساوي بالفسطاط بشارع عمرو بن العاص، وكمجموعة المآذن العثمانية التي من هذا الطرز في مصر وغيرها، وبالعكس من ذلك في استعمال الخشب، كدرابزينات لدوائر المآذن. وهذا الاستعمال شاع في وقت مبكر في مصر، ولدينا منه نماذج كثيرة في المآذن ذات القاعدة المربعة.

وقد زاد عدد المآذن في المساجد إلى أكثر من واحدة، منذ فجر الإسلام وضحاه؛ فقد بنى عثمان بن عفان بالمسجد

---

(١) تم هدم هذا الجامع عند حفر نفق الملك الصالح بمصر القديمة.

النبوي أكثر من واحدة، وتلاه الوليد بن عبد الملك فيه وفي جامع دمشق والقدس وحلب وغيرها.

واستعمل المهندس المغربي في ترتيب المآذن بالمسجد نظامًا عجيبًا، إذ جعل بالإيوان الشرقي ثلاث قباب؛ اثنتين توازي إحداهما الأخرى، والثالثة وسطى تخص المحراب، وتصغر في الحجم عنهما، ونظير ذلك؛ جعل في الإيوان الغربي مئذنتين تقومان بطرفيه القبلي والبحري، وجعل الصحن فارقًا بينهما. وقد نقل مهندس جامع الحاكم هذا النظام إليه، ونقله ابن الطولوني مهندس الخانقاه البرقوقية إليها ببعض تغيير طفيف.

أما في المسجد النبوي، وأما في الحرم المكي، فقد كان نظام وجود المآذن فيهما يقتضي أن يكون في أربعة أركان المسجد؛ وأن يكون هناك مئذنة يقال لها الرئيسية، وكانت هذه المئذنة الرئيسية تقتدي بها المآذن الأخرى في النداء بالأذان، وتقام عادة في منتصف الإيوان الغربي؛ وعلى هذا النظام بنى مسلمة المسجد الجامع بمصر، وبنى أحمد بن طولون مسجده كذلك.

وبنى الناصر حسن جامعه بهذا النظام أيضًا، وبنى ملوك الدولة العثمانية أغلب مساجدهم، بأكثر من مئذنة بنظام يتجلى فيه الذوق العثماني. وبعض المآذن يبلغ في الارتفاع مبلغًا عظيمًا عن سطح الأرض؛ كمئذنة جامع سوسة بإفريقيا، التي يقال إنها أعلى مآذن العالم، حتى إن الواقف عليها يرى من مسافة بعيدة البحر والسفن تسير على ظهره، كما يراها من مسافة قريبة، ولهذا فقد استعملت هذه المئذنة في يوم ما منارًا عامًّا لكشف السفن، التي ربما تدخل لغرض من الأغراض الدولية.

المآذن في البيوت

واستعملت المآذن أو ما يشابهها في عوالي الدور، وشاع هذا الاستعمال في الأندلس في عهد الأمويين وما بعده، وانتقل منه إلى المغرب وعرفته أوروبا بعد ذلك، وانتقل منها إلى مصر في عهد قريب(١).

الفن الإسلامي المغربي في هندسة المباني

وليس الغرض من هذه المآذن أو البروج - كما يسميها الحسن الوزان الغرناطي المعروف بليون- للأذان، وإنما القصد منها لترويح النفوس باستنشاء النسيم للنساء، على اعتبار أنهن كن في ذلك العصر قواعد بيوت فجعلت هذه لرياضتهن. أما الآن فقد يكون الغرض منها للزينة وحسب، إذ قد أصبح للنساء منتديات أخرى للرياضة وغيرها، ويصف ليون المذكور بيوت مدينة فاس بما خلاصته: «ودور هذه المدينة مبنية بالآجر أي بالطوب الأحمر والحجر المتقن، وأكثر مرافقها منمقة بالزليج «الفصة»، وسقائف أبوابها مفروشة بالآجر المتنوع الألوان المزين بنقوش على شكل أوانٍ مزوجة». «هذا النوع من التجميل يسمى عند أهل فاس اليوم بالبجماط المزوج».

والسقف مزينة جميعها ومزخرفة بالليقة الذهبية والفضية. وتنقسم الدور فيها إلى قسمين شتوية وصيفية؛ فالصيفية يجعلون فوقها سقائف من خشب، في كل سقيفة عدد من الكوات يمكن تغطيتها بستائر إذا دعت الحال.

وتتألف كل دار من طبقتين أو ثلاث، وفي كل طبقة أروقة يزينها جملة من الدعائم والأقواس، وسقف هذه الأروقة مزينة بالليقة الفضية أو الذهبية، ولكل دار منها

(١) لعل المؤلف يقص الأبراج الملحقة بالقصور.

بهو مكشوف يكتنفه جملة من الأروقة المغطاة بسقف مزركشة، ويسلك من هذه الأروقة إلى قاعات متعددة، لكل قاعة باب محلى بالزخارف والنقوش، وفي داخل كل بيت خزانة من أرفع أنواع الخشب؛ منها ما يستعمل لإيداع الملابس ونحوها، ومنها ما هو على صفة أسرّة.

ولكل باب من أبواب الدار سقيفة تحمل على دعائم من الآجر، نصفها مزلج ومنها ما تحمل على عمد من المرمر، ويكتنفها أقواس مزخرفة بالزليج «الفصة». وطبقات الدور تحمل على قناطر خشبية من الخشب المحلى بحشوات مزخرفة منمقة ملونة على نمط معجز، وهذه القناطر تحملها سَوارٍ.

ولكل دار عدة صهاريج «مواجل» مستطيلة الشكل، عرضها خمس أذرع في اثنتي عشرة ذراعًا وعمقها أربع أقدام، وليس عليها سقف وجميعها مزلج، وفي جهتي الصهريج حوضان منخفضان منمقان بالزليج، وفي وسط كل من هذين الحوضين خصة من رخام منحدر؛ منها الماء إلى الحوض وينصرف نحو الصهريج في قنوات حوله، وإذا طفح الماء نزل من جهات الصهريج إلى مصارف أخرى حوله، ومنها إلى قنوات أخرى تنتهي بوادٍ في نفس الدار، وبأعلى كل دار بروج مرتفعة فيها غرف منمقة تصعد إليها النساء لترويح النفس إذا أعيتهن أعمال المنزل، ومن أعلى هذه البروج يمكنك أن تشرف على منظر المدينة كله.

وهذا الوصف الذي يتحفنا به ليون في بناء الدور بالمغرب يجعلنا نتذكر تلك البروج أو المآذن التي أنشأتها بعض الشركات الأجنبية في مدينة واحة هليوبوليس «مصر الجديدة» فيما أنشأت بها من دور وعمارات.

وقد يوجد مثلها في دور القاهرة، إلا أن هذه وتلك لم يراعَ فيها الميزة التي ذكرت في هذه الدور المغربية، فهي كما قلنا للزينة؛ إذ إنها ضيقة وليست لها غرف، ولم تبلغ في الاتساع والارتفاع ما بلغته هذه المآذن، كما أن في هذا الوصف أيضًا نوعًا من الفن لا أعلم له نظيرًا في دور أية مدينة أخرى، وهو تلك القناطر التي تحمل طبقات الدور، ولا أذكر أني شاهدت شيئًا من هذا في دور القاهرة. أما تلك الأسرة المودعة في الخزائن فهي فكرة سبق بها المسلمون النظامَ الأوروبي في تأثيث المنازل.

ولو أننا تساءلنا: هل هذا الفن البديع في بناء الدور في المغرب ما زال إلى اليوم أو أنه باد؟ فالجواب أن أظهر مثال لهذا الوصف يتجلى في أغلب منازل الأعيان من أهل فاس، أخصها بالذكر دار الأستاذ الكتاني المبنية على نمط معجز يدهش الألباب، وإن ما فيها من دعائم وأقواس وعقود وزخارف وفسيفساء وأبهاء وأروقة ونوافر ومواجل وشرفات؛ وما إلى ذلك، ليجعلها تحفة فنية رائعة، أما في مكناس فثمة قصر الستينية الذي لا يعادله قصرٌ اليوم، ثم قصر النصر وكلاهما من إنشاء المولى إسماعيل، وثمة من الدور والقصور المغربية التي تعد تحفًا رائعة في الفن الإسلامي ما لا يمكننا استقصاؤه في هذه العجالة.

الفن المغربي في مصر الإسلامية

وجدير بنا ونحن نذكر هذا القصر أن نذكر قصر الأمير محمد علي باشا[(١)] ولي عهد المملكة المصرية الذي شيده في حوالي سنة (١٣٤٢هـ)، فهو نموذج كامل من الفن المغربي؛

(١) يطلق عليه قصر المنيل، وهو يقع بجزيرة الروضة النيلية، وتحول الآن إلى متحف المنيل، وتعلو مدخل القصر عبارة :«أنشأ هذا القصر الأمير محمد علي نجل المغفور له محمد توفيق؛ إحياء للفنون الإسلامية وإجلالاً لها، ابتكر هندسة البناء وزخرفته سمو الأمير، وقام بالتنفيذ المعلم محمد عفيفي، وتم ذلك عام ١٣٤٨ من الهجرة»، انظر عنه: شيرين فوزي عبد الرحمن، **قصر** =

فجدرانه وجامعه ومناره وأبوابه وما إلى ذلك من مرافقه قد داخلها ذلك الفن بوضوح، وأظهر مثال لذلك منارة المسجد التي تشـبه مآذن المغرب الأوسط، مع أنها قليلة الارتفاع، ثم بابه الذي أسس على نسـق باب جامع الحلوي بتلمسان سواء بسـواء، ويظهر لي أن الأمير قد تأثر بالفن المغربي في إثر رحلاته إلى بعض جهات إفريقيا الشمالية.

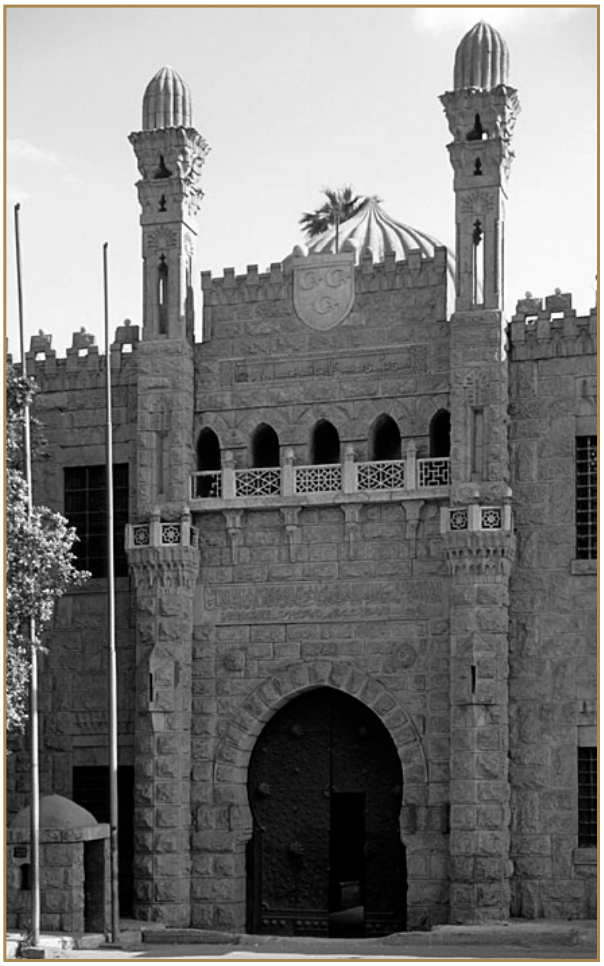
وقد رأيت في ترجمة- رحلتـه المطبوعة [ص ٣٩] إلى إفريقيا الشـمالية سـنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) - ما يعزز هذا الرأي ويصوب هـذه النظرية. إذ يقول: «ثـم مررنا بجامع سيدي الحلوي فوقفت أدقق النظر في بابه الكبير؛ لأنه كان نموذجًا للبـاب الذي عند مدخل قصري في القاهرة، وذلك طبقًا لصورة فوتوغرافية لهذا الباب».

ثم لدينا قصرٌ آخر أندلـسي الطرز، مغربي الفن لحمة وسـدى، يتجلى للرائي بجماله الطبيعي، وهذا القصر أدخلته إلى مصر دولة محترمة من الدول المعاصرة، وهي دولة فرنسا، وجعلته قصر وزيرها المفوض بشارع ما بظاهر القاهرة. وهو قصر فخم جمع إلى الطرز الأندلسي الذوق العصري، ويشبه بعـض الدور التي تزدان بها مدن المغـرب الحديثة، كفاس الجديد والدار البيضاء «كازابلانكا» والرباط وغيرها .

وقد وضحنا بكتابنا هذا أن الفن المغربي الإسـلامي سـبق دخوله هـذا التاريخ إلى مـصر؛ فقـد أدخله إليها الفاطميون في عصور مبكرة، وأنشـأوا آثارهم بالقاهرة على النمط المغربي، فظهر هـذا الفن بالقاهرة ظهورًا جليًّا حتى بعـد زوال دولتهم، كما نرى في مباني دولة المماليك الأولى، ولدينا من ذلك أمثلة كثيرة، سنذكرها بَعْدُ إن شاء الله.



السفارة الفرنسية بالقاهرة



مدخل قصر المنيل بالروضة

= **الأمير محمد علي وملحقاته بجزيرة الروضة**: دراسة أثرية معمارية (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة. كلية الآثار، ٢٠١٠).

الفن الإسلامي في بناء البيوت والغرف والقصور

لم يطالعنا التاريخ بأمة حازت قصب السـبق وبلغت مبلغًا عظيمًا في الفن المعماري خاصة، كالأمة الإسـلامية؛ فقد سجل لها التاريخ وأبقى الزمن من آثارها ما هو أصدق شاهد وأوضح دليل على ذلك.

ولكي نستطيع الوقوف على هذا التقدم الذي أحرزه المسلمون في هذا المضمار، ينبغي أن نقدم بين يدينا صورة سريعة من حالة هذا الفن قبل الإسلام حتى يتبين لنا الفارق العظيم، والبعد الشاسع بين هذا وذاك.

كانت العرب – كما هو معروف – قبائل يقوم معاشـها على رعي السـائمة، والصيد والقنص والسـفر والجولان؛ طلبًا للمرعى، وسـعيًا للتجارة وما إلى ذلك. فكانت هذه الضرورة التي لجأوا إليها في معاشهم تحتم عليهم ألاّ يتخذوا هذه القصور الباذخة والدور المنمقة المنسقة، التي شادها المسلمون بعد، وزادوا عليها تلك المساجد الفخمة والآثار العظيمة.

فلم يكن للعربي إذ ذلك غيرُ بيت متنقل، يحمله في ظعنه وينصبه في إقامته، وقد اتخذه مما خف حمله حتى يسـتطيع نقله من بلد إلى آخر.

وكانت قبائل العرب تختلف في اتخاذ مواد ذلك المأوى المتنقل عن بعضها؛ فاتخذه بعضهم من جلد الحيوان وسموه «القشع»، قال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكًا:

ولا بَرَمًا تهُدى النساءُ لِعْرِسِهِ
إذا القشعُ مِنْ بَرْدِ الشتاءِ تَقَعْقَعَا

واتخذه آخرون من مدر «قطع الطين اليابس» وسموه البيت، قال أبو البقاء في الكليات: «البيت اسم لسقف واحد له دهليز، والمنزل اسم لما يشتمل على بيوت وصحن مسقف ومطبخ يسكنه الرجل بعياله، وإن كان البيت من كُرْسُفٍ؛ أي قطن- فهو سرادق».

وقد ذكرت البيوت في كتاب الله تعالى بمعانٍ مختلفة.

فذكرت بمعنى المساجد في قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾[١]، وبهذا المعنى نفسه، في آية ١٢٥، ١٢٧ من سورة البقرة[٢].

وبمعنى النزل أو الفنادق، في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ سورة النور[٣].

وبمعنى مدارس للتعليم، في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ ﴾.[٤]

وذكرت بمعنى بيوت السكنى في أكثر من آية كريمة؛ منها في سورة يوسف، والنور، ويونس.

ويقال في الدار إنها التي تجمع إلى عدة بيوت ومنازل، فيها حجرات وغرف ومرافق كاملة.

وخصها القرآن الكريم بالأحياء أو المناطق، كما خصص كتاب الله تعالى والسنة الصحيحة المنزل بالمكان الذي ينزل فيه القوم؛ ومنه بيت الآخرة؛ أي القبر.

ومن بيوت العرب أيضًا الخباء، وهو يصنع من صوف الشاة؛ والبجاد ويصنع من وبر الإبل، والفسطاط وقوامه شعر الماعز. وقد تتعذر إقامة هذه البيوت إلا لمن يملك قطيعًا من الشاة والإبل والماعز، ليستطيع أن يصنعها من الصوف والوبر، إلا أنه يؤخذ من كتب اللغة أن بيوت الأغنياء في الجاهلية كانت من الأديم، والشاعر القديم يقول:

رأيتُ بني غبراءَ لا يُنكرُونني
ولا أهلُ هذاكَ الطرافِ الممدَّدِ

يريد الشاعر أنه يعرفه بنو الغبراء؛ أي الفقراء، والأغنياء أصحاب الطراف. وكانت القبائل التي تنزل قريبًا من الغابات والأحراج والمروج والغياض- تستعيض عن عمل بيوتها من أديم الحيوان وصوفه بعيدان الأشجار وأغصانها، بدليل أن الخيمة في اللغة هي كل بيت مستدير يبنى من عيدان الشجر، ويلقى عليه الثمام «ضرب من النبات» وكذلك الحظيرة، وهي بيت يصنع مما تفرق من أغصان الشجر.

ومن القبائل من اتخذوا بيوتهم من اللبن وعرفوه باسم الكبة، وربما أخذوا صناعة البناء باللبن أو بالحجارة

---

(١) «سورة النور»، الآية ٣٦.

(٢) ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة/ ١٢٥]، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، [البقرة/ ١٢٧].

(٣) «سورة النور»، الآية ٢٩.

(٤) «سورة الأحزاب»، الآية ٣٤.

المسماة بالأقنة- عن العرب المتحضرين من أهل اليمن، أو النازلين في العراق ومشارف الشام.

ومنهم من اتخذه من حجر وسماه قباء؛ ويجمع على أقبية؛ وإن كان من شعر فهو مظلة، أو من أدم فهو طراف وقبة.

وعقر الدار «أصلها»، وباحة الدار أو ساحتها «قاعتها» وتسمى المحراب لوجوده فيها، والجناب والوصيد «فناؤها»، وهو أيضًا الباب: يقال أوصدت الباب إذا أغلقته، والبهو الفضاء المتسع في البيت ويقال النهو، بالنون، والنهو هو أيضًا الغدير، والغرفة البيت ذو الطبقات، كما في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[1].

والصرح البناء المرتفع، وبناء مشيد بفتح الميم المطلي بالشِّيد وهو الجصُّ، والمشيد بضمها المرتفع، يقال: شيدت البيت إذا عليته.

والمشربة الغرفة للمسافرين، والحجرة محل البيت، والشرفة هي الكبوة الكبيرة، والبلاط الأرض المستوية الملساء التي تفرش في الدار.

وقد كانت مكة المكرمة حافلة بالبيوت الفاخرة، وكان أهلها متمتعين بالحضارة تحت زعامة قريش سادة العرب وحكمائهم، وكذلك كانت يثرب «المدينة المنورة» وبعض مدائن أخرى. فإن أهلها أقاموا البيوت الوطيدة من الحجارة أو الآجر أو الخشب. أما اليمن فقد كانت من أعظم البلاد حضارة وعمرانًا، وكانت حافلة بالمدائن الكبرى والقرى والدساكر والمزارع؛ مثل مأرب وسبأ ومعين وصرواح ونجران وصنعاء وشبوة وشبام وتريم وظفار وريدان ويثبل والسوداء وحيران ويافع وغيرها، مما أخنى عليه الدهر فصار قاعًا صفصفًا قبل أن يظهر الإسلام ويعظم شأنه.

ولقد أنبأنا التاريخ أن اليمن كانت في أزمانها العريقة في القدم تقسم إلى محافد، والمحفد إلى قصر، والقصر حصن يحيط به الأعوان والخدم، شأن حكومات بابل، وهو أشبه شيء بحكومات الإقطاع في أوروبا خلال القرون الوسطى. ويعرف صاحب المحفد بلفظ «ذو» ويضاف إلى اسم المحفد فيقال: ذو غمدان وذو ظفار، وهذه المحافد شبيهة من حيث بناؤها بالقلاع والهياكل.

ولقد كانت المدن الكبرى تحتوي على قصور كثيرة وهياكل فخمة البناء باهرة الزينة؛ ذكرها استرابون وبالغ في وصف حسنها، و قال: «إنها تشبه القصور المصرية».

وأعظم المدائن اليمنية مأرب أو سبأ، وهي مستديرة الشكل يحيط بها سور له بابان، أحدهما شرقي والآخر غربي، وفي وسطها آثار هيكل فخيم البنيان؛ يعرف بهيكل سليمان، وفيها يقول أحد الشعراء:

أَمَا تَرى مَأربًا ما كَانَ أَحْصَنَهُ
وما حَوَالَيْه مِنْ سورٍ وبُنْيانِ

ويستدل من كلام المؤرخين وأقوال الشعراء على وجود مبانٍ ضخمة من الرخام؛ كقول علقمة:

ومِنّا الذي دانتْ لَهُ الأَرْضُ كُلُّها
بِمَأْرِبَ يبني بالرخامِ دِيارا

وقال غيره:

ومَأربُ قَدْ نَطَقَتْ بالرّخامِ
وفي سَقْفِها الذَّهَبُ الأَحْمَرُ

(١) «سورة الزمر»، الآية ٢٠.



أطلال سد مـأرب باليمن

أما غمــدان فقد ذكر أنــه محكم البنــاء عجيب الارتفاع ذو سبع طبقات، وفيه ما لا يوصف من الزخارف والصناعات الغريبة، ووصفــه الهمذاني، فقال: إنه عشرون سقفًا، غرفًا بعضها فوق بعض، بين كل سقفين عشر أذرع، ومما قيل في وصفه:

يَسْمُو إلى كَبِدِ السَّماءِ مُصعّدًا
عِشْرينَ سَقْفًا سُمْكُها لا يُقصرُ

ومِنَ السَّحابِ مُعَصّبٌ بِعمامةٍ
ومِنَ الغَمامِ مُنَطّقٌ ومُـؤَزَّرُ

متلاحكًا بالقطرِ منهُ صخـرة
والجَزْعُ بين صُروحِه والمرمـرُ

ولأهل اليمن قديمًا- مهــارة في صناعة البناء حيرت النقابين مــن الفرنجة، ولهم غير الحصــون والهياكل كثير من المباني العظيمــة المحكمة الصنع. وقد أقاموا في بلادهم لغزارة المــاء ولزومها لأحيــاء الزراعة، فلــم يتركوا واديًا يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد، ولذلك تكاثرت الأودية حتى تجاوزت المئات.

وأعظم ســدود بلاد العرب وأشهرها سد مأرب أو سد العَرِم[1]، وقصعان وريوان وقتاب وشــحران وطمحان. وقد

(١) هو أقدم السدود المائية المعروفة؛ إذ يرجع تاريخه إلى نحو القرن الثامن قبل الميلاد، تقع أطلاله قرب مدينة مأرب الأثرية في اليمن، وقد أطلق عليه سد العَرِم نسبة إلى اسم السيل الذي =



أطلال بصرى الشام



أطلال إيوان كسرى بالمدائن

روى المؤرخون والمستشرقون أنها من أجمل ما صنعت الأيدي. وغني عن البيان أن بني غسان من العرب نزلوا مشارف الشام وتسربت إليهم الحضارة من الرومان، فشيدوا المدن الكبيرة والقصور الفاخرة والحصون المنيعة، وكانت عاصمتهم «بصرى» في حوران المعروفة الآن «باسكي شام»؛ ولا تزال أنقاضها بادية للعيان، تشهد لهم بما بلغوه من الإحكام في صناعة البناء، وشادوا كثيرًا من القصور والديار، وبنوا القناطر وأصلحوا الصهاريج. ومما ينسبون بناءه إليهم قسطل بالبلقاء، وفيها يقول كُثير:

سَقَى اللّهُ حيًّا بالموقَّرِ دارُهُمْ
إلى قَسْطَلِ البلقاءِ ذاتِ المحاربِ

ومن القصور الشهيرة صرح الغدير، والقصر الأبيض والقلعة الزرقاء، وقصر المثنى، وقصر فرعون، وقصر بلقيس

= دمره كما ورد في القرآن الكريم؛ فكان انهيار ذلك السد سببًا مباشرًا لهجرة الكثير من القبائل العربية من اليمن؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ/ ١٥-١٧].

بصنعاء، وإيوان كسرى بالمدائن، ومعبد رمسيس الثاني بأبي سمبل بمصر، وقصر إبريم، وشاذروان تستر، وقصر بهرام جور بهمذان، وقصر قرميس، وحصن بعلبك إلى مبانٍ أخرى[١].

الفن الإسلامي وفضله على العالم

هذه صورة مصغرة أريناكها عن حال الفن المعماري قبل الإسلام. فلما جاء الإسلام بخيره وبره، وزحف كماته وأبطاله يفتحون الأرض بطولها والعرض، وينشرون فيها لواء العدل والسلام- تطور هذا الفن تطورًا بلغ القمة؛ فتناهى المسلمون في زخرفة مبانيهم وتعليتها تعلية مناسبة، فكانوا يشيدون الدور على نظام محكم وأساس متين، ويبلغون بها ست وسبع طبقات؛ وكانوا يزينونها بالأغصان والثمار، ويطلون جدرانها بالألوان الزاهية والكتابات العربية من كتاب الله تعالى، أو من الحكم المناسبة، أو من غير ذلك.

وقد أخذت أوروبا هذه الظاهرة الفنية عن المسلمين في العصور الوسطى، واستعملوها في قصورهم ومعابدهم، وسموه «أراب سك»؛ أي الطرز العربي.

وقد نظر المسلمون في إقامة الدور والقصور نظرة بعيدة الغور، فراعوا في هندستها حالة الإقليم، فجعلوها منازل نزهة ذات قاعات ومشارب كبيرة، تطل على عرصات فسيحة، تغرس فيها الأشجار والرياحين وأزهار الزينة.

ناهيك بما كانوا يقيمون بها من الأروقة الفخمة العالية القائمة على أعمدة رقيقة من الرخام الأبيض، وما تحتوي عليه من الباحات الفسيحة ذات الجدران الرخامية المزينة بالآيات و الأشعار المرصوفة بالفصة.

وقد لا نستطيع الكلام على فن زخرفة الدور والمنازل ومبلغ ما وصلت إليه من العظمة التصويرية في الإسلام، وحسبنا ما يصف به الإمام الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دار محمد بن الحسن صاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة[٢].

وقد أسفر البحث والتنقيب عن أن معظم الدور الإسلامية التي كانت لطائفة من أعلام المسلمين وعلمائهم في الصدر الأول من الإسلام- كانت حافلة بشتى الرسوم والنقوش البديعة المختلفة الأشكال.

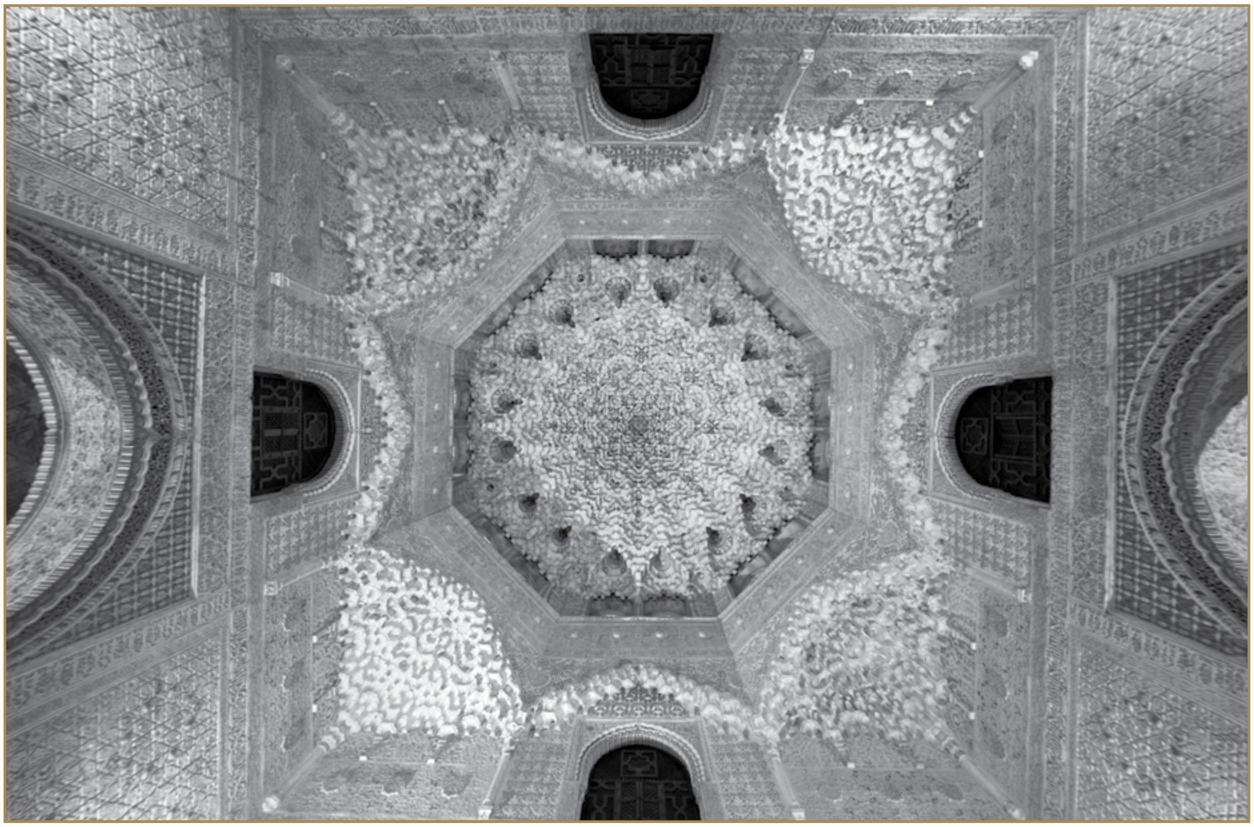
عظمة الفن الإسلامي في الأندلس

وابتنى الناصر في حاضرته الجديدة[٣] قصرًا منيف الذُّرى، ولم يدخر وسعًا في تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والإجلال، تَحُفُّ به رياض نضرة وجنان زاهرة، وأنشأ فيه مجلسًا ملكيًّا جليلاً سمي بقصر الخلافة؛ قد أزرت جدرانه بالرخام الملبس بالذهب، وفي كل جانب من جوانبه بالتماثيل والصور البديعة، وفي وسطه صهريج

(١) انظر تحفة الأحباب ونخبة الإعجاب لمحمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن الربيع الأندلسي الغرناطي [المتوفى سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)].

(٢) انظر رحلة الشافعي (المؤلف).

(٣) هي مدينة الزهراء التي ابتناها الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر على بعد ثلاثين كيلومترًا من مدينة قرطبة، بين عامي (٣٢٤-٣٢٨هـ/ ٩٣٦-٩٤٠م)، انظر مزيدًا عنها: أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب**، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ج.٢ (القاهرة، ١٩٤٩م): ١٠١ وما يليها؛ الشريف محمد بن عبد العزيز الإدريسي، **صفة المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشره: دوزي ودي غويه (ليدن، ١٧٦٦م): ٢١٢؛ السيد عبد العزيز سالم، **قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس**، مج. ٢ (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢): ٩ ومايليها؛ أحمد فكري، **قرطبة في العصر الإسلامي** (الإسكندرية، ١٩٨٣): ٢٠١ وما يليها.



سقف إحدى القاعات بقصر الحمراء على هيئة خلايا النحل

«ماجل» عظيم مملوء بالزئبق. وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة.

وأنشأ الناصر بالقصر مقعدًا بالجناح الشرقي، وقد عرف هذا المقعد بالمؤنس ونصب فيـه حوضًا، كان قد أهدي إليه من صاحب القسـطنطينية؛ وأقام عليـه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأفخر المرصع بأنـواع الجواهر الكريمة، تمثل فصائل من الطيور والحيوانات المختلفة؛ تقذف الماء من فيها إلى الحوض المذكور، بطريقة فنية تشهد للمهندس الإسلامي بالدقة والإحكام، وبعد الهمة في ابتكار هذا الفن العجيب.

وأنشأ الناصر أيضًا مسجدًا جامعًا عظيمًا، تم بناؤه في سنة (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)، وقد تناهى في زخرفته وتنميقه إلى حد كبير، وأقام به منبرًا من الرخام الملون المقطع بقطع هندسية بعضهـا مفرغ، والبعـض الآخر مرصع بأنـواع الأحجار الكريمة من جواهر وماس وغيرها.

وليست الزهراء وحدها هي مفخرة الفن الإسلامي، بل ثمة غرناطة، التي قامت فيها القلعة الحمراء،[1] وهي حصن حصين يسع أربعين ألف شـخص، وفيها داران عظيمتان؛ إحداهما تسـمى ساحة الأسود، سـميت بذلك لقيامها على

(١) انظر عن قصر الحمراء: محمد عبد الله عنان، **الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال** (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٢م): ١٨٤ وما يليها؛ واشنطن أرفنج، **قصر الحمراء في الأدب والتاريخ**، ترجمة: إسماعيل العربي (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٨م)؛ محمد عبد المنعم الجمل، «منشآت سلاطين بني نصر في قصور الحمراء»، **مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية**، المجلد الثامن والعشرين (مدريد، ١٩٩٦م)؛ **قصور الحمراء: ديوان العمارة والنقوش العربية** (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٤).



ساحة الأسود أو بهو السباع بقصر الحمراء بغرناطة

قاعدة تمثل اثني عشر أسـدًا من المرمر؛ وجميعها مبنية من الرخام والمرمر، ومزينة بأحسـن أنواع الزينة، والثانية دار ابن سراج، وهي أجمل من الأولى، وسقفها من خشب الأرز مرصع بالعاج والصدف والفضـة، وجدرانها مزينة بأجمل الألوان الـتي لم تزل على حالتها اللامعة الأصلية إلى اليوم، وفي إحـدى الدور العظيمة قاعـة تعلوها قبة. وكل حيطان القلعة الداخلية مزينة بالنقوش والفسيفسـاء. أما القباب فمصنوعة على هيئة خلايا النحل، وفيها يقول الرعيني:

رعـى اللهُ بالحمراءِ عيـشًا قطعتُـهُ
ذهبتُ به للأنـسِ، والليـل قد ذهبْ

ترى الأرضَ منها فضَّةً فإذا اكتسـتْ
بشمسِ الضُّحى صارتْ سبيكتُها ذهبْ

ومن مباني الأندلس المشـهورة قـصر طليطلة، وقد شـاده المأمون بن ذي النون، وهو في وسـط قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وقد فاض الماء على رأس القبة، قال أبو محمد البصري يصف البركة والقبة:

شمسيةُ الأنـسـابِ بَدريـةٌ
يحـارُ في تشبيهها الخـاطـرُ

كأنما المـأمـونُ بـدرُ الدُّجى
وهي عليه الفلكُ الدائـرُ

قرطبة

أما مدينة قرطبة التي هي من أهم مدن الفن الإسلامي في بلاد الأندلس، فهي ذات ماضٍ مجيد يتصل بأزهى عصور



جامع قرطبة

الإسلام في الأندلس؛ فكانت في أثناء الفتح الإسلامي عاصمة ملك الدولة الأموية، وكانت من المدن التي يحج إليها طلاب العلم من كل فج عميق، وقد احتلت من المكانة العلمية ما تحتله الآن لندن في أوروبا، والقاهرة في الشرق الأدنى، وطالما تغنى بها الشعراء، وأشاد بها الأدباء. وقد ظلت محتفظة بمركزها حقبة طويلة، شيد المسلمون خلالها من المباني الفنية ما بقي أثره إلى اليوم.

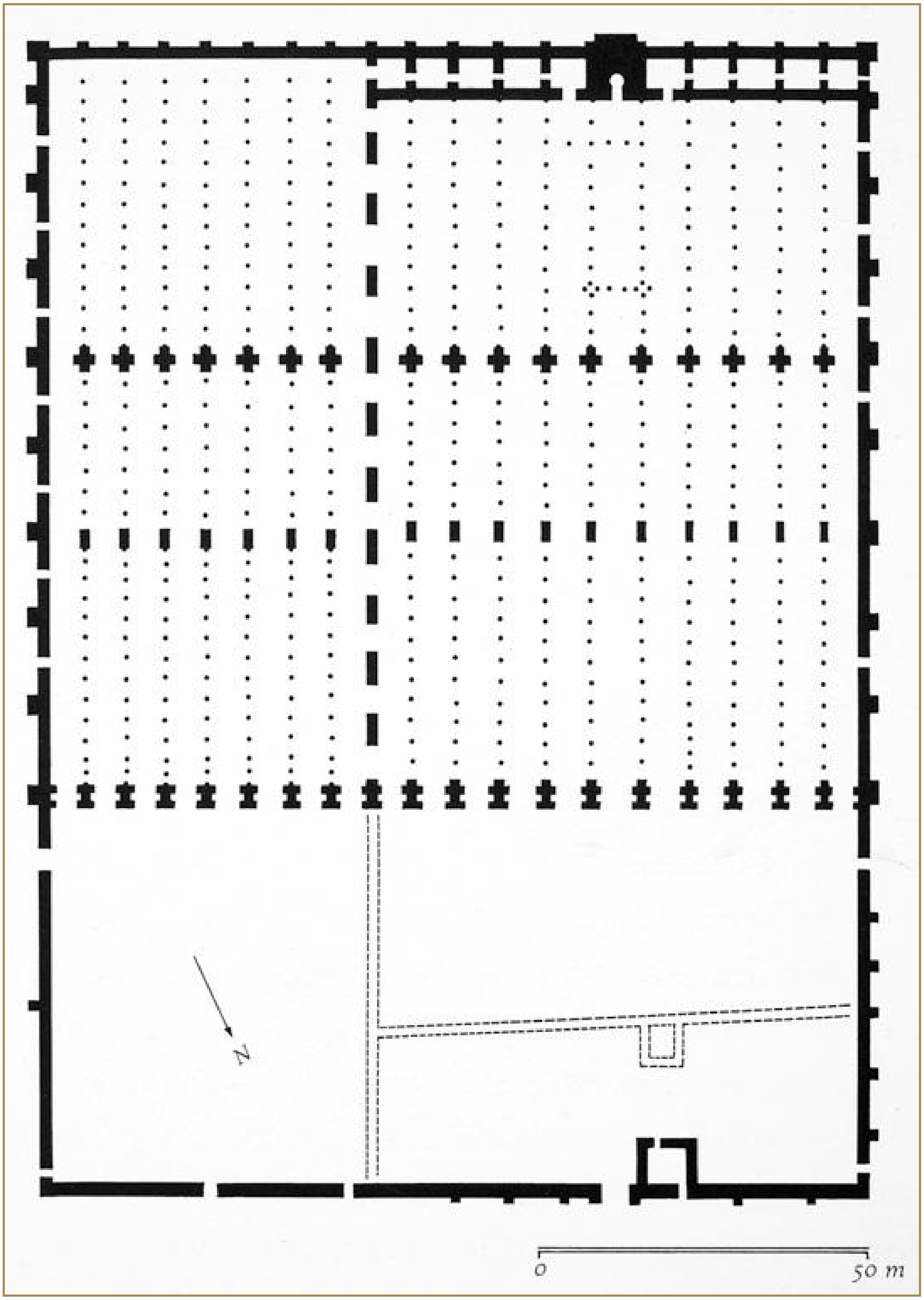
وقد كانت قرطبة منذ ألف عام هي المدينة التي طبقت شهرتها الآفاق، والتي سطعت شمس مدنيتها وثروتها مدى أجيال عديدة على كل مدن الغرب، ولم يضاهها في الشرق مدينة، حاشا المدينة الفاضلة في أزهى عصورها.

وهي المدينة التي كانت منهلاً للعلم ومعينًا للثقافة؛ لم تكن فقط مدينة العلوم والفنون، بل مدينة التجارة والصناعات.

ولولا مسجد قرطبة العظيم[1]، الذي هو أجمل وأعجب وأعظم آية من آيات الفن الإسلامي في الأندلس، لكانت قرطبة اليوم في زوايا الإهمال.

---

(١) انظر عن المسجد الجامع بقرطبة: الإدريسي، **وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق**، نشره: ألفريد ديسيه لامار مع الترجمة الفرنسية (الجزائر، ١٩٤٩م)؛ سالم، **قرطبة حاضرة الخلافة**، مج.١: ٣٥٩-٤٠٢؛ «العمارة الدينية في الأندلس»، **دائرة معارف الشعب** (القاهرة، ١٩٥٩): ١٠٦-١١٤.



تخطيط جامع قرطبة «عن مورينو»

قانون نظام المباني، مبدأ من مبادئ الإسلام، فكيف عملت به الأمة الإنجليزية ؟ !

وحقيق بي وأنا أعرض لقارئ كتابي هذا مبلغ نبوغ المسلمين في هذا الفن، وبلوغ هذه الصناعة عندهم مكانًا ساميًا حتى استطاعوا بذلك أن يدهشوا العالم أجمع بمخترعاتهم ومكتشفاتهم وعلو همتهم في هذا المضمار- أن أشير إلى حديث حضرة النبي ﷺ الذي يقول فيه: «ولا تُطِلْ عليه»، أي على جارك البناء فتحجب عنه الريح، وفي رواية أخرى: «ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه».

وهو في الكامل لابن عدي؛ عن عمر بن شعيب؛ عن أبيه، عن جده، وفي شعب الإيمان، من رواية بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، وقد سأل النبي ﷺ عن حق جاره عليه؛ فذكر له منه: «ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح».

هذا الحديث كان مبدأ عظيمًا لقانون نظام المباني في الإسلام، وقد عملت به الأمة الإنجليزية في هذا الوقت الحاضر، حينما اصطدم فريق منها بفريق آخر من كبار مهندسيها، في تطبيق نظام الأبنية العالية في لندن على لائحة المباني؛ وذلك رغبة في مجاراة نيويورك في إقامة العمائر المطرحات «ناطحات السحاب». وقد قام بين الفريقين احتدام ونقاش بلغ حد الإشكال، فأجمعت آراء الأكثرية على أن قانون نظام الأبنية بوجه عام يحرم تطاول البنيان تحريمًا مغلظًا؛ لأن أقل ما فيه إيصال الضرر للسكان الذين يقيمون في عمارات تحيط بهذه المطرحات، وقد تكون طبقاتها أقل بطبيعة الحال من طبقات العمائر العالية.

وحينئذٍ يترتب على ذلك للجار ضرر بليغ، أهمه حرمانه من الضوء والهواء، وقد كانت مشكلة بين كبار المهندسين عمومًا في إنجلترا، قام الناس لها وقعدوا، وقد أسفرت أخيرًا عن اتخاذ هذا الحديث الكريم الذي صدع به الناطق بالحق- مبدأ من أهم المبادئ التي يعتمد عليها في هذا الباب.

ولما وصلت هذه الدعوة إلى الدوائر العلمية في أمريكا هالها أن يكون في الشريعة الإسلامية ما يحل مشاكل العالم ويهديهم إلى أقوم الطرق، وبخاصة في هذا السبيل.

ولو كانت بلادهم ضيقة الأراضي وأغلب أراضيها محاطة بالماء، الأمر الذي يجعل للحكومة الأمريكية ندحة في الإكثار من إقامة تلك المطرحات «ناطحات السحاب» لحاجة السكان وسعتها بهم، لو كان ذلك لكانت أمريكا في طليعة الدول التي تضع هذا المبدأ النبيل موضع التنفيذ دون إبطاء، وبالرغم من هذا فإن وطأة إشادة هذه المطرحات في أمريكا قد خفت نوعًا ما، ثم أخذت تشق طريقًا آخر غير العلو.

وقد ظهرت آثار ذلك المبدأ النبيل في كل ما حدث من العمارات بعد ذلك التاريخ، وليس في أمريكا فحسب، بل في أوروبا جمعاء، ثم أخيرًا في مصر.

ونحن حينما نذكر ذلك لتقرير هذه الحقيقة، حريٌّ بنا أن نذكر أيضًا الحديث الآخر الصحيح الذي تمم به حضرة النبي ﷺ هذه المادة من قانون نظام الأبنية.

وقد جاء فيه مما يخص ذلك: «وترى الحفاة العراة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان»، في هذا الحديث الكريم جعل ﷺ الذين يتطاولون في البنيان، دون مرضاة السكان؛

إلى الحد الذي يسلكون به طريق الأذى إليه- من سفلة الناس وسوقتهم ووصفهم بالحفاة العراة رعاة الشاة؛ تنقيصًا لهم وإظهارًا لدناءتهم وخستهم، وكشفًا لحقيقة حالهم الذي كانوا عليه من قبل، ولأنهم من طبقة الرعاع ودهماء الناس؛ حقيقة لا مجازًا، وذلك لأنهم تعدوا مبدأ هو من أسمى المبادئ العمرانية، فضلاً عن أنهم ارتكبوا شططًا في معاملة الجار وغمطوا له حقًّا هو من أقدس الحقوق والواجبات.

وتالله لم يغالِ شراح هذا الحديث حينما ذهبوا إلى القول بحرمة النظر إلى الأبنية العالية على قاعدة تحريم النظر إلى محرم؛ لهذا المبدأ السامي وتلك الغاية النبيلة التي وضعها حضرة النبي ﷺ في هذه الناحية العمرانية.

فلينظر أولئك الذين يَغْمَطُون حق الإسلام، ويدعون إفكًا وبهتانًا أنه لم يحط بكل كبيرة ولا صغيرة ولا شاردة وواردة من الشئون العامة لهذه الحياة الدنيا، إنه أحاط بها إحاطة السوار للمعصم، ثم فصلها تفصيلاً دقيقًا بلغ حد الإعجاز؛ وذلك فضلاً عن إحاطته بالحياة الأخرى.

ثم لا يغيبن عن ذهنك أن حضرة النبي ﷺ قد جعل ذلك من علامات الساعة وأشراطها، تحقيقًا لقول الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ [يونس/ ٢٤]، فحضرة النبي ﷺ قد تنبأ بهذه النبوءة الصادقة تبعًا لمراد الله تعالى في آياته.

وإنك إذا أنعمت النظر الآن إلى الحالة العمرانية التي أخذتها الأرض بطولها والعرض- وجدت أن كل حرف كريم من هذه الآية قد تحقق بلفظه ومعناه؛ بصورة مكبرة، فالأرض قد زخرفت بهذه العمارات المتطاولة في كل بلد من بلاد الله، حتى لم تخل منها أي أرض، حتى الجبال صاروا ينحتون منها بيوتًا، في مصر وغيرها تحقيقًا لمراد الله. وهذا معنى الحديث في المعجم الكبير للطبراني عن سمرة، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها».

ومن الغريب أنك ترى الناس جميعًا قد نسوا الله واعتمدوا على أنفسهم أكثر من اعتمادهم عليه، والمتعلمون منهم تراهم يتشدقون بكلمة الاعتماد على النفس قبل كل شيء. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾، أي على شئون الحياة في حالة إنهم عاجزون حتى عن أقل ما فيها عجزًا كبيرًا. وفي هذا ما يفسر لك معنى قول حضرة النبي ﷺ «حفاة عراة»، دليلاً على ما انتابهم من الفوضى الأخلاقية التي أصبحوا يرتعون فيها، وقد يشملهم هذا الوصف حتى في المعنويات فضلاً عن الحسيات.

القواعد الصحيحة المتبعة في نظام الأبنية في الإسلام

وأراني إذ أذكر ذلك، أقول قد ثبت عنه ﷺ «كما في طبقات ابن سعد» أنه لما أقطع الدور بالمدينة خط لعثمان بن عفان داره.

ومعنى خط: أراه كيف يبنيها، وكيف يؤسسها على القواعد الصحيحة التي تكفل الراحة له وللسكان بعده.

وجاء في سنن أبي داود، أن النبي ﷺ كان كثيرًا ما يصدر المنشورات واللوائح «بواسطة المناداة – الإذاعة» للشعب بخصوص مراعاة نظام البناء وجعله على الطرق الصحيحة. ففيه أنه ﷺ بعث مناديًا «مذيعًا» في معسكره: أن من ضيق منزلاً، أو قطع طريقًا فلا جهاد له؛ وذلك لما ضيق الناس المنازل وقطعوا الطريق.

فتأمل كيف كان ﷺ يحب النظام العمراني حتى في حالة الحرب، فكيف لا يحب ذلك في حالة الأمن والسلام!

ثم تأمل كيف يقول ﷺ فيما أخرجه الإمام أحمد في المسند، والبيهقي في السنن، عن أبي عمران الجوني برجال ثقات-: «من بات فوق بيت ليس له أجار» وفي رواية أبي داود «حجار»، والمعنى واحد فيهما. والمراد به حاجز من البناء أو سور يحيط بالسطح من جوانبه الأربع؛ اتقاء الانحدار والسقوط للنائم فيه وغيره، «فوقع فمات فقد برئت منه الذمة»، وهذا الشطر الأول من الحديث. والثاني: «ومن ركب البحر عند ارتجاجه فمات فقد برئت منه الذمة».

ومعنى برئت منه الذمة - فيما نرى، والله أعلم -؛ أي أن الحكومة والأمة معًا في ذلك الوقت تكون في حل من الضمان المالي الذي يستحقه أولياء القتيل في مثل هذه الحالات.

وهذا بطبيعته لا يأتي إلا بعد تعليمات الحكومة للشعب بعدم سماحها للأفراد ببناء أسطحة لبيوتهم بغير حاجز.

وفي هذا ما يدلك دلالة واضحة على كيفية بناء البيوت النبوية، ويعرض لك صورة منها تريك مبلغ ما وصلت إليه من الأحكام والنظام، في الوقت الذي ينبه العالم أجمع فيه إلى ناحية عمرانية هامة.

الفن الإسلامي في هندسة المباني والطرق

وفي معنى ذلك ما يقوله بعض شراح السنن؛ لا يجوز لأحد تضييق الطريق التي يمر الناس منها، إذ أقل ما فيه نفي جهاد من يفعل ذلك؛ وإن جاء عن طريق المبالغة والزجر والتنفير. وكذلك لا يجوز تضييق المنازل لما في ذلك من الأضرار، كما أن حديثه ﷺ: «تنكبوا الغبار في الطريق، فمنه تكون النسمة»، فيه ظاهرة عمرانية لم يتفطن إليها العلم الحديث، إلا منذ نصف قرن. ومن ذلك كله تعلم أن ما تفعله مصالح التنظيم في مصر وغيرها من الدول المتمدينة؛ من توسعة الطرق والشوارع، وإيجاد ميادين عامة وأحياء صحية جديدة، وإنشاء الطرق وترصيفها وتعبيدها إلى غير ذلك، مما يوفر الصحة على الشعب- أمرٌ أتى به الإسلام ونصّ عليه. وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أيام خلافته حريصًا جد الحرص على إيجاد كل وسائل الراحة لشعبه؛ فقد جاء عنه أنه كثيرًا ما كان يرسل الأوامر لعماله في الأمصار بإصلاح الجسور والطرق[1].

عِلم حضرة النبي ﷺ بقواعد العمارة ونظام الأبنية

وأخرج ابن سعد في الطبقات في بناء البيت الحرام، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك اسْتَقْصَرُوا من بنيان الكعبة، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه، فهلمي أريك ما تركوا منه» فأراها قريبًا من سبع أذرع في الحجر. قالت: وقال رسول الله ﷺ في حديثه: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقيًّا وغربيًّا، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ فقلت له: لا أدري، قال: تعززًا ألا يدخلها إلا من أرادوا».[2]

وفي سيرة عثمان بن عفان، أنه كان بصيرًا بالبناء؛ عالمًا به، ويذكر عمار بن ياسر بأنه كان أول مهندس في الإسلام[3].

---

(١) انظر فتوح البلدان والخراج (المؤلف).

(٢) انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مج. ١: ١٢٢؛ وأورده: النويري، **نهاية الأرب**: ١٠٤.

(٣) انظر: كتب الأوائل (المؤلف).

وقـد نبغ مـن كبار مهنـدسي الصحابة سـعد بن أبي وقاص، كتب إليـه عمر بن الخطاب يومًا ما حينما كان يقوم بهندسـة أحد المباني-: «ابنِ ما يكفيك حَرّ الهواجر وأذى المطر».

وفيها الإشـارة إلى الشـئون الصحية الهندسـية. مما قـد تقدم ذكره عن رسـول الله ﷺ، ومنهم كرز بن علقمة الخزاعي؛ أحد أعلام تحقيق الشـخصية في العصر النبوي، وهو الذي تولى هندسة الحرم المكي في أيام معاوية[1]. ومنهم قيس بن طلق، وطلق بـن علي النجمي، وطلق آخر من بني حنيفة؛ من أهل اليمامة، وهو المذكور بأنه جاء إلى النبي ﷺ والمسـجد يبنى، وكان صاحب علاج طين وخلط طين؛ قال فأخذت المسـحاة أخلط الطين والنـبي ﷺ ينظر، ويقول: «إن هذا الحنـفي لصاحب طين»، ويقول: «قربوا اليمامي من الطين؛ فإنه أحسـنكم له مسگا وأشدكم منكبًا». ومنهم محمد بن أسد، وزيد بن واقد وغيرهم.

وإذا ذكرنا مهندسي الصحابـة وجب أن نذكر منهم في الرعيـل الأول عمر بن الخطاب؛ ففي سـيرته أنه لما أذن ببنـاء البصرة والكوفة أمر بأن تخط الشـوارع على عرض عشرين ذراعًا، والأزقة تسـع أذرع، والقطائع ستين ذراعًا، وأن يكون المسجد بوسط البلد؛ حيث تتفرع الشوارع من حـوله. وفيها أنه كان يراعي في نظام بناء الدور فتحَ شرفاتها وكواتها من الجهة التي يأمن معها الجار الستر عليه؛ حتى لا تجرحه عيون المتطلعين من الشرفات.

وقـد كتب بذلك إلى عمرو بن العـاص حينما بنيت الدور بالفسـطاط بعد الفتح: «أن ادخل الدار، وضع في كل حجرة من حجرها سريـرًا ثم اجلس عليه، فإن وقع بصرك من كواتها على دار الجار فهدها، وارفعها حتى لا تكشـف سـتر جارك». وقد اتخذ عمرو هذا مقياسًا يقيس به ونظامًا يسير عليه، حتى بنيت كل دور الصحابة بالفسطاط على هذا النظام. وفيها أيضًا صنيعه في الشام حينما دخلها في سنة (١٧ من الهجرة/ ٦٣٨م)، ورأى سـوء حالها العمراني، فأمر بتغيير مساكنها وسـد فروجها وجعلها في مستوى واحد، وترتيب خطط المدينة وبناء ثكنات للجيش، وبناء مصايف ومشاتٍ ومسالح، وتحسين مبانيها وتعبيد طرقها، إلى غير ذلك.

مما تقدم ذكـره هل يمكن أن نجد فارقًا بين ما يقرره حـضرة النبي ﷺ في لائحة المباني، ما يأمر به عمر في أوضاع الطـرق العامة، و ما تنص عليه لوائح المباني العامة في كافة الدول؟

هذه لائحة أوضاع الطـرق العامة تقول: «يجب أن لا يقل عرض الشارع المراد جعله طريقًا عامًّا عن ثمانية أمتار على الأقل، وإذا زاد طول الشـارع عـن ١٠٠ مترٍ فيجب أن يكون عرضه ١٢ مترًا، وإذا زاد طوله عن ٥٠ مترًا فيجب أن لا يقل عرضه عن عشرة أمتار».

ذلـك الذي تقوله اللائحة هو عين ما يقوله عمر، فإننا إذا اعتبرنا الذراع ٥٣ سـنتيمترًا على ما يقوله محمود باشـا الفلكي في رسالته، أو ٥٨ على ما يقوله غيره، ما وجدنا هنالك فرقًا يذكر، وعليه فقد بان لذي عين فضل الإسـلام وفضل رجاله، وبُعْدُ همتهم في هذا الفن.

وقد كشفت حفريات الفسطاط في هذا العهد الحاضر عن آيات بينات من هذا النظام المعجز، وقد كان المسلمون في سنة (٢١هـ) وما بعدها في مصر وغيرها يطرحون أبنيتهم، ولكن تطريحًا روعي فيه بكل دقة مصالح الجار وقواعد النظام العمراني التي رسـمها الإسلام. كما يظهر في البيوت

(١) انظر: فتوح البلدان للبلاذري (المؤلف).

التي اكتشفت بالفسطاط من هذا المعنى ما أخرجه الطبراني في الكبير، والسِّجْزي في الإبانة؛ وابن عساكر وابن أبي الدنيا، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عارًا ويكون الإسلام غريبًا، وحتى تبدو الشحناء بين الناس؛ وحتى يقبض العلم؛ وينقضي عمر البشر، وتنقص السنون والثمرات، ويؤتمن التهماء، ويتهم الأمناء، ويصدق الكذوب؛ ويكذب الصادق، ويكثر الهرج (وهو القتل)، وحتى تبنى الغرف (أي البيوت ذات الطبقات) فتطاول»... إلخ، ذلكم الحديث العجيب في ظهور أمارات الساعة، والمراد منه في هذا المقام فساد قانون تطاول البناء وظهور أثره السيئ في النظام العمراني.

وفي سيرة عمر أنه كان يقول: «لا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة». وكان يبعث إلى الناس ويقول: «لا ترفعوا بنيانًا فوق القَدْر، قيل وما القَدْر؟ قال ما لا يقربكم من السَّرَف، ولا يخرجكم عن القَصْد». وكان لا يعجبه التهاون في بناء البيوت إلى الحد الذي لا يجعلها متينة لا تصلح للبقاء مدة طويلة، وكان يقول في ذلك: «قد أكره إليكم البنيان بالمد «الطين»، فإذا فعلتم فعرضوا الحيطان، وأطيلوا السمك، وقاربوا بين الخشب»، ومن قوله أو قول غيره: سعة البيوت من الغنى وعلو الهمة.

ويؤلمني هنا ذلك الفريق من الناس الذين يدفعهم حب التقليد، أو الميل مع الضعيف من الأخبار وعدم التوسع والبعد في الفهم في التأويل- إلى القول: بأن بيوت حضرة النبي ﷺ كانت من الضيق بالمكان الذي يتعذر عليه فيه ﷺ إقامة طوله، أو تبسطه فيها، إلى غير ذلك.

هيهات ذاك، لقد بحثنا هذه القالة وفحصناها ومحصناها فلم نجد لها سبيلاً إلى الوثوق ولا مؤدى إلى الصحة. فالأخبار الصحيحة والآثار الواردة في هذا الصدد أفصحت بكل لسان: أن بيوت حضرة النبي ﷺ قد بلغت من السعة مبلغًا عظيمًا كان يدعو إلى التأمل.

فإن البيت الذي كان يجمع إلى سكنى حضرة النبي ﷺ وأهله، دارًا لضيافة الواردين الذين يفدون إليه عشرات عشرات كل غدوة وعشية، ثم مشافي، ومرابد، وفناء يسع رواحل الوفود[1]، ثم حظائر للنساء ورباطًا ومصلى لهن، ثم مقاعد؛ وزوايا للرجال يتعبدون فيها، يروحون فيها ويغدون بكرة وعشيًا، ثم باحات للاستقبال للعلم والمذاكرة والمدارسة، ثم أقبية ومتاحف للهدايا والآثار التي كان ملوك الدول المحيطة به يتقربون بها إلى حضرته، ثم غير ذلك من مرافق ومواصفات أخرى قد فصلناها تفصيلاً وأبناها تبيانًا في كتابنا هذا مما لا يدع للشك فيه مجالاً- إن البيوت التي كانت تجمع كل ما ذكر كيف تكون سعتها؟

ثم مالك البيت نفسه، الذي كان مبدؤه خير المنازل، ما سافر فيه البصر وفيه البدن، والذي كان من دعائه: «اللَّهُمَّ بارك لي في رزقي ووسع لي في داري»- الحديث- ، والذي جاءه خالد بن الوليد ذات يوم شاكيًا ضيق منزله، فقال: «ارفع البناء وسل الله العافية»، والذي مر ببنَّاء يبني بيتًا فرآه ضيقًا، فقال لأصحابه: وسعوه. الذي يكون هذا وذاك على أية صورة تكون بيوته؟

لعمر الحق ما كانت بيوت حضرة النبي ﷺ إلا منظرات عرفها الإسلام في ذلك الوقت المبكر قبل كل معرف، وسبق إليها قبل كل سابق، وما كانت إلا بيوتًا تتضاءل أمامها قصور الملوك، وقد روينا عن ابن سعد أنها كانت بيوتًا فيها حجرات لزوجاته ﷺ، لا كما يفهمه البعض من الناس أنها حجرات وحسب «انظر ما قدمناه في هذا المعنى».

(١) انظر: **طبقات ابن سعد**: مج ٢: ٨٧ (المؤلف).

الفن الإسلامي في بناء القباب

وقــد يترامى بنا القول هنا إلى مســألة كثر فيها الجدال والنقاش كثرة لا حد لها، وهي مســألة فكرة اتخاذ القباب على الأضرحة وفي أي وقت بدأت. فنقول: إن هذه الفكرة بدأت في وقت مبكر جدًّا لصدر الإسلام، بخلاف ما ذهب إليه بعض علماء الآثار في الشرق والغرب.

أما كيف بدأت وكيف اختمرت هذه الفكرة في عقول المسلمين الأولين فسنبينه فيما يلي:

لما توفي رســول الله ﷺ اختلف الأصحاب في دفنه، فذهب كل منهم إلى القول بدفنه ﷺ في مســجده أو في مكانه، فلما كثرت الآراء وبلغ ذلك أبا بكر أمر بأن يدفن ﷺ حيث قبضه الله.

واستند في ذلك على حديث سمعه من حضرة النبي ﷺ وهو قوله: «ما مات نبي إلا دفن حيث يقبض».

فلما ســمع المســلمون هذا الحديث من أبي بكر رفعوا فراشــه ﷺ الذي توفي عليه، ثم حُفر في موضعه، وقد أخبرت عائشــة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه ﷺ ألحد له اللحد؛ ولم يشــق عليه كفعل أهل مكة[١]؛ وفي رواية عن سعد بن أبي وقاص: «وانصب عليه نصب من اللبِن»؛ وألقى شقران مولاه ﷺ في قبره الشريف قطيفة حمراء كان يلبسها النبي ﷺ.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد: مج ٤: ١١٢.

قال وكيع: هذا للنبي ﷺ خاصة[١]. ونزل في قبره الشريف عليٌّ والفضل بن العباس وأسامة وعبد الرحمن ابن عوف. زادت بعض الروايات: وأوس بن خولي والقثم ابن العباس وعقيل بن أبي طالب وشقران والمغيرة بن شعبة؛ وهو آخرهم خروجًا منه في قول ينقضه آخر.

ثم بنوا على قبره الشريف بناءً مسنمًا مستطيلاً، يعلو عن الأرض؛ تمييزًا له، وجعلوا بينه وبين البيت حائطًا؛ ليحول بينه وبين النظر إليه.

وجعلوا له بابًا خاصًّا إلى المسجد؛ فكان المسلمون إذا أتوا لزيارة قبره الشريف، يأتونه من قبل المسجد وتأتي عائشة من قبل البيت فضلاً: أي في ثياب مهنتها؛ فلما دفن عمر بن الخطاب إلى جانب قبره الشريف، كانت تأتيه جامعة ثيابها متقنعة.

أخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن عثمان بن إبراهيم، قال: سمعت أبي يذكر، قال: كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تكشف قناعها حيث دفن أبوها مع رسول الله ﷺ؛ فلما دفن عمر تقنعت فلم تطرح القناع.

وأخرج عن مالك بن أنس، يقول: «قسم بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا باثنين، قسم كان فيه القبر، وقسم كان فيه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وبينهما حائط، فكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ربما دخلت حيث القبر فضلاً، فلما دفن عمر لم تدخله إلا وهي جامعة عليها ثيابها»[٢].

وهذه مكرمة تدعو إليها أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النساء إلى التعفف والورع، وترك التبذل والتهتك الذي لابس النساء جميعًا اليوم، كما تُنَبّه جماعات المصلحين في كل أمة إلى خطورة السفور وشره المستطير.

فليتنبه هؤلاء الذين يدعون إلى الإصلاح وإلى رفع مستوى الأخلاق، وليتأملوا أن عائشة في صنيعها هذا إنما تحتجب عن غائب عن الدنيا بحسه؛ ساكن في رمسه، لا عن شخص حي يرى بنظره ويسمع بأذنه ويشم بأنفه، فاللَّهُمَّ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة، واللَّهُمَّ قد التحم القرن فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ظل قبر حضرة النبي ﷺ على هذه الصورة؛ يزوره المسلمون حتى عهد عمر بن الخطاب، فكان هو أول من بنى عليه؛ أخرج ابن سعد في الطبقات عن عمرو بن دينار وعبيد الله بن أبي يزيد، قالا: لم يكن على عهد رسول الله ﷺ على بيت النبي حائط، فكان أول من بنى عليه جدارًا عمر بن الخطاب، قال عبيد الله بن أبي يزيد: كان جداره قصيرًا، ثم بناه عبد الله بن الزبير بعدُ، وزاد فيه[٣]. يتحصل من مجموع ما ذكر أن حضرة النبي ﷺ جعل قبره الشريف مزارًا من اليوم الذي لقي فيه ربه، وأن المسلمين ابتدءوا من ذلك اليوم بتعظيم قبره الشريف بالبناء عليه، وإشادته بحسب التطور الزمني.

فبني عليه في بادئ الأمر قبر مسنم وجدار قصير، ثم جدار طويل. ثم جاء عثمان، فعبد الله بن الزبير، فعمر بن عبد العزيز؛ فأوصلوه إلى القمة العليا؛ من توسيع لساحته وارتفاع لجدرانه وإقامة قبة محكمة عليه، وإحاطته بمقصورة بعد إحاطته بسور من لبِن إلى غير ذلك؛ مما ذكر آنفًا في تاريخ مسجد النبي على مشرفه أفضل الصلاة والسلام.

(١) انظر ابن سعد (المؤلف).

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مج. ٢: ٢٥٦.

(٣) المرجع السابق.

ولم يمضِ القرن الأول من الهجرة، حتى قام الناس في المدائن والأمصار يشيدون القباب على قبور عظمائهم؛ تخليدًا لذكراهم.

فقام الأمويون في الأندلس يشيدونها على مقابر أسلافهم، كما قام الشعب الأندلسي يشيدها على قبور العلماء والنابغين والصالحين.

وقام العباسيون كذلك في مصر وبغداد. أما في مصر فكان على قبر عقبة بن عامر (٥٨هـ) قبة محكمة.

ودفن الليث تحت قباب الصدفيين بالقرافة، وهم من التابعين عاشوا في المائة الأولى إلى الثالثة، ومنهم ابن يونس العالم الرياضي المشهور.

وكانت القرافة الجنوبية في وقت ما مليئة بالقباب التي أنشئت في وقت مبكر جدًّا، منها قباب المعافر والحضارمة وبنو كندة وبنو الأشعث، والعوامر وغيرهم.

وكل هؤلاء من الصحابة والتابعين الذين شهدوا فتح مصر الإسلامي.

ولم يكن هذا الأمر مقصورًا على العلماء فحسب، بل تعدى الملوك والأمراء؛ فكان لكافور الإخشيدي قبة محكمة البناء عالية بسفح المقطم، كما كان لأحمد بن طولون، ثم للوزراء؛ أمثال الوزير سهل بن أحمد البرمكي؛ وزير الدولة الطولونية، والوزير أبي القاسم المغربي؛ أحد وزراء الدولة الفاطمية، والوزير يعقوب بن كلس؛ أول وزير للقاهرة المعزية بعد تأسيسها، والوزير طلائع بن رزيك، والوزير بدر الجمالي، وغير هؤلاء، إلى كثير من هذه الشواهد التي تدحض الرأي القائل بأن عهد إقامة القباب على الأضرحة يرجع إلى عهد الفاطميين؛ وهو قول تنقضه هذه الأدلة.

ولم تقتصر القباب على إقامتها على الأضرحة وحسب، بل كانت تقام في البيوت وفي قصور الملوك ومجالس الحكم، كقبة حاتم بن هرثمة حاكم مصر العباسي (١٥٩هـ)، وقباب القصور الفاطمية.

وللظلة كظلة المسجد النبوي وغيرها، الذي أمر ﷺ باتخاذها وبقيت إلى عهد عمر، فجددها وبناها من لبن.

وأبعد ما نرويه في هذا المعنى اتخاذ حضرة النبي ﷺ القبة لهذا الغرض نفسه، جاء في حديث وفد ثقيف من طبقات ابن سعد[1].

وضرب النبي ﷺ، لمن كان فيهم من بني مالك قبة في المسجد. وفي حديث عامر بن صعصعة (٧٦-٢) عن عون الشوائي عن أبيه، قال: «قدم وفد بني عامر وكنت معهم إلى النبي ﷺ فوجدناه بالأبطح في قبة حمراء فسلمنا عليه».

عناصر القبة في صدر الإسلام

وقد كانت القباب في صدر الإسلام تتكون من ثلاثة أجزاء أساسية؛ الجزء الأول منها قاعدتها المربعة، والجزء الأعلى غطاؤها الكروي، وهو المراد منه نفس القبة، ثم تصل طبقة ثالثة ما بين هذين الجزأين، أما القاعدة المربعة فتقوم على عقود أو قناطر، وقد تكون هذه العقود في أغلب الأحيان ذات فراغات بين منحنياتها؛ طاقات وفجوات مختلفة الحجم.

أما الغطاء الكروي الذي هو القبة، فيقسم إلى أضلاع تتفرع من القمة، ويركب هذا الغطاء على أسطوانة دائرية تفتح فيها عادة ثماني نوافذ أو أكثر مشبكة، وبين كل منها

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مج. ١: ٢٧٠، ٢٧١.

طاقات مزدوجة تشبه النوافذ شكلاً، وترتفع أقواس النوافذ والطاقات على أعمدة صغيرة بعددها.

ويجعل بين القاعدة المربعة التي تعلو القناطر والأسطوانة الدائرية طبقة وسطى مثمنة الشكل، تتكون من عقود مستديرة قائمة على أسطوانات صغيرة ملتصقة بحائط القبة، وتمتطي أربعة من هذه العقود أركان المربع وتملأ الفراغ منها مقرنصات، وتنتصف العقود الأخرى إلى نصفين؛ كل منها يتكون منه ضلع من أضلاع المربع.

ويتوسط الفراغ المحصور بين الأقواس طاقات مشبكة دائرة ذات عيون مستديرة، ويملأ الفراغ الذي بين منحنيات الأقواس الخارجة مقرنصات صغيرة بمدرجات متتالية.

هذا وصف ما كانت عليه القبة في صدر الإسلام، وبهذا الوصف نستطيع أن نقول: إن عناصر القبة في الوقت الذي عرفها فيه المسلمون واستعملوها في مساجدهم- كانت تتكون من عقود وأقواس وطبقات وضلوع ومقرنصات وعيون وفجوات وأركان مقرنصة؛ وتتصل هذه العناصر بفراغ مملوء بالمقرنصات، وتضم إلى ذلك مجموعة من الزخارف البارزة والنقوش الكتابية في طراز وغيرها تزدان بها القبة.

ويرجع الفضل إلى المسلمين في بناء القباب إلى ابتكار نوع المقرنصات المقوسة التي لم يسبقهم إليها سابق، كذلك في العقود كما بينا آنفًا وأخصها في القباب؛ وهنا تظهر ميزة الفن الإسلامي في بناء القباب وبلوغه الذروة العليا.

واتُّخِذت القباب في المساجد؛ كحظائر يجلس فيها الملك أو الخليفة، وفي مداخل المساجد، وفوق المحاريب؛ كقباب جامع القيروان، وقباب المساجد الفاطمية.

وفي سقوف المساجد؛ كالمساجد الإيرانية، وبعض مساجد مصر؛ كجامع قراسنقر، والسلطان حسن وتربة فرج بن برقوق، وجامع خاير بك وجامع قانباي وغيرها.

واستعملها العثمانيون لهذا الغرض نفسه، كما نراها في المساجد التركية مثل السنانية والمحمودية، ومحمد بك أبي الذهب، والملكة صفية، ومحمد علي باشا، و الشاطبي، والتكية السليمانية، ومجموع المساجد التي أنشئت على طراز المساجد العثمانية .

وهذه القباب على نوعين: قباب نصف كروية ترفع فوق المجنبات؛ وقباب أشبه شيء بالأقبية المدببة تشغل نموذجًا واحدًا فأكثر.

ومن هذا الطرز نوع استعمل منها في الحمامات بفوارق يسيرة، واستعملت القبة فوق النوافير وصحون المساجد وأقبية الدور في بعض الأحيان.

وأقدم القباب التي استعملت لهذا الغرض بمصر قبة صحن الجامع الطولوني، وقد كانت قبة فاخرة يصفها المقريزي في الخطط بوصف ممتع جدًّا[١].

(١) يقول المقريزي: «وكانت في وسط صحنه قبة مُشَبَّكَة من جميع جوانبها وهي مذهبة، على عشرة عمد رخام، وستة عشر عمود رخام في جوانبها، مفروشة كلها بالرخام، وتحت القبة قصعة رخام فسحتها أربعة أذرع، في وسطها فوارة تفور بالماء، وفي وسطها قبة مزوقة يُؤَذَّن فيها وفي أخرى على سلمها، وفي السطح علامات الزوال، والسطح بدرابزين ساج»، انظر: المقريزي، **الخطط المقريزية**، مج. ٤، ج. ١: ٧٤.



قبة المحراب بجامع القيروان

القباب الإسلامية

وأول نموذج كامل من هذا الوصف يتراءى لنا بوضوح في قباب جامع عقبة بن نافع الفهري بالقيروان[١].

ومن هذا النموذج أخذت القباب التي شـــيدت بعد، وكانت رمزًا للفن الإســـلامي العربي، هذا الشـــكل المضلع، واتبعـــه الفاطميون في بناء قبابهم، كما نشـــاهد في القباب الفاطمية القائمة بقرافة القاهرة.

(١) يرى الدكتور أحمد فكري أن جامع القيروان كان به قبة ترجع إلى عهد هشام بن عبد الملك عام (١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، وهي التي اتخذها زيادة الله الأغلبي سنة (٢٢١هـ/ ٨٣٥م) أنموذجًا اشتق من أصوله تلك القبة التي أقامها على أسطوانة المحراب، وبالمسجد الآن خمس قباب أخرى؛ تقوم إحداها على نهاية رواق المحراب مما يلي الصحن، وهي القبة المسماة بقبة البهو والتي بناها إبراهيم ابن أحمد الأغلبي، وتتوج اثنتان منها مدخل بيت الصلاة من مشرقه ومغربه، وهما مؤرختان ونعرف أن الذي أقامهما هو الخليفة أبو حفص سنة (٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م)، ورابعة تعلو مدخلاً آخر ينفذ منه إلى المجنبة الغربية في أسكوبها السابع، والأخيرة = تتوج المئذنة. وبالرغم من اختلاف كل هذه القباب فإنها متشابهة البنيان، وتتشعب من فكرة واحدة، انظر: فكري، **المسجد الجامع بالقيروان**: ٨٥-١٠٥؛ وعن تطور القباب بشكل عام في العصر الإسلامي، انظر على سبيل المثال: كمال الدين سامح، «تطور القبة في العمارة الإسلامية»، **مجلة كلية الآداب**، جامعة فؤاد الأول ١٢، العدد ١ (مايو ١٩٥٠): ١-٣٦؛ صالح لمعي، **القباب في العمارة الإسلامية** (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت.).

ومنها قبة إخوة يوسف[١]، وقبة زينب بنت هاشم، وقبة يحيي الشبيه، وقبة مشهد رقية، ثم قبة معاذ الحسني.

وقد سارت القباب على هذا الشكل إلا النذر اليسير أحقابًا طوالاً من مدة الفاطمية، ثم الأيوبيين، ثم دولة المماليك الأولى، إلا أنها في هذه المدة كانت كلما تقادمت في الزمن أخذ حجم ضلوعها يصغر نوعًا ما. ومن هذا النوع قبة الميافارقيني، المعروف بالقاصد (٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م)، قبة تذكارباي خاتون (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م)، قبتا علاء الدين أيدكين (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، قبة سنجر الصوابي (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م).

ثم روعي في القبة بعد ذلك تناسق الحجم والسعة في الطول والعرض، كما يتضح مما نشاهده من مجموعة القباب الآجرية المضلعة، ومنها قبة قراسنقر الجمالي (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، ثم قبتا سلار (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)، وقبة مغلطاي الجمالي (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)[٢]، ناصر الدين أمير آخور (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، خانقاه قوصون (٧٣٦هـ/١٣٣٥م)، بلبان القرافي (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)، الطون قش (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، طاشتمر (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، أم أنوك (٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، أصلم (٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م)، وهذه والتي قبلها تمتازان بطراز من الفصة يغطي رقبتيهما من الخارج، قوام زخرفته كتابة قرآنية بيضاء على أرضية سوداء وزرقاء، قبة قماري (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، شيخو (٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، تتر (٧٦١هـ/ ١٣٥٩م)، طلبية (٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م)، كزل الناصري (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، سودون من قصروه (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، وهذه القبة هي الأولى والأخيرة التي بنيت على هذا الطرز.

(١) قبة مشهد إخوة يوسف غير مضلعة (انظر الصورة).
(٢) قبة مغلطاي غير مضلعة.

وقد روعي في بناء هذه القباب جميعها الآجر والتضليع بأحجام متناسبة.

ثم أخذت القباب تسلك طريقًا آخر؛ فبنيت من الحجر ظاهرًا وباطنًا، بعد أن كانت تبنى من اللبِن أو الآجر.

وأظهر مثال لهذا النموذج الحجري المضلع نشاهده في مجموعة القباب التي يصح تسميتها بالقباب التترية؛ التي ابتدأت تظهر بمصر في أوائل القرن الثامن الهجري. وكان لظهورها أثر في تطور القباب تطورًا آخر، ظهر أثره في أوائل القرن التاسع إلى أواخر عهد المماليك إلا نادرًا.

وقد كان ذلك التطور مدعاة لتحسن القبة تحسنًا بلغ الغاية؛ فبعد أن كانت القبة خالية من الزخارف الهندسية أصبحت في هذا العصر بالغة في الزخرفة والتنسيق مبلغًا عظيمًا، وربما غشي ظاهرها بالقاشاني الأزرق أو الأخضر، متجمعًا أو منفصلاً؛ كقبة مدرسة الغوري[٣]؛ وقبة أزرمك الناشف، وقبة سليمان باشا؛ المعروفة بالشيخ مسعود.

وهذه ميزة امتازت بها القباب في ذلك العصر، وقد سبقتها إلى نفس هذه الميزة بعض القباب المتقدمة مثل قبة أم أنوك، وقبة أصلم السلحدار.

وبالرغم من هذا فتوجد قباب أخرى بعكس ذلك؛ أمثال القباب الآجرية التي تسودها البساطة من الخارج، وهي في الداخل حافلة بشتى الزخارف والنقوش الكتابية

(٣) لم يُكتب للقبة الضريحية البقاء؛ حيث ظهر بها خلل عام (٩١٧هـ/ ١٥١١م)، فأمر الغوري بهدمها وإعادة بنائها، ثم لم يلبث أن حدث بها خلل عام (٩١٩هـ/ ١٥١٣م)، فأمر بهدمها وإعادة بنائها مرة أخرى، إلا أنها هدمت فيما بعد رغم أن استبدل بها قبة خشبية حوالي عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م)، ثم هدمت وحل محلها سقف خراساني.

وغيرها؛ كقبتي يشبك الدوادار وقبة حسن الصنجق، وقبة أزدمر وغيرها.

وثمة نوع من القباب ظهر في أوائل القرن العاشر والحادي عشر، وهي القباب الحجرية الصماء. أمثال: قبة قرقماس (٩١٧هـ/ ١٥١١م)، وقبة إبراهيم البوسنوي، وقبة شمس الدين عبد الباقي، وقبة علي كتخدا البركاوي، وقبة الميرغني، ثم عمر أغا (١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م) وغيرها.

والقباب في هذا العهد مزيج مما ذكر؛ فتجد في قبة المشهد الزينبي نموذجًا من قباب أوائل وأواسط القرن التاسع، وفي قبة المشهد النفيسي أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر، وفي قبة عبد القادر باشا حلمي ومحمود باشا الفلكي أوائل القرن الحادي عشر.

كما تجد قبابًا أخرى خرجت عن القاعدة الشائعة؛ كتلك القباب الحديثة التي نشاهدها على مدافن الطبقة العليا، ومنها قبة شاهين باشا بشارع الإمام الليث، فإنك تجد فيها لونًا غريبًا هو تلك الأقبية التي تحيط بها، ثم المآذن الأربع التي تكتنفها من جوانبها الأربع.

وتذكرنا هذه القبة بالنظر إليها بقبة طاهر باشا؛ مدير مصلحة الجمارك المصرية في عهد محمد علي باشا (١٢٣٣هـ/ ١٨١٧م) «بشارع العتريس رقم٨، قسم السيدة» وهي قبة تركية لحمة وسدى، ولها نظائر في قباب أخرى في مساجد كبيرة عثمانية.

وأغرب منها ما نشاهده في القبة التي بناها الشيخ السيد أحمد سري؛ شيخ الخانقاه البكتاشية.

فإن هذه القبة مع غرابة فنها تجد فيها ضربًا من الفن، جمع ميزات كثيرة، منها تلك الأحزمة الحجرية التي تمنطق ظاهرها، كذلك ظاهرها، وإن كانت البساطة تسوده، فإن ذلك التربيع الهندسي الظاهر أكسبه جمالاً وروعة.

كذلك مقرنصات باب القبة نفسه ثم هيئتها... إلخ. كل ذلك قد يعطينا فكرة عن دخول فن جديد في هذه الآونة إلى الفن الإسلامي المصري، لعله من ألبانيا الإسلامية.

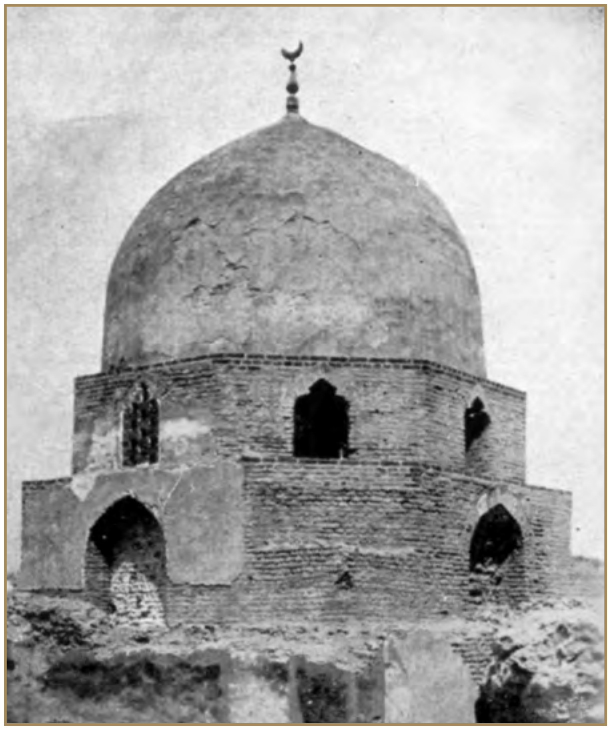
وثمة نوع من القباب ذات المناور، ولدينا منها قبة جوهر المدني، ثم قبة عبد الرءوف المناوي، ثم قبة أخرى.

ومنها نوع آخر صغير محمول على أسطوانات أو دعامات، وقد يكون مثلث الشكل في بعض الأحيان كقبة سليمان الوكيل، ومصطفى جالق، والمزني وعثمان كتخدا وغيرها، وهذه القباب لا تمت إلى العربية الإسلامية بشيء فيما يظهر، ولها نظائر في قباب تركستانية روسية وغيرها.

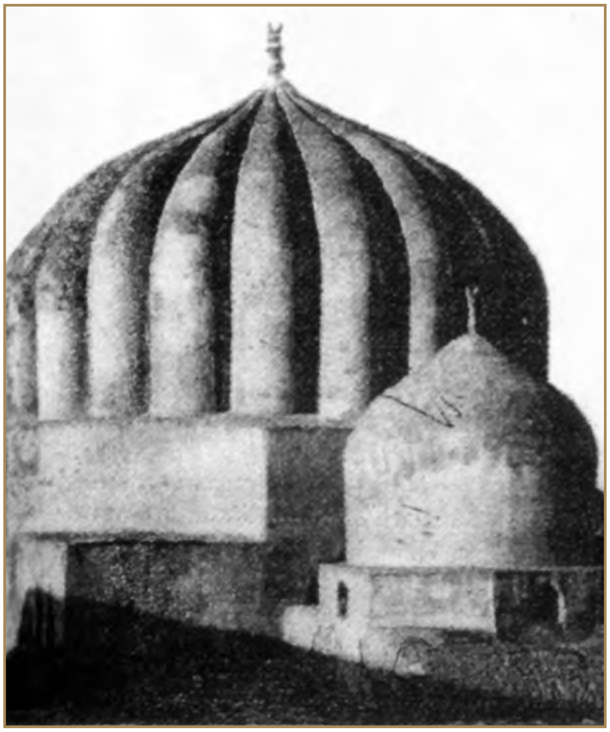
ومنها نوع آخر تسوده البساطة من الخارج وتكثر فيه الزخارف من الداخل، إلا أنه ذو شكل مخالف لما ذكر، أمثال القباب القلاوونية السلطانية: كقبة المدرسة المنصورية «القبة القائمة الآن حديثة بنيت على نسق الأولى من النماذج الباقية من هذا النوع» وقبة مدرسة الناصر حسن، والأشرف خليل، وهي أقدم ما وجد من هذا النوع، وقد كان هذا النوع فيما يظهر مقصورًا على القباب السلطانية؛ فإنك لا تجده إلا في بنايات الملوك، أما الأمراء والوزراء فلا تجد فيها إلا القباب المضلعة الآجرية.

ونستطيع أن نحول أنظار القارئ إلى ما سنذكره من مميزات كل قبة من هذه القباب على حدة في ذكرنا للآثار التابعة له.

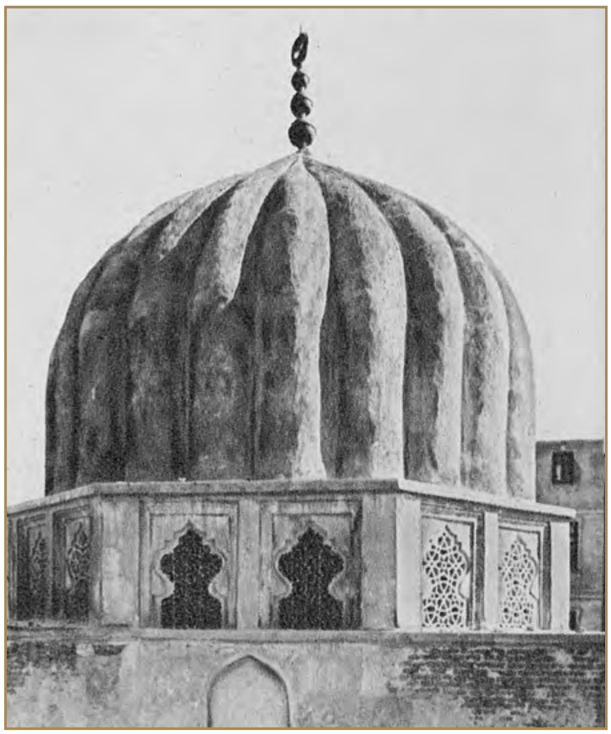
وحسبنا هنا أننا بيّنا أصل فكرة القبة واتخاذها في المساجد، ومبدأ إقامتها على الأضرحة.



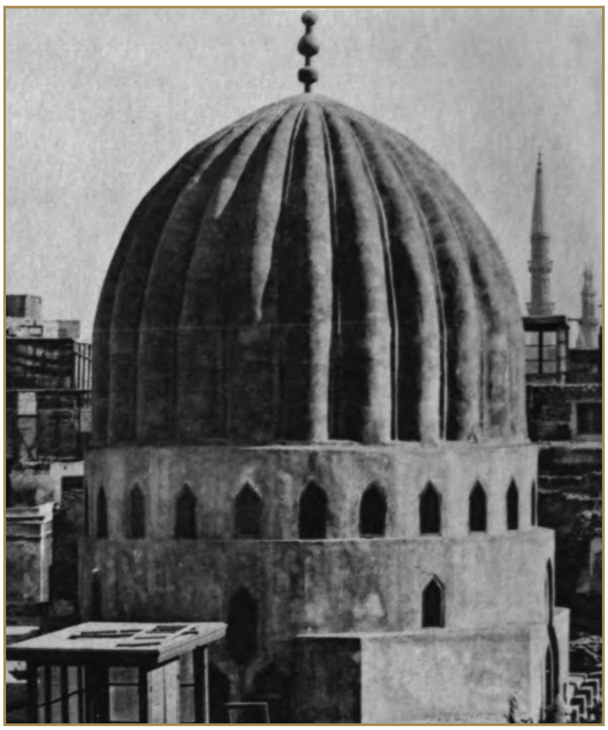
قبة إخوة يوسف



قبة يحي الشبيه «عن كريسويل»



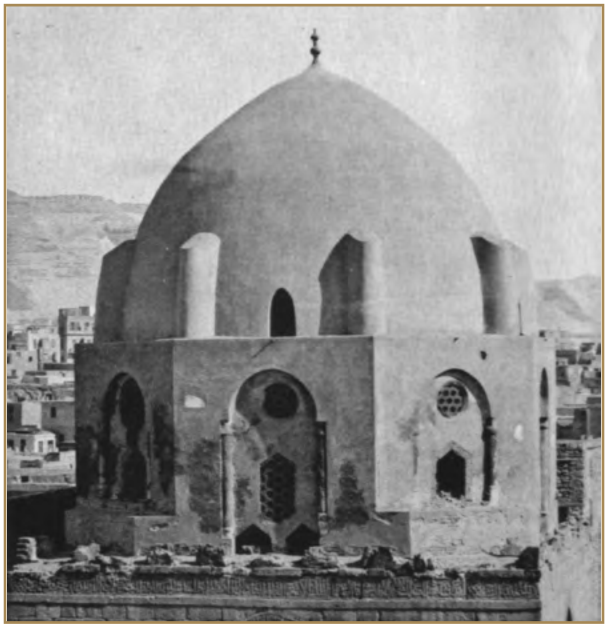
قبة مشهد رقية «عن مساجد مصر»



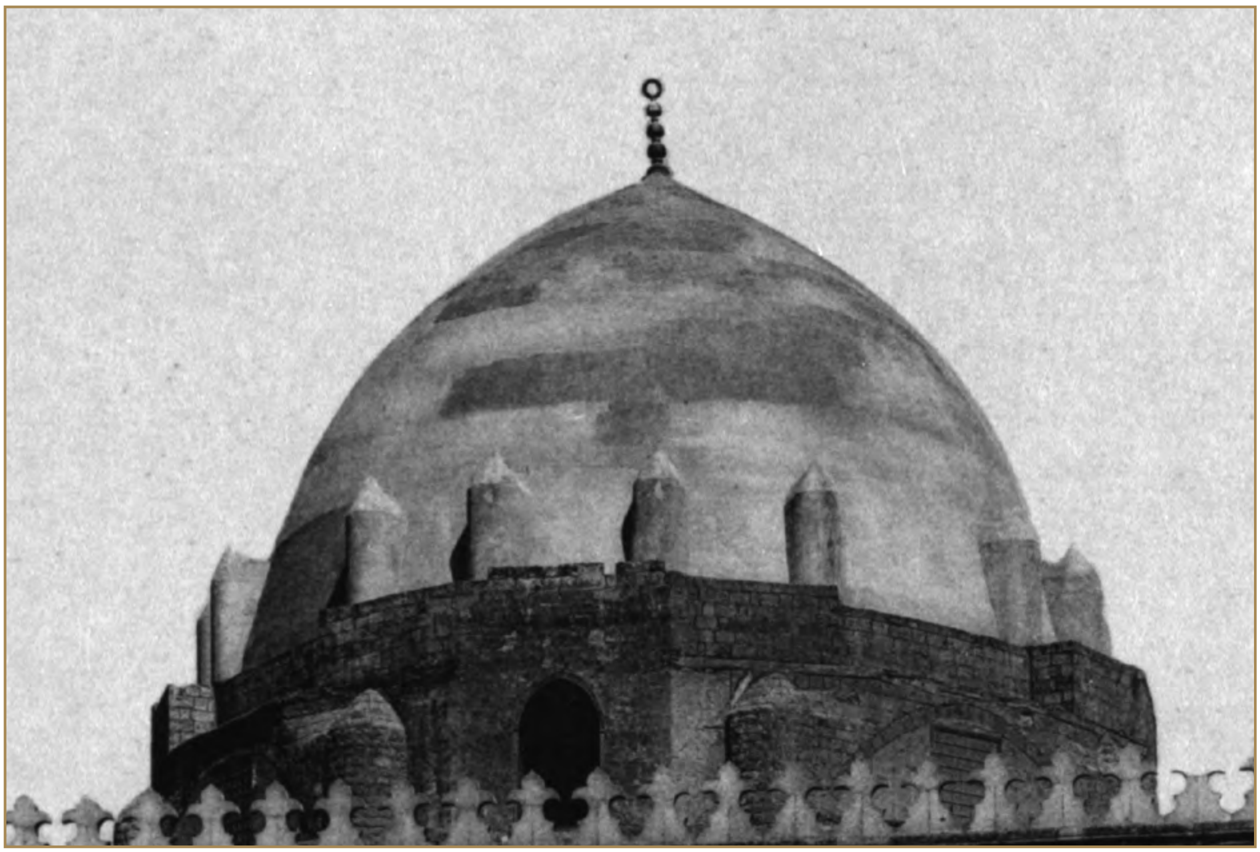
قبة قراسنقر الجمالي «عن كريسويل»



القبة الخشبية لمدرسة الغوري



قبة الأشرف خليل «عن كريسويل»



قبة الناصر حسن «عن لجنة حفظ الآثار العربية»



قبة مدرسة المنصور قلاوون بالنحاسين

الفن التتري في بناء القباب في مصر الإسلامية

لدينا من هذا النوع مجموعة، أهمها بعض ما ذكرناه من القباب الآجرية. أما القباب الحجرية فمنها قبة يلبغا التركماني (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م)، وقبة سنجر المظفر (٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م)، ثم قبتا خوند سمراء الأشرفية، ويونس النوروزي بباب الوداع، وهذه القباب الثلاث - أخصها الأخيرة - تذكرنا بهذه القبة الفخمة التي أُقيمت على قبر تيمورلنك بسمرقند في سنة (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، وهي تكاد تكون صورة مصغرة منها، وإن كانت مسبوقة عليها. ويتشابه معها ببعض فوارق ظاهرة؛ قبة صرغتمش الناصري المسبوقة عليها بأكثر من نصف قرن.

ومن القباب الحجرية المضلعة التي تمت بصلة إلى هذا الفن نوعًا ما- قبة سنجر الجاولي بمدرسة سلار (٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م)، وهي القبة الصغيرة المعروفة بسيدي إبراهيم الذاكر الوفائي؛ أحد شيوخ القرن العاشر. ثم قبة تنكزبغا؛ عمر التكروري (٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م) نجم الدين محمود الوزير، تنكز بغا أمير مجلس؛ إلى قباب أخرى.

ومن القباب الآجرية قبة طغاي، وخوند طلبية، والأولى تمتاز عن نظيرتها من هذا الطرز بتغطية رقبتها بكسوة من القاشاني الأزرق المزخرف بكتابة بيضاء؛ كقبة أصلم القبجاقي بسوق الغنم. ثم قبة طغيتمر النجمي، وطاشتمر الناصري، إلى قباب أخرى من هذا النوع التتري شكلاً؛ ومنها المبني من مادة الطوب والمبني من مادة الحجر.

وأول العهد بهذا الفن كان بعد دخول المهاجرين من الصناع والمهندسين وغيرهم من التتر ومن سكان تلك البلاد المتاخمة منذ سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) حتى سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، في عهد الملك الظاهر بيبرس الأول؛ ملك مصر، ولم ينقطع ورودهم حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون وعصور خلفه، وقد ملئت بهم الديار المصرية، وسكنوا في أكثر من مكان بالقاهرة وظواهرها[1]. وذلك إثر غارات المغول وحلولها تلك الديار، وما أصاب المملكة الإيرانية منها، وقد كثر دخولهم إليها من ممالك مختلفة[2].

لكن الفن التتري لم يظهر بوضوح إلا عند ختام القرن السابع الهجري، ومنذ ذلك الحين أخذ الفن التتري يشق طريقه في أكثر ما بني من القباب في أثناء هذه المدة، ثم ما لبث أن اختفى عن الأنظار مرة واحدة؛ ولا سيما بعد قيام دولة المماليك الثانية التي أسسها الظاهر برقوق.

فتلونت القباب بلون آخر، وأخذت تشق طريقًا جعل منها منظرًا أكثر جمالاً من ذلك المنظر السالف، فظهر نوع من القباب التي يسود ظاهرها البساطة، ويتحلى داخلها بالزخارف والمقرنصات.

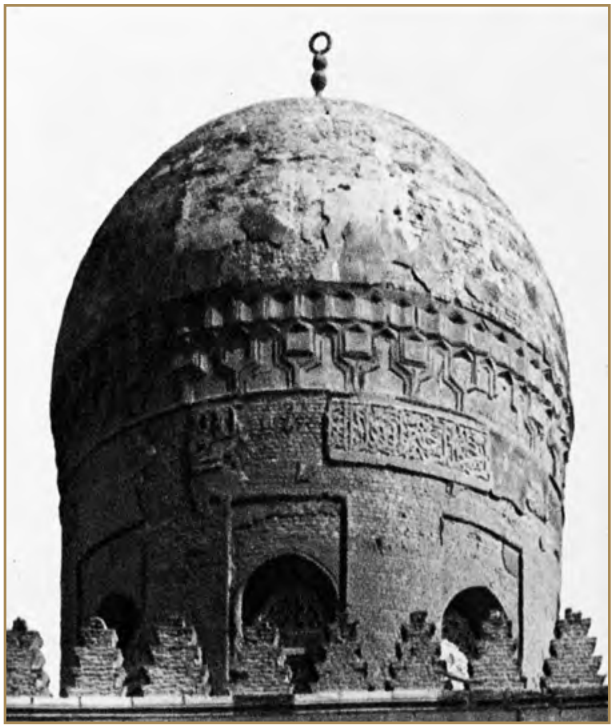
ثم ما لبثت أن تطورت القباب في القرن التاسع وما بعده تطورًا آخر، جعل منها منظرًا بديع الشكل؛ يأخذ بجماله وروعته مجامع القلوب.

وأخصها ما ظهر منها بعد سنة (٧٨٢هـ- ٩٢١هـ/ ١٣٨٠-١٥١٥م)، وبعد هذا التاريخ ظهرت القباب العثمانية إلى جانب الأقبية أو القباب نصف الكروية، واستعملها الفن العثماني في المساجد في مقام الأسقف، فجعل منها منظرًا يتألف من أكثر من واحدة في المجنبات وبيت الصلاة، كما جعل من الأقبية ما يؤدي هذه المهمة نفسها في بعض الأحيان.

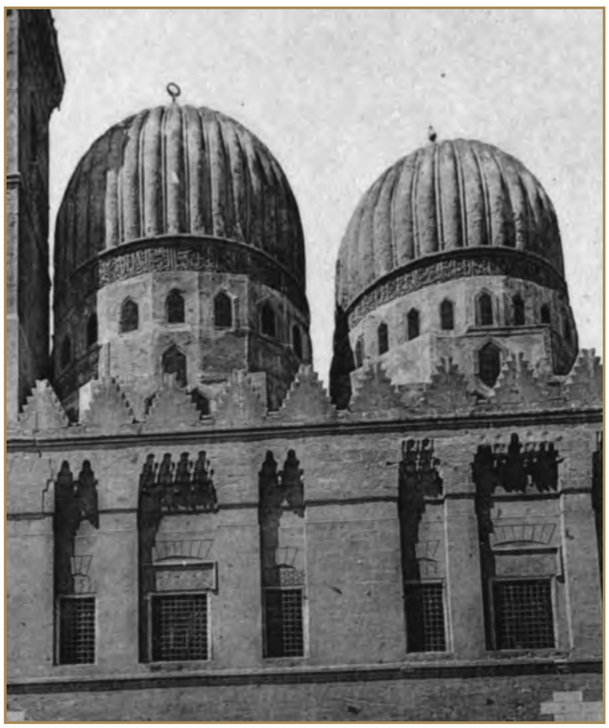
(١) انظر خطط المقريزي (المؤلف).
(٢) راجع المقريزي ١- ٣٦٤-٢ (المؤلف).



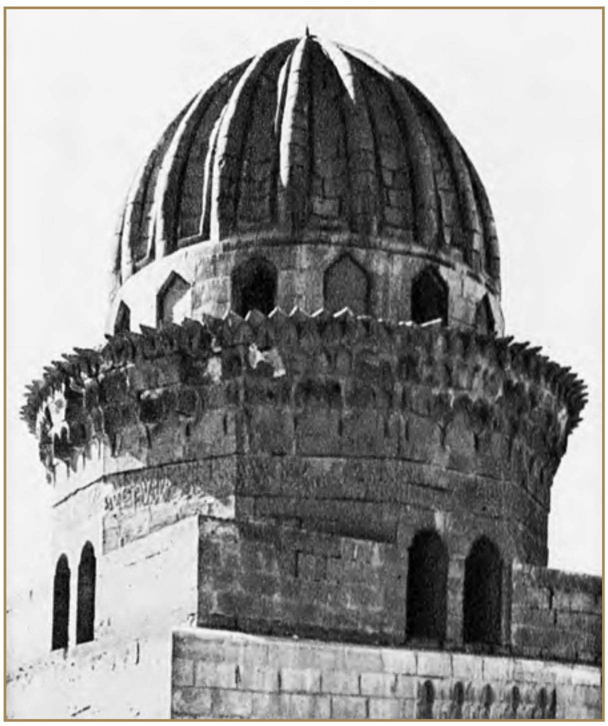
قبة سنجر المظفر «عن مساجد مصر»



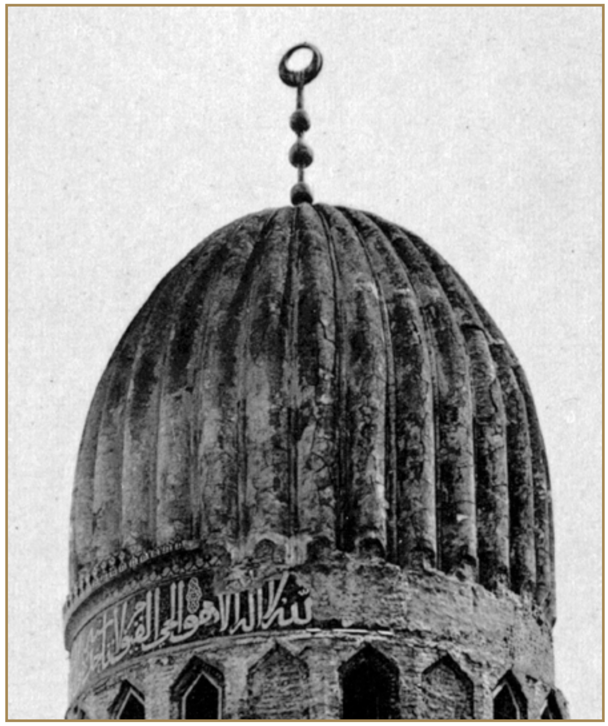
قبة صرغتموش «عن مساجد مصر»



قبتي مدرسة سلار وسنجر الجاولي «عن مساجد مصر»



قبة تنكزبغا «عن مساجد مصر»



قبة طغاي «عن فييت»

وقد سمى أهل الحجاز هذه القباب نصف الكروية، والأقبية «بالطواجن»، إذ إنها أشبه شيء بها.

قباب المسجد الحرام

ويوجد بالمسجد الحرام من هذه القباب العثمانية ١٥٢ قبة، ومن الأقبية أو الطواجن ٢٣٢. وقد استبدلت بالسقف من زمن السلطان سليم الثاني؛ في العمارة التي أجريت في المسجد الحرام بأمر السلطان المذكور في سنة (٩٧٩هـ/ ١٥٧١م)، وكان المباشر لها سنان باشا؛ الوزير المصري.

وقد سبق الفنَّ العثماني في هذه الظاهرة الجديدة فنون أخرى؛ كالفن العربي الإسلامي، والفن الإيراني.

ولدينا أمثلة من ذلك كجامع نايين، وهو من القرن الرابع الهجري؛ فسقفه مكون من قباب من الآجر[١].

(١) انظر: **الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي**- للدكتور زكي محمد حسن (المؤلف).

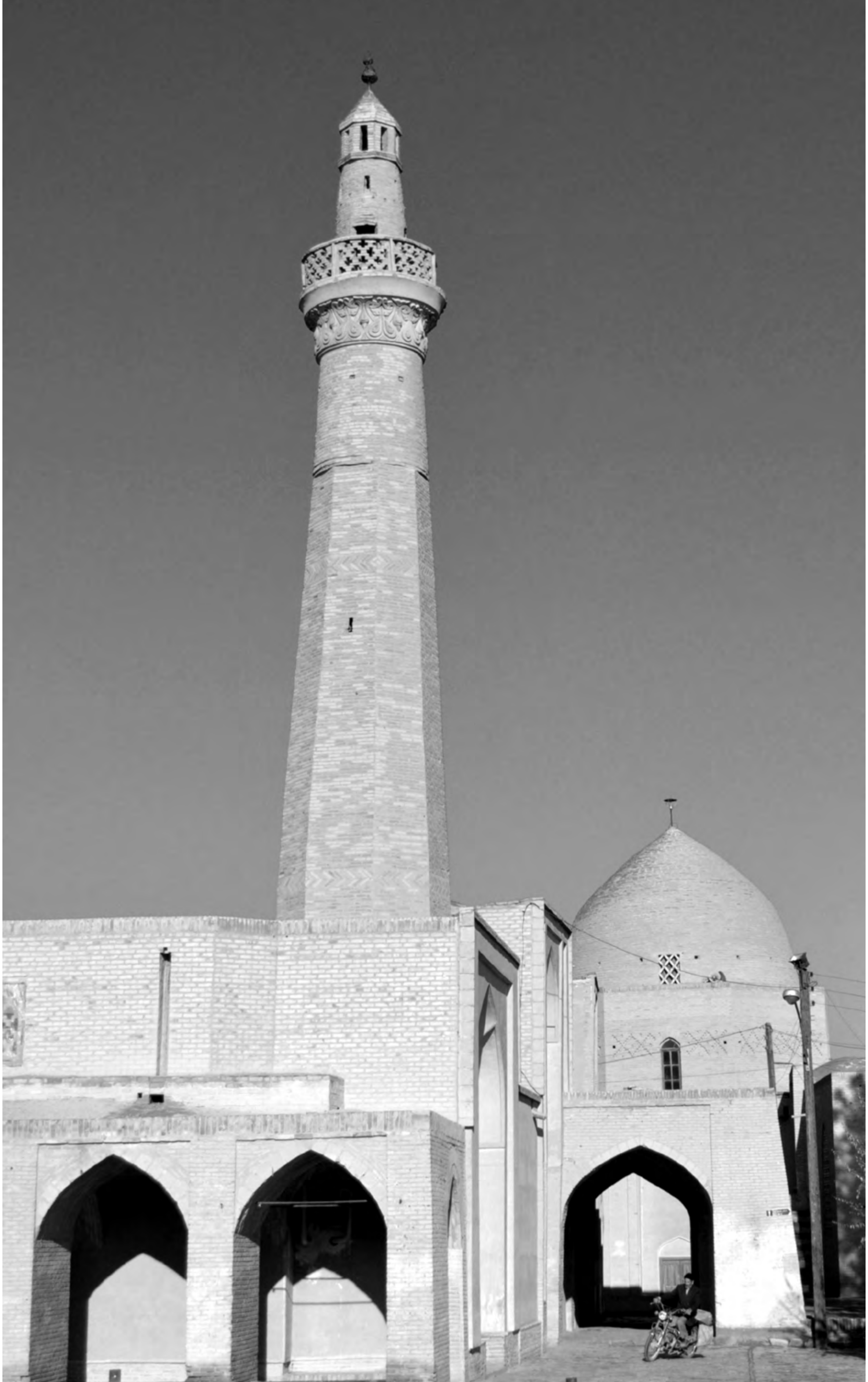
واستعمل الفن العربي الإسلامي القبوات والعقود المدببة في مقام هذه القباب نصف الكروية؛ مثال ذلك ما نراه في مداخل المساجد من العقود المدببة و القبوات، وأحسنها ما في جامع السلطان حسن، وتربة فرج بن برقوق.

والقباب الإيرانية بوجه عام قباب جميلة ذات فن خاص، يتجلى في كسوتها بغضائر القاشاني، وارتفاعها واستدارتها، والشكل البصلي الذي تأخذه في أغلب الأحيان.

وأظهر هذه القباب ما نراه في مساجد مدينة نيسابور وأصفهان والعراق، وغيرها من تلك الربوع. وبالرغم من ظهور القبة الحجرية المضلعة تضليعًا صغيرًا، في ذلك العصر، فقد وجدت فيه قباب أخرى من النوع المسبوق على هذه القباب التترية. مثال: قبة ناصر الدين محمد أمير آخور، حوالي سنة (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)، وقبة قماري الحموي (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، وقبة الطون قش الدوادار، ثم قبة إينال الأتابكي، وقبة جزل الناصري، وقبة سودون من قصروه (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م).

وقد يعطينا هذا التغاير فكرة واضحة عن إطلاق الفن في مصر وعدم تقيده بفن خاص، كما نرى في كثير من الآثار المماليكية، التي اكتسبت طرزًا أخرى سابقة عليها، مثال قبة القاضي شرف الدين الصغير (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، التي بناها لأبي الخير الكليباتي، بزيادة جامع الحاكم، فهي تشبه من وجه قريب جدًّا القباب الفاطمية التي وجدت في أزهى عصور الدولة الفاطمية، حتى يخيل للناظر إليها أنها مما أنشئ في العصر الفاطمي، في حين إن مؤرخًا معاصرًا لها ينفي لنا هذا نفيًا باتًّا، ويؤكد أنها من منشآت ذلك العصر، حلت في محل قبة مثلها[٢].

(٢) انظر ترجمة هذا المسجد فيما يلي.



قبة ومئذنة جامع نايين



قبة جامع الشيخ لطف الله بأصفهان

الظواهر الغريبة في بناء القباب الإسلامية في القاهرة

ومن الظواهر الغريبة في بناء القباب الإسـلامية في مصر ما نراه قد تخطى السير على القاعدة المتبعة، أو تكون فيه ظاهرة غريبة تدعو إلى الانتباه.

مثـال قبة الشـافعي المغشـاة من الخـارج بصفائح النحاس؛ الحافلة مـن الداخل بزخارف فنية وهندسـية، وفوقها ذلك العشاري الذي هو أظهر شيء غريب فيها:

وقد ترنم فيه الشعراء بألوان من الشعر؛ فمن ذلك قول ابن ملهم:

مـررتُ على قُبةِ الشافعـي
فعاين طرفي عليها العشاري

فقلت لصحبي: لا تعجبوا
فـإن المـراكـبَ فـوقَ البحـارِ

وقول شرف الديـن البوصيري؛ ناظم الـبردة النبوية الشريفة - رحمه الله -:

بقُبَّةِ قبـرِ الشافعـي سفينـةٌ
رسـتْ في بناءٍ مُحْكَمٍ فـوقَ جُلْمُـودِ

ومُذْ غاضَ طوفانُ العلومِ بقبره اسْـ
توى الفُلك مِنْ ذاكَ الضريحِ على الجودي

وقال غيره:

أتيـتُ لغير الشافعـي أزوره
تعرضنا فُلكٌ وما عنده بحـرُ

فقلت: تعالى الله تلك إشارةٌ
تشير بأن البحرَ قد ضمَّهُ القبرُ

ثم قبة المشهد الحسيني (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م)، وهي أقدم من قبة الشـافعي[١]، وفي هذه القبة ظاهرة غريبة، هي انبطاحها على القاعدة الـتي تقوم عليها، وكلتـا القبتين هاتين كانتا موضع عناية الأمير علي بك الكبير [المتوفى سـنة (١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م)] فهـو الذي أمر بنقشـهما وزخرفتهمـا بالكتابة وغيرها على هذا الشكل الذي نشاهده فيهما إلى الآن.

ومن هذا النـوع الغريب قبة السـيد أحمد البدوي بطنطـا، وهي قبـة فاخرة تتألـف عناصرها مـن الحجر والحديد، وقد راعى مهندسها في بنائها أن يصل كل حجرين ببعضهما بأحزمة من الحديد، اسـتعمل في لحامها الرصاص المذاب، فكان يؤتى بالحجرين فيشـدان في بعضهما بأحزمة من الحديد؛ ثم يصب عليها سائل الرصاص؛ ولما تكاملت على هذا النحو غشى ظاهرها بصفائح النحاس. والظاهر أن هذا كان عن رغبة الخديو عبـاس الأول، الذي أمر بعمارة المسجد جميعه في سنة (١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م).

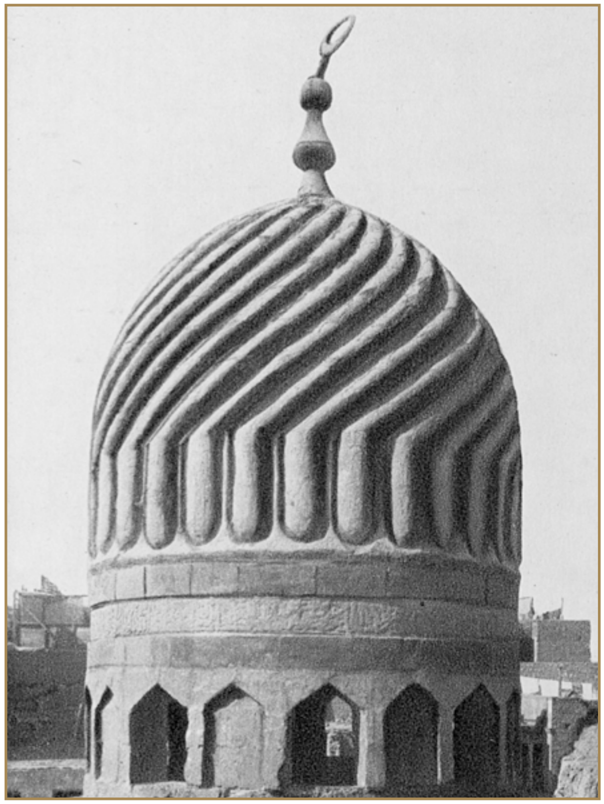
ومن الظواهر الغريبة في القباب ذلك التغاير البديع، الذي نراه في قبة حسـن الطمش الرفاعي (٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م)، وهي من إنشاء الأشرف برسباي للشيخ حسن المذكور، وقد تقاربت في الإنشاء مع قبته الأخرى التي أنشأها لابن أخيه جاني بك الأشرفي؛ لكن لا قياس بينهما في الشكل والطرز.

ثم في تلك القباب ذات المناور وأحسـنها قبة جوهر المـدني، ثم القباب الـتي تتحلى بمجموعة مـن الزخارف الجصية بطراز يشـبه الطرز الأندلسية، وأحسنها - لدينا - قبة المدرسـة السـعيدية (٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، ثم قبة الزاوية العدوية، وقباب أخرى سبقت هذا التاريخ.

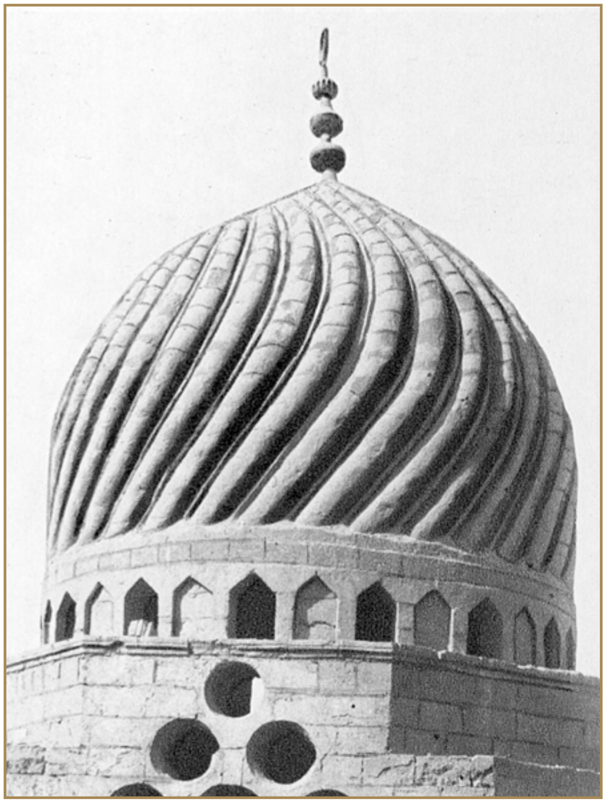
(١) قبة المشهد الحسيني التي يتحدث عنها المؤلف قد هدمت ووضعت مكانها قبة معدنية.



قبة الإمام الشافعي «عن مساجد مصر»



قبة أيتمش البجاسي «عن مساجد مصر»



قبة الجاي يوسفي «عن مساجد مصر»

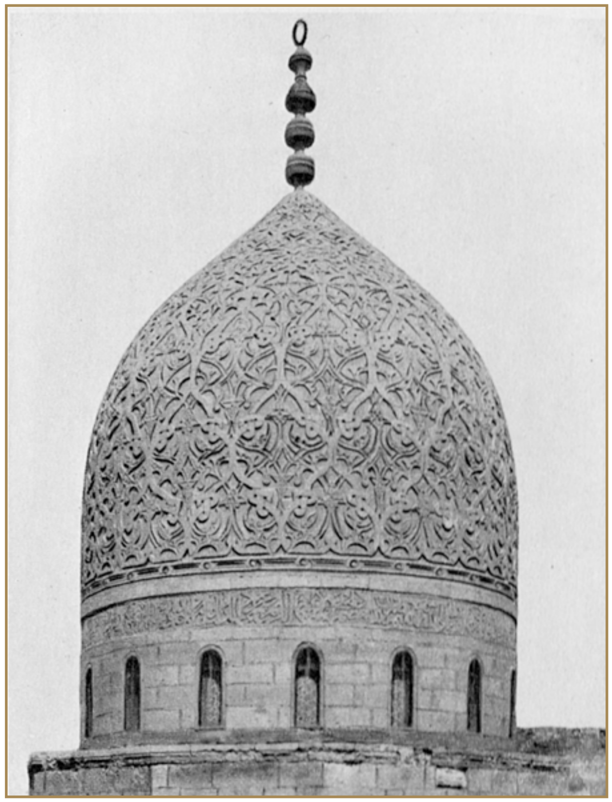
ومن القباب الفريدة قبة أبي سعيد قانصوه ملك مصر، المعروفة «بسليمان أبو جاموس» (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) بالمحجر.

وهي تخالــف قبتــه الأخرى الحافلــة بالزخارف من الخارج، وقبة حسام الدين طوران طاي، وهي مثال للقباب الفاخرة ذات الزخارف الفنية والهندسـية من الداخل، أما من الخارج فقد أخذت البساطة منها موضعًا كبيرًا.

وقبة كافور الهندي ذات المنظر غير المألوف في القباب الإسـلامية في مصر. ومن القباب الغريبــة المضلعة بنظام يخالــف القباب الأخرى- قبة أيتمــش البجاسي (٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م)، ثم قبة الجاي اليوسفي (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

وأحسن القباب الإسلامية المطبوعة بطابع خاص على الإجمال- قبة جامع قايتبــاي بالصحراء؛ الحافلة بالزخارف البارزة من ظاهرها، وهي مثال كامل لما أنشئ بعدها من القباب الأخر؛ كقبة قايتباي إمير آخور (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، وقبة طراباي (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، وقبة سودون العجمي (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، وقبة بيــبرس أمير آخور (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)، وقبة خاير بك من بلبان الجركسي؛ حاكم مصر العثماني (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م).

وأصغر نموذج من هذا الطرز البديع نراه في قبة جوهر القنقبائي (٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م)، ثم في قبة منكلي بغا، وهي من القرن الثامن.



قبة خاير بك الجركسي «عن مساجد مصر»

وقد كانت لمدرسة الغوري قبة من هذا النموذج الجميل، كانت تمتاز عن غيرها بكسوتها بغضائر القاشاني الأزرق تغطي ظاهرها، ومنه جاءتها تسميتها بالقبة الزرقاء[1].

وقد سقطت هذه القبة في سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م)، وحل محلها قبة أخرى في هذه السنة، ثم سقطت ثانية، وحل محلها قبة أخرى حديثة من الخشب المصفح بصفائح الرصاص، وقد سقطت أيضًا، وحل محلها سقف؛ وما زال مشروع إعادتها قيد البحث، وأما قاعدتها فهي ككل قواعد القباب المذكورة آنفًا.

(١) انظر الشعراني، وابن إياس (المؤلف).

ومن هذا الطرز أيضًا قبة آزرمك الشريفي (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، المحلاة من ظاهرها بزخارف بارزة يتخللها ضرب من القاشاني الأزرق، وقبة نصر الله؛ أمير دار الضرب، وقبة جانم البهلوان (٩١٦هـ/ ١٥١٠م).

ومن القباب المماثلة لهذا الطَّرْز، أو تقرب منها ببعض فوارق ظاهرة- قبتا جاني بك الأشرفي بالصحراء والقاهرة. وقبة الأشرف إينال (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م)، وقبة محمود الاستادار؛ وهي من أواخر القرن السابع، وقبة علاء الدين بن عصفور؛ موقع الدست بالمملكة المصرية (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م). ثم قبة برسباي البجاسي (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م)، وقرقماس؛ أمير كبير، وقانباي المحمدي، والأشرف بالصحراء والقاهرة والمؤيد شيخ، إلى قباب أخرى، وكلها ذات طرز واحد مع تباين هندسي وزمني.

وقد اتبع المهندس المسلم في أوائل هذا القرن[2] هذا النموذج في المنشآت الحديثة؛ وأظهر مثال له قباب المشاهد الثلاثة «السيدة نفيسة، والسيدة سكينة، والسيدة فاطمة النبوية، وهي مما أنشئت في عصر الخديو عباس حلمي باشا الثاني».

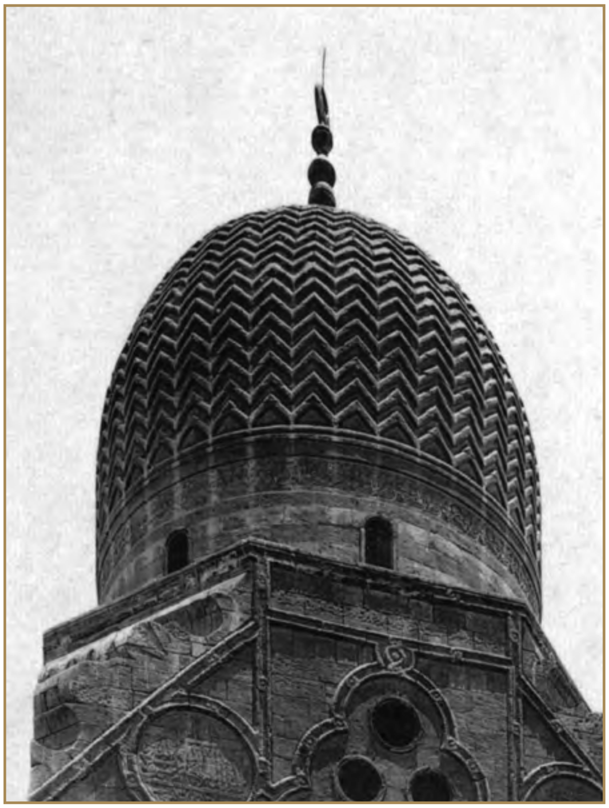
ووجد قبل هذا التاريخ طرز آخر أقل إحكامًا من هذا؛ رغم أنه بديع، مثال قبة حسن أغا جاويش (١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م)، المعروفة بقبة حسن الأكبر[3]؛ وهي من تصميم المعلم أحمد يوسف؛ والد الأستاذ يوسف؛ مفتش لجنة الآثار السابق، وضعه في سنة (١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م) على عهد الخديو محمد توفيق باشا؛ ونظارة محمد زكي باشا للأوقاف. وقبة الجنرال سيف المعروف بسليمان باشا الفرنساوي بالفسطاط، وهي

(٢) أي القرن الرابع عشر الهجري.

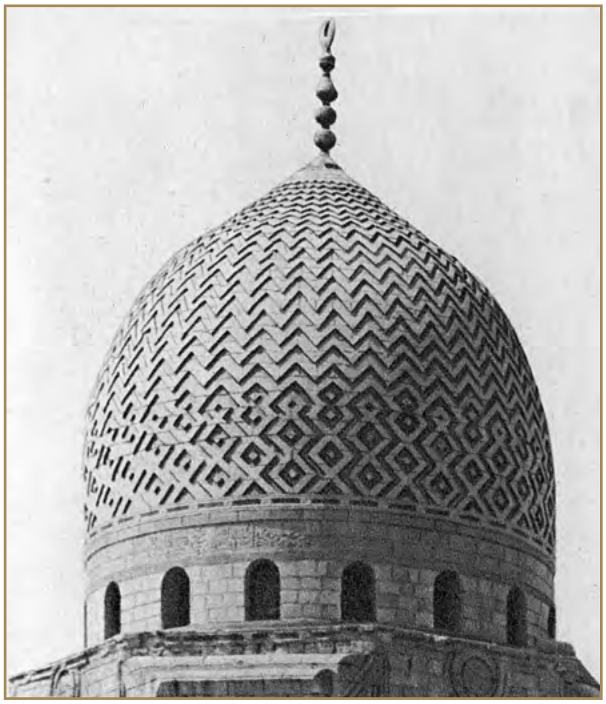
(٣) داخل أسوار ملحقات قصر عابدين.



قبة جامع قايتباي بالصحراء «عن مساجد مصر»



قبة طراباي



قبة جامع قرقماس «عن مساجد مصر»



قبة جامع المؤيد شيخ

تحاكيها نوعًا ما، إلا أنهـــا أقدم عهدًا منها.وهذا النوع محلى من الظاهر بزخارف بارزة تظهر واضحة جدًّا في قبة الحاج أحمد يوسف-رحمه الله-.

ويمكن تقسيم القباب إلى عنصرين؛ العنصر العربي الإسلامي، ويظهر بوضوح في القباب الفاطمية، وأخصها قبة مشهد السيدة رقية والشـــبيه؛ عدا قبة الأفضل شاهنشاه؛ فإنها إلى الفارسية أميل منها إلى العربية الإسلامية.

كما أن بعض القباب المماثلة للقباب العربية الفاطمية اكتســـبت عنصرًا آخر؛ طرزًا وشكلاً، يظهر لنا بوضوح في القباب التي أنشئت في أول القرن الثامن إلى أواخره تقريبًا.

وأفخم القباب الإسلامية عامة وأعظمها في فنها- قبة المســـجد الأقصى. فهذه القبة بلا مراء أروع قبة إسلامية، تدل على تقدم فنـــون الزخرفة والنقش والتصوير والإبداع عند المسلمين في ذلك الوقت المبكر.

ولكي نصف لك هذه القبة وصفًا دقيقًا نصل بك إليها بهذه الكلمات.

قبة المسجد الأقصى

لما أفضت الخلافـــة إلى عبد الملك بـــن مروان حيل بينه وبين الحرمين الشريفين؛ لقيام خصمه آنذاك عبد الله ابن الزبـــير خليفة في الحجـــاز؛ فولى وجهه شـــطر القبلة الأولى، فأمر بتجديد المسجد الأقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس، ورصد لذلك خراج مصر ســـبع ســـنين، ووكل على العمـــارة أبا المقدام رجاء بن حيـــوة بن جود الكندي، وكان من العلماء الأعلام، ويزيد بن سلام؛ مولى عبد الملك؛ من أهل بيت المقدس.

وبقيت بعد الفراغ من عمارة الحرم مائة ألف دينار، فأمر بها عبد الملك جائـــزة لرجاء ويزيد. فكتبا إليه: «نحن أولى أن نزيده من حلي نســـائنا، فضلاً عن أموالنا؛ فاصرفها في أحب الأشـــياء إليك»، فكتب إليهما بأن تسبك وتفرغ على القبة، فسبكت وأفرغت عليها، فما كان أحد يقدر أن يتأملها مما عليها من الذهب.

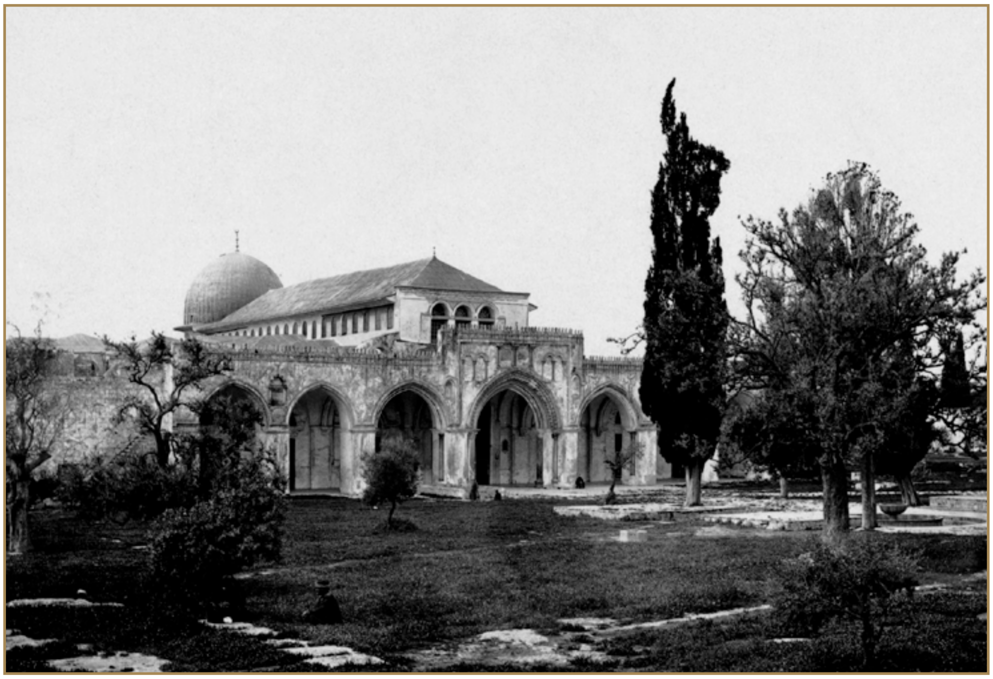
وكان الفراغ من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى في ســـنة (٧٢ من الهجرة)، وقد قرن اســـم عبد الملك بهذا الأثر الخالد منقوشًـــا بالفسيفساء عند مدخل الصخرة من الباب الجنوبي، بأعلى الكرنيـــش الموضوع على المثمن الذي يحمل قبة الصخرة بعبارة، هذا نصها الآن:

بنى هذه القبة عبد الله (بن عبد الله الإمام المأمون)
أمير المؤمنين، في ســـنة اثنتين وســـبعين، تقبل الله
منه ورضي الله عنه آمين

ويظهـــر من اختـــلاف الخط واللون في اســـم الإمام والمأمون أنه مـــن الإضافات التي حدثت بعد ذلك التاريخ، أو هي من زيادات المأمون الذي كان قد رمم القبة في عهده سنة (٢١٦هـ/ ٨٣١م)، كما سيأتي.

وقد قصد بها إخفاء اســـم عبد الملك المنشئ الأول، وإظهار اســـمه، ولكنه لم يُحْكِم ذلك، فانكشفت حيلته، وقـــد كان في موضع عبد الله الإمام المأمـــون- عبد الملك ابن مروان أو عبد الله عبد الملك.

ولهذا تجد ذلك التحريف الذي قصده المأمون، قد ترك هذا النص مشوهًا بعض التشويه.



المسجد الأقصى المبارك
أواخر القرن التاسع عشر

رد مزاعم، ودحض مفتريات

وقد ذهبت الآراء كل مذهب في تعليل البذخ الذي بذخه عبد الملك في هذه العمارة الضخمة الفخمة؛ وهذا الفن الذي أحكمه في بناء هذا البيت المقدس- إلى القول بأن عبد الملك أراد أن يحول به الأنظار عن الحرمين الشريفين؛ حيث أعلن عبد الله بن الزبير خلافته في الحجاز واستقل بها.

فمثل هذا البناء الفخم يستهوي أفئدة العامة من الناس، ويسترعي أنظارهم، ويستولي عليهم فينصرفون به عن بيت الله الحرام وقبلة الإسلام .

ولكن هيهات لهؤلاء الفرنجة هذه القالة، فالإسلام وبخاصة في هذا العصر، كان قد استحكم في القلوب وركزت فيه قواعده حتى صارت كالطود العظيم، فلا مجال لمثل هذا التلاعب وهذا الخداع الظاهر، وكيف يقرأ المسلمون القرآن في كل غدوة وعشية ويمرون فيه على قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾[1] ثم ينصرفون عنه إلى غيره، ثم كيف يقصد ذلك عبد الملك بن مروان، في الوقت الذي أضاف فيه تجديد المسجد الأقصى ورفع بنيانه مآثر أخرى، شاركه فيها ابنه الوليد؛ وهي تجديد المسجد النبوي، والحرم المكي؛ وقد تناهى في رفع بنيانهما وزخرفتهما بما لا يقل عن عمارة المسجد الأقصى، وفي الوقت نفسه، قام بإنشاء مسجد جامع في دمشق؛ عاصمة المملكة الإسلامية، وهو ذلكم المسجد الذي رفع قواعد الفن الإسلامي وبلغ به إلى أعلى الذروات؟

إن هذه الأعمال نفسها التي قام بها عبد الملك وولده في تجديد مساجد الإسلام ورفعها على هذه الصورة، إنما تدل دلالة صريحة على أنهما قصدا من هذه الأبهة، وهذا التناهي البالغ في الزخرفة والتعمير- أن تكون بيوت الله

(١) «سورة البقرة»، الآية ١٤٤.

ومعابد المسلمين مرفوعة الأركان شامخة البنيان، لا تقل جمالاً وجلالاً وعظمة عن معابد الأمم الأخرى.

وقد قيل: إن الدول متى فازت من الغنى بسهم وافر ظهرت آثار النعم عليها في البناء.

والإسلام قد حرم أو كره التطاول في البنيان إلا في المساجد، ولذلك اشترط أن يبنى المسجد بوسط البلد، حتى يكون بعيدًا عن المساكن، فلا تحيط به؛ مخافة الضرر الناتج عن حجب الضوء والهواء.

إذ قد علم عبد الملك ذلك كله قام بهذا العمل؛ فمن أين يكون لهذه القالة مؤدى من الصحة أو مبلغٌ من الوثوق؟

وحسبك هذا دحضًا لهذه الفرية؛ وردًّا لهذا الزعم الخاطئ وتلك القالة المرذولة.

وفي سنة (١٣٠هـ/ ٧٤٧م) سقط شرق المسجد الأقصى وغربه في الزلزلة التي حدثت في خلافة أبي جعفر المنصور، فخوطب في عمارته، فأمر بقلع صفائح الذهب والفضة التي كانت على الأبواب، فقلعت وضربت دنانير وأنفقت عليه حتى فرغ، ثم حدثت زلزلة أخرى سنة (١٥٨هـ/ ٧٧٤م) تهدم بها البناء الذي أمر به المنصور، فأعيد بناؤه في خلافة المهدي سنة (١٦٩هـ/ ٧٨٥م).

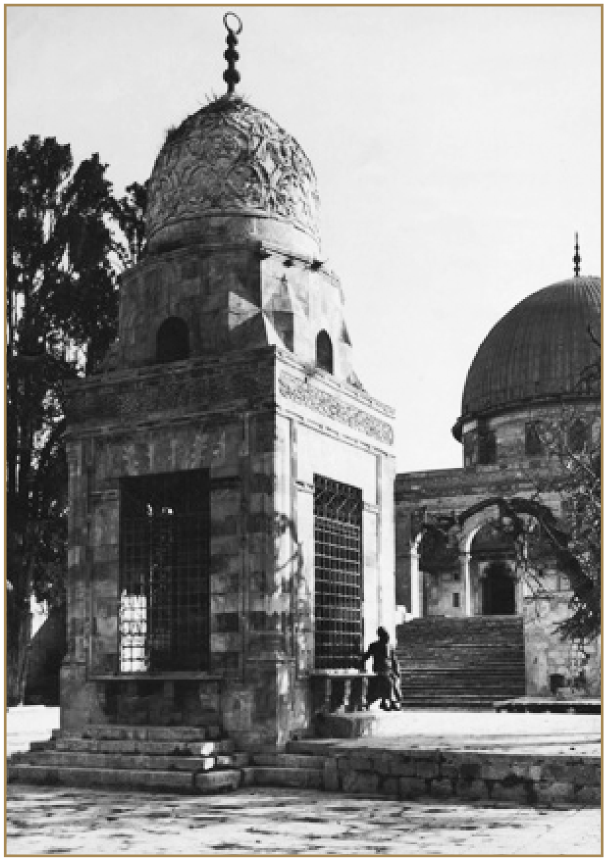
وأخيرًا جددت عمارة قبة الصخرة في عهد المأمون سنة (٢١٦هـ/ ٨٣١م)، وزلزلت الأرض سنة (٤٠٧هـ/ ١٠١٦م)، فتهدمت هذه القبة وبعض الجدران المحيطة بها، فبناها الخليفة الظاهر سنة (٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م)، ولما احتل الصليبيون بيت المقدس حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة؛ وهم يحسبون أنها هيكل سليمان وبنوا على مثالها بعض الكنائس في أوروبا؛ أي جعلوها مثمنة الجدران، فاستردها منهم الملك صلاح الدين، وأعاد الحرم الشريف إلى ما كان عليه وذلك سنة (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م)، وكان الملك العادل نور الدين الشهير قد أعد منبرًا فخمًا صنعه حميد بن الظافر الحلبي وسليمان ابن معالي من خشب مرصع بالعاج والأبنوس، وعليه تاريخ سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)، فأحضره صلاح الدين من حلب وجعله في المسجد الأقصى، وهو الموجود به إلى عصرنا هذا[1]. وأمر بترميم محراب المسجد، وكتب عليه بالفصة الذهبية:

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المحراب المقدس. وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبوالمظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين. عندما فتحه الله على يديه في شهورسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة

وقد توالى الملوك من آل أيوب؛ وهم يزيدون في تنميق المسجدين ويرممون ما تهدم منهما حتى عصر الظاهر بيبرس الأول البندقداري، فجدد قبة السلسلة وبنى خانًا وسبيلاً ونقل باب القصر الفاطمي إليه، وما زال كذلك إلى أن كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان من المغرمين بتشييد المباني؛ فرخم صدر المسجد الأقصى،

---

(١) أتت النيران على هذا المنبر الفريد فيما سمي بحادثة إحراق المسجد الأقصى، والتي تمت على أيدي متطرفين صهاينة في ٢١ أغسطس عام (١٩٦٩م)، وكان هذا المنبر هو منتهى ما بلغه الفن الإسلامي في فن صناعة الأخشاب؛ حيث تم بناؤه بواسطة ١٦ ألف قطعة خشبية معشقة دون استخدام مسامير أو غراء، وتمت بعد ذلك عملية ترميم لهذا المنبر في جامعة البلقاء الأردنية، والتي استغرقت خمس سنوات، مع أن عملية بنائه نفسها لم تستغرق سوى سنتين فقط، ثم تم نقله إلى مكانه الأصلي في المسجد الأقصى.



سبيل قايتباي بالحرم القدسي الشريف

وفتح فيه الشباكين اللذين على يمين المحراب وشماله، وجدد تذهيب قبة المسجد الأقصى، وقبة الصخرة وباب القطانين، وكان ذلك في سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م).

وفي أيام الملك الأشرف شعبان؛ حفيد الملك الناصر ـ بنيت المئذنة التي على باب الأسباط، بمباشرة السيفي قطلوبغا؛ ناظر الحرمين الشريفين، وذلك سنة (٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م).

وفي سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) بنيت منارة العواتكة، وقد أتينا على وصفها وصفًا دقيقًا في كتابنا هذا، ثم تلتها مئذنة أخرى في سنة (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)، وهي منارة باب السلسلة.

وفي سنة (٧٨٧ و٨٩٠هـ/ ١٣٨٥ و١٣٨٨م)، أمر الملك الأشرف قايتباي بتجديد ما تداعى من جدران الحرم، وبنى سبيلاً جميلاً بقبة كما بنى مدرسة. والمحقق أن السلطان سليمان القانوني عُني بالحرم القدسي فجدد القبة وغير وضع كواها؛ فجعل حناياها مرأسة ووضع فيها الزجاج الملون على أشكال بديعة حتى يتلطف النور الداخل منها، ووضع القاشاني الجميل الألوان فوق واجهة الفسيفساء الباقية من عهد الوليد والظاهر، واستدعى لذلك الصناع من بلاد الفرس. و بنى سبيلاً جميلاً، وكان ذلك في سنة (٩٤٣-٩٤٥هـ/ ١٥٣٦-١٥٣٨م).

وصف قبة الصخرة

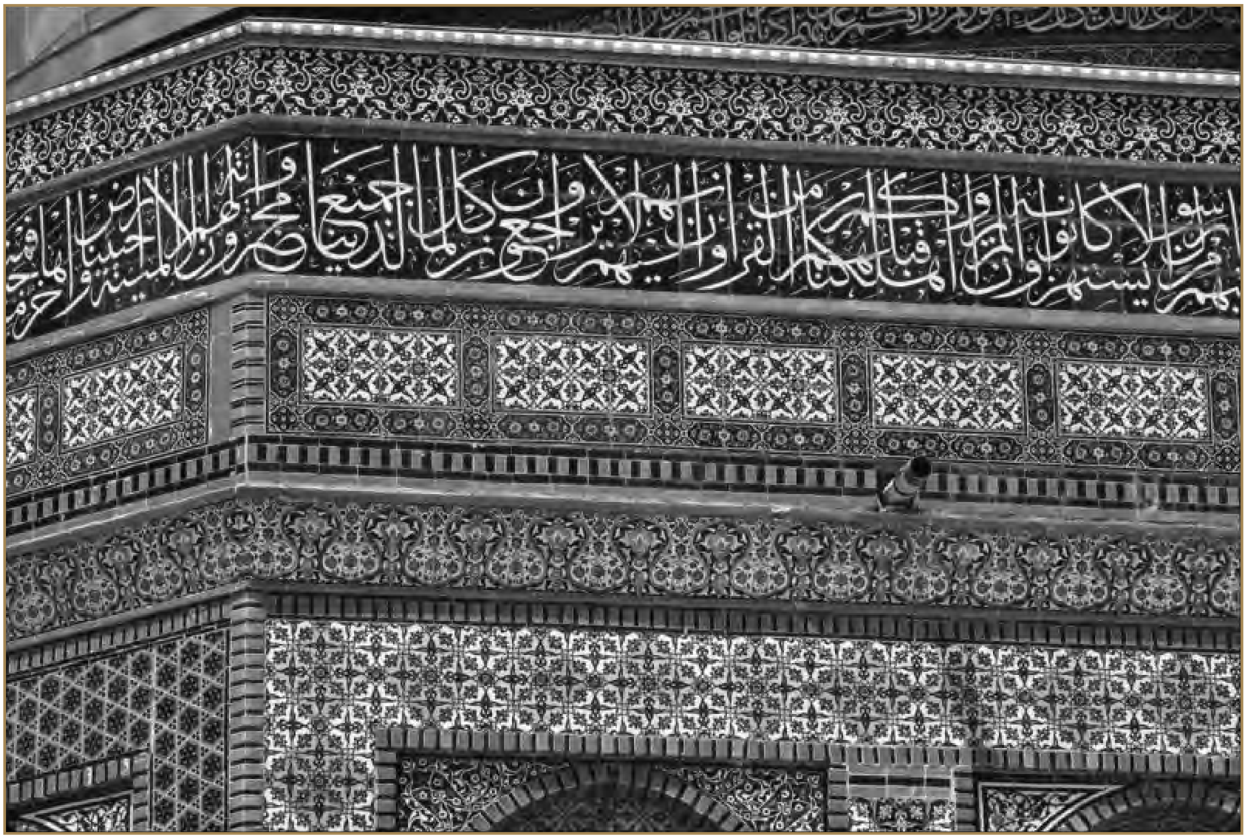
وتوصف قبة الصخرة بأنها قائمة على بناء فخم مثمن الشكل، ذراع كل جانب منه ٢٠ مترًا و٤٠ سنتيمترًا، وقد كسي القسم السفلي من ظاهرها بالرخام الأبيض المشجر والقاشاني البديع، الذي يترقرق فيه ماء الألوان المتزاوجة من لازوردي صافٍ وأخضر قاتم وأبيض ناصع، يعلو ذلك شبه إفريز رسمت عليه آي القرآن الكريم بخط جميل، وقد صنع هذا القاشاني العجيب في أيام السلطان سليمان القانوني.

وللبناء أربعة أبواب؛ باب الجنة في الشمال، وباب النساء في الغرب، وباب داود أو باب السلسلة في الشرق، وباب القبلة في الجنوب؛ وأمام هذا الباب رواق مفروش بالرخام، عليه سقف مكسو بالقاشاني، وهو محمول على ثمانية أعمدة من الرخام مختلفة نوعًا ولونًا.

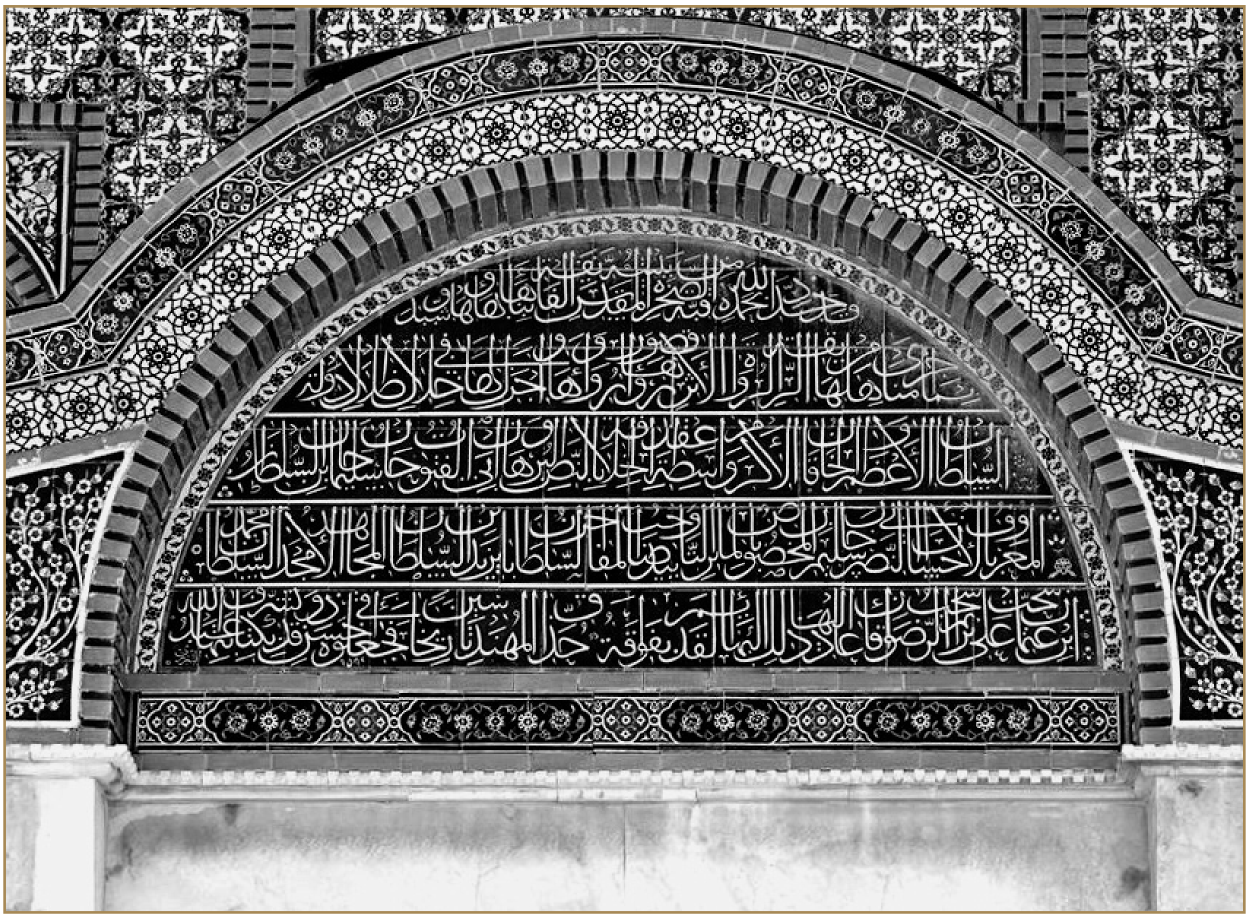
ويبلغ قطر البناء من الداخل ٥٠ مترًا، وهو مقسم إلى ثلاث مناطق يفصل بعضها عن بعض صفان مستديران من الأعمدة المختلفة الألوان، ويزين باطن القبة ٦٤ شكلاً مصنوعة من الفسيفساء الملونة مركبة على سطح موشى



المسجد الأقصى وقبة
الصخرة بالقدس



قاشاني السلطان سليمان
بالحائط الخارجي لقبة
الصخرة



نص تجديد قبة الصخرة بواسطة
السلطان سليمان يعلو أحد
المداخل

بالذهب؛ وفي كرسيّ القبة ست عشرة طاقة من الزجاج المذهب، وعليها نقوش تدل على أنها صنعت في زمن السلطان سليمان سنة (٩٤٥ للهجرة/ ١٥٣٨م)، إلا أن المرمر الذي يكسوها ركب في زمن السلطان صلاح الدين، وجدد في أيام السلطان سليمان.

والمسجد الأقصى إلى الجنوب من مسجد الصخرة، وطوله ١٠٠ مترٍ وعرضه ٥٥ مترًا، عدا ما أضيف إليه من الأبنية. ومنها رواق كبير أنشأه الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م). والمسجد قائم على خمسة وأربعين عمودًا؛ وهي قديمة نقلت في الأغلب من أنقاض أبنية أقدم عهدًا من الحرم، و فوقها قناطر، وبقية المسجد من الجنوب عليه قبة مرتفعة مزينة بالفسيفساء المذهبة الملونة. وهي مما رسمه صلاح الدين سنة (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، والنية متجهة الآن لترميم ما تصدع من هذا الأثر الخالد.

الآثار العربية بالقدس

وبالقدس آثار إسلامية جميلة، أنشئت في عصور مختلفة، أشهرها:

- رباط الملك المنصور قلاوون ملك مصر، أنشأه في سنة (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).
- ثم مدرسة الأمير تنكز الناصري (٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م).
- ثم مدرسة آل ملك سيف الدين الجوكندار، صاحب الأثر المشهور به بالقاهرة، أنشأها سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م).
- ثم مدرسة الأمير منجك اليوسفي؛ نائب الشام (٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م).
- ثم تربة الأمير طاشتمر العلائي (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م).
- ثم زاوية تركان خاتون سنة (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م).
- ثم المدرسة الكيلانية سنة (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م).
- ثم تربة الأمير حسام الدين بركة خان سنة (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م).
- ثم سراي خوند طون شق المظفرية سنة (٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م)، وهي السنة التي توفيت فيها المُنْشِئة لهذا الأثر، ثم سبيل السلطان سليمان خان العثماني سنة (٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م).

ويعتبر المسجد الأقصى بما فيه أعظم مجموعة أثرية إسلامية بهذا القطر المقدس.

القبة النبوية

من هذا الوصف الكامل للمسجد الأقصى، يمكننا تصوير قبته بوضوح. وأما القبة الخضراء النبوية، المقامة على القبر الشريف، بالمسجد النبوي، فهي من إنشاء الملك المنصور قلاوون ملك مصر في سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) أولاً، ثم الأشرف قايتباي في سنة (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) ثانيًا، وقد سبقها قباب أخرى، كانت بالمسجد النبوي منها قبة الصحن التي أنشأها الناصر لدين الله العباسي في سنة (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)، وهي التي جددها المعتصم في سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، ثم في العهد العثماني طليت القبة النبوية بعد تجديدها باللون الأخضر كما تقدم، ومن ذلك الحين عرفت بالقبة الخضراء، على مشرفها أفضل الصلاة وأزكى التحية والسلام، وفيها يقول الشاعر:

وتلك القبةُ الخضراءُ فيها
محمدٌ نورُه يُجلي الظلاما



القبة الخضراء فوق غرفة الضريح بالحرم النبوي

المنابر في الإسلام

تاريخها ونشأتها وتطورها

مجلس رسول الله ﷺ

جدير بنا قبل أن نتكلم على تاريخ المنابر في الإسلام ونشأتها وتطورها، أن نعرض لمجلس رسول الله ﷺ، لعلاقته بهذا البحث.

لم يتصد للكتابة في هذا الموضوع بنوع خاص- غير أستاذنا فضيلة الشيخ الطاهر ابن عاشور شيخ الإسلام المالكي بتونس، فقد نشر بحثًا قيمًا في مجلة الهدايا الإسلامية، ١٠ أكتوبر (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)، فصّل فيه الكلام تفصيلاً على مجلس الرسول ﷺ في بيته وفي مسجده وفي غير ذلك، ومن هذا البحث يتبين لنا جليًّا أن المنبر النبوي لم يكن يومًا من الأيام مقعدًا لحضرة النبي ﷺ، يجلس فيه للأحكام أو لغيرها، وإنما كان يستعمله في الخطابة الجمعية وغيرها وحسب.

ولكي تقف معي على تقرير هذه الحقيقة يحسن أن ألخص لك عيون هذا الحديث؛ بيد أني أقول أولاً: جاء في كتاب الدلالات السمعية لأبي الخزاعي؛ رواية عن أبي هريرة وأبي ذر، في صفة الدكة التي كان يجلس عليها رسول الله ﷺ، ونصها: «كان ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه فيجيء الغريب ولا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا منه أن نجعل له مجلسًا يعرفه الغريب إذا أتاه، فبنينا له مكانًا من طين، فكان يجلس عليه، ونجلس بجانبه». وقد أخرج مسلم هذا الحديث عن أبي هريرة في كتاب الإيمان؛ في قصة مجيء جبريل إلى حضرة النبي ﷺوسؤاله له عن الإسلام والإيمان والإحسان إلخ.... وأخرجه البزار في مسنده.

وأخرج مسلم عن حميد بن هلال، قال أبو رفاعة العدوي: «انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، فقلت يا رسول الله: رجل غريب يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، قال: فأقبل عليّ رسول الله ﷺ وترك خطبته، حتى انتهى إليّ؛ فأتى بكرسيّ حسبت قوائمه حديدًا، قال: فقعد رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها».

وقد روى النسائي والطبراني هذا الحديث بمعناه، وهو عند البخاري في الأدب المفرد: وأن هذا الكرسيّ الذي كان قوائمه من حديد- كان يجلس عليه الرسول ﷺ في المسجد.

وفي الصحيح أن عبد الله بن مسعود كان خادم وسادته ﷺ، وقد كان لحضرة النبي ﷺ عدة وسائد؛ منها ما يجلس عليها في المسجد النبوي، ومنها ما يجلس عليها في بيوته، وما يحمل في الأسفار لجلوسه.

وكان من أخلاقه الشريفة ﷺ إذا أتاه زائر أو وافد أجلسه عليها، فعل ذلك مع سلمان الفارسي - حينما قدم عليه - ودخل عليه وافد من العرب يريد الإسلام؛ يقال له عدي بن حاتم؛ وكان حضرة النبي ﷺ إذ ذاك جالسًا عليها، فلما دخل عليه ألقى إليه الوسادة وجلس هو على الأرض، فلما شاهد العربي ذلك من حضرة النبي ﷺ، قال: أشهد أنك لا تبغي في الأرض علوًّا ولا فسادًا ثم أسلم. أخرجه الحاكم في المستدرك بإسناد صحيح.

وذكروا في صفة هذه الوسادة أنها كانت من حرير، وكانت له وسادة أخرى مثلها يتكئُ عليها إلى الحائط.

وروينا - أيضًا من كتب السيرة والمصادر الحديثة - أن حضرة النبي ﷺ كان له مجلس آخر يجلس فيه على شرف عالٍ، ومجلس آخر يجلس فيه داخل فسطاط؛ فالأول كان يقام عند حضوره ﷺ في المجالس العلمية التي كان يتبارى فيها الأدباء والعلماء بأدبهم وعلمهم، والثاني كان يقام وقت الحرب، وكان يقال له العريش.

هذا الذي ذكرناه إلى جانب ما سيذكر بعدُ يبينُ لنا كيفية مجلس رسول الله ﷺ في مسجده وغيره، ويقول أستاذنا في مبحثه الذي أشرنا إليه: «إن من مارس الحديث والسيرة لا يشك في أن مجلس رسول الله ﷺ الذي يلتف حوله فيه أصحابه وتجري فيه معظم أعماله في شئون المسلمين إنما كان بمسجده، وأن ما عداه من الأمكنة التي ورد في الآثار حلوله فيها، إنما هي مقاعد كان يحل فيها قبل البعثة وبعدها قبل الهجرة، وبعدها قبل أن ينظم أمر المسلمين، أو بعد ذلك فيما بعد الهجرة لعوارض تعرض من زيارة أو ضيافة أو عيادة أو قضاء مصالح أو نحو ذلك، فقد جلس قبل البعثة وهو بمكة في دار ابن جدعان، وفي المسجد الحرام، وآوى إلى غار حراء يتحنث فيه بإلهام من الله تعالى استئناسًا بالوحي، وجلس بعد البعثة في دار الأرقم بن أبي الأرقم وفي شعب أبي طالب مدة القطيعة، وسكن دار أبي أيوب الأنصاري عند مقدمه المدينة، وجلس بمسجد قباء قبل بناء المسجد النبوي؛ ولم يلبث أن بنى مسجده، فكان مجلسه بعد في ذلك المسجد، فيما عدا أحوالاً تعرض، مثل خروجه إلى بني عمرو بن عوف للإصلاح بينهم. «ثم قال شيخنا»: «ثم إن تعيين مكان جلوسه من المسجد لم يجرِ له ذكر في كلامهم، والذي يظهر لي أنه كان يلزم مكانًا معينًا للجلوس لينتظره عنده أصحابه والقادمون إليه»، ثم استدل على أن هذا المكان المعين هو ما بين المنبر وحجرة عائشة، وهو الملقب بالروضة [انظر أدلته الأربعة من الصحيح على ذلك].

ثم فصّل الكلام على هيئة المجلس النبوي، فدل على أن الآثار الواردة في هذا الصدد تنص على أن المجلس كان إما على صورة الحلقة الواحدة، وإما الحلق المتداخلة؛ كما يدل عليه حديث أبي واقد الليثي المخرج في صحيح البخاري.

وكان مجلس الرسول ﷺ من هذه الحلقة في وسطهم، كما دل عليه حديث ضمام بن ثعلبة السعدي.

وذُكر في صفة جلوسه ﷺ أنه كان يجلس إما محتبيًا أو متربعًا أو متوسدًا أو متكئًا على حسب الروايات الواردة.. إلى آخر ما بسطه في هذا الحديث، ارجع إلى المصدر المشار إليه.

وكما كان مجلس الرسول ﷺعلى هذه الصفة، كذلك كان مجلس أصحابه؛ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية؛ بل كان لكل من هؤلاء مقعد خاص يشبه السرير، عدا معاوية، فقد امتاز مقعده امتيازًا جعله في حكم عروش الملوك، تبعًا لنظام العمران الذي اتسعت دائرته في زمنه.

وكان علماء الصحابة؛ كابن عباس وابن مسعود وغيرهما، إذا جلس أحدهم للدرس أو لغيره جلس متوسدًا على أحسن ما يكون من الوسائد، حتى ذكروا أن وسادة ابن عباس كانت مطرزة بزخرفة تمثل عصافير، وأخرى نباتية.

هذه النصوص التي قدمناها في صفة مجلس الرسول ﷺ وأصحابه من بعده تدحض الرأي القائل بأن المنبر ذا الدرجتين الذي اتخذه حضرة النبي ﷺ في بادئ الأمر لم يكن سوى المكان الذي يجلس فيه النبي ﷺ وخلفاؤه الأولون عند عقدهم المجالس، أو في أيام الأعياد، أو عند النظر في الشئون العامة.

على أننا لو اتخذنا من هذه النصوص التي قدمناها جميعها- نصًّا واحدًا لا ينهار هذه القالة، لكان فيه مجزأة، وهو حديث الرجل الذي دخل عليه حضرة النبي ﷺ يسأل عن دينه، وكان قائمًا يخطب على المنبر، فتنحى عنه ودنا منه وعلمه أمور دينه، ثم عاد إليه فكمل خطبته التي كانت أشبه شيء بمحاضرة كان ﷺ يلقيها في ذلك الوقت على الصحابة؛ تثقيفًا لعقولهم، وتهذيبًا لنفوسهم.

لو اتخذنا هذا النص وحده لكان كافيًا لنقض هذه النظرية، وقلبها رأسًا على عقب.

وإذ قد وضحنا ذلك توضيحًا لا غبار عليه، فنذكر بالتالي حديثنا عن المنابر الإسلامية ونشأتها.

المنبر في الاصطلاح اللغوي

المنبر بالفتح والكسر- والفتح أفصح- لفظ عربي لُحمة وسدى، اشتق من النبرة وهو الارتفاع، يقال: نبر؛ أي ارتفع، ومنها قولهم تسمع نبرات صوته؛ أي ارتفاعاته، وقد تواطأت كتب اللغة العربية جميعها على ما ذكر.

وهذا القول يدحض الرأي القائل بأن هذا اللفظ يمت إلى الحبشية، أو غيرها من اللغات الأجنبية.

منبر رسول الله ﷺ

لا نريد أن نفيض القول في إيراد كل ما ورد من الاختلافات في نشأة المنبر النبوي في المصادر الحديثية، ولكنا نكتفي منها بما صح لنا من هذه الروايات.

جاء في صحيح البخاري عن جابر، أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه، فإن لي غلامًا نجارًا، قال: إن شئت فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع له.

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن أُبَيّ بن كعب عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع؛ إذ كان المسجد عريشًا فكان يخطب إلى ذلك الجذع، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، هل لك منبرًا تقوم عليه يوم الجمعة حتى يراك الناس وتسمعهم خطبتك؟ قال نعم. فصنع له ثلاث درجات «إلخ الحديث».

هذه هي الرواية التي يجب أن يعتمد عليها في هذا الباب؛ وما خلاها فلا يمكننا بحال أن نتخذه حجة على نشأة المنبر النبوي، وثمة رواية أخرى من حديث بريدة، وهي إن اختلفت في الألفاظ اختلافًا بينًا فإنها ذات معنى واحد (انظر مسند الدارمي)، إلا أننا نرجح رواية البخاري وابن سعد على رواية الدارمي لصحتها عندنا. ومجموع هذه الروايات قد أبهمت اسم الصانع لهذا المنبر؛ لكن رواية البخاري أفصحت بأنه غلام أنصاري، وكان في الوقت الذي ينسب فيه لهذه المرأة الأنصارية يحترف صنعة النجارة؛ ولهذه الرواية معضد آخر من حديث سهل بن سعد، وهي في مسند الإمام أحمد. كما أن رواية ابن سعد قد أثبتت- من وجه لا يقبل الشك- أنه صحابي من صحابة رسول الله ﷺ.

ولقد أثار هذا الإبهام فريقًا من علماء الحديث وغيرهم، فذهب بهم الحدس والتخمين إلى أقوال شتى في اسمه، فيسميه الطبراني «إبراهيم»، وقيل: «باقوم»، وعلى رواية الطبراني هذه ترجم الحافظ ابن حجر في الإصابة لإبراهيم ولباقوم، فذكر أن أحدهما هو الذي قام بصنع المنبر النبوي، لكنه إزاء هذا خرج من إسناد هذه الرواية راوٍ كذاب، وهو العلاء بن سلمة الرواس، وسماه ابن سعد كلابًا، وجعله مولى للعباس بن عبد المطلب.

وذكر في موضع آخر أن صانع المنبر هو تميم الداري، وعلى هذه الرواية تابع القلقشندي في صبح الأعشى، وزاد من وحيه وإلهامه: أن تميمًا دفعه على هذا رؤيته لمنابر الكنائس بالشام، مع أن ابن سعد في الطبقات راوي هذا الحديث، لم يذكر هذه العبارة، بل نص قوله: ألا أعمل لك منبرًا كما رأيت يصنع بالشام؟ قال راوي الحديث: فشاور رسول الله ﷺ المسلمين في ذلك فرأوا أن يتخذه، فقال العباس بن عبد المطلب: إن لي غلامًا يقال له كلاب أعمل الناس؛ فقال رسول الله ﷺ: مره أن يعمله، فأرسله إلى أثلة بالغابة، فقطعها ثم عمل منها درجتين ومقعدًا. الحديث (١٤- ٢ طبقات).

وقد أفصحت هذه الرواية من وجه واضح أن الصانع الذي اختاره حضرة النبي لعمل منبره- مسلمٌ، واسمه كلاب، وكان غلامًا لعمه العباس.

وهذا ما خرجنا به من هذه الرواية؛ فلا تميم صانعه ولا غيره.

وهذا النص لم ينفرد به ابن سعد، بل هو رواية كل المحدثين، فمن أين للقلقشندي هذا اللفظ؟ إن مفهوم هذا الحديث يدل على أن تميمًا أراد من قوله هذا زيادة الاعتناء بصناعة المنبر؛ إذ إن صناعة النجارة بالشام كانت أروج وأحكم منها في المدينة النبوية.

هذا ما يقال توضيحًا لذلك؛ وعلى فرض الأول، فقد أبى حضرة النبي ﷺ صنع منبره بالشام؛ لبعد الشقة من جهة ولهذه الفكرة - لو صحت - من جهة أخرى.

أما السيوطي فقد جعل صانع المنبر النبوي تائهًا بين ميمون، وباقوم أو باقول، وصباح، وقبيصة وكلاب وتميم ومينا، وجزم بأنه كان في سنة سبع، أو ثمان من الهجرة [انظر التوشيح له].

ونحو ذلك لابن رشـــد في المقدمات، إلا أنه اقتصر على ذكر ثلاثة؛ منهم سعد بن عبادة؛ أو غلام المرأة الأنصارية، أو غـــلام العباس، ثم عقب ذلك بقـــوله: ولعلهم اجتمعوا كلهم على عمله. وزاد ابن بشكوال آخر، جعله مولى للعاص ابن أمية، وقد انفرد بهذا، كما انفرد به غيره فيمن ذكرنا.

ولقـــد كان لهذا التضارب في الـــرأي الذي دفعه حب الفضول وعدم التبصر، أثره السـيئ في نفوس المعنيين بهذه الأمور من مسلمين مقلدين وفرنجة؛ فراح معظمهم يفرض الفروض والاحتمالات، ويقيس بين المنابر الكنائسية والمنبر النبوي، إلى غير ذلك.

لو ســـلمنا جدلاً بهـــذا لأمكننا أن نقـــول إن المنبر النبوي كان مع هذا من الضخامة والارتفاع وإتقان الصنعة وإحكامها بمكان؛ إذ إننا بهذا القول يمكننا الجزم بأنه عمل على نســـق منابر الكنائس التي بالشام وغيرها؛ لأنه محال أن تكون منابـــر الكنائس - إن ثبت لدينـــا وجودها في ذلك العهد - كانت عبارة عن قطعة خشب تتكون من درجتين أو ثلاث ومقعد، كتلك التي قام بصنعها ذلك الغلام. فهل كانت هـــذه الدرجات الثلاث يســـتعصي عملها على عمل الكرسي الذي عمل لحضرة النبي ﷺ لجلوسه وكانت قوائمه من حديد؟! أو أعلى المقصورة التي عملت له ﷺ ليتعرف إليه الوافـــدون والقادمون؟ أو على غيرها مما صنع له من المرافق؟ وهل كانت المدينة بذلك العدد الزاخر من المسلمين تضيق ذرعًا عن وجود نجار يستطيع عمل تلك الدرجات؟

اللّهُمَّ إن هذه مغالطة وقلبٌ للأوضاع، وتشويه للتاريخ؛ لا ينبغي أن يسود هذا بين عالم بلغ به التمدن، وحب الإنصاف والميل إلى الفضيلة ووضع الحد في نصابه مبلغًا عظيمًا.

وحســـبنا ما قدمناه هنا دحضًا لهذه الآراء، ودفعًا لهذا الافتراء.

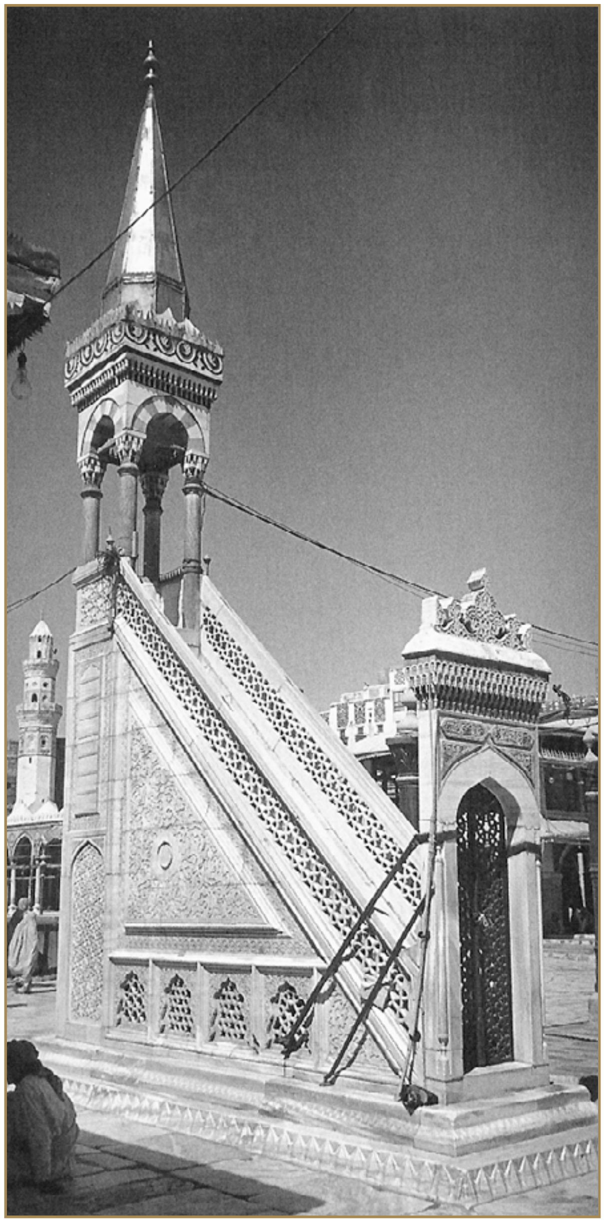
قدسية المنبر النبوي

وقد اســـتطعنا أن نخرج من مجموع ما درســـناه من الروايات التي خصت المنبر النبوي، أن هذا المنبر لم ينصب بالمسجد النبوي. إلا أن فكرة اختمرت في ذهن الرسول ﷺ فأراد تنفيذها إثر ما بدت له، وأنه ﷺ هو الذي رسم للنجار صورة مـــا يصنع، ولما خرجـــت هذه الفكـــرة وباتت قيد التنفيذ، شـــاور رســـول الله ﷺ ذوي الرأي من المسلمين، وأفصح لهم عن مراده، فرأوا أن يتخذه.

ومن هنا تعلم قدسية المنبر النبوي، ويتضح لك سر ما جاء بخصوصه من الأحاديث التي تخصه من تلك الناحية.

تطور المنبر النبوي

كان المنـــبر النبوي في بادئ الأمـــر يتكون من ثلاث درجـــات، وكان النبي ﷺ يخطب واقفًـــا على الدرجة الثانية منه، فإذا جلس بين الخطبتين أو للاستراحة، فيما إذا كانت الخطابة من نوع المحاضرات في غير أوقات الجمعة، جلس على الأخيرة، وقد ظـــل المنبر طوال مدة حضرة النبي ﷺ على هـــذه الصفة، وطوال مدة أبي بكر وعمر وعثمان. فلما كان زمن معاوية زاد فيه ست درجات؛ فصار عددها جميعًا تسع درجات؛ وهذا أول تطور للمســـجد النبوي اقتضته ســـنة التدريج والعمران، فبـــقي على هذه الحالة حتى تقادم العهد عليه فتآكل خشـــبه فلم يصلح للخطابة عليه، فاســـتبدل بـــه المهدي العبـــاسي في ســـنة (١٦١هـ/ ٧٧٧م) منبرًا آخر، وأخذ مخلفات المنـــبر النبوي فأودعها مـــع الآثار الأخرى



منبر السلطان سليمان بالحرم المكي

بمدينة السلام. وقد قام خلفاء الدولة العباسية بعد المهدي بتجديد المنبر النبوي كلما اقتضى الأمر؛ فجدده المأمون في سنة (٢٠٢هـ/ ٨١٧م) وغيّره. فلما كانت سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) واحترق المسجد النبوي، احترق آخر منبر أقيم فيه من قبل الدولة العباسية، فتعاون المستعصم مع المعز أيبك التركماني ملك مصر مع ملك اليمن المظفر في بناء المسجد النبوي، فجدد المظفر صاحب اليمن منبرًا آخر صنعه باليمن فبقي إلى سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م)، ثم أبدل به الظاهر بيبرس الأول منبرًا آخر أكبر منه، فما برح هذا المنبر قائمًا حتى سنة (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م).

وفيها احترق المسجد النبوي جميعه للمرة الثانية، وقد أبكى ذلك المسلمين جميعهم، وأقيمت في مصر محزنة هائلة اشتركت فيها كل الطبقات، فاهتم لذلك السلطان الأشرف قايتباي، فأصدر مرسومًا ملكيًّا للأمير شمس الدين محمد ابن الزمن بأن يتوجه إلى المدينة المشرفة، وأرسل معه عدة من البنائين والنجارين والمرخمين وغير ذلك؛ وأمر بإصلاح القبة الشريفة – على صاحبها أفضل الصلاة والسلام – وإعادتها وتجديد غيرها من الحديد المخرم وكانت قبل ذلك من الخشب، وتغيير المنبر والمآذن التي كانت بالحرم، وأنشأ هناك مدرسة إلى غير ذلك، فتوجه ابن الزمن إلى هناك وشرع في البناء حتى انتهى من العمل في أواخر سنة (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م)، ولا تزال آثار هذه العمارة في الحرم النبوي الشريف باقية للآن، بارزة للعيان؛ تحفظ لهذا الملك العظيم أجمل الذكريات وعظيم الأثر.

أما منبر الحرم المكي، فهو منبر عثماني؛ من الرخام المتقن، أمر بصنعه السلطان سليمان العثماني، وجعل بأعلاه قبة من الذهب، وأحكم مهندسه وضعه على طريقة هندسية؛ بحيث إن الشمس لا تدرك موقف الخطيب لا صيفًا ولا شتاء.

ومنبر المسجد الأقصى يعد من أتحف الآثار في المنابر الإسلامية، أمر بصنعه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الشهيد في سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)، وكان



منبر برهان الدين بالحرم القدسي الشريف

أصله بحلب فنقله صلاح الدين بأمر السلطان المذكور إلى المسجد الأقصى وأقامه هناك، وهو من خشب مُحشّى بالعاج والأبنوس من صناعة حميد بن ظافر الحلبي، وسليمان بن معالي المصري؛ أحد أسرة بني معالي، الذين قاموا بصنع تابوت الإمام الشافعي كما سيأتي بيانه. وبالمسجد الأقصى منبر آخر يرجع عهده إلى القرن الثامن الهجري، معروف باسم منبر برهان الدين، وفي مسجد الخليل بحبرون منبر يعتبر من أرقى المنابر الإسلامية وتحفة فنية رائعة، يرجع تاريخه إلى سنة (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)، وهو مُحشّى بزخارف نباتية بلغت حد الإتقان في الصنعة، وهو من إنشاء الوزير بدر الجمالي، أنشأه في هذه السنة لمشهد الحسين بعسقلان، كما جاء بالنص المثبت به في سبعة أسطر الذي معنا، وقد ظل بهذا المشهد الحسيني العسقلاني إلى سنة (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، ثم نقل منه إلى مسجد الخليل، وما زال به إلى هذا التاريخ، وقد أصلح فيه بعض ما تقوض منه.



منبر جامع الخليل
«الحرم الإبراهيمي»
بالخليل

تطور المنابر ونشأتها في مصر والممالك الإسلامية

بنيت منابر المساجد الإسلامية الأولى جميعها على نسق المنبر النبوي، فلما آل الحكم إلى دولة بني أمية وزاد معاوية في المنبر النبوي؛ وجعله تسع مراقٍ بدل ثلاث- ظل الحال على ذلك، إلا أن بعضها كان يتخذ من ست أو سبع بدل تسع.

أما الصفة التي كانت عليها المنابر وقتئذ، فرغم أن سهل بن سعد أجاب حينما سُئل عن صفة المنبر النبوي؛ أنه لا يعرف صفته ولا اليوم الذي عمل فيه، ولا مَنْ عمله، غير هذا الغلام الأنصاري، ولا أي يوم وضع فيه، إلى آخر ما جاء عنه- فإن نصًّا آخر، من رواية صحيحة، أفصح بأنه كان من عود الإثل، وكان ارتفاعه ذراعين بذراع المدينة وثلاث أصابع وعرضه ذراعًا، وارتفاع مقدمه ذراعًا، وارتفاع رمانتيه شبرًا وأصبعين، ومجموع أعواده من جوانبه الثلاثة خمسة أعواد، ودرجاته ثلاث.

وقد كانت هذه الهيئة بطبيعة الحال لم تجعل للمنبر النبوي سقفًا كما هو الحال في منابر مصر الآن، ولهذا كانت المنابر مع زيادة ارتفاعها بدون سقف.

فكانت في مصر أولاً كذلك مدة حكم الدولة الأموية والعباسية، ثم شاع استعمالها بعد من الحجر والرخام بدل الخشب؛ وقد أبقت لنا الأيام نموذجًا من المنابر الأموية التي أمر بصنعها في أيام مروان بن محمد في سنة (١٣٢هـ/ ٧٤٩م) لمساجد مصر؛ فقد عثر الباحثون على منبر، يرجح أنه كان بمسجد دلاص[١]، وهو يشتمل على سبع درجات، يتخللها زخارف جصية؛ والأخيرة منها تنتهي بالمقعد، وهو عارٍ من السقف.

وكانت المنابر في صدر الإسلام لا توضع في المساجد بصورة ثابتة، إنما كانت توضع إما في مؤخر الإيوان الشرقي على يمين المحراب أو على يساره، و إما أن تبنى لها بيوت إلى جانب المحراب تحفظ فيها طوال أيام الأسبوع، حتى إذا كان يوم الجمعة، أو يوم يحتاج فيه إلى الخطابة المنبرية تظهر هذه المنابر من مخبئها. وكانت هذه المنابر التي على هذه الصفة منابر خشبية تجر من هذه المخابئ بواسطة عجلات تسير عليها. وما زالت بلاد المغرب قاطبة تستعمل هذه المنابر إلى اليوم، وبعضها مغطّى بقبة وبعضها مكشوف.

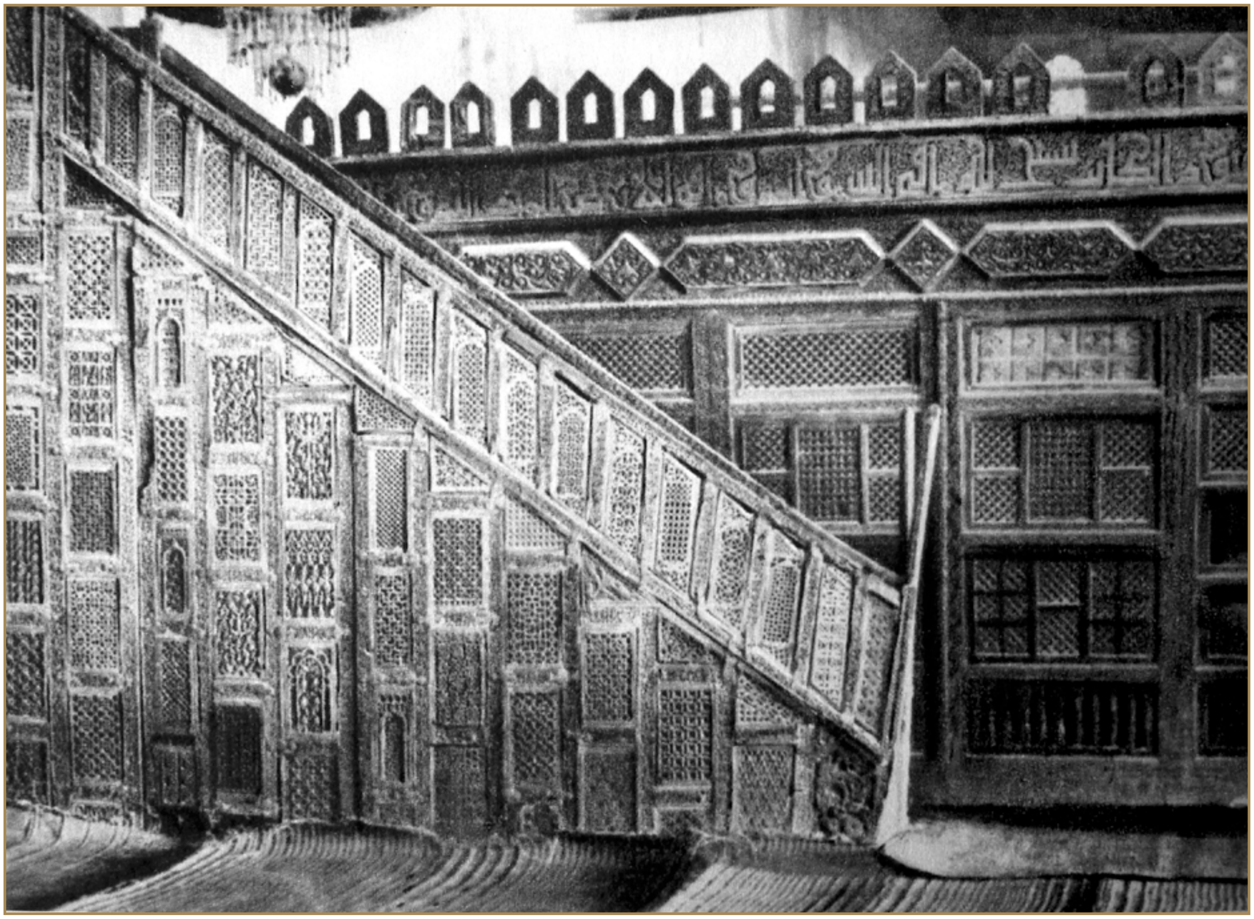
ولعل أول نموذج لهذه المنابر المغربية هو منبر جامع القيروان، الذي هو من آثار عقبة بن نافع وزيادة هشام ودولة الأغالبة.

ولما بنى عمرو بن العاص جامع مصر جعل منبره من الخشب وزاد في ارتفاعه زيادة نهاه عنها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، وأمره باتخاذ منبر صغير قليل الارتفاع كالذي في المسجد النبوي سواء بسواء، فاضطر عمرو لأن يستبدل بهذا المنبر منبرًا آخر أقصر منه درجات؛ وقيل: إن عمرًا بنى له عريشًا ليجلس فيه، فكره ذلك منه عُمرُ وأمره بإزالته.

ومهما يكن في الأمر من شيء فإن جامع مصر في زمن الفتح لم يبنَ بغير إقامة منبر فيه، وهذا يدحض القول السائد بأنه ظل بغير منبر حتى عهد مروان المذكور.

ولم تكن فكرة تصغير المنبر هذه التي اضطر إليها عمرو بن العاص- لم تكن إلا وقتية؛ فإن مسلمة بن مخلد حينما تعين واليًا على مصر من قبل معاوية، سنة (٤٧هـ/ ٦٦٧م)؛ وبنى المسجد الجامع سنة (٥٣هـ)، أقام فيه منبرًا جمع كل الصفات الممتازة من علو وتنسيق وزخرفة، إلى غير ذلك.

(١) هي بلدة تابعة لمركز الواسطة شمالي بني سويف.



منبر جامع القيروان

وجاء بعد مسلمة آخرون، فزادوا فيه تنسيقًا وإتقانًا، حتى كان منبر المسجد الجامع هو النموذج الوحيد الذي أنشئت على نسقه منابر المساجد الإسلامية في مصر عمومًا.

فكان منبر عبد العزيز بن مروان، الذي أقامه بالجامع في سنة (٧٩ من الهجرة/ ٦٩٨م) هو النموذج الأول لصناعة المنابر في مصر.

وعلى نسقه ونظامه بنى قرة بن شريك المنبر الآخر في سنة (٩٣هـ/ ٧١١م). وقد أصلح منبر قرة هذا كثير ممن جاء بَعْدُ من الحكام والولاة، فرمَّه صالح بن علي في سنة (١٣٣هـ/٧٥٠م)، ورَمَّه كذلك موسى بن عيسى في سنة (١٧٥هـ/ ٧٩١م).

وفي سنة (٢١٢هـ/ ٨٢٧م) أعاد تجديده عبد الله بن طاهر، فرَمَّ ما تخرب منه، وجدد بعض جوانبه؛ فبقي حتى سنة (٣٧٨هـ/ ٩٨٨م)؛ وفيها كان قد شاخ وهرم، لتقادم العهد وطول الزمن عليه، فاستبدل به الوزير يعقوب بن كلس، بأمر العزيز بالله الفاطمي منبرًا آخر من خشب نقي، مصفح بصفائح الذهب، فبقي إلى سنة (٤٠٥هـ/ ١٠١٤م)، فأمر الحاكم بأمر الله باستبداله منبرًا آخر، أفخم منه منظرًا وأحكم صنعة وأكثر كسوة وأكبر حجمًا، ونقل المنبر العزيزي إلى الجامع العمري بالإسكندرية.

مذكرة جامع العطارين الفاطمية بالإسكندرية

وهذا الجامع الذي نقل إليه هذا المنبر بالإسكندرية، هو الجامع الذي يعرف اليوم بجامع العطارين، المدفون به العالم المشهور؛ الشيخ محمد بن سليمان المراكشي الصنهاجي المتوفى سنة (٧١٠هـ/ ١٣١٠م).

وهو أول جامع أنشئ بالمدينة في سنة (٢٣هـ/ ٦٤٣م)، أنشأه المسلمون بأمر الأمير عمرو بن العاص- حاكم مصر الإسلامية- وظل يعرف بجامع عمرو حقبة طويلة، ثم تخرب فجدده العزيز أولاً في سنة (٣٧٩هـ/ ٨٩٢م)، ثم قام بتجديده وبنائه بناءً كاملاً للمرة الثانية الوزير بدر الجمالي؛ وزير دار الخلافة المصرية؛ في عهد المستنصر سنة (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م).

كما تدل عليه المذكرة التاريخية الباقية به إلى اليوم[١]؛ ونصها:

> **بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله. مما أمر بإنشائه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصري عند حلول رحاله[٢] بثغر الإسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابًا فرأى بجبس ولائه[٣] تجديده زلفًا إلى الله تعالى في[٤] ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربع مائة»**

ومع وجود هذه المذكرة الفاطمية بهذا الجامع، لم يتفطن إليها كثير من علماء الآثار الإسلامية مع أهميتها.

وقد سبق لنا قراءتها منذ ١٩ عامًا حينما حللنا بهذه المدينة لزيارة آثارها ومعالمها التاريخية في سنة (١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م).

وقد لفتنا إليها النظر في ذلك الحين، وكتبنا عن هذا الجامع تاريخًا موجزًا من أقدم عصوره إلى اليوم، ونشر ملخص هذه الكتابة بالأهرام، والسياسة والإسلام، وهدى الإسلام.

ولما نقل المنبر العزيزي إلى جامع الإسكندرية بقي المنبر الحاكمي بجامع الفسطاط طوال حكم الفاطميين، وكان موضع عنايتهم. حتى إذا كانت سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)؛ بعد زوال دولة الفاطميين- احترق المسجد فاحترق معه المنبر المذكور.

وما برح حتى تجدد بدله في عهد الظاهر بيبرس الأول؛ ثم كان بعد ذلك منبر المسجد الجامع يتجدد مع تجدد الجامع

---

(١) لهذا الجامع نقشان يشيران إلى تجديده على يد بدر الجمالي؛ وزير المستنصر الفاطمي، أحدهما يوجد في متحف جامعة ميسين، وقد انتقل إليها من الإسكندرية في القرن التاسع عشر، وقد نشر هذا النقش فان برشم وصارت قراءته هي المأخوذ بها، إلى أن اكتُشف نقش آخر مطابق لهذا النقش في المضمون في مستودع بجامع العطارين، وقد قام جاستون فييت بنشره والتعليق عليه بمعاونة محمد عبد العزيز مرزوق، واستطاعا تصحيح بعض الأخطاء التي وقع بها فان برشم في القراءة، انظر الهوامش القادمة، وانظر: الحسيني، **النقوش الكتابية**: ١٨٧-١٩٠.

(٢) الصحيح: «ركابه»، انظر: عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**: ٦٧؛ الحسيني، النقوش الكتابية: ١٨٧-١٨٩.

(٣) قرأها فان برشم: «فرأى تجييش ودبر»، أما الصحيح كما قرأها جاستون فييت ومحمد عبد العزيز مرزوق: «فرأى بحسن ولائه ودينه»، انظر: عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**، مج. ١: ٦٧؛ الحسيني، **النقوش الكتابية**: ١٨٨.

(٤) القراءة هنا مطابقة لما نشره فييت، أما في النقش الموجود حاليًا في الجامع، فالقراءة: «وذلك في»، انظر: المرجع السابق: ١٨٩.

حتى سنة (١٢١١هـ/ ١٧٩٦م)، فأقام الأمير مراد بك منبرًا آخر، وهو المنبر الحالي لهذا الجامع اليوم[١].

أما منبر جامع أحمد بن طولون فقد كان منبرًا فاخرًا، لكن لم يصلنا وصفه؛ لأن المنصور حسام الدين لاجين ملك مصر- حينما جدد هذا الجامع نقل منبره إلى جامع الظاهر بيبرس الأول، الذي أنشأه بطلب الصاحب فخر الدين بن حنا في سنة (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، بمنشأة المهراني، وهي المنطقة التي في تجاه شارع القصر العيني الآن، واستبدل به منبرًا آخر في سنة (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)، وهو المنبر الموجود بالمسجد إلى اليوم؛ وهو محشّى من خشب ساج هندي وأبنوس، وسداه من خشب نقي، ودرابزينه من خشب بقش، وقد كتب عليه في سطرين ما نصه:

أمر بعمل هذا المنبر المبارك مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين المنصوري في العاشر من صفر سنة ست وتسعين وستمائة

وقد طرأ على هذا المنبر ظروف قاسية أفقدته الكثير من أجزائه، وصيرته فاقدًا لأغلب مفرداته، فأصلح في سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) بعد العثور على معظم أجزائه التي سرقت منه في عصور مختلفة، فعاد بذلك نموذجًا كاملاً للمنابر الإسلامية التي صنعت في هذا العصر[٢].

أما المنابر في العصر الفاطمي فقد بلغت مبلغًا عظيمًا من الزخرفة والإتقان وإحكام الصنعة إلى حد كبير، ولدينا نموذج كامل من صناعة المنابر الفاطمية، يتجلى بوضوح في منبر جامع الحسين بالخليل، ثم في منبر الجامع العمري بقوص؛ وهو من إنشاء الصالح طلائع بن رزيك؛ وزير الفائز والعاضد، أنشأه سنة (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م). وهو من نوع المنابر التي لم تستعمل فيها الفجوات من الجانبين، كبعض ما كان يستعمل منها في صدر الإسلام، مما كان يقام بمؤخر المسجد أو يحفظ بالبيوت كما أسلفنا، وقد قرأنا على هذا المنبر هذا النص الآتي في سبعة أسطر بالخط الكوفي:

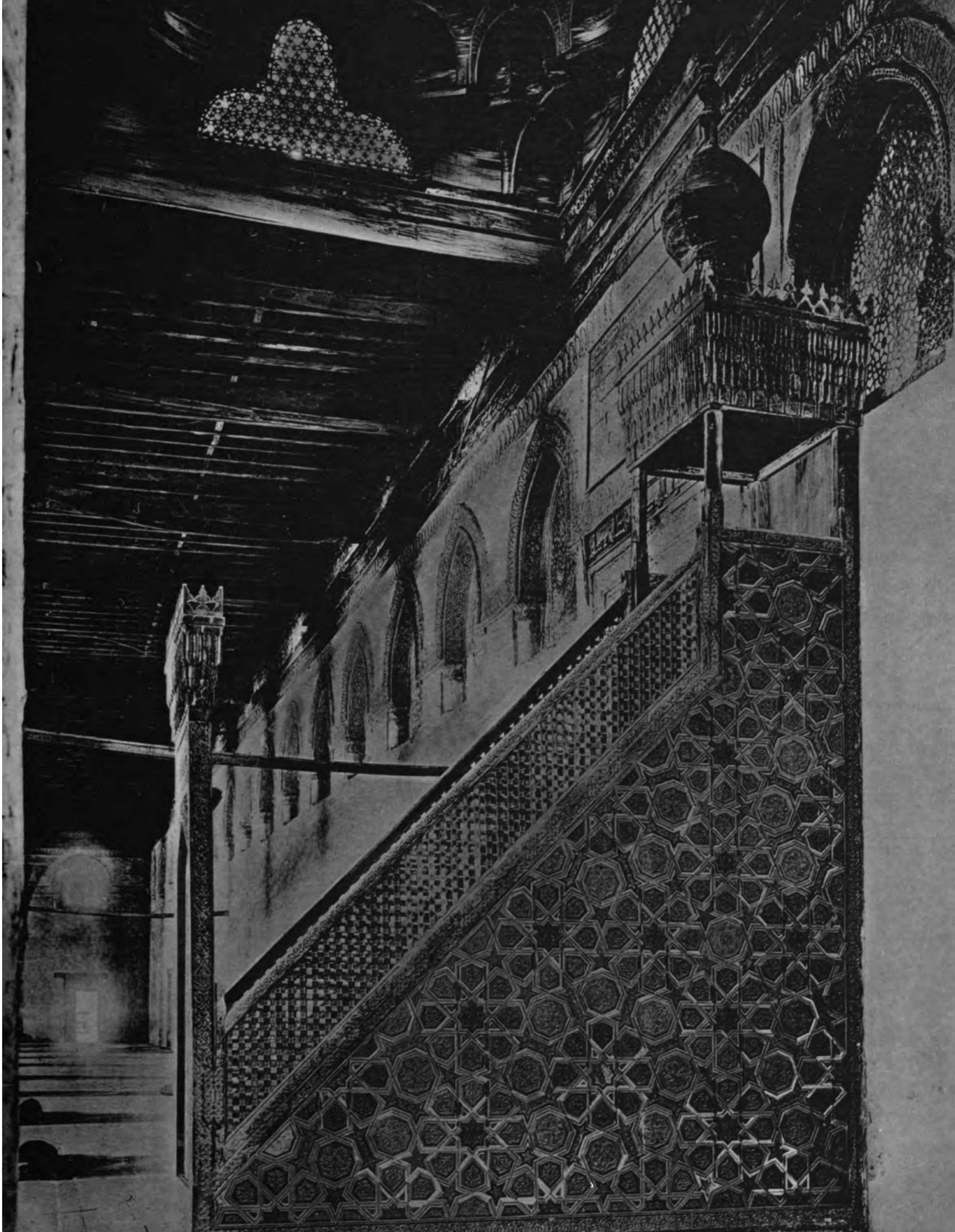
البسملة، ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. أمر بعمل هذا المنبر المبارك الشريف مولانا وسيدنا الإمام الفائز بنصر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المنتظرين على يد فتاه وخليله السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأئمة كاشف الغمة أمير الجيوش سيف الإسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلا كلمته في سنة خمسين وخمسمائة[٣]

ومن المنابر الإسلامية التي من هذا النوع منبر الأمير بكتمر الجوكندار الذي أمر بصنعه في سنة (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) لجامع الصالح طلائع بن رزيك المنشأ سنة (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م).

(١) لم يكن هذا المنبر مسجلاً في عداد الآثار الإسلامية، لذا تطرقت إليه يد الإهمال، فنُقل إلى مخازن وزارة الأوقاف في تسعينيات القرن العشرين؛ حيث ظل قابعًا إلى اليوم، ومن ثم أُعِدَّ منبر خشبي آخر خالٍ من الزخرفة نراه في المسجد حتى الآن.

(٢) ظل منبر لاجين بالجامع حتى عام (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٥م)، حينما عاينه ورسمه جيمس ويلد؛ أمين متحف سوان بلندن، ثم امتدت إليه الأيدي بالسلب والنهب، إلى أن عني به هرتس بك بجمع حشواته من أوروبا، وصور لحشوات أخرى استعان بها مع= ما بقي منه على إصلاح المنبر، واستطاع إعادته إلى أصله، انظر: عبد الوهاب، **تاريخ المساجد الأثرية**، مج. ١: ٣٧، ٣٨.

(٣) انظر: الحسيني، **النقوش الكتابية**: ٣٢٠، ٣٢١.



صورة منبر حسام الدي
لاجين بجامع ابن طولو
«عن فييت»



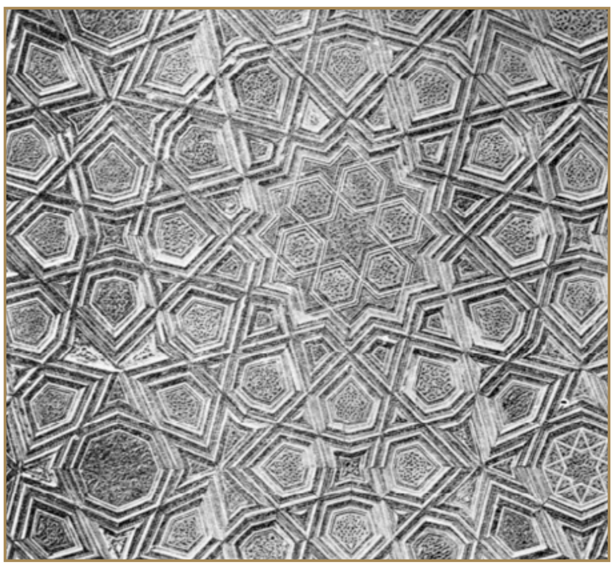
حشوة أصلية من منبر حسام الدين لاجين بجامع ابن طولون



منبر الصالح طلائع بالجامع العمري بقوص



تفاصيل منبر الصالح طلائع بالجامع العمري بقوص



تفاصيل منبر الأمير بكتمر الجوكندار

ثم منــبر الطون بغا المارداني بشــارع التبانة (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)، ثم منابر أخرى ســنأتي على وصفها وصفًا دقيقًا في هذا الكتاب.

المنابر الرخامية والحجرية

يرجع عهد إنشاء المنابر الرخامية في مصر إلى عهد الدولة الأموية؛ فقد ذكرنا فيما تقدم أن الحفر والتنقيب كشف عن منبر جامع دلاص الذي أنشئ في سنة (١٣٢هـ/ ٧٤٩م)، وهو من حجر، تتحلى درجاته وصدره بزخارف جصية هندسية جميلة.

وقد تكون نشــأة المنابر الرخاميــة والحجرية أبعد عهدًا من هذا؛ فقد رأيت في بعض المصادر الإســلامية أن المسجد النبوي أقيم فيه في يوم ما في منتصف القرن الأول أو آخره- منبر من رخام.

وأول المنابــر الرخامية بمصر هــو منبر جامع الظاهر بيبرس الأول «بشارع ميدان الظاهر» المنشأ في سنة (٦٥٦-٦٦٧هـ/ ١٢٥٨-١٢٦٨م)؛ ثــم المدرســة «الظاهرية القديمة» بشارع المعز لدين الله الفاطمي «النحاسين سابقًا» المنشأة في سنة (٦٦٠-٦٦٢هـ/ ١٢٦١-١٢٦٣م)؛ ثم جامع أيدمر الخطيري (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) بنهايــة شــارع فــؤاد الأول[١]؛ ثم جامع آق ســنقر (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) بشــارع باب الوزير؛ ثم جامع السلطان حسن بشارع محمد علي ميدان سوق الخيل سابقًا المنشأ سنة (٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م).

وفي ســنة (٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م) بــنى الســلطان الملــك الأشرف قايتباي منبرًا جميلاً من الحجر بمدرســة الناصر فرج بن برقوق «البرقوقية بميدان القبق بالصحراء»، وهذا المنبر يمتاز بزخارفه الجميلة وهندســته البديعة، كما أنشأ منبرًا آخر من الرخام الملون في سنة (٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م) بجامع الناصر محمد بالقلعة[٢].

وسنعرض هذه المنابر جميعها بوصف دقيق في عرضنا هذه الآثار جميعها.

وقد تكــون صناعة المنابر الرخامية في المغرب تفوق صناعتها في مصر من بعض الوجوه؛ فقد اســتعمل المهندس المغربي الرخام في المنابر بطريقة هندسية بديعة، قضت عليه أن يجعلــه مفرغًا من جميع أجزائه؛ وأظهر مثال لهذا الطراز نراه ماثــلاً في الجامع الكبير بالجزائر، الذي كان يعرف فيما مضى بجامع الســيدة، وهو جامع عثماني الطــرز، كما أن لجامــع صالح بك بالجزائر منبرًا من رخام جميل، أنشــئ في سنة (١٢٠٤هـ/ ١٧٩٩م).

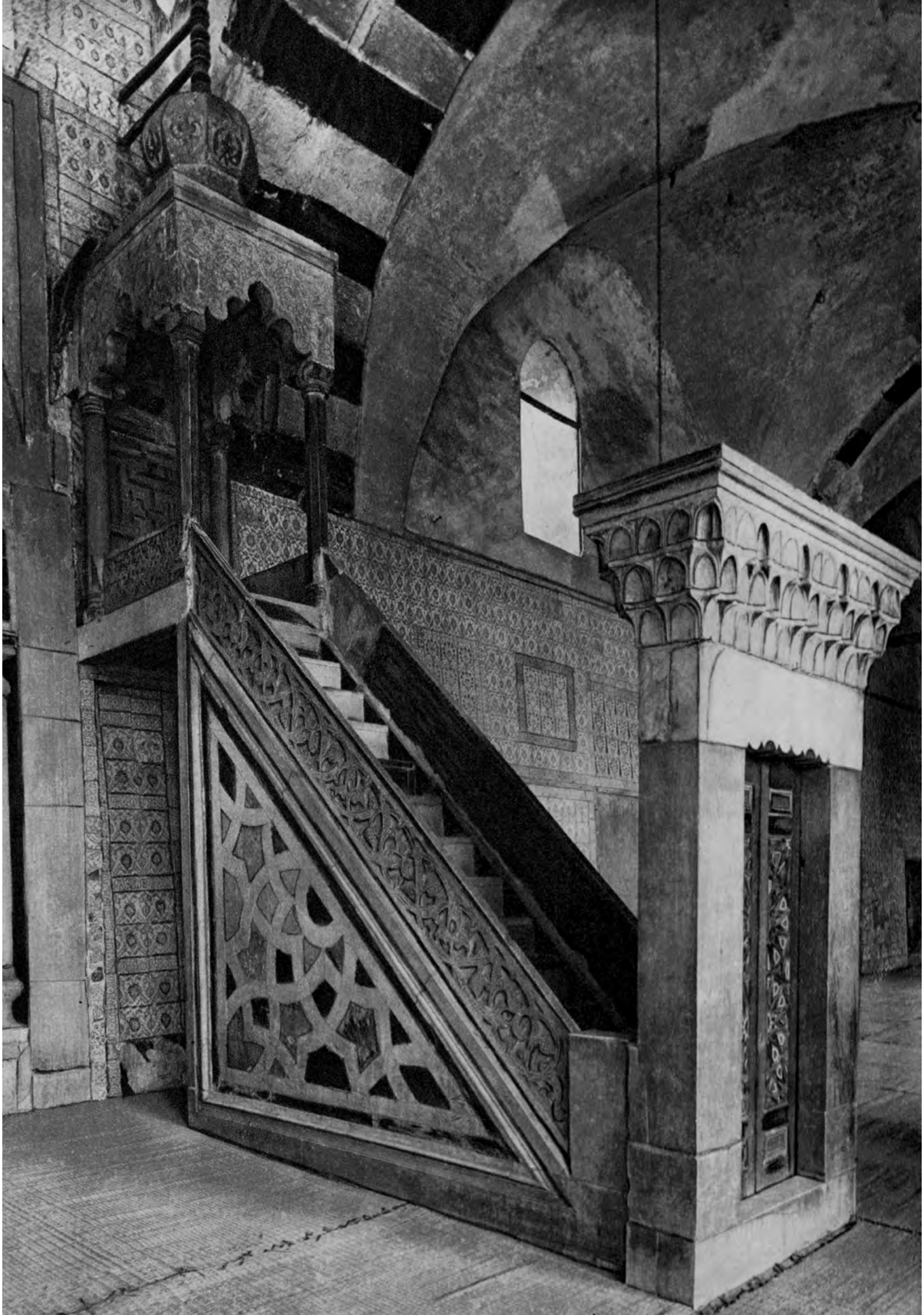
وبطرابلس الغرب يوجد كذلك بعض المنابر الرخامية، والمنابر الرخامية بالمغرب أقدم عهدًا به من غيرها؛ فقد رأينا أحد عمال بني زناته، بــنى منبرًا للقرويين بفاس من رخام ملون مخرم.

وصفوة القول أن المغرب أسبق السباق إلى اتخاذ المنابر الرخامية الهندسية؛ ولا غرو، فقد كانت الأندلس الإسلامية مهبط وحي هذه الصناعة ومنهلها الخصب، وليس من شك أن أفخر وأفخم وأعظــم مجموعة من المنابر الرخامية الملونة المفرغة المخرمة- كانت بمدن الزهراء، ثم الزاهرة، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وغيرها من مدن الأندلس[٣] .

(١) بعد هدم الجامع أواخر التسعينيات من القرن الماضي، نقل منبر إلى متحف الفن الإسلامي حيث حفظ حتى اليوم.

(٢) هذا المنبر غير موجود حاليًا.

(٣) راجع بإمعان تاريخ مدن الفن الإسلامي في بلاد الأندلس الإسلامية.



منبر جامع آق سنقر
«عن فييت»



المنبر الرخامي لجامع
السلطان حسن

صناعة الرخام في الدولة الإسلامية

وهـــذه الصناعة قد لقيـــت نجاحًا كبـــيرًا في الدولة الإسلامية كافة، فقد استعمل المسلمون هذه المادة في مرافق أبنيتهم من مساجد وغيرها.

واستعملوا منه الأساطين في المساجد، وكان ابن الزبير في عمارته للكعبة هو أول من أقامها في المسجد الحرام.

ثم استعمله لنفس هذا الغرض الوليد بن عبد الملك حينما جـــدد بناء الحرم المكي؛ فقد كان يرســـل إليه الرخام الخام بعد تشغيله بالمصانع الشامية؛ أعمدة وغيرها من ذات اللون الأحمر والأخضر والأبيض، فيقام فيه.

ونكتفي بهذا القدر في تاريخ إنشاء المنابر الإسلامية.

والمنابـــر في العصر الحالي بدأت تأخـــذ دورًا آخر من الرقي والإبداع؛ فإنا نجد نموذجًا حسنًا منها في جامع الشيخ محمد شمس الدين الحنفي، أنشئ في سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م).

وهو من صناعة أبي ســـنة؛ أحد الأخصائيين في هذه الصناعة من أهل بـــولاق، كما نجد منبرًا آخر لا يقل جمالاً عنه في جامع زين الدين يحيى الاســـتادار بشارع المحكمة. ويحسن أن نلفت نظر عشاق المنابر الحديثة إلى منبر الجامع الأحمدي بطنطا (١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م)؛ فهو منبر فاخر ذو ميزة خاصة من منشآت العصر المنصرم.

نشأة المحراب في المساجد الإسلامية

المحراب في المســـجد الآن هو عبارة عن بناء يبنى في الجزء الشرقي للمسجد ليصور علامة ظاهرة لاتجاه القبلة، وجرى العمل في بنائه على أن يكون متداخلاً في الجدار يرســـم شكلاً مجوفًا يسع الإمام، والحكمة في ذلك ظاهرة في حرص الشارع الكريم على تراصّ الصفوف وجعلها كاملة غير منقوصة.

ولم يكن المحراب في كل مساجد الإسلام الأولى على هذه الصورة تمامًا؛ إنما كان بصورة تختلف في الحجم والتجويف عن صورته الآن، وقد اقتضت ســـنة التدرج العمراني والتطور الزمني أن يكون المحراب على هذه الصورة التي نشـــاهدها اليوم في مساجد الإسلام.

وقد ذكر الله تعالى المحراب بمعناه المعروف، وبمعنى آخر في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فذكر في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾[١]، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾[٢]، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾[٣].

فالآيتان الأولى والثانية تشـــيران في نوع من التصريح المكشوف إلى محراب الصلاة الذي يعرف في المساجد الإسلامية، ثم إلى غرفة في مقدم الدار ذات محراب.

أما الآية الثالثة فتشير إلى ما كان يقام في العصور الأولى من النصب التذكارية إلى جانب التماثيل التي كان الغرض منها تدوين أعمال المراد تخليد ذكره وشهود أعماله؛ من العظماء والنابغين إلى جانب تماثيلهم.

(١) «سورة آل عمران»، الآية ٣٧.
(٢) «سورة آل عمران»، الآية ٣٩.
(٣) «سورة سبأ»، الآية ١٣.

وكانت هذه النصب ذات فجوات مجوفة تشبه فجوات المحاريب، وعلى هذه الفجوات كانت تدون أعمال النابغ وذكرياته وما له من محاسن وفضائل، فكان الناس يسمون هذه النصب بالمحاريب.

وقد جاء كتاب الله - تعالى - بنفس هذه التسمية، مبينًا لنا ماهيتها والقصد منها بأفصح بيان في أسلوب موجز معجز.

وقد قصَّ علينا التاريخ شاهدًا من هذه النصب، وهو تلك المحاريب التي أمر بنصبها المقوقس جريج بن مينا حاكم مصر العام من قبل الدولة الرومانية في عصر النبوة، أواخر القرن السادس الميلادي، للدلالة بها على نبوة حضرة النبي ﷺ ورسالته؛ وقد أمر بأن يكتب عليهما ما دفعه إلى إقامة هذين المحرابين، حتى كان من أمرهما ما هو مذكور في مظانه. هذه الحادثة تصور لنا شاهدًا محسوسًا من ذلك، بالرغم من أنها لم ترد إلا في كتب ابن سعد والواقدي.

ومهما يكن في الأمر من شيء، فإن لدينا من هذه الطرز شواهد أخرى كشف عنها البحث والتنقيب في حفائر قدماء المصريين وغيرهم من الأمم البائدة؛ التي تقيم لهذه النصب التذكارية وزنًا؛ أما إن أردت أن أريك هذه المحاريب بعينها الآن، فحسبك تلك النصب التذكارية التي تقيمها أوروبا جمعاء لعظمائها والنابغين فيها بعلم أو نحوه.

هذا ما يقال تفسيرًا لذلك، ومن الغريب أن هذا التحليل قد غاب عن كثير من الناس حتى عن جمهور المفسرين، ولعلنا بهذا قد أزلنا شكًّا كان عالقًا بالنفوس منذ حقب وأجيال طويلة.

أصل كلمة محراب

المحراب في اللغة يطلق على مقدم المجلس وصدره والمحل المشرف العالي منه، وعلى غرفة ذات محراب في مقدمة الدار، وهي الباحة أو الساحة. ومن هذه المعاني سمي محل الإمام من المسجد محرابًا، ويقول ابن الأنباري: «سمي المحراب محرابًا؛ لانفراد الإمام فيه». وقال غيره: وإنما جعل له تجويف في جدار القبلة حتى لا يعطل الإمام منه صفًّا كاملاً؛ لأن المصلين يكونون وراءه.

ودل حديث حضرة النبي ﷺ على تسميته بالمصلى، ويسميه فريق بالطاق، وهو اسم لم يطابق مسماه؛ إذ إن الطاق هو الكوة التي تكون في المسجد، وقد سماه كتاب الله تعالى بالمحراب في آية زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب للسيوطي: مناقشة هذه الرسالة

تتناقل المكتبة الإسلامية رسالة بهذا الاسم للشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي[2]، المولود في سنة (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) بالقاهرة، والمتوفى بها في سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، ودفن بالقرافة الناصرية بالجهة الشرقية الجنوبية لخانقاه الأمير قوصون الناصري، بينها وبين تربة خوند سمراء الأشرفية.

---

(١) ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران/ ٣٩].

(٢) انظر: جلال الدين السيوطي، **إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب**، دراسة وتحقيق: عماد طه فرة، ط. ٢ (طنطا: دار الصحابة للتراث، ١٩٩٠).

وتقع هذه الرسالة في وريقات، وهي متداولة مشهورة لا تخلو منها مكتبة عامة؛ رغم أنها خطية.

وقد سبق لي أن أشرت إلى هذه الرسالة، وبنيت ماهية الأسباب التي دفعت السيوطي أو غيره لتأليفها في حديث لي كتبته عن مؤلفات السيوطي؛ وأرى ألا أعيد القول في هذا الصدد، بيد أني أكتفي هنا بالإشارة إلى ما تضمنته هذه الرسالة من أحاديث، استند عليها السيوطي فيما ذهب إليه.

اشتملت هذه الرسالة على حوالي أربعة عشر حديثًا، وليست كلها من أحاديث حضرة النبي ﷺ، بل إن أغلبها من كلام غيره، فضلاً عن أن المنسوب إليه منها مجرح تجريحًا بليغًا؛ إما متنًا وإما سندًا، **فالحديث الأول**: «اتقوا هذه المذابح»؛ هذا لفظه بغير زيادة ولا نقصان، لكن السيوطي أو البيهقي أو غيرهما، لحاجة لا نعلمها، ذهب بهم القول إلى شرح المذابح بالمحاريب فاندمج الشرح بالحديث، حتى كأنه من لفظه.

وهذا إقدام خطير وجرأة متناهية، حدت بالسيوطي أو غيره أن يُدخلَ على رسول الله ﷺ ما ليس من كلامه، وإني لمندهش جدًّا كيف حدا به ذلك، مع ما نعلم من دينه ونزاهته؛ فلعله من صنيع غيره، وهو ما نرجحه يقينًا.

وإن هذه الملاحظة وحدها تجعلنا في حل بألا نشتغل بأمر السند في هذا الحديث، فسواء أكان سليمًا أم سقيمًا، فقد كفانا لفظه مؤونة البحث وراء سنده؛ إذ إنه لا يؤذن بشيء مما تخيله السيوطي أو غيره.

هذا فضلاً عن أن لهذا الحديث آفة، وآفته هو أبو زهير عبد الرحمن بن مغرا الدوسي الرازي، فقد ذكر علماء الجرح والتعديل عنه منكرات شتّى.

وقد حللوا شخصيته وشرحوه تشريحًا فنيًّا دقيقًا، بان منه تساهله وعدم متابعته على شيء، فبإضافة هذا إلى ذاك، طلعنا من هذه القضية براء، لا مذابح ولا محاريب، وإذن لم يكن لدينا في هذا المعنى حديثٌ يعتد به ولا غيره.

الحديث الثاني: وهو عن عبد الله بن مسعود، لا عن حضرة النبي ﷺ، وهذا الحديث لا يمكننا تفسيره بأكثر من أن عبد الله بن مسعود كان يرى أنه يكره الصلاة في المحراب للمنفرد أو الفذ.

وذلك صحيح لا غبار عليه، فإن هذه المحاريب إنما خصصت لصلاة الإمام بالجماعة فيجب أن تبقى لما خصصت له، وإن كان هذا لا يضر، إلا أنه رأي نستصوبه من عبد الله بن مسعود، وإنها لظاهرة جديرة بالنظر؛ وبالتأمل في قالب هذا الحديث وصفته، نجد أنه نسب إليه نسبة غير صحيحة، وقد تابع ابن مسعود في صنيعه هذا جماعة من كبار أهل العلم والورع؛ كالزاهد الحسن البصري؛ فقد نسب إليه عبد الرزاق كلامًا فيه هذا المعنى.

وآفة هذه النسبة المزيفة هو أبو حمزة القصاب من أهل الكوفة، لم يأتمنه البخاري ولا غيره على حديث ما، حتى إن ابن عدي حينما تعرض له في كامله بالتجريح عرض جملة من الأحاديث التي لم يتابع عليها، فكان هذا الحديث في جملتها.

وقد يكون الأمر الحريّ بالنظر هنا أن المحراب لم تكن النصارى في الوقت الذي كان يعيش ابن مسعود فيه تعرفه في ملحقات الكنائس؛ ومرافقها، وإنما كانوا يعرفونه في النصب التذكارية، فكيف يجرؤ عبد الله بن مسعود على جناية تاريخية كهذه؟

الحديث الثالث: جاء هذا الحديث بهذا اللفظ، «لا تزال هذه الأمة- أو قال- أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى».

هــذا كلام ظاهر لا غبــار عليه، قصــد به حضرة النبي ﷺ تنبيه أذهان المســلمين إلى أن المساجد إنما بنيت ليعبد الله فيها وتقام فيها الشعائر الإسلامية، ويتقرب إليه فيهــا بالأعمال الصالحة، لا بتلك العــادات والأعمال التي يتخذها النصارى في كنائسهم، اتباعًا لتقاليدهم وطقوسهم الدينية عندما يســمونه بالمذابح من قرابين، وذبحها في هذا المكان.

وأين هي المحاريب التي في مســاجد المســلمين، من الهياكل أو المذابح التي في كنائــس النصارى؟ لو أن جمهرة الباحثين الذين تعرضوا لهذا القول من المشتغلين بالحديث قدماء ومحدثين- عاينوا هذه المذابح التي قصدها الحديث، لما ذهبوا إلى القول بأنها مقاصير أو محاريب أو هياكل، أو ما شابه ذلك.

الفرق البعيد بين مرافق المسجد والكنيسة

إن الهيكل في الكنيسة هو عبارة عن بناء أعلاه ثماني الشكل مثلث الزوايا يتألف من أساطين صغيرة، قد تكون مزخرفــة في بعض الأحيان أو عارية من الزخرفة، مرتكزة على جدار الحائط يحيط بها غرفة صغيرة مغطاة بما يسمونه أحجبة من الخشــب الفني، ولهذه الغرفة باب خاص، يفتح على مساحة تسع جلوس شخص فأكثر.

كمــا أن المذبح هو عبــارة عن بنــاء يقيمونه، إما بلصق الهياكل وإمــا على مقربة منها؛ وقــد يقيمون منه واحــدًا فأكثر، وهذا البناء لا يعرفونه إلا باســم المذبح، لوظيفته عندهم كما سيأتي.

وهو أشبه شيء بغرفة حلزونية الشكل، ذات جوانب موصدة، تحمل فوقها قبة صغيرة ويحيط بها سياج من البناء، يحجب الداخل فيها عن الأنظار، ومنها ما يكون على غير هذا الشكل.

وبعبارة أوضح: المذابح في الكنائس هي أماكن تذبح فيها القرابين التي يتقرب بها النصــارى إلى معبودهم تبعًا لطقوســهم الدينية، وقد جاءت للنصارى من طريق اليهود، كما في سفر اللاويين، وبعض الكتب النصرانية، واستمدها اليهود من عبدة الأوثــان والأصنام، وهذا يؤيده ما جاء في ســفر التكوين (٢٠٠٨)، ونصه: «وبنى نــوح مذبحًا للرب، وأخذ من كل البهائم الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح»، وفي آخر سفر الخروج: أن الرب أمر موسى أن يصنع له مذبحًا من تراب، يذبح عليه محرقاته وذبائح ســلامته؛ قال: «وإذا صنعت لي مذبحًا من حجارة فــلا تبنه منها منحوته؛ لأنها تشــبه التماثيل»، ويراجع في هذا السفر مذبح المحرقات أو المذبح النحاسي ومذبح البخور، أو المذبح الذهبي.

فأنت تــرى مما ذكر الفارق العظيم، والمدى الواســع، والبعد الشاســع، بين محاريب مســاجد المسلمين ومذابح النصارى، بل محاريب الكنائس في صورتها.

والنصارى - كما دل عليه ســفر التكوين ومجموعة كتبهــم - إنما يتخذون هذه المذابح لما أشــير إليه، لا أنهم يتخذونهــا كعلامة يتجهون بها في صلاتهم إليها؛ كحكم المحراب في المساجد الإســلامية؛ إذ إن نقطة اتجاههم هي الهيكل وحده، وهو أقدس مكان تصبو إليه نفوســهم، ولهذا تجد المذبــح في الكنائس مختلف الاتجــاه؛ فبينما تجده في كنيســة إلى الشرق إذا بك تجده في أخرى إلى الغرب أو إلى الشمال أو الجنوب، وهذا ما يفسر لك معنى ما ذهبنا إليه.

وهذا الإيضـــاح وهذا البيان يبطل الحدس والتخمين الذي ذهبت فيه الآراء مذاهب شـــتى لا تمت إلى الحقيقة بشيء ما.

فالكنيســـة هي معبد خاص للنصـــارى يقيمون بها طقوسهم الدينية، وأهم مرافقها هي - كما قلنا - الهيكل، ثم المذبح والإنبل، ووظيفته عندهم وظيفة المنبر عندنا، إلا أن شـــكله مغاير للمنبر من كل الوجوه؛ فهو أشبه شيء بمنصة ذات درج مســـتدير، يصعد إليها عند إرادة إلقاء الخطب والعظات الدينية.

هذه هي أهم مرافق الكنيســـة، ثم هنالك ما يسمونه بالمعمودية والجمالون والحجاب إلى غير ذلك مما لا حاجة لنا به في هذا البحث.

فأين هذه الأسماء من المحراب، أو قبلة الصلاة والمنبر والمقصورة والروضة والظلة والرحبة وسدة التبليغ وما شابه ذلك؛ مما هو من مرافق المساجد الإسلامية؟

ومما ذكـــر يتبين أن المســـلمين في إقامـــة المحاريب بالمســـاجد إنما اندفعوا إليها بدافع ديني محض، دعاهم إلى إقامتها على هذا الوجه حتى تستوي صفوفهم، وحتى يتراصوا ويكونـــوا منهم كتلة واحدة متراصة، وفقًا لما أمر به الله - تعالى - ، ونبيه ﷺ.

وحيث كان كذلك، فالعقل يحيل اتجاه فكرة المسلمين إلى اشـــتقاق بيوت صلاتهم من مذابـــح الكنائس التي لا تقرب من المحاريب بصورة ما ولا تشـــبهها، كادعاء بعض المشتغلين بهذا العلم من مستشرقين وغيرهم.

وإذ قد علم ذلك بطل القياس بهما؛ وبان لذي عينين أن حـــضرة النبي ﷺ لو صح عنه هذا الحديث، وإنما يقصد منه المخالفـــة والتحذير، وقد لا يكون المراد من المخالفة الازدراء والاحتقار، إنما قصد الشارع المحافظة على الشعار ورعاية الـــزي والهيئة، إذ لكلٍّ شرعةٌ ومنهـــاج لا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، وقد بســـطنا القول في هـــذا المضمار فيما مضى من أبحاث هذا الكتاب، وأقرب ما نقوله هنا.

إن قواعد نظـــام العمران تحتم على المجتمع أن تحافظ كل نِحلة على زيها حتى لا تعم الفوضى سائر الطبقات؛ وحتى لا يختلط الحابل بالنابل، وأذكر أني وجدت في بعض المصادر التاريخيـــة لمصر، أن بعض ملوكها رســـم باتحـــاد الزي بين المســـلمين والأقباط لإرادة بعض وزرائه، وما إن صدر هذا المرسوم حتى رأيت الناس لا يعرف بينهم المسلم من القبطي من اليهودي، حتى كانت مظاهرة وكان هياج ومياج دام بين الناس حقبة، ظهرت فيها سحابة الخلاف، وما برحت حتى انقشعت بإلغاء ذلك المرسوم الملكي، وإعادة الحق إلى نصابه؛ بإرادة الملك، فتميزت كل نِحلة بزيها.

تغاير الوجـــوه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1] دون تغاير الأعضاء بعضها عن الآخـــر إلا في الأطراف، وخص الوجه بتغاير بليغ؛ لأنه علامة التمييز، ومثله البنان، الواردة في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[2]، وقد شرحنا هذا المعنى شرحًا وافيًا في كتابنا نظام الحكومة النبوية.

فهذا ما نـــراه في معنى المخالفـــة مضافًا إلى نظريات أخرى لا حاجة لنا إلى بسطها في هذا الكتاب.

الحديث الرابع: لابن أبي شيبة عن أبي ذر أن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح في المساجد. هذا الحديث فضلاً عن أنه عارٍ من الدليل الذي يتمسك به ذلك الفريق

(١) «سورة النمل»، الآية ٨٨.

(٢) «سورة القيامة»، الآية ٤.

من الناس، فإن أبا ذر لم يفه به ولم يقله؛ لأنه ليس نبيًّا يحدث عن أشراط الساعة، إنما حدث به لحد محدود حتى لا تفتن عقول المسلمين، ولا يتطرق إليهم نقص في دين الله.

ولو أن ما قاله أبو ذر في هذه الناحية حقًّا لظهر ذلك؛ كما ظهر كل ما أخبر به حضرة النبي الصادق بالحق الناطق بالصدق، من أشراط الساعة وأماراتها وعلامتها التي غدت تواتينا بين الفينة والفينة، ونحن عنها لاهون متفاخرون بالكثرة والأموال.

وإذا كان السيوطي أو غيره يحمل معنى المذابح في قول أبي ذر على المحاريب، فإنه احتمال بعيد تميزه عن مقام السيوطي، وحاشا لأبي ذر أن يجعل المذابح كالمحاريب.

ومهما يكن من الأمر، فلن يمكن بحال من الأحوال أن يتخذ المسلمون مذابح النصارى في مساجدهم حتى إن بقي من الدنيا يومٌ واحدٌ، وحتى إن وصل بهم التدهور الخلقي والبعد عن الدين بأفظع مما هم عليه الآن.

وعلى فرض ورود هذا الحديث عن أبي ذر أو عن حضرة النبي ﷺ، فإنه لم يرد من طريق يمكن أن يجزم بصحته، رغم أن ابن أبي شيبة رواه عن آخر غير أبي ذر.

الحديث الخامس: كحديث أبي ذر المتقدم، لكن زاد عليه بشرح المذابح بالطاقات، وهي زيادة جاءت من طريق مجهول، لا نعرف لها لغة ولا غير ذلك.

الحديث السادس: لابن أبي شيبة أيضًا، ولفظه: أن عليًّا كان يكره الصلاة في الطاق. وهذا الحديث يرده التباين البعيد بين معنى الطاق والمحراب، فالطاق شيء والمحراب شيءٌ آخر، وقد بينا هذا الوجه في كتابنا هذا.

يضاف إلى ذلك أن هذا الحديث والذي قبله، جاءا عن طريق فيها راوٍ لا يعرف في الثقات، قال عنه علماء الجرح والتعديل: إنه كان يحدث بالغرائب من المنكرات؛ وفي هذا ما يثبت نزاهة إمام اللغة والنحو عليّ عليه السلام عن هذا المعنى المتغاير.

الحديث السابع وما بعده إلى آخر الرسالة: كلها ذات معنى واحد، وكلها منسوبة لسالم بن أبي الجعد، وينحصر المعنى فيها جميعًا في معنى ما تقدم من الأحاديث الثلاثة.

وفيها من الغرائب ما يُعزى إلى عبد الله بن مسعود، أنه كان يقول: اتقوا هذه المحاريب. وأدهى من ذلك وأمر ما يرويه عبد الرزاق عن كعب الأحبار، أنه كان يقول: يكون في آخر الزمان قوم يزينون مساجدهم ويتخذون بها مذابح كمذابح النصارى، فإذا فعلوا ذلك صب عليهم البلاء.

وفيها من المنكرات لعبد الرزاق أيضًا عن الضحاك ابن مزاحم، أول شرك كان في هذه الأمة هذه المحاريب.

وأنت إذا تأملت هذه الأحاديث وجدتَ أنها كلمات لا قيمة لها، فلا يصح نسبتها بحال من الأحوال إلى كعب ناشر أحاديث بني إسرائيل بغثها وسمينها، ولا إلى غيره.

ولعل أغرب مما ذكر ما حدا بالسيوطي أن يختم رسالته هذه بحديث لا علاقة له بهذا الموضوع أصالة، بل هو يفيد علم حضرة النبي ﷺ بالتوقيت وتحرير القبلة، فيقول جابر بن أسامة الجهني: لقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بالسوق، فقلت: أين يريد رسول الله؟ قال: يريد أن يخط لقومك مسجدًا، فأتيت وقد خط لهم مسجدًا، وغرز في قبلته خشبة فأقامها قبلة.

فكأن مؤلف هذه الرسالة يريد أن يجعل قبلة المسلمين خشبة، أراد بها حضرة النبي ﷺ تحرير موضع القبلة لهذا المسجد حتى إذا بنوه كانت القبلة محررة لتتحقق بها صلاتهم على الوجه المطلوب.

فعلى فرض صحة هذا الحديث، ولم يكن فيه معاوية ابن عبد الله بن حبيب؛ المجهول الذي لا نعرف شخصيته؛ لأفاد ما ذكر.

ويبدو لي أن ما ذكرته هنا كافٍ في مناقشة هذه الرسالة، وقد دعاني إلى نقاشها استناد المشتغلين بعلم الآثار الإسلامية من مستشرقين وغيرهم عليها في توهين ركن من أهم أركان الفن المعماري في الإسلام؛ بدافع أنها معتمدة، بَيْدَ أنها كما رأيت.

وإن في كتاب الله تعالى لآية جاءت صريحة كل الصراحة، واضحة وضح النهار، في تجويف المحراب واعتباره بيتًا خاصًّا للإمام؛ يقوم فيه للصلاة، وهي قول الله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران/ ٣٩].

وأحرى بي وأنا أذكر ذلك أن أنبه كل من كتب في هذا الموضوع من معاصرين وغيرهم، وألفت نظرهم إلى ظاهرة جديرة بالذكر في هذا البحث، وهي تدحض الرأي السائد بأن عمر بن عبد العزيز هو أول من أحدث المحراب المجوف بمسجد رسول الله ﷺ في سنة (٨٨هـ/ ٧٠٦م)، حينما أمره الوليد بتجديد المسجد، فقد سبق هذا المحراب العمري محراب آخر بولغ في تجويفه إلى حد كبير بأكثر من ثلاثين عامًا، وهو ذلك المحراب المجوف القائم بجامع مدينة القيروان، الذي بناه الصحابي عقبة بن نافع الفهري؛ حاكم إفريقيا في سنة خمسين من الهجرة.

فقد أجمعت آراء المشتغلين بالآثار الإسلامية؛ من فرنجة ومسلمين- على أن المحراب القائم في هذا المسجد البادي للعيان إلى الآن- هو محراب عقبة الذي بناه لذلك المسجد في ذلك الوقت المبكر، وهذا أمر مفروغ منه لا خلاف فيه ولا نقاش [انظر أبحاث مارسيه، والدكتور أحمد فكري وغيرهما] حول هذا الموضوع[1].

بقي أن نقول: إننا أوسعنا الكلام في هذا البحث إلى الحد الذي رأيت، لا لقصد الرد على فئة معينة من المسلمين ممن تنصرف إلى هذا الأمر التافه الذي لا قيمة له، فيستولدون منه ضروبًا من النقاش والجدال، تؤدي إلى الاضمحلال والانحلال مع تركهم نواحيَ أخرى صالحة جديرة بالعناية والرعاية.

لم نقصد هذا الأمر بالذات، إنما قصدنا به مواجهة علماء الآثار عمومًا، أن هذه الرسالة التي وافقت أهواءهم فيما ينسبونه إلى الفن الإسلامي من نقص- رسالة مردودة، وقد تكون نسبتها إلى السيوطي نسبة زائفة روجها بعض منافسيه؛ نكاية فيه، وانتهازًا لفرصة ما كان بينه وبين السلطان قايتباي من جفاء فيما يظن [انظر حديثًا لنا عن مؤلفات السيوطي وبواعث كثرتها في رسالة مستقلة].

ومهما يكن في هذا الأمر من شيء، فإن الشرع الإسلامي لم يحرم الوسائل المشروعة التي تدل على غايات نبيلة، يراد منها تذكير المؤمنين بما ينفعهم ويعينهم على طرق الخير والنجاح.

ولهذا الفعل مستند من نفس عمل الرسول ﷺ [2].

نجد أن حضرة الرسول ﷺ لم يحرم الأخذ بهذه الوسائل ما دامت تدل على طريق مشروع فيه ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم.

---

(١) انظر: أحمد فكري، **المسجد الجامع بالقيروان**: ٥٥-٦٠.

(٢) انظر: حديث الخندق بين حضرة النبي ﷺ وسلمان الفارسي، ثم حديث الدبابات والمجانق بينه ﷺ وبين آخرين من الصحابة.

فــإذا اعتبرنا المحــراب المجوف من هذه الوســائل المشروعة التي استحســنها رسول الله ﷺ، وجب أن نجعله في الطليعة ونضعه في المقدمة.

ومتى ثبت ذلك فانصراف جماعة المسلمين إلى مسألة كهذه يؤدي فيها القال والقيل إلى وجود البغضاء والتنافس والتخاذل بين المســلمين؛ في وقت نحــن أحوج ما يكون فيه إلى التضــام والتضامن والوحــدة والائتلاف وتوحيد الصفوف والتســامح والتغاضي والجنــوح إلى المثل الأعلى ومعانقة الفضائل، إلى غير هذه المعاني الفاضلة- انصراف إلى طريق معوج كله أســلاك شائكة لا نجاة فيه، ولا مفر من الوقوع منه ولا يــرجى منه ما يقصده مثير. وعندي أن هذه الدعــوة التي تثير كوامن النفوس، وتزرع بذور الفرقة والجفاء بين المســلمين في أماكن شتى- لا تثمر إلا البعد والتخاذل، في حين أمامنا ميادين كثيرة متسعة لإصلاح ما فسد من العقائد، وتقويم ما اعوج من الأخلاق التي أخرت المســلمين وأرجعتهم القهقرى، وأضرت بهم ضررًا بليغًا لا أمل في التخلص منه.

ولو أن أصحاب هذه الدعوة رجعوا إلى التاريخ وأنعموا فيه النظر مليًّا، لوجدوا أن جماعات المســلمين قد أجمعوا في وقت مبكر جــدًّا على اتخاذ هذه الوســيلة وبقائها بينهم، ما دامت تــدل على الخير وتهدي إلى الــبر؛ وليس منها ما يضر شرعًا، واستحسنوا ذلك استحسانًا ظهرت آثاره في كل الطبقات الماضية منهم.

واستروحوا لما فعلوه بالقاعدة العامة التي وضعها حضرة النبي ﷺ في حديث، معناه ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح؛ فقد جعل هذا الحديث هذه الوسيلة التي استحسنها المسلمون؛ بل كل وسيلة تجري مجراهــا، أصلاً من الأصول المشروعة لا محيد عنه ولا مفر منه، ولهذا الحديث نظائر في السنة كثيرة قولاً وفعلاً.

البدعة إذا لم تزاحم سنة مأثورة فلا غبار عليها

وجدير بي في هذا المقام أن ألخص عيون ما قاله شــيخ الشيوخ الراسخين في العلم والمعرفة؛ الأستاذ الأكبر؛ حجة العلماء وقمر الصوفية؛ الشــيخ أبو بكر بن محمد البناني؛ أحد جماعة كبار العلماء في المغــرب [المتوفى برباط الفتح سنة (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م)] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال:

البدعة على تقدير تســليمها هل تزاحم سنة مأثورة؟ فإن زاحمت ســنة مأثورة فلا حاجة لنــا فيها. ويجب علينا اجتنابها شرعًا، وإن لم تزاحم ســنة فقد علمت أن البدع تجري عليها الأحكام الخمســة. بحيث يقال: إن هذه البدعة واجبة أو مندوبة، ولا يهولنك لفظ البدعة، فقد قال سيدنا عمــر بن الخطاب في تراويح رمضــان نعمت البدعة هذه؛ ومدح الله أقوامًا بما ابتدعوا مــن أمور الحق بقوله تعالى: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾[1].

وكذلك مولانا رســول الله ﷺ، وعد صاحب البدعة في الحق بالأجر في قوله: من سنَّ سنة حسنة «الحديث».

فهذا كلــه من باب ما نحن فيه، فتســمية هذه الحالة بدعة لا يضر؛ إذ البدع منها ما هو مســتحق للمدح لذاته أو لصفاته، ومنها ما هو مستحق للذم لذاته أو لصفاته، نظير ما قيل في أشراط الســاعة، إذ منها ما هو محمود؛ كنــزول

(١) ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد/ ٢٧].

عيسى وخروج المهـــدي، ومنها ما هـــو مذموم؛ كخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج.

أنواع المحاريب الإسلامية

وإذ قد ثبت لدينا وجود المحراب في المســـجد، ســـواء أكان مجوفًـــا أم غـــير مجـــوف، فلدينا مجموعـــة كبيرة من المحاريب المجوفة مما بني في عصور الإســـلام الأولى، ولكل منها طابع خاص حسب الفن الذي تمت إليه، والزمن الذي أقيمت فيه.

فالمحاريب في صدر الإسلام وما بعده كانت عبارة عن فجوات تمثل منظرًا مســـتديرًا متداخلاً في البناء يكتنفه عمودان صغيران وداخله محلى بزخارف جصية، أو قطع من الرخـــام أو من الفصة، وقد تكون في بعض الأحيان محاطة بإطار مزخرف، أو عارية منه.

ولم تتقيد بعض البلاد الإسلامية بتجويف المحراب؛ مـــراعاة للنظام الفني عندهم في بنـــاء المحاريب أو تبعًا لما وجد منها في بعض مساجد الإسلام الأولى، فكانوا يجعلون في محل القبلة علامات برســـم المحراب يميزونها بالزخرفة والنقش وتغطيتها بالفصة وغيرها، فكان يتألف منها منظرٌ رائعٌ يأخذ بمجامع القلوب.

وأمثلة هذه المحاريب شـــاع اســـتعمالها في إيران في عهد مبكر. كما اســـتعمل فيها أيضًا نوع المحراب المجوف مـــن القرن الرابع الهجري، والمحـــراب المربع من الجانبين، مثل محاريب مسجد الشـــيخ لطف الله بأصفهان (١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م). ومحراب جامع الميدان في كاشان (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) وهو محراب غير مجـــوف. ومحراب آخر (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) إلى غير ذلك.

وأجمل المحاريـــب في المملكة المصريـــة هي مجموعة المحاريـــب التي خلفهـــا الفن الفاطمي في مـــصر، وأجملها محاريب المشاهد بالقرافة.

والمحاريـــب في عهد الدولـــة الأيوبيـــة والظاهرية شـــقت طريقًا آخر، جعل منها منظرًا يغاير منظر المحاريب الفاطمية تغايرًا زمنيًّا.

وأهـــم المحاريب ما صنـــع منها في مـــصر في العهد المماليـــكي؛ إذ إنها تمتاز عن المحاريب الأولى بكســـوتها بقطع الرخام الملون والفصة، وما يتخلل ذلك من الصدف والسن والفضة في بعض الأحيان.

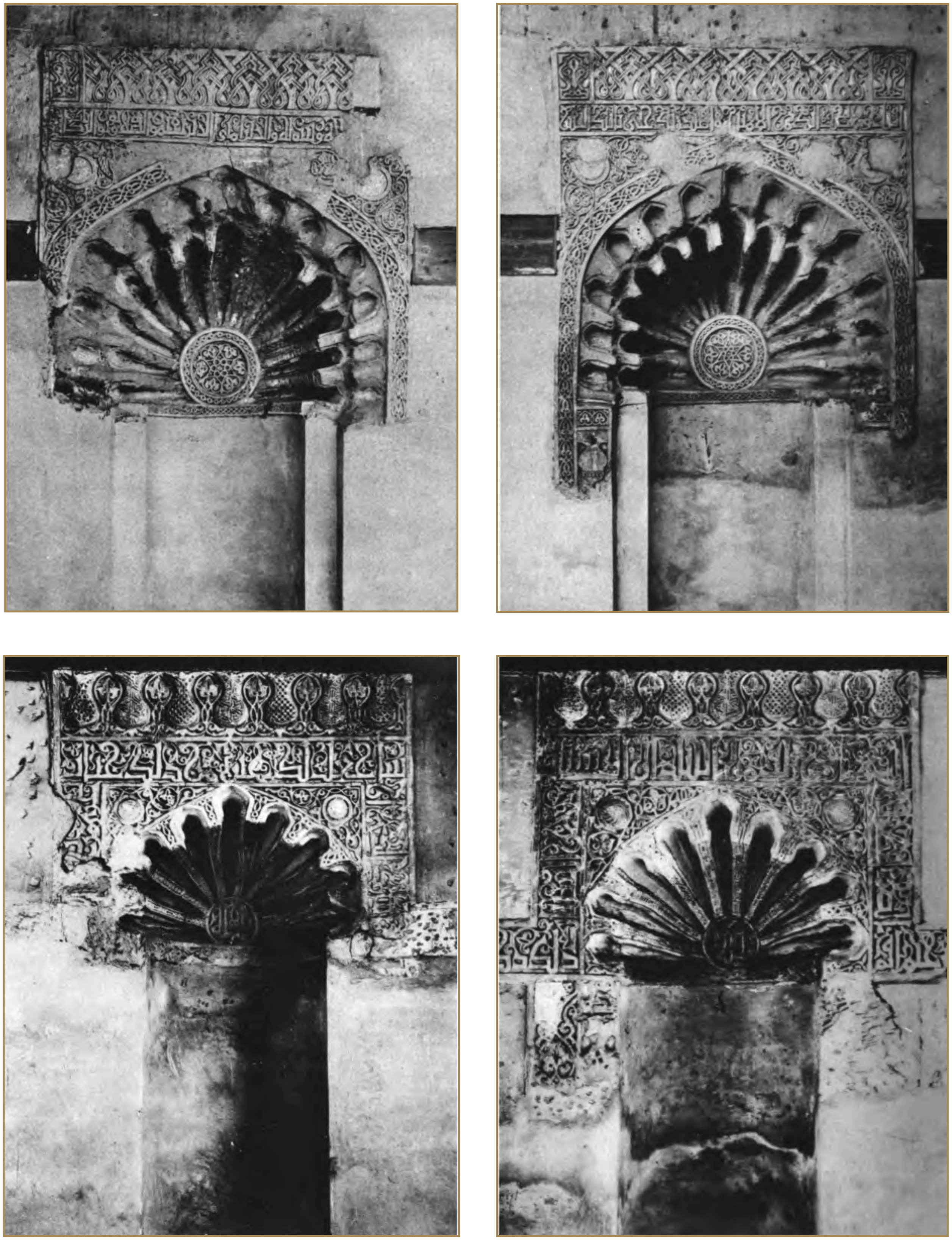
ومن هذا النوع محراب الحجرة النبوية الشريفة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام -، وهو من عصر قايتباي.

وقـــد كانت المحاريـــب في العهـــد الفاطمي تكسى جميعها بغطاء من خشب مشغول يمثل المحراب.

واستعملت هذه الكسوة الخشـــبية في العهد الأيوبي الظاهري، لكنها لم تشـــمل المحراب جميعه، بل كست منه الجزء العلوي فقـــط بصورة أخرى، مثـــال محراب الظاهر بيبرس بالأزهر، وقد سميت هذه المحاريب بالعنـــزة، وهو اسمها الحالي بمدن الفن الإسلامي بالمغرب.

نشـــأت المدارس والجامعات الإســـلامية منذ نشـــأ الإســـلام؛ إذ كان التعليم من أهم الأسباب التي عنيت بها الدولة الإسلامية منذ ذلك الوقت المبكر.

لأن الأمة لا تـــرقى إلا بتعليم أفرادها وإخراجهم من دائرة الجهالة والأمية، إلى طبقات راقية متعلمة تعرف ما لها وما عليها من الأحكام والحقوق وشئون الحياة.



محاريب مشهد السيدة رقية
«عن كريسويل»



محراب المسجد النبوي
الشريف

نشأة المدارس والجامعات الإسلامية الكبرى بالمساجد

والأمم التي لا تعنى بهذه الظاهرة الحيوية من شئون حياتها لا تكون صالحة لمسايرة الرقي والتقدم، والشريعة الإسلامية قد جاءت بالحث على التعلم والتعليم، بقانون ونظام فاق كل القوانين، وسما على كل الأنظمة، وقد ذكر الله تعالى المتعلمين بالمدح والثناء في كتابه الكريم، فقال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]، ثم حصر - سبحانه وتعالى - خشيته في المتعلمين من عباده، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٢].

ثم قال تعالى في الجاهل: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٣].

وفي مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي في باب تعليم من لا يعلم حديثٌ مطوَّلٌ لحضرة النبي ﷺ، وهو عبارة عن خطبة جاء فيه قوله ﷺ: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يتفقهون ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو عاجلتهم العقوبة»، انظر المصدر المشار إليه.

وفي هذا الحديث ظاهرة غريبة جدًّا، وهي أنه ﷺ حريص على أن يعلم الناس بعضهم بعضًا، إن لم تكن لديهم وسائل أخرى غير ذلك. وهو مراد الله تعالى في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

(١) «سورة الزمر»، الآية ٩.
(٢) «سورة فاطر»، الآية ٢٨.
(٣) «سورة الإسراء»، الآية ٧٢.
(٤) «سورة النحل»، الآية ٤٣.

ولا يخفى ما في هذا من الحث البليغ على طلب العلم والحرص عليه للرجال والنساء معًا، كما يشير حديث: «طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم»، وفي رواية: ومسلمة.

ثم بعد ذلك لم تقف الشريعة على الحث على العلم والتعليم وحسب، بل وضعت من جملة ما وضعته من نظم وبرامج في هذا الصدد- مسألة التعليم بالمجان.

وذلك حتى لا يبقى عذر لجاهل، فقررت من ميزانية الدولة مرتبات المدرسين ومصروفات الطلبة، وإعطاء إعانات مالية للطلبة «سلفيات»؛ ليستعينوا بها على إتمام دراستهم؛ وإعطاء مكافآت مالية «جوائز» للأوائل والنابغين.

وتجد في كتب الفقه الإسلامي قاطبة ثروة كبيرة من هذا النظام، الذي وضعه الإسلام لقواعد العلم والتعليم.

وأفادت كتب الحديث إلى كتب السير أن من أهم ما كان يعنى به حضرة النبي ﷺ مسألة التعليم ومكافحة الأمية في طبقات الناس كافة، حتى في أحوج الأوقات.

وقد توسعنا في هذا الباب، رأينا فيه وجوهًا كثيرة، من ذلك: الجندية الإسلامية ونظام الحكومة النبوية في باب مشروعية التعليم في الإسلام، والمدارس والمدارسة والجامعات العلمية، ومجالس العلم، قد ذكرت في كتاب الله تعالى بأوضح عبارة وأدق إشارة.

ففيه دور التعليم وآداب جلوس المتعلمين ونظام التربية وآداب العالم والمتعلم، والمدارسة وأوقاتها ونظامها وبرامجها على أحدث الطرق العصرية.

كما أن فيه أجور المعلمين ومكافآت المتعلمين وجوائزهم وحقوقهم من مساحات وراحات وعطل أسبوعية وغيرها، إلى غير ذلك مما تضمنه الكتاب الكريم في هذه الناحية خاصة.

أما السنة المطهرة، أما الوحي الموحي، ففي صحيح مسلم في حديث طويل عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»، قال الملا علي القاري في شرح المشكاة: «التدارس قراءة بعضهم على بعض».

وروى ابن ماجه والبيهقي عن النبي ﷺ: «من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهدين في سبيل الله، ومن جاء بغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره».

وفي الكبير للطبراني: «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يعلمه كان له كأجر حاج»، وقد بوب البخاري في الصحيح باب الحلق والجلوس في المسجد، وفيه جواز ذلك لتعلم العلم.

وأخرج أبو نعيم في آداب العالم والمتعلم، والديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة مرفوعًا: «إذا جلستم إلى العالم فادنوا، وليجلس بعضكم خلف بعض، ولا تجلسوا متفرقين كما يجلس أهل الجاهلية».

وأخرج الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد عن قرة، أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس جلس إليه أصحابه حلقًا حلقًا.

وفي حديث جندب: «كنا مع رسول الله ﷺفيعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن»، وكان للصحابة غير مسجد رسول الله ﷺ دارٌ اتخذوها لتدريس العلم والقراءة بالمدينة،

فكانوا يجتمعون إليها غدوة وعشية يدرسون ويتدارسون، وقد ذكر ابن سعد في الطبقات في ترجمة عبد الله ابن أم مكتوم القرشي العامري، أنه قدم المدينة مهاجرًا بعد بدر يسير، فنزل دار القراء وهي دار مخرمة بن نوفل، ونحوه في الاستيعاب في معرفة الأصحاب «أي أصحاب رسول الله ﷺ» لأبي عمر بن عبد البر.

وإيضاحًا لما تقدم نقول: إن اتخاذ المدارس للتدريس والعلم والعبادة في آنٍ واحد له أصل كبير في السنة كما رأيت، خلافًا لمن يقول إنها محدثة.

فقد كان في المدينة النبوية في عهد حضرة النبي ﷺ من المدارس المستقلة مدرسة القراءات وأخرى للقضاء والفتيا، وأخرى للطب والتمريض.

وكان لجابر بن عبد الله الأنصاري مدرسة مستقلة بإزاء المسجد النبوي، كما كان لعبد الله بن رواحة بداخل المسجد هذا خلا المدرسة الجامعة الكبرى التي أسسها رسول الله ﷺ بالمسجد النبوي، وليست هذه بأول مدرسة أسسها حضرة النبي ﷺ بل الأولى هي مدرسة باب الصفا بمكة، وقد أسسها حضرة النبي ﷺ قبل الهجرة، وكانت دارًا لأبي الأرقم عند الصفا، كان يجتمع فيها النبي ﷺ هو وأصحابه، ويقرئهم القرآن ويعلمهم فيها[1].

واشتهر من مدرسي ذلك العصر مصعب بن عمير، وعمرو بن حزم، وخالد بن الوليد، ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير وعبادة بن الصامت. وكان يدرس القراءات بالرباط النبوي بالمدينة إبان بن سعيد بن العاص، وأبو عبيدة بن الجراح.

ومن مدرسي العربية الحكمُ بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن أسيد، والشفاء أم سليمان بن أبي حثمة، وغير هؤلاء.

وما زال الخلفاء مقلدين لهذه السنة حتى انتشرت ألوية العلم بين ربوع الممالك بأسرها من جراء ذلك.

ولشدة ما كان للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من العناية بالمحافظة على هذه السنة، كانت بداية أعمالهم عند فتح الأمصار- بناء المساجد الجامعة للعبادة، وإقامة الشعائر الدينية، وبناء المدارس لمدارسة العلم فيها، كما فعل عقبة بن نافع الفهري في بناء مسجد القيروان؛ وفعل عمرو بن العاص في بناء الجامعة العمرية، ومساجد الإسكندرية وقوص والفيوم وإسنا ودمياط وعين شمس والفرما وبوصير وتنيس وشطا ودلاص وأيلة وديبق، وكما فعل غيرهما من الصحابة الذين مصروا الأمصار وتبعهم من خلفهم، ومن حذا حذوهم من الخلفاء والملوك وغيرهم، ثم كثرت المدارس بعد ذلك، وتنافس الملوك والعلماء في إنشائها.

فأسس أبو حنيفة النعمان مدرسة لتدريس الشريعة، انتشرت تعاليمها انتشارًا واسعًا في الإسلام، وأنشأ الإمام محمد بن إدريس الشافعي مدرسة بالفسطاط بالجامع؛ تخرج فيها عدد كبير من العلماء؛ كان لهم الفضل في تثقيف العقول وتنوير الأذهان.

وأنشأ الحسن البصري مدرسة نشأ من بين أحضانها معارض قوية خطيرة، وقد تخرج من تلامذتها واصل بن عطاء.

وكانت بقرطبة جامعة من أشهر جامعات الدنيا مقرها بالمسجد الأعظم، حيث كان فطاحل العالم الإسلامي شرقًا

(١) انظر: تاريخ مكة للأزرقي (المؤلف).

وغربًا يلقون الدروس على الطلاب الواردين إلى حلقاتهم من كل فج، فكان أبو بكر بن معاوية القرشي يحدث؛ وأبو علي القالي البغدادي[1] يملي أماليه الشهير، وهي كنز عظيم؛ فيها شعر وتاريخ وأمثال وفقه ولغة وأدب، وكان ابن القفطي أشهر نحاة الأندلس يلقن الطلاب قواعد النحو والصرف.

وحديث المساجد والمدارس الأندلسية وأثرها في العلم والتعليم، وحلقات اللغة ومجالس الأدب ونقاش العلماء ومناظرة الأدباء وفتاوى العلم وحوار المتكلمين وجدلهم- أمر مشهور، وقد فاضت به المكتبة الأندلسية مما لا يتسع له المقام هنا.

ولقد كانت المساجد منتشرة في العواصم الأندلسية - كمدارس للعلم والتعليم - انتشارًا عظيمًا، كمسجد قرطبة ومسجد غرناطة ومسجد طليطلة ومسجد إشبيلية.

ورد في نفح الطيب[2] في أخبار عبد الرحمن بن داود الواعظ: «وسمع منه الناس بقرطبة وإشبيلية ومرسية وبلنسية»؛ قال ابن الأبار: «وسمعت وعظه إذ ذاك بالمسجد الجامع من بلنسية».

وكان بجوار المسجد الجامع مساجد أخرى يذكر فيها اسم الله، ويرفع منار العلم.

وقد ألحقت بها المدارس الخاصة بتعليم الناشئة مبادئ القراءةِ والكتابة وحفظ القرآن الكريم، ويأخذ الأطفال في دور الطفولة شيئًا من العلوم كما كان الحال بالمدينة النبوية. وكانت المساجد على أبدع نظام وأدق عناية تحوطها رعاية الخلفاء، ويحدوها نشاط العلماء، قال ابن بطوطة في وصف مالقة: «ومسجدها كبير الساحة كثير البركة شهيرها، وصحنه لا نظير له في الحسن، فيه أشجار النارنج»[3].

وإن الجامعات الأندلسية التي وصفتها كتب المستشرقين لم تكن في الواقع غير المساجد والمدارس؛ فجامعة قرطبة كان مقرها جامع قرطبة، وكذلك جامعة طليطلة وغرناطة، ولا نماري في حقيقة أثبتها التاريخ، وهي وجود مدارس ملحقة كما ذكرنا تشبه «جمعيات المحافظة على القرآن الكريم اليوم»، وقد كان منها في قرطبة وحدها ٢٧ مدرسة كان يتعلم فيها الفقراءُ مجانًا.

وفي أخبار ابن أرفع رأسه «وكانت له حلقة في الجامع» يعني مسجد طليطلة، وفي أخبار أبي حفص الكناني «أنه سمع بمصر ورجع إلى الأندلس فقرأ بقرطبة في مسجد الفارس».

وفي أخبار ابن مفرح الحجاري «أنه سكن قرطبة وكان يعلم بمسجد سرور».

فأنت ترى من هذا أن نشأة التعليم كانت بالمساجد تبعًا للنظام الذي وضعه حضرة النبي ﷺ بالمدينة النبوية، ولم يمنع هذا من اتخاذ المسلمين مدارس أخرى، مستقلة

(١) هو أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي القالي (٢٨٨-٣٥٦هـ/ ٩٠٠-٩٦٦م)، ولد في منازكرد من أعمال ديار بكر، وفد إلى بغداد عام (٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، أشهر من سمع عنهم: أبو بكر بن أبي داود السجستاني وابن دريد وأبو إسحاق الزجاج ونفطويه وابن الأنباري، رحل إلى قرطبة بالأندلس عام (٣٣٠هـ/ ٩٤١م)، فانتشر علمه فيها، ألف العديد من التصانيف أشهرها «الأمالي» وهو كتاب في نوادر الأخبار والأشعار، و«البارع في اللغة» و«المقصور والممدود والمهموز»، و«الأمثال»، وكتاب في شرح المعلقات، و«تفسير السبع الطوال»، انظر: الزركلي، **الأعلام**، مج. ١: ٣٢١.

(٢) أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨).

(٣) ابن بطوطة، **تحفة النظار**: ٤٣٨.

عن المساجد، إلا أنها كانت في حكم المساجد كما كانت تلازمها في أغلب الأحيان. وقد كانت المدارس في بغداد شأنها في الممالك الإسلامية الأخرى.

فبنى الخليفة المعتضد بالله العباسي «مدرسة» وجعل بها دورًا ومساكن، وانتخب لها مدرسين أخصائيين في العلوم النظرية والعقلية وأجرى عليهم أرزاقًا، ثم بنى الأمير نصر بن سبكتكين «مدرسة» في نيسابور، وبنى أخوه السلطان محمود المدرسة السعيدية، وبَنَتْ فاطمة أم البنين القيروانية «جامعة القرويين» بعدوة فاس في سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، وهي الجامعة ذات الشهرة والأهمية في أطوار هذه الحركة. ونفصل تاريخها من مناحٍ متعددة في بحث آخر يأتي بعد هذا إن شاء الله تعالى، وكذلك جامعة الزيتونة بتونس التي أسسها عبد الله بن الحبحاب في سنة (١١٤هـ/ ٧٣٢م)، بعد تأسيس سلفه لها.

وفي أواسط القرن الخامس الهجري أنشأ الوزير نظام الملك الحسن بن علي السلجوقي- مدرسة في بغداد[١]، وكان قد اقتدى بسلفه العباسي؛ فأجرى على المدرسين مرتبات يتقاضونها نظير تدريسهم، واستمر ذلك جاريًا حتى عهده وعهد خلفه بخلاف سلفه العباسي، الذي انقطع ما كان قرره بعد وفاته لأمور سياسية.

ولم يكن هذا بدعًا، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: «أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله». قال بعض شراحه: هذا عامٌّ في التعليم وغيره، وقد أجاز الإجازة على تعليمه «أي القرآن» والرقية به مالك، والشافعي وأحمد، فنص هذا الأثر الواضح على جواز تعليم القرآن بمرتب يتقاضاه المعلم له، ولا فرق بين تعليمه تحفيظًا وتجويدًا وتفسيرًا وكشفًا لمعانيه ووجوه إعرابه، التي من مستلزماتها تدريب المعلم وتعاطيه علوم النحو والبلاغة والمعاني والبيان وعلم التفسير، كذلك علوم أخرى؛ كالفقه والحديث ومصطلحه، وتحت ذلك علوم أخرى هي العلوم الكونية؛ كالطب والهندسة والجغرافيا والتاريخ وما إلى ذلك.

وهذه هي الحكمة في البدء بتعليم القرآن، إذ هو أس العلوم بأسرها، قال ابن خلدون في مقدمة العبر: «تعليم القرآن شعيرة من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات. ثم قال: اختصت العوائد الإسلامية بتقديم دراسة القرآن؛ إيثارًا للتبرك، وخشية لما يعرض للمتعلم في الصبا من الآفات والقواطع عن العلم».

وعلى ذلك جرى حال أهل ملة الإسلام في كل عصر وزمان؛ فتعلم القرآن وتعليمه ومعرفة معانيه هو المقصود الأهم والمطلوب الأعظم. لهذا رأينا ما ترتب على ارتياد

---

(١) وهو ما أطلق عليه «نظامية بغداد» وقد بناها سنة (٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م)، ثم توالى بناؤه للمدارس التي عرفت جميعها بالنظامية، ثم انتقلت المدارس من العراق إلى الشام عن طريق الزنكيين في القرن السادس الهجري، وانتقلت بعد ذلك إلى مصر على نطاق واسع على أيدي خلفائهم الأيوبيين، يقول المقريزي: «وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضًا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أيضًا المدرسة السعدية، وبنى بها أيضًا مدرسة رابعة، وأشهر ما بني في القدم المدرسة النظامية ببغداد؛ لأنها أول مدرسة قُرر بها للفقهاء معاليم، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن علي ابن إسحاق بن العباس الطوسي؛ وزير ملكشاه بن ألب أرسلان ابن داود بن ميكال بن سلجوق في مدينة بغداد»، انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مج. ١٠: ٥٥؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج. ٢: ١٢٩؛ المقريزي، **الخطط المقريزية**، مج. ٤، ج. ٢: ٤٥١-٤٥٤.

الطلبة لإحدى هذه الجامعات في أي مصر من الأمصار من تحتم تعليم القــرآن مبدئيًّا، وبغير ذلك لا يتم لهم الانتظام في سلك طلابها.

وقد كان حضرة النبي ﷺ يتدارس القرآن على سيدنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ. أخرج ابن ســعد في الطبقــات عن مسروق عن عائشــة، عن فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تحدث عن حضرة أبيها ﷺ قــال: «إن جبريل كان يأتيــني كل عام فيعارضني بالقرآن (أي يدارس جميع ما نــزل منه من المعارضة وهي المقابلة) وأنه أتاني العام فعارضني مرتين، ولا أظن إلا أجلي قد حضر، وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ».[١]

وهذا الحديث يعتبر أصلاً في المدارســة وحفظ كتاب الله تعالى والمداومة على تلاوته ودراسته. هذه بحوث رأينا أن نعرضها لأهميتهــا؛ لأن الحكومات والدول لا يتم انتظامها تمامًا، ولا تبلغ الشــأن البعيد مــن الحضارة إلا إذا عنيت بنشر العلوم والمعارف، وبذلت كل الوسائل في تعميم الثقافة بين أوساطها.

ومما تقدم نعلم أن المدارس عرفت في الإسلام من أول يــوم فيه؛ بخلاف من يرجع عهدهــا إلى القرن الخامس أو غيره.

وفيما يلي ثبتٌ بأشهر المدارس الإسلامية التي أنشئت في عهــود مختلفة؛ منذ عهد النبوة إلى اليوم الذي حلت فيه مدارس أخرى بنظام آخر، بَيْدَ أنه لا يفوتنا - قبل أن نثبت هذا الجدول - أن نشير هنا إلى أن الإسلام لم ينس أن ينشئ للمرأة مدرسة تتلقى فيها شــتى العلوم كما أنشأها للرجل، ففي أخبــار أم ورقة بنت عبد الله بــن الحارث، أنها كانت تعلم نساء المدينة وتؤمنهن وتعظهن بمكان خاص.

وكان من بين العلوم التي تبقيها على هؤلاء النسوة علم الطب والتمريض، وهو العلم الذي نبغت فيه، وقد خرجت رئيسة للنسوة اللاتي شــاركن في عمليات الإسعاف بغزوة بدر كما جاء في أخبارها.

وفي أخبار أم الدرداء أنها كانت معلمة النساء، وكان لها مدرسة خاصة تعلمهن بها.

أخرج أبو نعيم عن عون بن عبد الله قال: «لقد أتينا أم الدرداء فتحدثنــا عندها، أي تدارســنا الحديث، فقلنا: أمللناك يــا أم الدرداء، فقالت: مــا أمللتموني لقد طلبت العبادة بالمدينة، فما وجدت أشــهى لنفــسي من مذاكرة العلم، أو قالت من مذاكرة الفقه».

وفي هذا ما يوضح لك نهضة المرأة واســتثمارها للخير العام في هذا الزمن المبكر.

المدارس والجامعات الإسلامية في مصر

مدارس الحنفية

المدرسة الســيوفية، المدرسة الأيتمشــية، الصيرمية؛ المسرورية، مدرسة يازكوج- المدرسة الصرغتمشية، الفارسية، المحمودية، الطغجية، المدرســة الأزكشــية- مدرسة الجاي اليوســفي، البردبكية بقناطر الســباع، البردبكية بغلمان الصالحية، تغري بردي، المدرســة الفخرية، فيروز الســاقي، جانم البهلوان، فرج بن برقوق، محمد بن قرقماس، المدرســة العاشــورية، مقبل الدوادار، الغزنوية، حســن بن ســويد، مدرســة بيبرس الدوادار، المدرســة البكتمريــة، الهكارية،

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مج. ٢: ٢١٧، ٢١٨.

الخيربكية بحارة حلب، الخيربكية بباب الوزير، الجركسية بدار الضيافة، قانباي المحمدي، قـان بردي، مغلباي طاز، المهمندارية، مدرسة ألطي برمق بسويقة العزى[1].

المدارس المشتركة

المدرسـة الظاهريـة، الملكية الأشرفيـة، القطبية، الصالحية، الأشرفية برسـباي، المدرسة المنصورية الأشرف شـعبان، البقرية، الجانبكية، الفارقانية بالوزيرية، المدرسة الناصرية السـابقية، المنجكية، سودون ميرزاده، الفاضلية، مدرسـة أبو غالب، المدرسـة القراسـنقرية بباب الوزير، الصاحبية بالقاهرة، الصاحبية بالفسطاط، مدرسة أبي بكر ابن مزهر، الزينية، الفخرية بالروضة، الباسـطية، الفخرية بين السورين، الداودية، مدرسـة قانصوه الغوري، المدرسة الظافرية، الماردانية، الجانبلاطية، مدرسـة فخر الدين قزل، السـلارية بالجسر الأعظم، مدرسـة مغلطـاي الفخري، المدرسة المؤيدية، القراسنقرية برحبة العبد، الجمالي يوسف، الصاحبية، مدرسـة أصلم السـلحدار، مدرسة الناصرية الحسـنية، المسـلمية، المحمدية، السـنانية، الزينية بخط الكيالة، الزينية بالحبانية.

مدارس المالكية

المدرسة الصلاحية بالفسـطاط، العادلية، المسيحية، القصرية بالمقس؛ علم الدين بن رشيق، الفاضلية (مشتركة بين الشـافعية)، المدرسة القوصية، البشـيرية، الحجازية، الجوهريـة، الناصرية، المنكوتمرية، الخروبية، مدرسـة ابن عـرام، الركراكية؛ تـاج الدين مـوسى، بكتمر الحاجب، وللحنفية والصوفية، مدرسة الخروبية، الهكارية.

مدارس الشافعية

المدرسـة الناصرية بالفسطاط، مدرسـة ابن الرفعة، مدرسة ابن منظور العسـقلاني بالمقس، المدرسة الفائزية، مدرسـة تغردي بردي بالخشـابين، السـيفية، الحزمانية، الجوهرية المنجكية، الجوهرية اللالية، الشريفية- البديرية، القاصدية، البوبكرية، يشـبك الداودار، القراسـنقرية، المحلية، الأبناسـية، الأهناسـية، الحسـامية، مدرسة ابن المرضعة، مدرسة ابن الزمن، السابقية، التنكزية، السودونية، الواسطية؛ القيسرانية- مدرسة سـودون المؤيدي، قراقجا الحسـني، مدرسة ابن بطالة، المدرسـة الخطيرية، الناصرية الصلاحية- السيفية بخط بين العواميد، الأيدمرية، البدرية.

مدارس الحنابلة

المدرسة المجدية أنشأها مجد الدين عبد العزيز الخليلي في سنة ٦٦٣هـ، المدرسة العمرية أنشأها القاضي أمين الدين العمري، تاج الدين موسى، الطوغانية، مدرسـة ابن النعمان المقدسي، مدرسة الحنابلة بالناصرية، الحسنية وبالمنصورية، وبالظاهريـة؛ وبالناصرية، وقد كان بـكل من المدارس المشتركة درس فقه لمذهب إمام السنة؛ أحمد بن حنبل، كما كان كذلك في عصر الفاطميين. كما ذكر في هذا الكتاب.

مدارس القراءات

المدرسـة الناصرية بالقلعة، مدرسـة إينال اليوسفي، الشعبانية، الفاضلية، العلائية، الجوهرية القنقبائية.

---

(١) مدرسة بيبرس الدوادار هي مدرسة ألطي برمق بسويقة العزي.

مدارس الحديث

دار الحديث الكاملية- البلقينية، الظاهرية خارج باب البحر، الإسماعيلية، الخروبية، العينية، التنكزية، المدرسة الصاحبية، الجمالي يوسف، الحلاوية، السعدية بخوجة أيدغمش، السنانية بخوجة عقيل الشريفية بدرب كركامة، مدرسة الحافظ ابن حجر، البرقوقية بالقاهرة.

مدارس الصوفية

مدرسة سعيد السعداء، مدرسة سعد الدين بن غراب، المدرسة القادرية الأزرمكية، المدرسة القادرية، المدرسة العدوية، المدرسة اليونسية، المدرسة الكلشنية، مدرسة جمال الدين دمرداش المحمدي، البرقوقية كافور الزمام، الإينالية، الأشرف قايتباي، البندقدارية، مغلطاي الجمالي، الجوهرية، الغنامية، العادلية، العنبرية، النابلسية، مدرسة الأسلمي، المدرسة المزهرية، مدرسة بكتمر الناصري، بلباي البيسري، ابن الأرسوفي، المدرسة المهمندارية، مدرسة بكتمر الساقي، المدرسة البيبرسية، الزمامية، الجمالية، السعدية، الظاهرية، الجاولية، مدرسة سيف الدين جيبغا، مقبل الدوادار، المدرسة الشيخونية، الفارقانية- الناصرية بمنشأة سرياقوس، السليمانية بالتبانة، البرقوقية، مدرسة بشتاك الناصري، الأشرفية، مدرسة بهاء الدين أرسلان، المدرسة الطيبرسية، مدرسة تقي الدين أشيرك- المدرسة الحيدرية- الألماسية، النظامية البيرامية، الزيني يحيى، الحسنية- مدرسة حسن الحبار- المدرسة الغمرية- الفارقانية بسويقة عصفور- مدرسة أحمد بن سليمان الفاوي، النجمية، اليونسية خارج باب النصر، السند بسطية، السليمانية بالشارع، الشرفي يونس، الجركسية بباب القوس، الكريمية، الرحمانية، الباسطية بباب النصر، الباسطية بالكافوري، النعمانية بالفسطاط، النورية، الوفائية، العادلية بقسم الخليفة، المنيرية، مدرسة قبة النصر الشرابشية، مدرسة سنجر الخازن، المدرسة الفخرية بباب النصر، المدرسة الكازرونية، مدرسة السلطان محمود، القوصونية بحارة حلب، القوصونية بالقرافة، مدرسة الشيخ نسا، المدرسة الجلالية، اللؤلؤية، القلندرية، الغنامية، الكردية بسويقة اللالا، الكردية بخان السبيل، اليونسية بالروضة بميدان القبق، اليونسية باللوق، النصرية، المهدية، مدرسة أشيرك السيفي بباب الجديد برأس المنتجبية، مدرسة أشيرك ظاهر بستان العدة، السيفية بالجسر الأعظم، الحمصية، السعودية، العباسية بقنطرة الخرق، مدرسة جامع الرحمة بخط قنطرة طقزدمر، مدرسة إبراهيم الصوفي البردار بخط قنطرة قديدار، الأرسلانية.

مدارس الطب

مدرسة الحسن بن الهيثم المصري بخط إصطبل الطارمة، مدرسة ابن الصلت بالفسطاط للطب والصيدلة، المدرسة الكافورية، المدرسة الطولونية، المدرسة المنصورية، المدرسة المهذبية أنشأها عميد كلية الطب المنصورية، المدرسة المؤيدية، القجماسية بالإسكندرية، المعينية بدمياط، المدرسة اليوسفية المدرسة الفتحية، الأبوبكرية القضاعية، الناصرية بمنشأة سرياقوس، مدرسة فتح الدين بن نفيس بالسبع قاعات، اليوسفية بسويقة المسعودي، مدرسة ابن المغربي بخط بركة قرموط، المدرسة النجمية بحارة بني سوس، مدرسة محمد عزيز للعلاج بالموسيقى بالأبزارية بشاطئ النيل، المدرسة الصلاحية بالقاهرة، الناصرية بميدان سوق الخيل، مدرسة ابن قرقة بسويقة المسعودي.

أول جامعة علمية كبرى في مصر الإسلامية: الجامعة العمرية

منذ استولى المسلمون على مصر[١] في سنة ٢١ من الهجرة، وأسسوا جامعها الأعظم، جعلوا منه معهدًا علميًّا كبيرًا فاق كل المعاهد، وكانت منه نواة حركة عالمية كبرى ليس في مصر فحسب، بل في مدن أخرى كثيرة؛ ومنذ ذلك الحين أخذت الجامعة العمرية الأولى تخطو خطواتها الواسعة في نشر مبادئ الدين وتعاليمه القويمة، فما لبثت أن تبوأت مركزًا ساميًا ما زال صداه يتردد في أنحاء العالم.

وكان يدرس بجامع الفسطاط من المواد الشيء الكثير؛ كالتفسير والفقه والحديث والتاريخ والأدب والطب والنحو والتصوف والفلسفة، وما إلى ذلك.

ومن أشهر علمائها الذين أفادوا العالم الإسلامي بعلمهم وتأليفهم- عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو أول من عني بتدوين الحديث جمعًا وتصنيفًا.

وبرز من أهلها يزيد بن أبي حبيب، وعبد الله بن وهب، وابن لهيعه، ومحمد بن عبد الحكم، والليث بن سعد، ويونس بن عبد الأعلى، والمفضل بن فضالة، وغيرهم ممن لا يحصى كثرة.

فظلت جامعة مصر الإسلامية غنية بهذا التراث أحقابًا طويلة، فلما انقضت أولى مراحل هذه الجامعة العمرية وأقبلت المرحلة الثانية، ظهر فقهاء الأمصار فتعلق بهم الناس عمومًا، وكانت مذاهب متعددة ظلت حقبة طويلة.

ثم قضت أسباب بانقراض البعض من هذه المذاهب وانتشار البعض الآخر منها وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، فسرى انتشار هذه المذاهب الأربعة في العالم، فاقتدى أهل كل مصر بمذهب أحدهم، فأول من أدخل مذهب أبي حنيفة إلى مصر إسماعيل بن اليسع الكوفي؛ قاضيها من قبل المهدي في سنة ١٦٤هـ، وكان لا يعرف قبل هذا العهد، وأدخل مذهب مالك عبد الرحيم بن خالد مولى بني جمح، إلا أنه لم ينشره ونشره عبد الرحمن بن القاسم، فاشتهر بها أكثر من المذهب الحنفي، ثم ظهر مذهب الشافعي بها بدخوله إليها، وكان له مدرسة بالجامع العمري ينشر بها مذهبه وفيها ألف كتبه الجديدة.

أما مذهب ابن حنبل فقد تأخر نشره بمصر إلى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس، وأول من نشره بها مالك بن سعد الفارقي الحنبلي مات سنة ٤٠٥هـ، وتولى قضاء الحنابلة في العصر الفاطمي، ونشره بعده أبو العباس بن القوام، ثم عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي؛ شيخ الحنابلة في عصره، وأحد أئمة الحديث، كان معاصرًا للحافظ الإسماعيلي، وكلاهما مات في سنة واحدة.

الجامعة الطولونية

ومن ذلك العهد أخذ نطاق الحركة العلمية في مصر ينمو ويزداد ويتسع إلى أن تطورت أحوال مصر السياسية فتملكها العباسيون، ثم استقلت عنهم بالدولة الطولونية التي أسسها أحمد بن طولون، ففي عصره اقتفى أثر عمرو في النهوض بالحركة العلمية، فأسس بها جامعه المشهور وقرر في مشيخته مضافًا إلى مشيخة الشافعية، الربيع بن سليمان ابن داود الأزدي الجبري؛ أحد صحابة الشافعي، فأقام به داعيًا لمذهب الشافعي وحدث به عن ابن عبد الحكم وغيره، وعين لتدريس المذهب الحنفي والحديث قاضي مصر بكار بن قتيبة، فأمّ الجامع كثير من العلماء الأعلام وقد

(١) المقصود هو الفتح الإسلامي لمصر.

تركوا ثروة ينضب معينها، واقتفى أثر ابن طولون أولاده من بعده، وبعد انقراض دولتهم اضطربت أحوال مصر ردحًا من الزمن، فما لبثت أن استولت عليها الدولة الإخشيدية فصعدت في مدتها العلوم إلى ذروة مجدها وأوج عزها.

هذه هي خلاصة التطورات العلمية التي حدثت خلال انتشار هذا التراث النفيس الخالد، فكان لآثار هذه الحركة العلمية الكبرى التي بذرت بذورها في تلك العصور- نواة حركات عالمية كبرى، ظهرت آثارها في عصر الدولة الأيوبية وما بعدها.

مدارس جامع عمرو

فانتشرت المدارس بعد، وكانت هذه المدارس كمعاهد علمية، ومنها ما كان ملحقًا بالجامعة العمرية؛ فمنها المدرسة المجدية أنشأها الوزير مجد الدين أبو الأشبال في سنة (٦٢٤هـ)، وهو صاحب المدرسة البهنسية بدمشق المدرسة الصاحبية؛ للمالكي والشافعي أنشأها الصاحب تاج الدين ابن حنا، المدرسة الكمالية للحديث أنشأها كمال الدين السمنودي.

المدرسة التاجية للطب أنشأها تاج الدين السطحي، المدرسة البغدادية أنشأها الطبيب أبو الحسن علي البغدادي، المدرسة العينية للحديث والأدب أنشأها معين الدين الدهروطي، المدرسة العلائية للتصوف والقراءات أنشأها علاء الدين الضرير، المدرسة الزينية للتصوف أنشأها الصاحب زين الدين.

مدارس الجامعة الأزهرية

استطاع الفاطميون إبان تأسيسهم للقاهرة أن يجعلوا من الجامع الأزهر معهدًا علميًّا؛ كالجامعة العمرية والطولونية؛ فأنشأوا به قسمًا خاصًّا للتعليم ولسكنى الطلبة، ورصدوا له ميزانية من مال الدولة تصرف على مصالح التعليم.

بَيْدَ أن الإقبال على هذه الجامعة في بادئ نشأتها كان ضئيلاً لأسباب مبينة.

وإذا أردنا أن نتحدث عن الأزهر؛ كجامعة علمية ذات شأن كبير وخيرات ومبرات تدر على العالم والمتعلم في آنٍ واحد من أوقاف وحبوس كثيرة، فلا يمكننا أن نصل به إلى أكثر من أربعة قرون كاملة أي منذ القرن التاسع الهجري، كما أن مشيخة الأزهر الرسمية لم تبدأ فيه إلا منذ القرن العاشر.

ويرجع ذلك إلى اعتبارات ظاهرة وأسباب مبينة، سوف نفصلها في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وقد كان لهذه الجامعة الأزهرية ملحقات من مدارس؛ أشهرها المدرسة الطيبرسية، والأقبغاوية، والجوهرية، ومدرسة عثمان كتخدا القازدوغلي إلى غير ذلك.

مدارس تحفيظ القرآن والمدارس الأولية

أنشئت هذه المدارس في فجر الإسلام؛ إذ كان في كل مسجد من مساجد المسلمين الأولى منذ عصر النبوة إلى ما تلاه من عصور- مكاتبُ لتعليم الأطفال كتابَ الله ومبادئَ العربية.

فكان منها في المدينة ومكة والأندلس والشام والعراق ومجموعة ممالك الإســلام على الإطلاق، وكانت مصر بحكم مركزهــا العلمي قد وجهــت عناية أولي الأمــر فيها بهذه الكتاتيب إلى حد كبير، فبنوا لهــا أماكن خاصة زودوها بكل المعدات، وجعلوها إما ملحقة بالمســاجد التعليمية، وإما منفصلة عنها.

وقد عرض لنا التاريخ مجموعــة من ذلك، نذكر منها كُتَّابَ المدرســة الفاضلية، والمدرسة الظاهرية التي أنشأها الملك بيبرس الأول في سنة (٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م).

ثم كُتَّاب المدرسة القراســنقرية المنشأة سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، ثم كتاب القراســنقرية الأخرى بباب الوزير، وهو الذي يزعم جمهرة من المشتغلين بعلم الآثار أنه أول مكتب من نوعه، وهذا القول يدحضه ما تقدم.

ثم كتاب المدرســة الحجازية المنشأة ســنة (٧٦١هـ/ ١٣٥٩م)؛ إلى كتاتيب أخرى ســوف تذكر بأماكنها من هذا الكتاب.

وأجمل الكتاتيب المنفصلة عن المســاجد التعليمية، بمكتــب الأمير تاني بــك الأشرفي رئيس مجلس الأحكام، الذي أنشأه في سنة (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)، برسم أستاذه السلطان الملك الأشرف قايتباي بأول سويقة منعم.

وهو مثال لأجمل الكتاتيب التي أنشئت في هذا العصر، ثم يليــه كتاب الأمير خسرو باشــا حاكم مصر العام في العهد العثماني، الذي أنشأه في سنة (٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م)، بلصق المدرســة الصالحية بالقاهرة، إلى غير ذلك مما ســنذكره من مميزات هــذه الكتاتيب وتطوراتها الفنيــة في هذا الكتاب بحول الله تعالى.

مدارس النساء

شــاركت المرأة الرجل في كل ظاهرة من ظواهر الحياة، ولعلها في هــذه الظاهرة تظهــر بما تنم عليــه عواطفها الشريفــة وحنانها الطبيعي لخدمة الإنســانية العامة. فمن المدارس النســوية الشــهيرة بالقاهرة ومصر الإســلامية: مدرسة فاطمة بنت عفان؛ بالفسطاط للتصوف والحديث، مدرسة خوند عائشة اليونسية، مدرسة أم خوند فاطمة بنت قانباي العمري، مدرسة خوند فاطمة؛ بمسجد رشيد الدين البهائي، مدرســة خوند تتر الحجازية، مدرسة خوند فاطمة خاتون أم الملــك الأشرف خليل، مدرســة خوند بركة أم الســلطان الأشرف شعبان، مدرسة خوند طلبية الناصرية، مدرســتا حدق مســكة الناصرية، مدرســة خوند سمرا الأشرفية، مدرسة أم أنوك الناصرية، مدرسة السيدة تغريد أم المعز لدين الله الفاطمي، مدرسة مؤنسة خاتون القطبية، مدرسة خديجة بنت الظاهر، مدرسة خوند زينب الإينالية، مدرســة خوند مغل الظاهرية، مدرســة خديجة بنت عبد العظيم الدرهم ونصف، مدرســة صفية المرادية، مدرســة نســب المعزية؛ مدرسة أيدكين، مدرســة تذكار باي خاتون ابنة الملك الظاهر بالمنحر، مدرسة دولات السيفية، مدرسة علم البلقينية، مدرسة سلمى بنت العلاء التركماني، مدرسة دولات باي بدرب بطوط بسوق الغنم، مدرسة فاطمة بنت الخواص، مدرسة بريدة، مدرسة علم الآمرية .

مدارس المحافظات والأقاليم

الصوفيــة بالإســكندرية للحديث- القجماســية بالجزيرة- مشتركة، القجماســية أيضًا بالرمل- للصوفية، البدرية، الصدرية، السليمانية، الأخيرتان للمالكية والأولى

للصوفية والحديث، المنيرية للحديث والتفسير، مدرسة القاضي سند، للحقوق والفرائض، المدرسة السلفية للحديث، مدرسة أبي طالب للتصوف بكوم الديماس، المدرسة الواسطية للتصوف، الواسطية الأخرى للفقه الشافعي، العمرية الأحمدية، الجوهرية بطنطا، الثلاثة مشتركة البهية الوفائية للصوفية، المتبولية، البدرية، الفتحية، العمرية، بدمياط- مشتركة، العمرية، القوصية بإسنا، للحديث والفقه على مذهب مالك- الخضيرية، البدرية، مدرسة علي المصري بمنية ابن الخصيب، للصوفية والحديث والفقه، الطورينية، العمرية، ابن كتيلة بالمحلة للتصوف والفقه، الدهشورية ببنسويه «بني سويف» للحديث، السحيمية بسرسنا للقراءات، التقوية مدرستان للمالكية والشافعية بالفيوم، مدرسة محمد بن قايتباي للتصوف. وكان بقوص وإسنا «وأصفون- أسوان»، وأخميم وغيرها من مدن الوجه القبلي عدة مدارس للحديث والتفسير والقراءات والعربية وشئون أخرى[١] .

هذا إلى عدة مدارس أخرى يرى في ذكرها كبير فائدة الآن؛ وسنعود إليها في كتابنا هذا ذاكرين منها كل مدرسة بتاريخها وتطورها وما آل إليه أمرها حتى اليوم.

وقد أدرج الزناتي في كتاب كنز الجوهر في تاريخ الأزهر جدولاً، أبان فيه مجموعة المعاهد العلمية التي كانت تابعة للأزهر بالأقاليم منذ نصف قرن تقريبًا، وكانت مفرقة ما بين الوجه القبلي والبحري.

أما المدارس التابعة للأزهر اليوم فمنها بالقاهرة، الكليات الثلاث؛ الشريعة وأصول الدين واللغة العربية، ثم معهد القاهرة ومعاهد الإسكندرية، وأسيوط، وطنطا، والزقازيق، وقنا، وشبين الكوم، ودمياط، ودسوق.

وفيما ذكرناه عن المدارس الإسلامية وعلاقتها بالمساجد مجزأة، وقد أفردنا لهذا البحث رسالة خاصة مستقلة؛ وهذا منها.

ويحسن أن نشير إلى أن هذه المدارس التي ذكرناها هنا هي ليست من نوع ما تشرف عليه وزارة المعارف الآن، وإن كانت الغاية واحدة والمقصد متحدًا، وأقرب ما نصوره منها هي تلك المعاهد التابعة للأزهر اليوم.

المقصورة أو الروضة، والأصل في وجودها في المساجد

المقصورة هي عبارة عن بيت صغير يقام إلى جانب المحراب؛ لجلوس الإمام فيه، وهي التي عناها حضرة النبي ﷺ في قوله: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»، إشارة إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه الذي سنذكره قريبًا، ولهذا فقد سميت المقصورة في بادئ الأمر بالروضة، تبعًا لما سماها به حضرة النبي ﷺ، ثم أطلق عليها المقصورة بعد. واقتصرت فيها التسمية بالروضة على المقاصير ذات الأضرحة، كما يقال الروضة النبوية الشريفة، وروضة سيدنا الحسين، وروضة السيدة نفيسة، وروضة موسى الكاظم.. إلخ.

وأول مقصورة اتخذت لهذا الغرض هي مقصورة أو روضة حضرة النبي ﷺ الذي أمر باتخاذها، حينما سألته الصحابة أن يبنوا له دكانًا لجلوسه؛ تمييزًا له عنهم للقادمين والوافدين عليه.

(١) انظر: **تاريخ الوجه القبلي**، للحافظ شرف الدين الدمياطي، وللكمال الأدفوي.

وقد ذكرنا حديث هذه المقصورة فيما تقدم، وذكرنا ثمة أنهم بنوها لهم من طين، وأن موضعها كان ما بين المنبر وجدار بيت عائشة، وقد ظلت هذه المقصورة في المسجد النبوي إلى أيام عمر، فجلس فيها هو وأبو بكر، طوال مدتهما، فلما ولي عثمان جددها وأعاد بناءها باللبن، وفتح لها طاقات من جهتها الغربية.

فما برحت هذه المقصورة على هذه الصفة، إلى زمن عمر بن عبد العزيز، فلما بني المسجد النبوي وتناهى في زخرفته وتنميقه وتوسيعه، بنى هذه المقصورة من الساج، وهو نوع من الخشب الهندي المطعم، فبقيت هذه المقصورة بعد ذلك زمنًا طويلاً إلى أن احترق المسجد النبوي. وكان الخلفاء من الدولة العباسية وغيرها يتعاهدونها بالإصلاح والتجديد طوال هذه المدة.

فلما أعيد بناء المسجد النبوي بعد ذلك الحريق الذي أصابه، أنشئت المقصورة بنظام آخر جعلها تأخذ حيزًا كبيرًا من الرواق الشرقي للمسجد، ويدخل فيها المحراب والمنبر وسدة التبليغ، فكانت هذه المقصورة نموذجًا فيما بعد لمقاصير المساجد الإسلامية في الشرق.

أما في المغرب فقد ظلت المقاصير على صفتها الأولى، كما نرى في جامع عقبة بن نافع بالقيروان؛ فما زالت المقصورة به صغيرة بالنسبة لمقاصير المساجد الشرقية، وفي جانب المحراب بإزاء المنبر من جهة القبة.

واتبع الأمويون في بناء المقاصير الطريقة الأولى؛ فبنى معاوية مقصورة على هذا النظام، إلا أنه أحكم فيها وأبدع، وبنى مروان للمسجد النبوي مقصورة بولغ في وصفها لحد كبير، ويلاحظ أن مجموع ما صنع من هذه المقاصير كانت في بادئ الأمر مكشوفة، أي بدون سقف، إلا سقف المسجد، سواء في ذلك الكبيرة أو الصغيرة، ثم سقفت بعد ذلك، وربما رفع فوقها قبة.

أما العباسيون، أما العلويون، فقد كانت مساجدهم كلها ذات مقاصير، إلا أن المقاصير لم تكن لذلك الوقت عندهم تأخذ حيزًا كبيرًا كما قدمنا، لكنها تطورت بعد، وأخذت مكانتها سنة التدريج، وسرى ذلك في الشام والأندلس ومصر، وبغداد وكافة الممالك الإسلامية، وقد استعملت نوع المقاصير الأولى بعد للأضرحة التي تكون عادة بالمساجد، سواء كانت ملحقة به أو منفصلة، وهي تستعمل من مواد النحاس والفضة والذهب، والخشب المطعم في بعض الأحيان بمادة أخرى؛ كالسن أو الصدف أو الفضة.

هذه خلاصة ما يقال عن تاريخ إنشاء المقاصير أو الروضات في المساجد الإسلامية، وهو يدحض الرأي القائل بأن المقصورة بنيت لحفظ الإمام من الاغتيال، وأن عثمان بن عفان بناها لهذا الغرض، وأن معاوية أو عليًّا بناها كذلك، إذ محال أن تتطرق هذه الفكرة الخاطئة لهؤلاء الأفذاذ، وهم من العلم والمعرفة بالله تعالى في درجة لا يستهان بها.

ومهما يكن من شيء، فإنه ليس لدينا ما يؤيد هذه النظرية، وهذا يجعلنا في حل لتقرير هذه الحقيقة.

ويلوح أن ما ذكرته هنا عن المقصورة يصحح ما جاء في كتب السنة والحديث بشأنها، وفهمه بعض الكاتبين على العكس من ذلك.

كما أنه يبين الفرق البعيد بين مقصورة المساجد الإسلامية وحوض المعمودية الذي تسمية الرواية الإسلامية بالمقصورة، وهو خطأ فاحش؛ وكذلك بين المحراب والمذبح.

والمقصورة أو الروضة الشريفة الموجودة بالمسجد النبوي الآن المخصصة للضريح النبوي الشريف- هي من صنع مصر، أمر بصنعها الملك الأشرف قايتباي في سنة (٨٨٨هـ)، وقد انتهى العمل منها في شعبان هذه السنة فعرضها السلطان في أوله بحوش القصر واحتفل بها احتفالاً حضره لفيف من الأعيان وغيرهم، وكان زنة هذه المقصورة – على ما يقول ابن إياس – أربعمائة قنطار من الحديد. ولما تم صنعها والاحتفال بها حملت إلى المدينة على الجمال صحبة ركب المحمل، ثم ركبت على الضريح النبوي – على مشرفه أفضل الصلاة والسلام.

وكان رئيس البعثة العسكرية التي خصصها السلطان لإيصال هذه المقصورة هو الأمير شاد بك أمير آخور، وقد أرسل معه حوالي خمسين جنديًّا ومصحفًا كبيرًا، حمل على جمل بمفرده بخط أشهر خطاطي القرن التاسع «شاهين النوري».

وفي هذه السنة نفسها، أو التي تقدمتها على الأصح، أرسل السلطان المذكور من مصر مجموعة كبيرة من المشكاوات والشمعدانات لوضعها بالحجرة النبوية أمام المقصورة الشريفة وحولها، وأمر أن يكتب على كل قطعة منها ما نصه:

> **عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد سلطان الإسلام والمسلمين الأشرف أبو النصر قايتباي هذا ما أوقف على الحجرة النبوية مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي عز نصره بتاريخ سنة سبع وثمانين وثمانمائة في شهر رمضان المعظم قدره**

سدة التبليغ هي الآن عبارة عن سقيفة ليس فوقها بناء، تقام على أساطين أو دعامات؛ ترتكز على الأرض، وقد أمر رسول الله ﷺ باتخاذها في مؤخر المسجد النبوي؛ لصلاة النساء، كما ذكرنا ذلك آنفًا فبقيت كذلك حينًا من الدهر، ثم تطورت تطورًا آخر، جعل منها مكانًا لوقوف المبلغ والمؤذن في الصلوات الجامعة، عُرف بسدة التبليغ، وبعد أن كانت تبنى في مؤخر المسجد للغرض الذي أنشئت من أجله، صارت تبنى في مؤخر الرواق الشرقي في اتجاه المنبر أو بآخر المسجد من الجهة الغربية، كما في بعض المساجد التركية بالقاهرة، ومسجد المعيني بدمياط، وهو من القرن التاسع.

ثم تأنق فيها المهندسون الإسلاميون؛ فبنوها من الرخام أو من الحجر المزخرف؛ أو من الخشب المكفت.

وما زلنا نرى بعض المساجد الإسلامية حتى اليوم تستعملها لصلاة النساء؛ كجامع عبد اللطيف القبجاقي بالفهادين، وجامع يونس العدوي بالعدوية وغيرهما.

الرحبة

أول العهد بوجود هذه الرحاب في المساجد، يرجع إلى عهد النبوة، ثم إلى عصر عمر بن الخطاب، فإنه هو الذي أمر بإقامة رحبة في المسجد النبوي، وخصصها لمن يريد أن يروح عن نفسه بالكلام أو السمر أو إنشاد الشعر أو غير ذلك من المقيم في المسجد. أخرج مالك في الموطأ، أن عمر ابن الخطاب بنى رحبة في المسجد تسمى البطيحاء، وقال من يريد أن يلغط أو ينشد شعرًا أو يرفع صوته فليخرج إلى الرحبة.

وقد كانت هذه الرحبة التي أمر بها عمر أن تكون في المسجد لهذا الغرض- نواة لبناء رحاب أخرى من نوعها في المساجد الإسلامية المخصصة للدرس والتعليم؛ كالمدارس بقرطبة ومصر والشام والمغرب والأندلس وغيرها.

الظلة - المجنّبة

الظلــة أو المجنبة هو ذلك البناء الذي يحيط بصحون المســاجد من جوانبها الثلاث، أو بعبارة أصح هو ما نسميه الآن بالبلاط أو الرواق، وعرف في فجر الإســلام بالظلة، وبه سماه رسول الله ﷺ؛ لأنها تظل المصلى من وهج الشمس كما تكنــه من المطر، وقد أمر ﷺ ببنائه في المســجد، ثم عرف بالمجنبــة وبالبلاط وبالرواق، وهو جزء لا يتجزأ من المساجد، فلا تجد مسجدًا من المساجد الجامعة إلا وله هذه المجنبات.

الطاق

الطاق في المســاجد الإســلامية هو عبارة عن كوات تفتح في جــدران بلاطات المســجد للتهويــة والإضاءة، والمهندس الإســلامي لم يفته الإكثار منها في كل بلاط من المسجد؛ ولا سيما البلاط الشرقي مع وجود الصحن المتسع المكشوف؛ وذلك لأنه رأى عدم كفايته وحاجة الأروقة إلى منافذ يتسرب منها الهواء مباشرة إلى الأروقة، كما يتسرب إليها من الصحن، فإذا التقيا كانت الفائدة مزدوجة من وجوه شتى، وأمر رسول الله ﷺ أن يستكثر منها في مسجده للحد المطلوب، فأمر بها في كل بلاطات المسجد، وذلك بعد تعمير المسجد وتكامله كما ذكرنا آنفًا.

وقد تفنن المهندس الإســلامي في إظهار هذه الطاقات بمظاهــر خلابة؛ فأقامها على أســاطين، وجعل لها ســقوفًا وسماواتٍ وأحاطها بإطارات جميلة من الزجاج الملون، الذي لا يحجب الشمس ولا الهواء ولا النور عن المسجد.

وأجمل هذه الطاقات نراها في مساجد مصر الإسلامية؛ كما نرى المعجب المطرب منها في مساجد الإسلام بالمغرب والشام.

المراوح – المجامر

ولم تكن المساجد الإسلامية في الصدر الأول لتترك هملاً، بل كانــت كاملة المرافق من كل وجــه؛ فمن المرافق الهامة التي شــاع اســتعمالها في المســاجد في ذلك الوقت المبكر- (المراوح)، وتســميها الرواية الإســلامية (برحى الهواء)، وقد اســتعملت في زمن الرسول ﷺ لجلب الهواء في الأيام الشديدة الحر؛ ترويحًا للمصلين والجالسين بالمسجد، وكان لها قوم من خدم المســجد لا عمل لهم ســوى إدارتها بالمناوبة، وفي أيام عثمان شــاع استعمالها في سائر المساجد الإسلامية.

وإلى جانب هذه المراوح كان يوجد أيضًا المجامر، وهي المباخر لتبخير المســجد وتطهيره من الهواء الفاسد. أخرج ابن ماجه عن واثلة في حديث طويل، منه قوله ﷺ: «واتخذوا على أبوابها (أي المساجد) المطاهر، وجمروها في الجمع»، وفي حديث آخر «جمروا مساجدكم».

قد كان العامل المنوط به هذا العمل في صدر الإسلام يســمى بالمجمر، انظر طبقات الصحابــة ففيها تراجم من احترف هذه الحرفة من الصحابة في عصر حضرة النبي ﷺ؛ كعبد الله المجمر وغيره.

من هذا يثبت أن الشرع الإسلامي يريد من الناس المبالغة في تنظيف المساجد وتطهيرها وتوسيعها وإعلائها إلى حد كبير، لترتاح إليها النفوس وتطمئن لها القلوب، وذلك وفقًا لمراد الله تعالى في قوله تعالى، وكما تقرر الشريعة ذلك تقرر أيضًا أن يبالغ الإنسان في نظافته وتطييبه عند إرادته الذهاب إلى المسجد، فتتخذ كل الوسائل التي من شأنها أن يظهر بالمظهر اللائق في بيوت الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[1].

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بنظام كامل كافل، وقانون عام لوقاية المساجد من الروائح الكريهة والمناظر الرثة، وحظرت الداخل إليها من الكلام إلا عن ذكر الله، ومن اللغط والصياح والبيع والشراء ومن كل ما يشينها وينهك حرمتها.

لكن من الأسف نجد المساجد الآن لا يراعى فيها هذا النظام، كما نجد من تهاون الناس بها أنهم لا يبالون بهذه الظاهرة الصحية ولا يقيمون لها وزنًا، وهذا ما لا ينبغي السكوت عليه؛ إذ إنها كبيرة.

البحر – الروسم – الإزار – الطراز – الرنك – الشعار

هذه الأسماء في مرافق المسجد هي عبارة عن الأمكنة التي تودع بها المذكرات التاريخية لإنشاء المسجد أو الآيات القرآنية.

فإن كانت مستديرة وكانت الكتابة فيها بالبارز أو غيره سميت بالبحر، وقد اختص بهذا الاصطلاح أهل الأندلس والمغرب، ويسميه المشارقة – الرنك – أو الشعار.

وهو مأخوذ من شعار حضرة النبي ﷺ الذي كان على خاتمه الشريف وشعار الخلفاء الراشدين، وجمهرة آل بيت النبوة وغيرهم من علماء الإسلام وأمرائه وقادته وسادته، وقد جرت العادة بأن يختم بهذا الشعار على كل ما يملكه صاحبه من متاع وأثاث وعقار وغير ذلك.

وكان له في عصر النبوة ديوان خاص يقال له ديوان الخاتم، أو ديوان التوقيعات. وقد وجد هذا الديوان في كل الدول الإسلامية إلى يومنا هذا، ولم تكن التوقيعات في عصر النبوة بهذا الشعار تتعدى المكاتبات الرسمية؛ كالكتب والرسائل وأعمال السفارات النبوية وما شابه ذلك، فلما كان بعد هذا العصر تجاوز العمل به إلى الختم على أشياء أخرى غير الكتب والرسائل، فقد رأينا معاوية كان يسم به حتى خيله ودوابه.

هذا غاية ما يقال في الرنوك أو البحور كما يسميها الاصطلاح المغربي، وعلى ضوء هذه الرنوك اتخذ المماليك في مصر رنوكهم، بَيْدَ أنهم ميزوها بعلامات تدل عليها، وهي – غالبًا – رسومات لبعض الحيوانات أو النباتات أو غيرها.

أما الروسم فهو عبارة عن مربع من حجر أو رخام أو معدن، يكتب فيه إنشاء المسجد أو المكان المراد التعريف به أو اسم المتوفَّى ومنه شواهد القبور، ويطلق عليه بعضهم البلاطة؛ وهو اصطلاح أهل المغرب وأهل مصر فيما مضى، كما يسميه بعض المشارقة بالرخامة أو اللوح أو اللوحة.

والإزار: هو عبارة عن مستطيلات من الخشب يكتب عليها التعريف بالمسجد وبمنشئه، مع بعض الآيات القرآنية، و تستدار بأروقة المسجد أو بحوائطه.

(١) «سورة الأعراف»، الآية ٣١.

كما أن الطــراز هو ما يكون كذلــك إلا أن مادته تكون إما حجرية وإما رخامية بدل أن تكون خشــبية، ويغلب عليــه الكتابة بالحروف البــارزة، وهذا يختص في الوضع بصحون المساجد المكشوفة في الأغلب أو بالواجهات الرئيســية دائرًا أو مستطيلاً، وقد عرفه المهندس الإسلامي في مصر بالطــراز؛ خلافًا للآخرين مــن الأقطار الشرقية؛ فإنهم لا يعرفونه إلا بالاسم الأول.

الاصطلاحات الفنية

هذه أهم الاصطلاحات الفنية في فن العمارة الإسلامي، وثمة منها ما يسمونه بالقوس والعقد والبهو والفناء والبراح والقوصرة والزليج وهو التفصيص، والعمارة وهو التذهيب أو التفضيــض للســقف والماجل وهــو الصهريج في غير العربية، والأســطوانة أو العامود والقاشاني أو الفسيفساء وهو الفصة في العربيــة إلى اصطلاحات أخرى مبينة عند أهل الفن.

فضل بناء المساجد

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[1].

قال المفسرون: لا يعمر مساجد الله إلا من استجمع لصفات أربع؛ الإيمان بالله؛ أي الإقرار بوحدانيته تعالى، والتصديق باليوم الآخر، وإقامة الصلاة؛ أي الإقرار بوجوبها، وإيتاء الزكاة بأن يخرجها طيبة عن نفسه، ولم يخشَ إلا الله يخافه ويتقيه ولم يُؤْثِرْ على رضاه رضا سواه، فلا يبنى المسجد لأجل الرياء والسمعة، لأن يقال فلان بنى مسجدًا، بل يبنيه لمجرد طلب رضوانه تعالى، وأي رضوان أكبر ممن يقيم بيوتًا ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ . رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[2].

وروى البخاري في صحيحه مسندًا إلى عثمان بن عفان حينما كان يبني في مسجد الرسول ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجدًا بنى الله له مثله في الجنة».

هذه رواية البخاري وفي رواية الحاكم وغيره من بنى مسجد الله.. إلخ، وفي رواية أخرى عن ابن خزيمة ولو كمفحص قطاة أو أصغر؛ قال القسطلاني في شرح البخاري: من بنى؛ أي حقيقة أو مجاز، مسجدًا كبيرًا كان أو صغيرًا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة، وقال ابن الجوزي نقلاً عن بكير: ومن كتب اسمه على المسجد الذي يبنيه كان بعيدًا عن الإخلاص. وقوله في الحديث كمفحص أي كمقعد قطاة «نوع من الطير» تضع فيه بيضها وترقد عليه، كأنها تفحص

(١) «سورة التوبة»، الآية ١٨
(٢) «سورة النور»، الآيتان ٣٦، ٣٧.

عنه التراب أي تكشفه، وخص القطاة؛ لأنها لا تبيض على شجرة ولا على رأس جبل، بل تبيض على بسيط من الأرض دون سائر الطير، فيكون هذا الجزاء لمن بنى مسجدًا ولو بلغ في الصغر مقعد هذا الطائر، قال الطوخي في مؤلف له في بناء فضل المساجد: «ولا ريب أنه لا يكفي مقداره للصلاة فيه فهو محمول على المبالغة؛ لأن الشارع ﷺ يضرب المثل في الشيء بما لا يكاد يقع؛ كقوله: اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي- قال- أو هو على ظاهره بأن يزيد في المسجد قدرًا يحتاج إليه، تكون تلك الزيادة قدر معقل القطاة، أو يشترك جماعة في بناء المسجد فتقع حصة كل واحد منهم ذلك القدر، أو المراد بالمسجد موضع السجود وما يسع الجبهة، فأطلق عليه البناء مجازًا به، لكن الحمل على الحقيقة أولى، وقال: ويحتمل اختصاص القطاة بهذا؛ لأنها توصف بالصدق، فكأنه أشار بذلك إلى الإخلاص في بناء المسجد».

ولقد ذكر الله – سبحانه وتعالى – المساجد في كتابه الكريم بما يدل على تشريفها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾ [النور/ ٣٦]، وقال رسول الله ﷺ في حديث أخرجه ابن خزيمة في مسنده والإمام أحمد والبيهقي والترمذي والحاكم، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»، والمعنى أن يتعاهدها ببنائها وتعميرها وتجديد ما درس منها وتنظيفها، وعدم الكلام فيها إلا عن ذكر الله، وعدم البيع والشراء فيها، وعدم السؤال إلا بشروطه، ومراعاة الآداب الشرعية فيها بقدر المستطاع، ونبذ التقاليد والعادات التي لا يوجد لها مبرر في الدين، أو لا تكون وسيلة من الوسائل التي تدل على الإصلاح وتعين على الخير وما إلى ذلك.

المساجد في البيوت

في كتاب الله تعالى- قوله جل شأنه: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1].

هذه الآية الكريمة هي الأصل في وجود المساجد في البيوت لإقامة الصلاة فيها وإحياء الشعائر، وهو ما درج عليه المسلمون من فجر الإسلام إلى اليوم.

وقد أشار حضرة النبي ﷺ إلى هذه الظاهرة الطيبة في كثير من أحاديثه الكريمة، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أمر النبي ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأمر أن تنظف وتطيب.

أخرجه أحمد والترمذي وصححه، وعن عائشة، أن أبا بكر كان له بفناء داره مسجدٌ كان يصلي فيه ويقرأ القرآن.

وتصرح بعض الروايات أن أول شيء يبدأ به في بناء البيت هو المسجد، ومضى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على بناء المساجد في بيوتهم، وكان أحدهم إذا بنى مسجده في البيت أتى حضرة النبي ﷺ فيفتتحه له في جماعة.

وعلى هذا سار المسلمون في الصدر الأول من الإسلام أحقابًا طويلة، فتجد في مصر الإسلامية كل بيوت الصحابة ومن بعدهم لا تخلو من وجود المساجد الخاصة فيها، وقد كشفت حفريات الفسطاط عن بعض الدور التي يرجع تاريخ بنائها إلى العصر الطولوني أي في القرن الثالث الهجري، فعثر فيها على محاريب كانت تستعمل للمساجد الملحقة بها.

واحتفظت مصر بهذه الظاهرة إلى عصر المماليك، حتى لقد رأينا عددًا من المساجد الخاصة تحول إلى مساجد

(١) «سورة يونس»، الآية ٨٧.

عمومية، إما في حياة أصحابها وإما بعد موتهم؛ كمسجد مسرور بالقاهرة، ومسجد خشقدم الأحمدي، ومحمود كاتم السر الحلبي[١] إلى غير ذلك؛ وبين أنظارنا الآن عدة من البيوت ذات المساجد قديمة وحديثة؛ كبيت جمال الدين الذهبي بالقاهرة، وأقرب البيوت الحديثة ذات المساجد بيت الأمير محمد علي[٢]، ثم بيوت طائفة من الأعلام المعاصرين.

هل كانت المساجد كأندية سياسية ومؤسسات برلمانية في صدر الإسلام؟

ولم تكن المساجد في صدر الإسلام مقصورة على العبادة والصلاة فيها وإقامة الشعائر فحسب، بل كانت فوق ذلك كأندية سياسية ومؤسسات برلمانية ومجتمعات عامة يجتمع فيها المسلمون؛ للتشاور في المهمات، ولنصرة الحق، ودفع الظلم، وإقامة لواء العدل، ومنها كان ينتشر الأمن والسلام وتنبعث الطمأنينة في النفوس.

وكان حضرة النبي ﷺ إذا طرأت الحوادث يجمع الناس في المسجد، ثم يخطبهم مبينًا لهم ما عليهم من الواجبات إزاء تلك الطوارئ؛ وكان ذلك سبيله في مسائل الجهاد وأمور الفتح وغيرها. كان ﷺ يسلك هذا السبيل متى مست الحاجة إلى سلوكه، وينتهج هذا المنهج إذا دعت إليه الضرورة واقتدى به الخلفاء الراشدون بعده، فكانت المساجد لهم بمثابة الأندية السياسية يجمعون الناس فيها، ثم يخطبونهم في النوازل والأحداث وأمور الجهاد وشئون السياسة وحاجات العصر ومقتضيات الزمن، فكانت أهم الوصايا وأخطر النصائح وأصح الآراء وأنضج المشورات تلقى بالمساجد على لسان حضرة النبي ﷺ في مدة حياته. ثم على لسان الخلفاء الراشدين بعده. وبذلك كان المسجد بواسطته تصل الأخبار وتبسط الآراء وتنقل النصائح وتذاع الوصايا. فتمر أنباء المسلمين الواقفين أمام الحصون أو المنتصرين في الجهاد أو المحتاجين إلى المدد أو المحاطين بالعدو على مسامع إخوانهم بواسطة المساجد. وكذلك كأن الشأن في توطيد أسس الروابط والعلائق بين أنحاء البلاد الإسلامية، فما ثبتت دعائم الملة الإسلامية في صدر الإسلام إلا بمساعدة المساجد يوم عملت عملها في نقل أخبار المسلمين بعضهم إلى بعض، وإثارة همم ذوي النجدة منهم؛ لبذل معونته وتحريك الشعور العام وتثبيت أواصر الأخوة، وتمكين معاقد الوحدة، وإشعال نار الغيرة، وغرس منابت التراحم والتوادّ، والنصرة والإغاثة. ولولا المساجد لحالت البادية بين المسلمين ومركز الحكومة في المدينة المنورة، ولكن المساجد هي التي استطاعت على رغم القفار والصحاري والجبال - ربط المسلمين بعضهم ببعض، ثم ربط الجميع بمركز الحكم. وجعلت المسلمين في التوادّ والتراحم كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وفي هذا ما يفسر لك معنى حديث: «ورجل قلبه معلق بالمساجد».

وقد كان الإمام أو رئيس الحكومة في صدر الإسلام هو الخطيب يوم الجمعة، أو حينما يدعو داعٍ إلى الخطبة، وكان ينيب غيره من الولاة العلماء أمثاله في إذاعة الخطبة يوم الجمعة، أو حينما تنزل بالمسلمين نازلة، بَيْدَ أنه كان لا ينيب إلا من فيه الكفاية والأهلية والخبرة بحاجات الناس، وما تقتضيه مصالحهم وتقضي به سياسة الدولة؛ لأن الخطابة

(١) تم هدمه في توسعة شارع الخليج المصري «بورسعيد» في خمسينيات القرن العشرين.

(٢) هو قصر الأمير محمد علي توفيق بمنيل الروضة.

كانت عنده من أهم الوظائف؛ لخطورة مكانتها وقوة تأثيرها وحاجة الدولة إليها.

وحينمـــا أراد حضرة النبي ﷺ أن يقـــرر أهم المبادئ الإســـلامية ويعلنها عَمَدَ إلى الخطابة فخطب خطبته حجةَ الوداعِ المشهورة.

وهكذا كانت المســـاجد في صدر الإسلام مؤسسات برلمانية، وكانت قبلة المسلمين وكعبتهم يحجون إليها في كل نازلة وجائحة، ويتحصنون بها من كل عدو داهم، ويعقدون فيها كل اجتماع هام، ذلك إلى جانب إقامة الشعائر فيها.

وصفوة القول أن المساجد كانت في عز الإسلام مطمحَ الأنظـــارِ ومعقدَ الآمالِ ومحطَّ الرحـــالِ وأعز ما تصبو إليه النفوس الطامحة إلى المعالي.

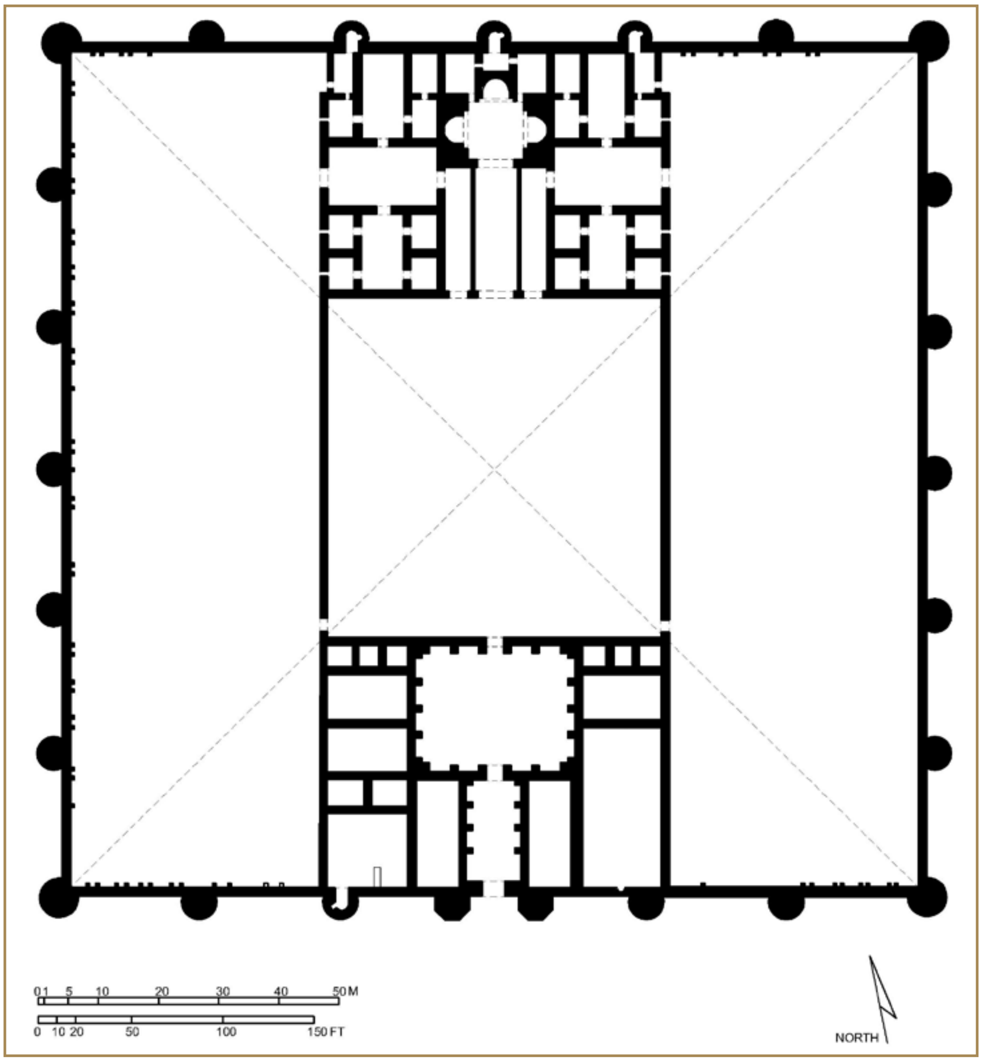
أما الآن فقد تركها النـــاس حتى من الصلاة إلا بقية من خـــير، وعما قريب ترحـــل، وتبقى بيـــوت الله خاوية، فلا حول ولا قوة إلا بالله.



مدخل قصر الحير الشرقي بالشام «عن كريسويل»



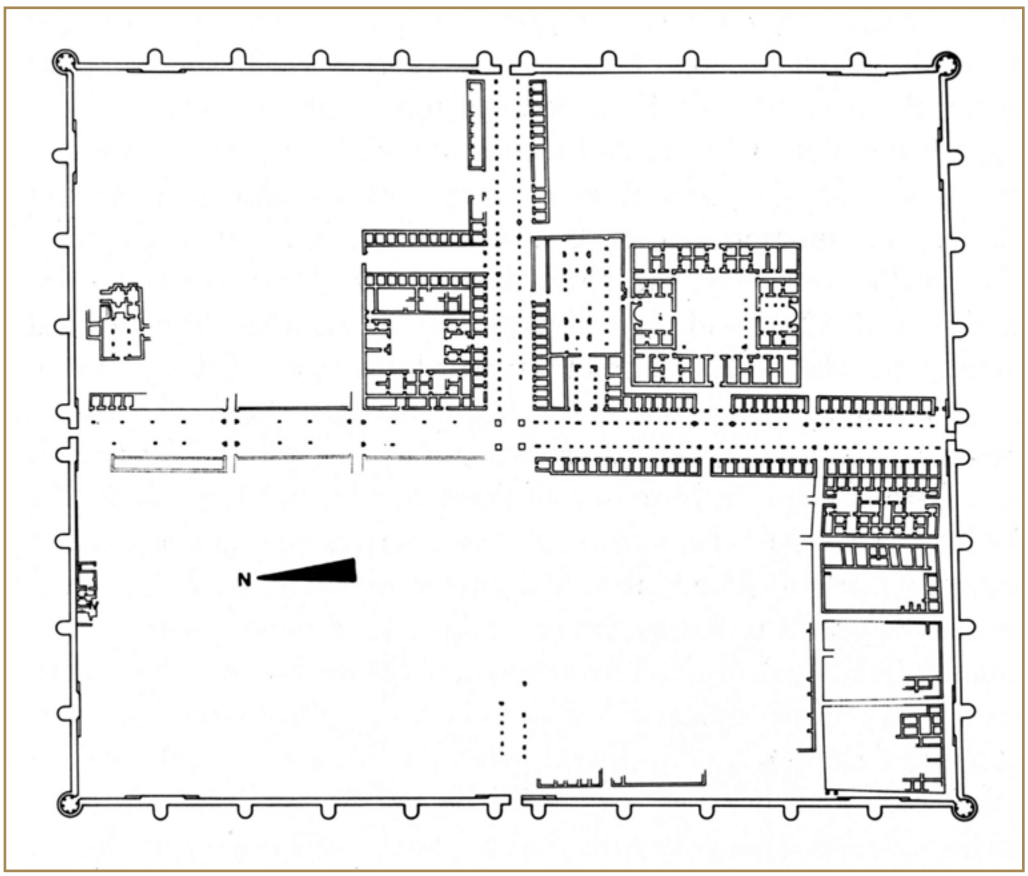
قصر عمرا بالشام



مسقط أفقي لقصر
المشتى«عن Archnet»



فسيفساء قصر خربة المفجر



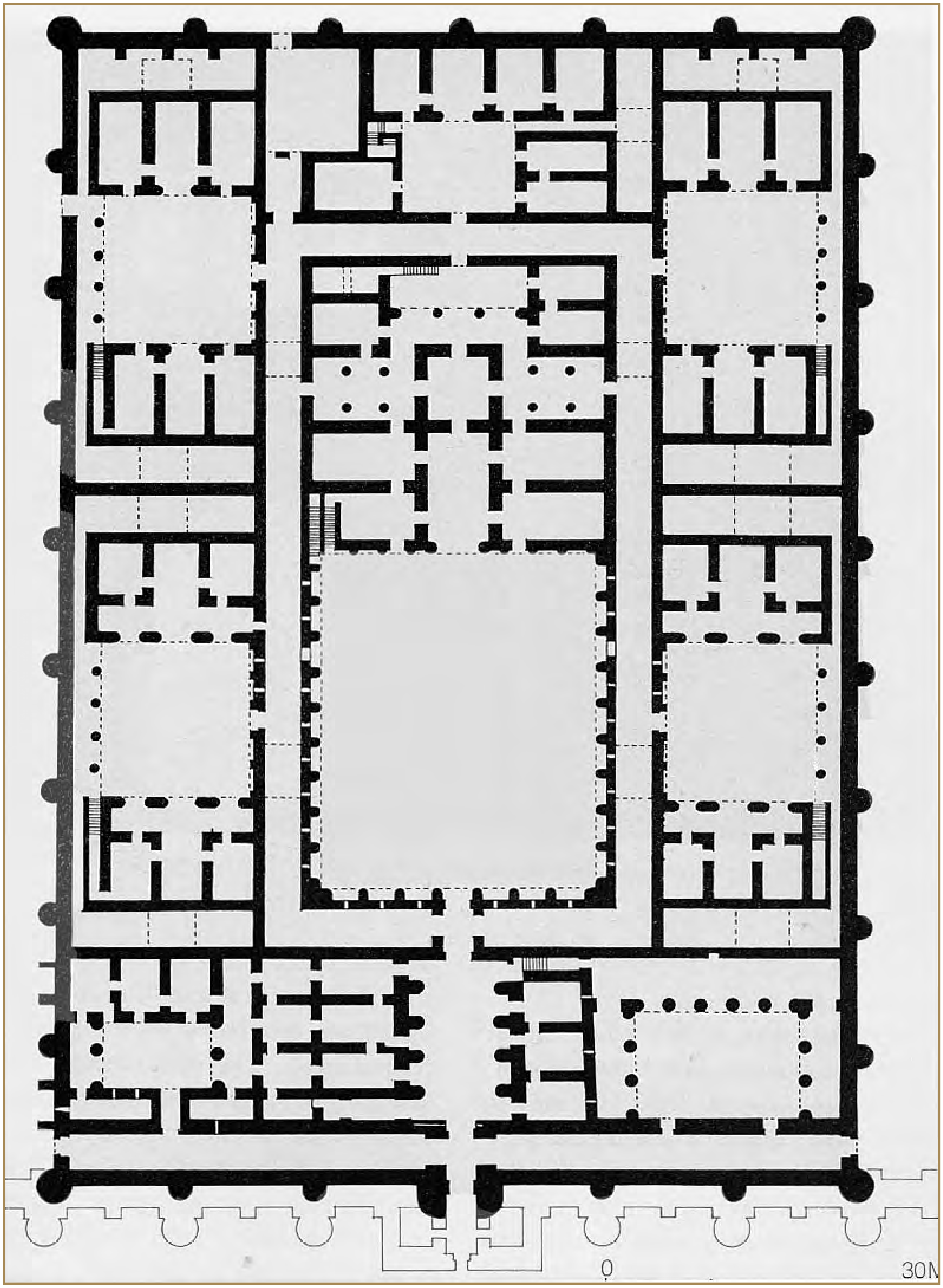
تخطيط قصر عنجر بلبنان



قصر الأخيضر بالعراق



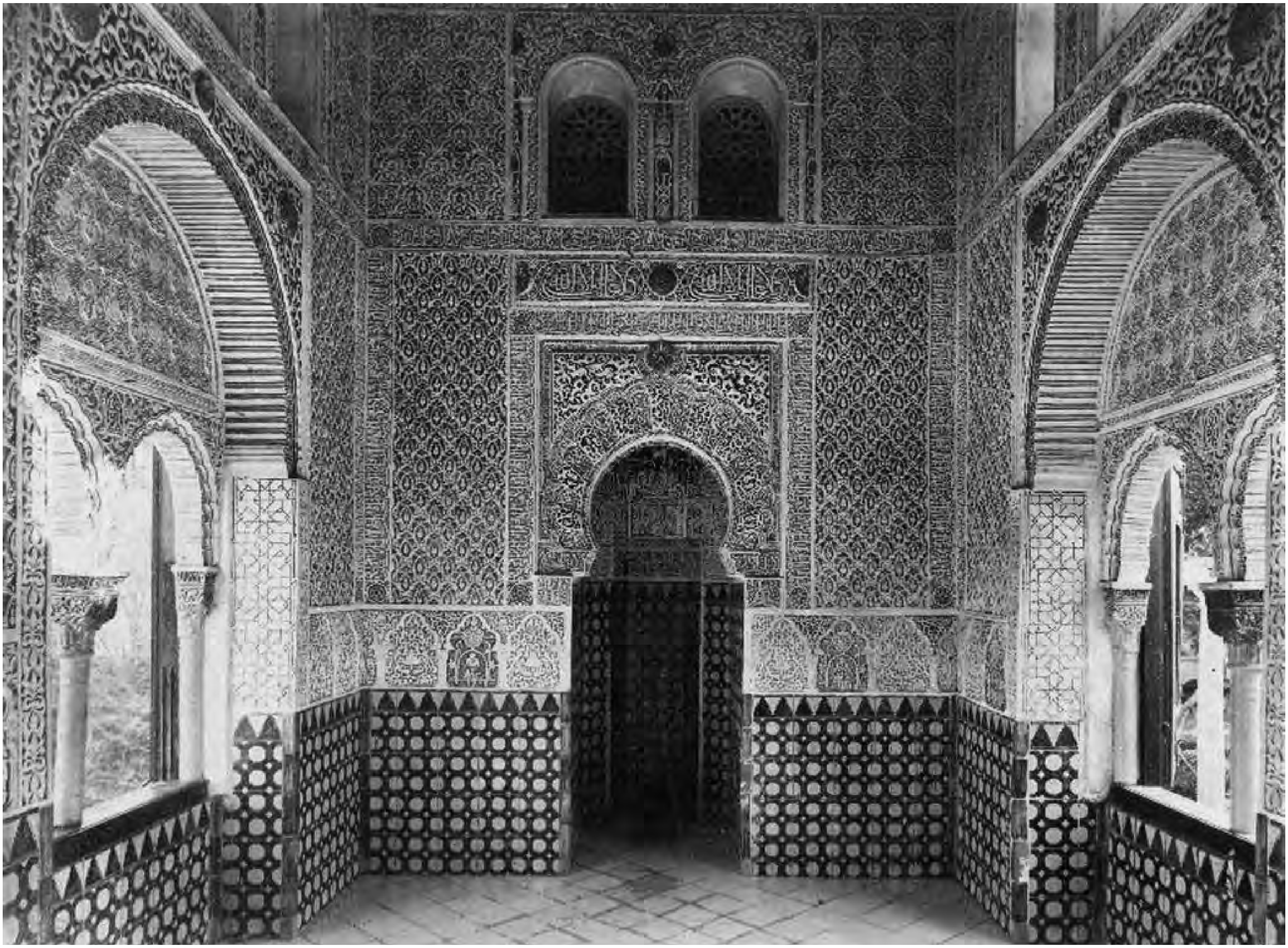
قصر الأخيضر بالعراق



مخطط قصر الأخيضر بالعراق «عن كريسويل»



مصلى البرطل - قصر الحمراء، من الخارج



مصلى البرطل – قصر الحمراء، من الداخل